

القسم الثالث

الأيام العَصِيْبَة

(القرنان الرابع عشر والخامس عشر)

obeikandi.com

الفصل الأول

وَعِي مَصاعِب أوروبا

بعد ان اختل نهائياً ، في الربع الاول من القرن الرابع عشر ، توازن العالم المسيحي السريع الزوال ، دخلت أوروبا الغربية مرحلة طويلة من الاضطرابات تمخضت بتحول عميق في الدول والانظمة الاجتماعية والاقتصادية ، والعقليات . وليست بلايا حرب المئة سنة ، والكوارث البشرية ، وتراجع العالم المسيحي امام الغزو العثماني ، واضطرابات الكنيسة الرومانية ، سوى المظاهر السلبية لهذه الولادة الشاقة . اجل لقد قوّت هذه المظاهر المنافسات بين القوى الملكية ؛ واستعجلت تحرر الدول حيال السلطة الكنسية ؛ وأظهرت عدم التناسب بين موارد الامراء المالية والعسكرية وبين وسائل ولايتهم على مجتمع زالت فيه زوالاً نهائياً روابط التعلق الشخصي والعقاري في النظام الاقطاعي . وبدا النظام الاجتماعي وكأنه يتفكك في شقاء الارياف ، وفي انقسامات الاوساط المدنية حيث انفجر حقد الوضعاء على اشراف متشبثين بامتيازاتهم المهنية والبلدية . فبرزت في كل مكان عواقب انكماش الاقتصاد المتهادي : نقص في الانتاج وتنافس صناعي وتدن في النقد المتداول وفوضى في الاسعار .

الا ان هذه الايام العصيبة لا تعني قط ، كما يميل الناس غالباً الى الاعتقاد ، نشوئاً كلياً في الافكار وفساداً في الاخلاق او نهكة في القوى الخلافة . فان الناس آنذاك ، وان عاشوا عيشة جائرة كانت نهاية الحياة فيها قريبة جداً من منبعها احياناً ، لم يبيتوا على اليأس قاعدة ولا على الدوار نظاماً . وان القرن الرابع عشر الحافل بالمضادات والمتناقضات - التي هي سمات الحياة بالذات - لا يستحق ، في حقل نتاج الفكر والفن ، الازدراء الذي درج الناس على قذفه به . فيجدر بنا في الدرجة الاولى ان نم بالابعاد الحقيقية والانسانية لهذه الحضارة التي أرادت ان تكون شاملة مع تشبها بتنوعها والتي حددت الدولة مجردة في اجوائها .

١ - أبعاد الحضارة الغربية

ما برحت رقعة العالم المسيحي الروماني ، منذ منتصف القرن الثالث عشر ، تنكش انكاشاً مطرداً . فقد أقصرت ، امام الامبراطورية اليونانية

الرقعة الجغرافية

المجددة ، وامام الاسلام ، على الجزر - قبرص ورودوس وكريت والارخبيل - وعلى بعض مقاطعات موريا والآتيك ، ولكنها قواعد انطلاق ضعيفة للنهوض بهجوم معاكس . ولم يكن لهذه المراكز المتقدمة ، القليلة السكان ، المتزعزعة بفعل غارات المغامرين الكاتالونيين والنافارين ، سوى قيمة عسكرية هزيلة ؛ ناهيك عن ان مشاغل جنوى والبندقية وبرشلونة التجارية كانت كافية للعيولة دون تنفيذ مشاريع الحملات الصليبية لو ان هذه المشاريع كانت أشد عزمًا ولم تقتصر على احلام تنفيذها البلاطات الاميرية دون ان يكون لها أي صدى في الجماهير . لذلك تضاءلت العلاقات بين الغرب والشرق في المتوسط الشرقي بعد ان عاث فيه القرصنة الاتراك فساداً . يضاف الى ذلك ان تدخل السلطة العثمانية قد ارغم الحضارة المسيحية على الانكفاء برأ ايضاً . فقبل نهاية القرن الرابع عشر تراجعت حدود العالم الغربي حتى شرقي كرواتيا وبنغاليا وبولونيا التي باتت كلها ، منذ ذاك الحين ، ولقرون عدة ، مواقع تهددها الاخطار امام الاسلام التركي . وهو تراجع لم يكن ليعوض عنه الفتح المسيحي للتوانيا عند الحدود الشمالية لهذا العالم .

ولم تعد الممالك الايبيرية كذلك من القوة بحيث تستطيع ، في القرن الرابع عشر ، مواصلة الانتصارات الصاعدة التي أتاحت لها الاستيلاء على كثير من المواقع الاسلامية في الغرب ؛ وسيقدر لامارة غرناطة ، في ارض شبه الجزيرة نفسها ، ان تدوم حتى اواخر القرن الخامس عشر . فقتالة غدت مسرحاً للنزاعات السلالية ولاضطرابات الحروب الاهلية التي تحالف اطراف النزاع فيها مع المسلمين احياناً ؛ وعندما حاولت شن الهجوم على هؤلاء اخفقت امام غرناطة في السنة ١٣١٩ ، وعلى بعض المسافة من « الجزيرة » *Algéiras* في السنة ١٣٤٣ . اجل لقد برهنت اراغون وحدها عن طاقة توسعية ؛ ولكنها ، بعد ان استعادت من العرب المغاربة القطاع الفالانسي والجزائري الذي يعود اليها ، اقتطعت لها امبراطورية متوسطية في العالم المسيحي نفسه : فالسيطرة الكاتالونية ، وهي آخر سيطرة اشتركت في التسابق البحري ، لم تتخط اليونان حيث أسست بعض الدوقيات السريعة الزوال ؛ ثم اضطرت ، منذ اوائل القرن الخامس عشر ، الى العودة الى حوض المتوسط الغربي : صقليا ، سردينيا ، كورسكا ، الباليار .

كانت النتيجة انتقال مركز ثقل العالم المسيحي نحو الغرب . ولعل روما نفسها اعتُبرت عاصمة لا تليق بأن تكون هذا المركز بسبب دنوها من الحدود الجديدة وتعرضها للأخطار . ويمكن القول ، من هذا القبيل ، ان اقامة البابوية في افينيون قد جاءت نتيجة اختيار حصيف ؛ فان افينيون ، وهي ارض بروفنسية ضمن اراضي الكنيسة اتيحت في السنة ١٣٤٨ من « جان » ملكة نابولي ، كانت عاصمة موافقة يستطيع المندوبون والقصاص وناقلو البريد والرسائل الانتقال منها الى اهم مدن الغرب في آجال متساوية تقريباً : باريس في خمسة او ستة ايام ، لندن في ثمانية او عشرة ايام ، بروج في ثمانية ايام ، البندقية في ثلاثة عشر او اربعة عشر يوماً ، فالنس في ثمانية ايام .

في هذا الغرب الذي تحددت آفاقه ازداد وعي التجار والعلماء والحكام لتقاربهم المتبادل .

وقد شجعتهم على ذلك بعض النجاحات التقنية والنزعات الفكرية الجديدة التي جعلت التحليل والدقة في المرتبة الاولى من مشاغل الفكر . فسوف يتيح قياس الزمن ، بفضل اكتشاف الساعة الدقاقة المتقنة ، حساب دوائر الطول ؛ كما ان تقدم رصد الاجرام قد شق الطريق امام تحديد دوائر العرض بزيد من الدقة . وبات بمكنة المسافرين ، بفضل قدرتهم على تعيين الاماكن بنقطة تحدد باحداثياتها وعلى وضع الخرائط ، اختصار المسافات وتوفير الوقت . وتحسنت كذلك وسائل النقل على الطرقات البرية والبحرية التي غدا الثقل على مشقاتها امراً اوفر سهولة . ومنذ أواخر القرن الثالث عشر أفضى دخول البواخر المرتفعة والسفن الحربية العاملة بين المتوسط والاطلسي والمانش وبحر الشمال ، ودخول القوارب الشراعية المسطحة والمراكب الطويلة الضيقة والخفيفة العاملة بين الاطلسي والبحر المتوسط ، والتعامل في بروج وعلى سواحل ملاحات بواتو مع بواخر الشحن الشمالية الثقيلة ، الى اعتماد هياكل متشابهة في بناء السفن . ويشير المؤرخ « فيلاني » ، في كلامه عن انتشار المراكب الطويلة الضيقة والخفيفة ، الى شمول استعمال الدفة المحورية . وقد أمنوا للسفينة استقرارها فوق المياه بزيادة عدد الصواري وازافة الشراع اللاتيني الى الشراع المربع ومضاعفة صفوف الجذافين في السفينة الحربية وتقوية الهيكل بتجهيز مقدمها بطرف قوي . ونهت « الانوار » الى مداخل المرافىء والشواطىء القريبة من الطرقات البحرية ، وعم استعمال البوصلة . فادت الطمأنينة والسرعة الى اختصار المسافات . ومع ذلك فان السفر من البندقية الى بروج كان يستغرق في القرن الرابع عشر ثلاثة اشهر ، بما فيها رسو السفن في بعض المرافىء للتمون ؛ اما نقل البريد برأ بين هاتين المدينتين فكان يستغرق خمسة عشر يوماً في الظروف العادية، بينما كان يكفيه في الظروف الطارئة اسبوع من الاحضار المتواصل .

اما سبب هذا التباين فهو ان الطريق البرية تفضل الطريق المائية، النهرية او البحرية، من حيث السرعة : اذ ان المسافة بين مراحلها لا تتعدى ٤٠ او ٥٠ كيلومتراً اجمالاً . واتسعت العربات الكبيرة والثقيلة ، التي تجرها الخيول المقرونة ، لأكثر من ستة عشر شخصاً . الا ان العربة ذات العجلة والحصان والبغل ما زالت ، في الأرجح ، الوسائل المفضلة لنقل التجار المبادرين والمسافرين الذين لا ينقلون أمتعة كثيرة ؛ وهي وحدها ما يوافق الطرق الصعبة ، ولا سيما معاير الالب التي أصبحت سالكة بفضل اعمال فنية جريئة فاختصرت المسافات بين المتوسط وبحر الشمال . وهكذا تحولت لمصلحة الرين الطريق التي كانت تؤدي في السابق الى اسواق شيبانيا الدورية ؛ فأنحدر المسافرون عن طريق البرينر والسبتيمر والسان - غوتار - الذي تأكيد قياس « جسره المزيد » في السنة ١٣٧٠ - و « السان برنار » الكبير والصغير ، نحو جنيف واسواق المانيا الجنوبية ؛ وأثارت اقامة البابوية على ضفاف الرون ، لمجاز « مون - سني » ، منافسة حركة نقل متزايدة في مجازي لارش و « مون - جنيفر » . ولذلك لم تقس المسافات ، بالنسبة لأناس يواجمون اخطار البحر والجبل ، بقياسات الطول المألوفة ، بل قدرت بالايام التي يستغرقها قطعها . وقد ذكر المنادي الحربي « برّي » ان « جيل له بوفيه » حدد ابعاد فرنسا في منتصف القرن

الخامس عشر كما يلي : « اثنان وعشرون يوماً طولاً وستة عشر يوماً عرضاً » . وهكذا فإن ابعاد الغرب في القرون الوسطى ما زالت تقاس بمقياس الانسان .

هل باستطاعتنا اقامة مقابلة بين انكفاء العالم الغربي وتوقف حركة الارتفاع عدد السكان في كثافة سكانه يا ترى ؟ ان معلوماتنا اولية ومتقطعة وغير متلاحمة : بعض الاحصاءات المدنية في الامبراطورية وايطاليا وهولندا ؛ وفي فرنسا ، احصاء عام للعائلات وسجلات تقديرية ومطرح ضرائب ؛ وفي انكلترا جدولان بالضرائب الشخصية . فهل يمثل مفهوم العائلة ثلاثة اشخاص او خمسة اشخاص ؟ ان السؤال موضوع جدل . ولكن المؤرخين يجمعون على النظر الى القرن الرابع عشر والشطر الاكبر من القرن الخامس عشر نظراً الى حقبة طويلة تتميز بهبوط كثافة السكان .

اجل لقد أدى ارتفاع هذه الكثافة في القرون السابقة الى اكتظاظ المناطق الخصبة بالسكان ، ولكن هذا الارتفاع يجب ان يقاس بالنسبة لوسائل الانتاج لا بأرقام مطلقة . وليس محتملاً ان تكون فرنسا قد بلغت الـ ١٥ مليون نسمة التي توصل اليها « ف. لوت » انطلاقاً من جدول العائلات العائد الى السنة ١٣٢٨ ، بينما ما زال سكان انكلترا في الوقت نفسه دون الاربعة ملايين . فان مساحات جدياء واسعة قد بقيت ، بسبب الافتقار الى التقدم التقني ، شبه خالية من السكان : كالجبال التي لا يعيش سكانها الا من تربية المواشي (الالب ، والبيرينييه ، وجبال السيرا الاسبانية ، والابنين ، والجبال القديمة في اوربوا الوسطى) ؛ والتلال البائرة او البراحات في اسكتلندا وبلاد الويلز ؛ ومستنقعات المانيا الشمالية التي لم ينجز صرف مياهها ؛ وسهول المتوسط الساحلية التي انتشرت فيها الملاريا . فلا عجب من ثم اذا تفاوت توزيع السكان في الارياض : ففي سهول زراعة الحنطة على مقربة من باريس ، في هضبة فرنسا ، عشرون عائلة تقريباً في الكيلومتر المربع ؛ بينما ليس في تلال « هوربوا » المحرجة سوى ثلث هذه النسبة ؛ وعاش كذلك نصف فلاحي انكلترا في بعض كونتيات الجنوب والشرق .

اضف الى ذلك ان هؤلاء السكان ، الذين تفاوت توزيعهم وبات عددهم مرتفعاً جداً بالنسبة لحالة الانتاج الغذائي ، قد عانوا الامرين ، في بعض المناطق ، من اضرار الحروب . فقد اقررت بفعل مثل هذه الاضرار بعض مناطق ولاية « بوردو » التي سيهاجر اليها الـ « غافاش » في وقت لاحق . كما ان نورمنديا التي بلغ عدد سكانها ، حوالي السنة ١٣٠٠ ، أكثر من مليون نسمة ونصف المليون ، كانت قد فقدت ، في السنة ١٤٥٠ ، ثلثي سكانها ، فأثار خراب أريافها مرثي « توما بازين » أسقف ليزيو . ولكن هذا النقص في السكان يلاحظ في كافة أنحاء اوربوا : ومرد ذلك الى ان نتائج سوء التغذية والانهبوط الاقتصادي كانت ، اخطر وأعم من كثر الجيوش الغازية وفرها .

وقد سبق انقلاب الوضع هذا ما يمكن اعتباره تمهيداً ومقدمة له . فجماعة السنة ١٣١٦ قد

أفنت عشر الاهالي في مدن صناعة الاجواخ في فلاندر الكثيفة السكان . كما ان الطاعون الاسود، الذي نقله من حيفا الى مسينا احد المراكب التجارية ، قد انتشر ، خلال اشهر معدودة ، حتى في انكلترا وسكندينايا . اما اضراره ، التي جسّمها المؤرخون المعاصرون ، كما نرجح ، فقد تجاوزت مع ذلك كل تصور ممكن ؛ فتراوحت نسبة الوفيات ، بحسب المناطق المتبتلة ، بين ثمن وثلاث مجموع السكان . وقد دون سجل خورنية جيغري في بورغونيا ، وهو الوثيقة الوحيدة من نوعها التي وصلت الينا من هذا العهد ، ٦٤٩ حادثة وفاة من اصل ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ نسمة ، في السنة ١٣٤٨ وحدها ؛ اضيف الى ذلك ان اديرة المقاطعات المتوسطة قد اقلقت عملياً ؛ فلم يبق في مونبلييه سوى سبعة اخوة من اصل ١٤٠ راهباً دومينيكانياً ؛ وفقدت توسكانا ثلاثة ارباع او اربعة اخماس سكان مدنها ، في الاربع .

كان الطاعون بلاء شاملاً تجدد تكراراً حتى أواخر القرن الرابع عشر ، ثم فتك بسكان بعض المناطق بصورة خاصة ، فطبع هبطة كثافة السكان بطابع خطير جداً . وان هذا النقص الكبير في عدد السكان - منتجين ومستهلكين - هو الظاهرة الاساسية التي تفسر تقهراً اقتصادياً طويل الامد . ومهما كان من امر التقديرات العددية ، فانها توحى لنا مع ذلك بمدى حركلة لا نظير لها من قبل ؛ فان عدد سكان انكلترا قد هبط ، على ما يبدو ، الى ما دون المليونين والنصف في السنة ١٣٧٧ . اضيف الى ذلك ان ندرة اليد العاملة آنذاك واقع أكيد في كافة أنحاء اوروبا ؛ في المدن المزدهرة كبرشلونة وفالنس واشبيلية ، كما في ارياف قشتالة التي لم تكن كثيفة السكان في يوم من الايام - وليس توقف حرب استعادة اسبانيا بغريب عن هذه الحاجة الى السواعد في الاربع ؛ وفي انكلترا كما في فرنسا حيث انكشفت مساحة الاراضي المستثمرة انكاشاً عظيماً ؛ وفي سهول ايطاليا الجنوبية ، وحتى في المانيا التي تأخر العمل في استعمارها الداخلي مع انها لم تصب بالطاعون بلسبة غيرها .

لم يكن الضرر الذي نزل بالمدن أخف منه في الارياف . الا ان المسدن ، في اعظم المناطق محضراً ، ما زالت آنذاك وضيفة جداً ؛ فربما قاربت فلورنسا الـ ٤٥٠٠٠ نسمة ، قبل الطاعون ؛ وربما بلغت ميلانو ضعف هذا العدد ؛ وتراوح عدد السكان في معظم المدن الداخلية - كودينا وسينا وبادوا مثلاً - بين ١٠٠٠٠ و ١٥٠٠٠ نسمة . اجل لم تعرف مدن اوروبا كلها نسبة النقص نفسها في عدد السكان . فالى جانب هويسكا في اراغون التي فقدت ٥٠٪ من سكانها ، ضمت برشونة ، في منتصف القرن الخامس عشر ، ٧٠٠٠ عائلة تقريباً ؛ وعلى بعض المسافة من ابي التي هبط سكانها من ١٠٠٠٠ الى ٥٠٠٠ نسمة ، بينما تجدد أكثر من نصف العائلات السقي تألفت منها ، لم يهبط سكان تولوز ، بفضل تقاطر الفلاحين الهاربين من حقولهم المتضررة ، بالنسبة نفسها ؛ فقد انخفض عددهم من ٣٠٠٠٠ حوالي السنة ١٣٣٥ الى اقل من ٢٠٠٠٠ حوالي السنة ١٤٥٠ . ويشاهد هذا التغيرات نفسه في مدن صناعة الجوخ في هولندا التي لم يسجل بعضها أي هبوط قط - فقد استقر عدد سكان غنت حوالي ٥٠٠٠٠ - في حال ان بعضها الآخر قد

انهار انهياراً بكل ما في الكلمة من معنى . وبلغت النظر أيضاً البطء الذي رافق ، على الطرق الجديدة للتجارية الدولية ، تقدم المدن في مثل هذا الطرف العسير : فجنييف لم تضم سوى ١٣٠٠ عائلة في السنة ١٤٠٤ ، وفي الوقت نفسه تقريباً ، كان سكان زوريخ دون عدهم عشية الطاعون ، وفي منتصف القرن الخامس عشر لم تبلغ نورمبرغ الـ ٢٠.٠٠٠ نسمة قط ، متجاوزة بذلك الى حد بعيد سكان فرنكفورت - على اليمين - بينما لم يبلغ سكان لوبك ، وهي محور تجارة المدن الهانسية ، سوى ٢٠.٠٠٠ او ٢٥.٠٠٠ نسمة . وماذا عسانا نقول عن انكلترا الريفية حيث لم تبلغ أية مدينة ، باستثناء لندن ، أكثر من ١٠.٠٠٠ نسمة في السنة ١٣٧٧ ؟

في كافة هذه المدن ، وحتى في باريس ، أكبر مدينة في أوروبا - ١٠٠.٠٠٠ وربما ١٥٠.٠٠٠ نسمة - برز الطابع النصف الريفي الذي لم تفقده كلياً في يوم من الأيام . فسواء أفضى الازدهار في القرن الثالث عشر الى ايها الناس بتقدم مستمر ، ام دفعهم الخوف مسن الحصار الى ابقاء مصادر التموين قريبة منهم ، فان المساكن المجموعة ، المتقاربة جداً في بعض الاماكن ، قد تباعدت ضمن اسوار انبسطت داخلها اراض واسعة غير مأهولة : حدائق وكروم ومراع وحقول . ويعود ذلك ، بعد ان ندرت اسباب العيش ، الى ان الناس لم يكونوا ليبتهوا اكثر النسل الا في الفترات التي تمعب الاوبئة ، اذ نلاحظ عند الباقين على قيد الحياة ارتفاعاً كبيراً في نسبة الزواج . وقد لاحظ « بيرين » ، في هولندا التي لم تصب شأن غيرها بالطاعون ، أصابتها بازمة الصناعة ، اقبال ابناء النبلاء على الحياة الكهنوتية والفلاحين على جموش المرتفعة ، بينما كرسست الفتيات بتوليتهم لله في سكون حدائق أديرة المدن . وراح الصناعيون الفنلنديون والبرابانيون يطلبون عملاً في مصانع سينتا وفلورنسا المعنقة الى امثالهم ، بينما اختار الكاتالونيون والنابوليون الهجافة والمغامرات .

ربما حدثت آنذاك مهاجرات هامة لم تستهدف ، كما سنرى ذلك في اواخر القرن الخامس عشر ، اعادة استئثار المناطق المتضررة ، بل كانت دلالة اختلاف توازن بين نسبة السكان والموارد . فقد انتقل السكان في هولندا من المدن التي عمتها البطالة الى الارياف ، وفي الاماكن الاخرى من الارياف التي سيطر عليها الخوف من مجندي الطروب الى المدن الملهمة . وحينما استطعنا استشفاف وضع السكان لاحظنا نسبة كبيرة من العازبين ونسبة ضعيفة من الاولاد في العائلات ، وفي الوقت نفسه انخفاضاً كبيراً في معدل الاعمار . واذا ما استندنا الى بعض الحسابات التي اجريت بالنسبة لانكلترا ، فان معدل الحياة ، الذي قدر به ٣٤ سنة حوالي السنة ١٣٠٠ ، قد هبط الى ١٧ سنة اهان انتشر الطاعون ، ثم ارتفع الى ٣٧ سنة في الربع الاول من القرن الخامس عشر . وقد بلغ من قصر الحياة آنذاك ان « كومين » نفسه قد نظر الى انسان في الثامنة والخمسين نظرتة الى انسان « مسن جداً » . ولم يعجب احد من ان يحكم الامير شارل فرنسا في السابعة عشرة من عمره ويموت في الثانية والاربعين متحلباً بحكمة الشيوخ ، في حال ان معاصره ادوارد الثالث ، الذي قضى في الخامسة والستين ، بدأ ابناء جلده ، في السنوات

الاحيرة من حياته ، وكأنه فضولي ينتمي الى جيل غير جيلهم . وقد اسهم اقتراب الموت بدوره في تضييق آفاق اوروبا التي سبق ورأينا انكماش حدودها .

ولادة الامم
اضمحلت في الوقت نفسه بعض الخطوط التي أعطت ، أثناء اشعاع الحضارة الفرنسية ، ظاهر الوحدة للعالم المسيحي . فان تعاضلهم بسلطة الملوك او الامراء ، بعد ان علم الناس كيف ينظرون الى ابعاد من الحدود التقليدية للسيادة أو لضواحي المدينة ، قد صلبت الاطارات القومية التي انكشئت داخلها آنذاك روابط الفئات الاجتماعية . اجل ليست ظروف الاحتكاك بين عمليات شعوب الغرب المتباينة ما اعوز الاجيال السابقة : مشاجرات الفرنسيين والاسبانيين على الطرقات المؤدية الى « سان - جاك » ؛ منافسات البحارة النورمنديين ، رعايا ملك فرنسا ، والبحارة الفاسكونيين رعايا ملك انكلترا ؛ تراحم الايطاليين والفرنسيين والكاتالونيين في اساكل البحر المتوسط الخاضعة للسيطرة العثمانية ؛ تصادم السلافيين والامان في سهول الشرق ، وتصادم الالمان والسكندنافيين في البحار الشمالية . ولكن التصادم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر قد ازداد شدة بازدياد وعي الشعوب لفرديتها تحت تأثير الحياة المشتركة في كنف أمير واحد وتأثير المصالح المشتركة وتشابه الاخلاق والمشاعر . وفي الوقت نفسه الذي تفاهت فيه المزاحمة الاقتصادية ، اخذت المنازعات الدينية والمنافسات السياسية وتعاير « الوطن » و « الامة » ترتدي ، في كافة اللغات ، طابعا حاداً جداً ، لأن كل شعب اخذ ينصرف الى تحديد نفسه ضد جيرانه في الدرجة الاولى .

نشأت الامة الانكليزية قبل غيرها بفضل قلة عددها وتلاحمها في جزيرتها . فقد تكون ، في القرن الثالث عشر ، ضد المطالب البابوية والتمسف الملكي ، شعور جماعي به « وحسدة المملكة » بلغ درجة كبرى من القوة في مناطق الحدود حيث اصطدم بالقومية السكتلندية او بتشبث سكان منطقة الويلز بعاداتهم الخاصة . واهتز سكان ما وراء المانش لكارثسة بالوكبورن (١٣١٤) ولمعاهدة نورمبتون المذلة ، وبغضوا السكتلنديين وسكان منطقة الويلز الذين دفعهم « مكر » الفرنسيين ضدهم ، فوحدهوا جهودهم وحددوا شعورهم القومي ، بينما نشأ في الامم الشعور نفسه عند الفرنسيين ؛ وكان العامل الحاسم في الحالين حقة مشتركاً واحداً كما يشهد بذلك مؤرخو المسكرين ؛ فراسار ، جان له بيل ، مق دسكوشي ، توما بازين ، او جون دي ريدنغ وتوما ولسنكهام . وقد تهاهى كل من المنادي الحربي الفرنسي والمنادي الحربي الانكليزي ، في « نقاش » شهير تميز بالحدة ، بتفوق وطنه وتفوق العادات السائدة فيه . واعترف « جيل له بوفيه » ، في « وصف البلدان » ، بما لكل من الشميين من ميزات وعادات ، ولكنه لم يخف تفضيله لأتمه الخاصة : « ان شعوب هذه المملكة اتاس بسطاء ولا يهرون الحرب شأن الآخرين » . وقبل مئة سنة ، أي منذ ولاية « جان له بون » اعتبر انصار سلالة « الفالوا » انهم وحدهم « الفرنسيون الصالحون » ، بينما مثلوا بالاعداء الانكليز كافة الجنود الغزاة الذين يجوبون البلاد ؛ وقد وجه بورجوازيو باريس اللوم « لاسطغان مرسيل » رئيس التجار وقتلوه (١٣٥٨) لأنه حالف عصابات هؤلاء

الجنود ، بينما صرخ قضاة «كاهور» البلديون ، الذين أرغمتهم معاهدة كاليه على الاعتراف بادوارد الثالث (١٣٦٠) : « واعذابه » ، ما اصعب التخلي عن السيد الطبيعي والقبول بسيد اجنبي مجبول ! « وهو هذا الشعور القومي نفسه ما اثار الحماس ، في عهد شارل السابع ، في قلوب اهالي « تورنيه » وليون المخلصين ، وبعث حرب الانصار في الارياف النورمندية ضد « الفرنسيين المنكرين » المواطنين على الاحتلال الانكليزي والمستفيدين منه .

وتصلبت بفعل الحركة نفسها ، في الطرف الثاني من اوروبا ، مقاومة البلدان السلافية للسيطرة الجرمانية او للفتح التركي . اجل ان الامبراطورية الصربية التي أسسها اسطفان دوسان ، والتي كانت ردة فعل استقلالية ضد الحماية البيزنطية ، قد زالت من الوجود بعد هزيمة كوسوفو الاولى (١٣٨٩) ، ولكن مآثر الجلبين البلقانيين قد عرفت فترات مجيدة بفضل هونيادي واسكندر بك : كانوا ، والحق يقال ، اعداء للاسلام ، ولكنهم لم يتشبهوا بصليبيي القرن الثاني عشر ، بل بالبولونيين ، الذين انتصروا على الفرسان التوتونيين في تاننبرغ (١٤١٠) او بالحاربين الهوسيين القساة الذين لم تنل منهم حملات عسكرية استمرت عشرين سنة ولا التدابير الامبراطورية القمعية الوحشية ، ولا التنازلات الكنسية التي أقرت في مجمع « بال » . وقد جاء في المرسوم التنظيمي لجامعة براغ الذي أعلن تحت تأشير « جان هوس » : « يجب ان يكون البوهيميون الأول في مملكة بوهيميا ، اسوة بالفرنسيين في مملكة فرنسا او الالمان في المانيا .

وعرفت مناطق اخرى ايضاً لم تبطل كغيرها بالحروب والاضطهادات ، يقظة التضامن القومي : فقد كتب محرر العقود اللياجي «مريكور» ، حوالي السنة ١٤٠٠ : « البلاد آخذة في الاتحاد ؛ وليست البلاد في نظره ارضاً فحسب ، بل مجموع الارادات التي تمثلها وتتحد للذود عن استقلالها ضد السيطرة البورغونية وعن لغتها ضد الثقافة الجرمانية ؛ ونحن هنا امام طليعة امة صغيرة ترمز اليها درجات الساحة العامة في لياج . وليست بأقل فائدة ، من هذا القبيل ، مع انها أكثر تأخراً في الزمن ، ولادة شعور قومي بورغوني في امارات هولندا التي وحدتها منذ السنة ١٣٨٤ ، السلالة المتفرعة عن سلالة الفالوا . وقد اضاف الحاح الضرورات السياسية والاقتصادية والنقدية والانضواء تحت سلطة امير واحد ، ووحدة المصالح ، الى النزعات المحلية الخاصة المتأصلة ، صوفية مشتركة لم يكن الأسياد ، في اجتماعات «الجزرة الذهبية» ، الوحيديين الذين أخذوا يجاذبونها . فحتى السنة ١٤٣٥ ، استطاع « فيليب له بون » ، الامير الفرنسي ، تحليل النفس باعتلاء عرش فرنسا الذي كان هو اول صاحب اخاذة فيها ؛ اما ابنه شارل « المتهور » فقد أعلن نفسه برتغالياً ، حتى لا يقول انكليزياً ، بسبب امه المنتسبة الى آل « لنكستر » . وحدث في الوقت نفسه ان كلمة « بورغونيون » التي أطلقت اساساً على انصار خاصوا انصاراً آخرين هم « الارميناك » اصبحت نقيضاً لكلمة « فرنسيون » . وقد اسف « شستلين » مؤرخ الحويليات نفسه للنزاع بين « هاتين الامتين المختلفتين » ، الفرنسيين والبورغونيين ؛ ولكن « اوليفيه دي لامارش » و « جان مولينيه » من بعده قد بغضاً فرنسا ، وعبر الهتاف « لتمش بورغونيا » ،

في آخر القرن الخامس عشر ، عن يقظة وعي شعب مختلف تماماً ، هو شعب هولندا ، الذي ما زال يتلمس طريقه .

اجل ان اوروبالم تشترك اشتراكاً متساوياً في هذه التطورات . فليس هناك من وعي قوي حقيقي في المانيا مثلاً ، على الرغم من انها حاولت جمع شتات أبنائها . كما ان الدول التي كانت تؤلف مملكتي آرل وبورغونيا القديمتين توصلت الى التخلص نهائياً من القبضة الامبراطورية ودخلت الواحدة تلو الاخرى في التبعية الفرنسية او في تبعية دوقية بورغونيا اسياد هولندا ، ولم تمد الهجمات الامبراطورية ، بعد منتصف القرن الرابع عشر ، لتهدج الانصار الالمان في ايطاليا الشمالية . ولم تبع « الامة » الالمانية حقيقتها ، بسبب حرمانها من عناصرها الغربية ، الا في ظروف نادرة ، كاحتكاكها بالقومية التشيكية مثلاً ، اذ لم تبرز في أماكن اخرى سوى نزعة عاطفية غامضة لا تترامى الا في التوريات الادبية .

اما في شبه الجزيرة الاسبانية فيجب علينا ان نتكلم عن القوميات في صيغة الجمع . فالكاتالونيون والارغونيون والقشتاليون والنافاريون يشعرون ويعلمون انهم يتميزون عن بعضهم ، كما تشهد على ذلك الحروب الاهلية الفظيعة التي قامت بينهم باستمرار . وسبق للبرتغاليين كذلك ، في معركة « الجوباروتا » (١٣٨٥) ، ان أعربوا عن تصميمهم على العيش منفصلين عن مملكة قشتالة .

على الرغم من تألق ايطاليا آنذاك في حقل الفنون والادب ، فانها قد تأخرت ، أكثر من أية دولة اخرى ، عن ركب القوى القومية هذا . وعبثاً نادى دانتي ، في مستهل القرن الرابع عشر ، بمثاله المسكوني المبني على الامبراطورية الشاملة والمسيحية الرومانية ، فكان الجواب الوحيد الذي تلقاه أنانية اقليمية غاية في القذارة . وما زال الوطن ، بعد مرور مئة سنة ، كما لم تضح في عاكسة « ارران فالان » ، سوى خليط من الافراد لا يجوز ان يكون أي منهم أعز عليه من نفسه : « فهل يجوز ان ارغم على الموت من اجل وطن هو حصيلة هؤلاء ؟ » وليس باستطاعتنا الاستشهاد ، امام هذه الانكارات ، الا ببيترارك الذي تمكن لعمري من تذوق عذوبة الحياة في ارض بروفنسا ، ولكنه شتر على افينيون ، منفاه في الديار « الاجنبية » وراء الجبال وعبر عن خلفه الشعبين في « دفاعه » ؛ او بكاترين دي سينتا ، التي تدين لها سلطة الكنيسة ، سواء لمصلحة العالم المسيحي اجمع ام بموجب رسالة قومية ، بالاقامة في روما والبقاء في ايد ايطالية ، « بين سكان روما او ايطاليا » .

اللغات القومية

ان قومية القرن الرابع عشر ، من حيث هي مجرد عاطفة تفاوت وعيها ولم تجش بعد الابعاد بدائية ، وجدت اوثق روابطها في وحدة لغة تعبر فيها ، بالكلمات نفسها ، طرائق الشعور والتفكير نفسها . فقد اهتدى شعب فرنسا ، في ازدهار النثر الذي بات وحده موافقاً آنذاك للأخبار المحلية والقصة والمسرح الشعبي وفي « يوميات »

فرواسار ، وتتمه « قصة الوردة » ، وملاحق « قصة الثعلب » ، وفي التحويرات الكثيرة التي أدخلت على قصص الفروسية والأسرار والمزحيات ، الى مميزات سببته التي عبر عنها بلسار واحد انكفأت امامه اللهجات الاقليمية . اجل ما زالت فرنسا الجنوبية « وطن لغة الاروك » ولكن لغة باريس ، التي ازداد استعمالها باطراد في وثائق الديوان الملكي وفي وضع صيغة القوانين اخذت ، حتى في هذا الوطن ، تنتشر يوماً بعد يوم ، اذ ان « اللغة الام » هي ما كان يعتمد عليه في الصكوك الرسمية . ولذلك فقد دهش النادي الحربي « بري » من ان سكان بريطانيا ، على الرغم من انهم رعايا الملك ، « يتكلمون لغة لا يفهمها احد غيرهم اذا لم يتعلمها » ، في حال ان سكان كونتية بورغونيا وسافوا يتكلمون اللغة الفرنسية « بسهولة » .

اما ايطاليا والمانيا ، الامتان اللتان تتناسان طريقهما ، لما زالتا متمسكتين بلغتيهما الخاصتين . فقد بلغت اللغة الايطالية كالماء دراكاً مع دانتي ، وعبرت اللغة الالمانية ، لا سيما في المدن التجارية ، عن التصنع الرمزي والعاظمي ، بينما اتاحت مؤلفات « اكهارت » للنثر ان يقدو التعبير عن الفكر الجرماني بالذات . الا ان الحركة القومية لم تجدها في لغة أية بلاد مرتكزاً اقوى منه في لغة يوهيميا . فقد انتصرت هنا اللغة التشيكية مع شارل الرابع الذي اوصى ، في رقيه الذهبي ، باستخدامها وتعليمها . وقد أثبتت انفسا جديرة بمعالجة اصعب المواضيع ، أي القانون والطب والفلسفة واللاهوت ، فكانت لغة المصلحين والوعاظ ومارجمي الثورة ، وقد هتف لوما دي ستيني قائلاً : « ليست محبة الرب للتشيكية اقل منها للاتينية » . وسين حاربها سيبيسمون دي لوكسمبورغ والبارونات الالمان ، استخدمت للتعبير عن الغضب والام القوميين ، على غرار الشمر الغنائي الصربي الذي يمجّد لعمار ، المغلوب على نفسه في كوسوفو ، « تاج صربيا الذهبي » .

ولست النهضة الادبية والاجتماعية التي حلقها اللغة الانكليزية اقل ما يميز هذا العهد . كانت الرطانة الانكلوسنورمندية لغة الادارة والمحاكم وأوساط الجورجوازيين الأثرياء والارستوقراطية ، فبلغ من بعدها عن هذه الطبقات الاجتماعية في اواخر القرن الرابع ، انه بات لزاماً فتح المدارس لتعليمها وان المناقشات ، رغمًا عن انف رجال القانون ، اصبحت تجري باللغة الانكليزية في البلاطات الملكية . وسين لجاسر هنري دي لنكستر على التقدم بمجبه باللغة الانكليزية ، امام مجلس السنة ١٣٩٩ ، لقالة ريشار الثاني الموالي للفرنسيين ، كان الشاعران « لنغلاند » و « شوسر » وناقلو الثورة نثرًا (بايعاز من ويكلييف) قد توفقوا منذ ربيع قرن الى التعبير الادبي عن رغباتهم الاجتماعية وانتقادهم للأخلاق ومثلهم الديني الاعلى .

كان مقدراً لهذه القومية الناشئة ان تنحدر شيئاً فشيئاً من هذا السلالات والكنائس الهرمية المستوى العاطفي والادبي الى المصالح السياسي بشكل تعلق بالسلالات القومية في وجه كل منافس اجنبي مها كان من امر حقوقه الوراثية . فقد هدّد السكتلنديون ، المشهورون بولايمم الراسخ لسلالة البروس ، باقالة ملكهم داوود ، حين فكر هذا

الآخر ، وهو في الاسر ، بالتخلي عن مملكته لادوارد الثالث ، « مفضلين تقديم جميع ممتلكاتهم فدية له » (١٣٦٢) . وفي السنة ١٣٢٨ فضل البارونات الفرنسيون فيليب له فالوا على ادوارد الثالث نفسه مع ان هذا الاخير حفيد فيليب له بيل من جهة امه ، لأن فيليب له فالوا من « مواليد المملكة » . وكان لتهمة موالاته فرنسا اثرها الكبير في تخلي الانكليز عن ريشار الثاني وحلمهم على القبول بابن عمه هنري دي لنكستر ملكاً عليهم ، كما ان البرتغاليين هملوا لابن زنى مفتصب ، هو جان الاول مؤسس سلالة الافيذ ١٣٨٥ ، رغبة منهم في الحيلولة دون اتحاد سلالي مع قشتالة . وحدث على نقيض ذلك ، كما نرى في اوربا الوسطى ، ان السلالات الاجنبية تجنست في وطنها الجديد : فقد خلف جان دي لوكسمبورغ الذي تزوج من آخر اميرة من اميرات البريمسليين في بوهيميا (١٣٠٦) ، ابنه شارل الرابع الذي سبق ورأينا ما فعله في سبيل الثقافة التشيكية ؛ وبعد ان استقرت سلالة المجو في هنغاريا بفضل مصاهراتها للاربابدين ، دان لها تاج القديس اسطفان بكثير من امجاده وحتى ببسط السيطرة على بولونيا التي عادت وأقامت فيها بعد ذلك سلالة سلافية جديدة بزواج الملكة هدفيج من الامير اللتواني لادسلاس جاجلون (١٣٨٢) . اما دوقية بورغونيا الذين ارسخوا اقدامهم في هولندا بسلسلة من محالفات المصاهرة فقد بلغ من قوة مركزهم انهم لم يتخلوا عنه قط ؛ ومنذ الجيل الثاني كان « جان سان بور » يتكلم لغة الفلاندر الشعبية ؛ وفي اواخر القرن الخامس عشر وقف الشعب يكليته في وجه مكسيميليان دي هسبورغ لأنه لم يكن « سيده الطبيعي » .

وبرزت في الغرب اخيراً ، خلال القرن الرابع عشر ، قوميات كنسية حقيقية . ألم يقل الكثير خطأ والقليل صواباً عن اقامة البابا في افينيون منذ ان اتمه بيطرارك « بتزويج البابوية من مملكة فرنسا » ؟ اذا كان البابوات « الليموسيون » قد قبلوا في غالب الاحيان بأخذ سياسة الملوك الكابيتيين والغالوا تحت حمايتهم ، فان مهمة دوق المجو الكبرى لدى غريغوريوس السادس في السنة ١٣٧٦ لم تستهدف سوى محاولة ابقائه على ضفاف الرون . ولكن ردة فعل الرأي العام الانكليزي ضد الفرنسيين المستأثرين بالكروسي الرسولي كانت اعنف منها ضد دسائس البابوية الايطالية . فقد كان حكم التشريع البرماني قاسياً جداً على منح الاجانب براءات التولية الرسولية وتهريب الموارد الكنسية وفوائد الحقوق الاميرية البابوية والاكثر من تقديم الدعاوى الى محكمة روما : فقد اضيف في السنة ١٣٦٥ الى انظمة « التولية » (١٣٥١) و « التحذير » (١٣٥٣) ، منع دفع الضريبة الاقطاعية التي توجبت على ملك انكلترا منذ خضوع « جان سان تير » للبابا انوشنتيوس الثالث . واذا كانت المملكة البحرية ، عند حدوث الانشقاق ، بين المالك الاول التي جمعت شمل الخاضعين لبابا روما ، فانما كان ذلك ، كما كتب آنذاك اسقف «غالواي» السكتلندي ، « انتقاماً من الفرنسيين ، لا محبة بالحقيقة » .

وتجدر الاشارة هنا ، على كل حال ، الى ان موقف الدول المختلفة من البابويين المتنافسين قد املته النفسية الاقليمية الخاصة عينها ، فكانت الحكومة الفرنسية ، بدافع من الجامعيين ورجال

الشرع الذين كانوا جدّ سعداء في مراقبة جمع المكاسب الكنسية والمحاكم الروحية ، اول من قام بالاختبار الفليكانى ، طيلة سنوات عدة ، بتحظيرها الخضوع للبابا (١٣٩٨) . اوليس في التوزيع غير المألوف ، بحسب القوميات ، الذي اخضع له اعضاء مجمع كونستانس المدّ للحكم على الهرطقة التشيكية - وهي كنيسة اخرى قومية تماماً - الدلالة كل الدلالة ايضاً على تطور مفهوم « الامة » بالذات ، المخصص حتى ذلك العهد بالفئات الجامعية ، وعلى الانظمة الدينية الجديدة ؟ فقد طالب الامراء - ويشهد على ذلك في فرنسا الامر الصادر عن سلطتي الملك والمجلس في السنة ١٤٣٩ - بأن يدبروا على هوامم شؤون الاكليروس في الامم المختلفة ، كلما استحال الاتفاق مع البابا على الاشتراك في هذه الادارة : وهكذا فان القومية اقامت الحواجز حتى في حقل الكتلركة المسكوني مبدئياً .

وقد قوتى هذه الحواجز التقسيم التدريجي الذي تناول الامارات الحدود البرية والبحرية والممالك . الا ان مفهوم الحدود ما زال ، بفعل الحاجة الى الحرايط الطوبوغرافية الدقيقة ، مجرد مجاز قانوني لأن الحدود غير معروفة تماماً حيث يجب ان تقوم في الارض . وقد رافق الرغبة في الحيلولة دون توضيح حدود الاراضي التابعة للقطاعات ، رغبة خفية في عدم تعيين حدود التوسعات المفيدة التي قد تحققها السلطة . لذلك غالباً ما كان الفاصل بين الممالك منطقة دفاعية : كالولايات المتاخمة للحدود الشرقية الخاضعة لرقابة الكتائب الجرمانية ، ومقاطعات الحدود بين سكتلندا والويلز حيث فصلت انكلترا عن سكتلندا ، كما يقول المنادي الحربي برّي ، « ثلاثة ايام من البلاد الصحراوية » ، ومقاطعات الحدود الاسبانية المتاخمة للعالم الاسلامي . وكان الهدف من الحصون التي شيدت عند تخوم الويلز وقشتالة والاكتين رسم الحدود رسماً تقريبياً حيث لم تؤلف الجبال او الاحراج « سياجاً » تقليدياً ملائماً : ونحن هنا امام معنى جديد لكلمة « الحدود » التي اقتبست اساساً من جبهة الحرب ، فعلت في اوائل القرن الرابع عشر بحل كلمة « ولاية متاخمة » . ويبدو ان الملك لويس العاشر قد استعمل كلمة « حدود » في السنة ١٣١٥ للمرة الاولى في كلامه عن الحاميات التي تدافع عن المملكة في منطقة الفلاندر ، ثم استعملت ، في وقت لاحق ، في الكلام عن الجبهة الاكيتينية ، وعن كل منطقة تتنازع حدودها الجيوش المتقابلة . فسمى المسؤولون حينذاك ، رغبة منهم في التدقيق والضبط ، الى تعيين الحدود بالصلبان والانصاب والاشجار ؛ وقد درجوا على تنظيم الاحتفالات الدورية احياء لهذه الذكرى ، كذلك الذي كان يقيمه اهالي باريوس ورونكال منذ السنة ١٣٧٥ ، ويتبادلون فيه التعهدات والجزى على نصب مجاز « ببيرسا - مارتين » الفاصل بين اوديتهم البيرينية . وقد كان لوضع علامات الحدود بين الامبراطورية وجيرانها ، وهو اعظم سهولة على جوانب الانهر - قربان الزورق في الرون يعرف ان الضفة اليمنى هي المملكة واليسرى هي الامبراطورية - دوره في تدريب لجان التحقيق ، وان رافقه الاخفاق احياناً ، على التبصر والفتانة ، كما لوحظ ذلك ، في السنة ١٣٥٥ - ١٣٥٦ ، في منطقة اللورين والبار والكوتلية . ولكن الحدود ، على صعوبة

رسمها في الاراضي ، سرجودة في الازمان ، وهذا هو الامم .

واعتربت حدوداً ايضاً ، في نظر اقوام القرن الرابع عشر ، التخوم البحرية ، مع ان الحرب لم تنقيد آنذاك بأي قانون وان الشعب الانكليزي ادعى الملك على المانش ، الذي اطلق عليه اسم « البحر البريطاني » في الخرائط الاولى . وامتد مفهوم البحر الاقليمي - الذي ظهر في المتوسط - الى الشواطىء الاطلسية ، ولا سيما شواطىء هولندا التي تمخضت آنذاك بمبادىء مخصصة في حقل الحق الدولي العام . وادعت البندقية الملك على البحر الادرياتيكي بكامله ، وجنوى على البحر الليغوري ؛ وقد قدر القانوني برتولو دي ساسوفراتو (١٣١٣ - ١٣٥٦) ب ١٠٠ ميل روماني - ١٥٠ كلم تقريباً - نطاق المياه الاقليمية المطلقة . ودرج التقليد السكندينياني في بحار الشمال على تحديد المياه الاقليمية بخط يقسمها مناصفة ؛ على انهم ، باستثناء الانكليز ، قد اعتبروا البحر نطاقاً حرّاً بصورة عامة . ومع ذلك فان الفلاندر ، حرصاً منها على الامن والسلامة ، اعلنت سيادتها المطلقة على طريدة من المياه الساحلية يبلغ عرضها ٢٠ كيلومتراً تقريباً وتوازي المسافة القصوى التي يمكن رؤيتها من الشاطىء ، وقد عرفت باسم « ستروم » الفلمنكي ؛ واعترف الفرنسيون والانكليز والمدن التجارية الهانسية ، مداورة ، بهذا الستروم بين السنة ١٣٧٠ والسنة ١٤١٤ . والدليل على هذا الحرص توسع صلاحيات المحاكم البحرية ، على غرار ما حدث في الدول المتوسطية والايبيرية ؛ وقد احدثت هذه المحاكم مبراسم في انكلترا (١٣٦٠) وفي فرنسا (١٣٧٣) وشملت صلاحياتها البحارة والملاحين على الشواطىء وفي المراكب وفي المياه الاقليمية .

غداً من ثم لزاماً ، لاجتياز هذه الحواجز الجديدة ، الحصول على اجازات مرور مؤقتة وقابلة الابطال . فأضيفت آنذاك الى الضرائب على عرض البضائع ومرورها دوائر الجمارك التي احدثت في كافة دول اوروبا . غير ان فكرة هذه الدوائر ارتسمت في انكلترا قبل نهاية القرن الثالث عشر « بالرسم القديم » الذي استوفى منذ السنة ١٢٧٥ على تصدير الاصواف والجلود ، والذي اضيف اليه الرسم على الاجواخ والخمور المستوردة « والرسم الصغير » على الصادرات المختلفة والرسم على المحولة الذي استوفى بنسبة المشحونات ، فبرهنت منذ ذاك الحين انها حاجز جمركي قدين بحماية المملكة البحرية . اما في فرنسا فان الضرائب على البضائع ، التي اضيفت الى الحقوق القديمة وتناولت معظم المواد الغذائية ، قد تنظمت منذ السنة ١٣٥٨ تحت اشراف « رئيس مرافىء المملكة ومعابرها » . واستجابت الرسوم الماثلة في هولندا واسبانيا والبرتغال للحاجات نفسها ، بينما عقد اتفاق في كولونيا ، في السنة ١٣٦٧ ، فرض في كافة المدن التجارية الهانسية رسماً نسبياً لقيمة البضائع المستوردة من المناطق الاخرى او المصدرة اليها .

فتنظمت بالتالي اقتصادات اقليمية هي امتداد لروح تقليد القرون الوسطى حول حماية الصناعة في المدن ، ولكن اطارها اُسمى قومياً آنذاك . وطالب المواطنون ، في وجه الاجنبي الذي حسدوه وارتابوا منه ، بالاستفادة من نظام يفضلهم عليه ، ان لم يكن من احتكار النشاطات التجارية . فالى السنة ١٣٨١ ، يعود المرسوم الاول حول الملاحة الذي أعلن حصر التجارة في

مراعى، ما وراء المانش بالسفن الانكليزية ، دون ان يستطيع الى ذلك سبيلاً على كل حال ؛ ولكن المصدرين الاجانب اضطروا الى دفع رسوم اضافية لأجل التخلص من محطة الاصواف التي تديرها شركة واسعة الامتيازات من التجار الانكليز ، والتي تنقلها من مكان الى آخر في البر الاوربي ، جاعلة منها وسيلة للضغط السياسي : وفي ذلك دليل على توسع استخدام السوق الممتازة . تأثر وضع الاجانب في كل مكان بهذه القومية الاقتصادية؛ فاذا هم تمتعوا ببعض الامتيازات فانهم في الغالب يحضون لحق الملك بوائنتهم؛ اضافة الى ذلك ان المجموعات القومية التي يؤلفونها تعيش بمعزل عن البلديين، على الرغم من تمتعها باستقلال داخلي: كالمستعمرات (Loges) البندقية والفلورنسية والكاتالونية في بلدان المتوسط ، والمستعمرات البرتغالية والقشتالية في هارفلور حيث منحها « فيليب دي فالوا » بعض الامتيازات ، وأسواق تجار المدن الهانسية في لندن وبروج ، ولا سيما « الملل » الاسبانية والابيطالية في هذه المدينة الاخيرة .

وجلي ان الاجنبي المنعزل ، الذي كان موضوع حذر ، لم يطمئن قط لمصيره . فقد تكررت بعد السنة ١٣٨٠ فورات غضب الشعب اللندني ضد تجار المدن الهانسية والصناعيين الفلمنكيين بتأثير من كرهه للأجانب . وكذلك فان المسلمين الذين خضعوا للنير المسيحي وعمولوا بتساهل في قشتالة واراغون ، قد عمولوا معاملة قاسية في ماجورك والبرتغال حيث بقيت للرق شوكته . كما ان اليهود ، وهم كثر في اسبانيا والمناطق الالمانية ، قد ذاقوا الامر حين اعتبرهم الشعب مسؤولين عن الكوارث الطبيعية ولا سيما عن الطاعون الاسود : فقد انفجرت الحركات المعادية للأحياء اليهودية في نورمبرغ وفرنكفورت (١٣٤٩) وبروكسيل (١٣٧٠) . وان التشريع العام ، المستوحى من الحق الروماني ، قد غدا حيالهم قاسياً جداً .

اضطر الاجنبي ، رغبة منه في التخلص من هذه المعاملة القاسية ، الى طلب التجنس ، الذي قد حصل عليه احياناً ؛ وفي هذا برهان جديد على ان الجنسية كانت سائرة في التطور نحو مفهوم قانوني معين . ففي فرنسا مثلاً ، سن مجلس باريس ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قانوناً يعلن ، باسم التضامن القومي ، حق السلطة المدنية في منع الزواج من الاجانب .

فقدان السلطة المنظمة
جاء مفهوم الأمة في الوقت العين ليساند مبدأ السيادة الروماني الذي حاول الملوك والامراء الغربيون ارساء سلطتهم عليه . وقصد ركنه تقليد قبول اعضاء المجلس الاعلى في فرنسا و « وحدة المملكة » في انكلترا ، ففدا هنا « السيادة والقوة » ، وهناك « السلطة المطلقة » التي تحدد كلها السلطة الملكية . واعترف الملك في اقسامه اليمين للرب ، وللرايا امام الرب ، بأنه ليس سوى حارس شعبه . وفي فرنسا نفسها ، كتب مؤلف « حلم الروضة » ، بإيعاز من شارل الخامس ، « ان الملك يقام ... بارادة الشعب وحكمه » . وبمجت الملوك في كل مكان عن نقطة يرتكزون اليها في الاستشارات القومية: جمعيات مجالس الطبقات ، البرلمانات ، المجامع ، ومجالس المندوبين ، التي يطلبون اليها ابرام او

رفض المعاهدات ويعتصمون بأرائها ، وكأننا آراء رجال القانون ، لتبرير اخطر القرارات في حقل السياسة الدولية . وباستطاعتنا القول ، في هذا الصدد ، ان الامة ، التي يرمز اليها اتفاق الامير وممثلي الجماعات ، كانت مدعوة طبعاً لان تصبح مرتكز السيادة بالذات . واذا ما نظرنا من هذه الزاوية الى الصراع الفرنسي الانكليزي الطويل ، الاقطاعي في ظواهره والسلافي في أسبابه المعلنة ، لرأينا انه ملكي وقومي معاً في جوهره ، لأنه استعجل انهيار الانظمة الاقطاعية وبرهن في الوقت نفسه عن انه محاولة لتحديد النطاق الاقليمي والبشري حيث يستطيع كل امير ، بل يتوجب عليه ، ممارسة السيادة كاملة .

لا ريب في ان فاعلية النزعات التي أدت الى تجزئة العالم المسيحي وحدات ملكية وقومية قد اختلفت باختلاف درجة تطور الدول والشعوب على الصعيد السياسي او الاجتماعي او الاقتصادي او الفكري . ولكنها قد صادفت في كل مكان حقلاً خصباً بفضل فقدان السلطة المنظمة ، منذ ان تزعزت القوى الثلاث التي تركز عليها الامل بتهدئة العالم الغربي وتنظيمه وادارته . فالامبراطورية قد تحطمت منذ انهيار فردريك الثاني ولم تستعد قط ، على الرغم من محاولات هنري الرابع و « لويس دي بافير » ، النفوذ والقوة اللذين كان من شأنها دعم مطالبتها بادارة الامراء . وبعد ان بات التاج يباع بالزاد العلني ، وبعد ان سلخت عنها الاقاليم الفرنسية والاطالية وجاورتها الممالك السلافية وعمتها الفوضى الداخلية ، لم تعد الامبراطورية سوى حلم لا طائل فيه .

اما البابوية ، التي غدت على الصعيد الزمني أعظم ملكية مركزية منظمة ، فلم ينازعها احد قط دورها العقائدي ورسالتها الاخلاقية . ولكن أنى لها بعث مزاعمها الشيوقراطية البالية حين تبدو ، في ملجأها الاينزيوني ، وكأنها خاضعة لرغبات ملك فرنسا ، وحين تمزقها ، ابان الانشقاق ، المصالح القومية المتباينة ؟ فلم تفقد دورها في ادارة السياسة فحسب ، بل اخذت تفقد دورها التحكيمي ايضاً : اذ ان محاولات الكثرة في سبيل التوفيق بين فرنسا وانكلترا قد ذهبت ادراج الرياح . فاضطرت من ثم ، في القرن الخامس عشر ، امام ازدياد مطالب الملوك ، الى ان تسلم للدول بشكل جديد من التسوية : اتفاق التخلي .

اما مملكة فرنسا ، وهي القوية بنفوذها التاريخي ، فقد بدت لرجال القانون المحيطين بفيليب له بيل ، قادرة على الحلول في ادارة سياسة العالم المسيحي محل الامبراطورية والبابوية اللتين برهنتا عن عجزهما . وقد سبق ورأينا كيف ان هذه الاحلام وغيرها لم تستند الا الى الذكرى . ففي الوقت الذي تكونت فيه ، كان نفوذ فرنسا ، مادياً وروحياً ، قد مال الى الهبوط . ثم جاءت الحرب واستعجلت هذا الهبوط فكذبت الوقائع اقوال العلماء النظريين .

لذلك فان مفكرين كثيرين اعتصموا بالصمت والانتظار بعد ان اعيام ادراك مصير تجزئة العالم المسيحي وخلافاته . وقد اتخذ موقف الانتظار هذا ، في النقاط الحساسة من النزاع الفرنسي الانكليزي ، أي في بريطانيا ومنطقة الباسك ، ولا سيما في هولندا ، شكل الحياد وحتى اسمه الجديد . وعجزت الممالك الاسبانية عن تحديد موقفها على الصعيد الديني ، فاعتصمت طيلة

سنوات ، بعد قيام الانشقاق ، في « اللامبالاة » ، وان شق عصا الطاعة ، الذي رغب فيه الجامعيون الباريسيون في اواخر القرن ، كان هو ايضاً ، من بعض الوجة ، ما اطلق عليه اسم « الطريق الوسط » في الانتظار التي زاد في مغزاها ان الذين نادوا بها هم انفسهم الذين تلبسوا بدقة قياساتهم وادعوا مع ذلك قول كل شيء ومعرفة كل شيء . فقابل توري السلطة الروحية عجز في السلطة الفكرية .

٢ - هبوط السلطة الروحية

ان القرن الرابع عشر ، الذي هو « قرن الانشقاقات » ، قد نقل مضاداته ومناقضاته الى صعيد الفكر نفسه . لقد املت تأليفات القرن السابق الجريئة ، بسبب سخافاتهما ، ولحسبها ، على الرغم من ذلك ، قد فتحت آفاقاً بلغ من بعدها ان الناس توغلو آنذاك في مسالكها المتباعدة . فسواء كانت الطريق فلسفة تبغني الاستقلال عن اللاهوت وتستطيع ان تذهب بسالكها بعيداً في مجال الاريثاوية ؛ او روحاً علمية تخطر ، بسلطة المنطق ، خطواتها الاولى نحو التدقيق والوضوح ؛ او ايماناً يتعثر احياناً امام الظلم الاجتماعي والكوارث المتعددة ، ويختلط غالباً بالهبة الالهية والخوف المفض من الموت ، ويفضي الى تفتح شتى انواع الصوفية وتجريك العواطف ؛ فاننا نلاحظ في كل مكان ، وحتى في قصر الحياة الذي يقرب بين الرذيلة والفضيلة ولا يميز بينها ، التباعدات نفسها والاختلاف عينه في السلوك والتصرف . ولم يكن من العسير فضح التباسات القرن وغباراته والفرطاته والمخرفاته ، ولم يتأخر مهذبو الاخلاق عن ذلك في حينه . بيد ان الجهد الفكري هذا في سبيل انماء المعارف الخاصة وانطلاقة الروح هذه نحو ايمان مسيحي حي قد كما اختاراً مخصاباً ودليلاً على حيوية في الحضارة الغربية يزيد من اهميتها ان سلطة البابوية الروحية وسلطة الجامعات الفكرية نفسها لم تتوصلا بعد ذلك الى مراقبتها ، كما لم تتمكننا ، بأولى حجة ، من توجيه مظاهرها المتعددة نحو هدف مشترك .

أقيمت الدعوى على بونيفاسيوس الثامن عشية يوبيل السنة

الانتقادات الموجبة الى البابوية

١٣٠٠ الذي بدا وكأنه أرغم جمهور المؤمنين المسيحيين على ان

ينحروا سجداً على اقدام الثيوقراطية الظاهرة ، وقد تابها مستشارو فيليب له بيل بكل عناد طوال عشر سنوات تقريباً ، فكانت الظاهرة الاولى مسن ظواهر مأساة الضمائر المسيحية امام زوال نفوذ أعلى سلطة مسؤولة عن مصائرهم . وقد شعر الملك الورع شارل الخامس نفسه ، في منتصف الطريق التي سلكها هذا الهبوط السريع ، بالحاجة الى استشهاد الله على حسن نيته في مناصرة البابا الاينميوني ؛ ولكن المؤمنين لم يلتظروا انهجار الانشقاق المعثر حتى يشكوا في خليفة بطرس .

بيننا اعلاه الاسباب البعيدة التي أدت الى هذا الهبوط : فان النصر المبين على الامبراطورية ،

بعد سقوط فرديريك الثاني ، قد ألقى على البابوية وحدها عبء ادارة شؤون العالم المسيحي الزمنية ؛ فكان هذا العبء اثقل من ان تنهض به وسائلها الراهنة ؛ واطخر تهديداً ايضاً من ان لا يثير ردود فعل السلطة العلمانية التي سارع قانونيو فيليب له بيل الى مساعدتها واهتدوا في الحق الروماني الى ما يؤيد مطالبة سيدهم بالامبراطورية الشاملة . انه انتقام السلطة الزمنية من السلطة الروحية ، وقد زاد من مخائلته انه تناول ، اول ما تناول ، شخص البابا بالذات ، الذي غالباً ما نعت « بالمسيح الدجال » ، وان حدثه لن تخف في المستقبل أياً كانت سيئات البابوات او حسناتهم .

وما انت خطيت الخطوة الأولى حتى تناول انتقاد التجني حاشية البابا وشخصه وحق سلطته . ولم يحظ بالاحترام العام ، بين بابوات القرن الرابع عشر جميعهم ، سوى اوربانوس الخامس وحده ، ذلك الرجل القديس الذي انحنى أمامه بترارك . اما الآخرون فان الأحكام التي اصدرها معاصروهم عليهم كثيراً ما تحولت الى التثرة ، كروايات فيلاني الحبيشة او احقاد بترارك الجائرة ، وكان هذا الأخير أول من يستفيد من الانعامات البابوية وأول من ينتقدها اذا منحت سواه . اجل لقد افسحت محبة اكليمينوس الخامس ويوحنا الثاني والعشرين المفرطة لاولاد اخوتهم وتبذيرات اكليمينوس السادس مجالاً للانتقادات الشرعية ، ولكن يوحنا الثاني والعشرين اتهم بالبخل تجنياً ايضاً . وكان بندكتوس الثاني عشر ، وهو السسترمي المتكشف والمرجع اللاهوتي الذي نعلم ، هدفاً بعد موته لحملات بترارك والامبراطوريين والمتسولين الذين حاول اصلاحهم . وان في عنف هذه الحملات ، التي لا توحى الثقة اجمالاً ، لدليلاً على وقاحة متزايدة : فالمرحوم عن « ماتيو فيسكونتي » ، الذي اهتم بمحاولة السيطرة على يوحنا الثاني والعشرين ، انه كان يصرح علناً ان « البابا بعيسد عن البابوية بعدي عن الالهوية » . والحقيقة ، على كل حال ، هي ان ترددات هذا البابا في موضوع مشاهدة الله في السماء وتموراته العقائدية ورجوعه عن اقواله قبيل اسلامه الروح لم تكن لتوحي ثقة عمياء في شخصه .

وقد بلغ السيل الربى عند حدوث الانشقاق حين تراشق الحرم باباوان متنافسان . فتبنت جامعة باريس ، دون ان تقصد ذلك ، جسارات ويكليف الذي حكم على الباباوين منذ السنة ١٣٨٣ ودعا المسيحيين للاتحاد ضدما ؛ وبلغ منها جوالي السنة ١٤٠٧ ، بعد فشل « طريق التخلي » ، ان نعمت بندكتوس الثالث عشر بـ « المنشق المتصلب » و « الهرطوقي الحقيقي » ، وغريغوريوس الثاني عشر بـ « مخرب الكنيسة » ؛ ثم اتهمها مجمع كنستانس بالري والسحر بعد ان اطلق على الاول تهكماً اسم *Benefictus* (المستغل) والثاني اسم *Errorius* (الضال) ؛ ولن يلبث آباء مجمع كنستانس ان يعزلوا يوحنا الثالث والعشرين لانه « خطر وغير نافع » .

يفلب على ظننا ان الاباحية الكلام هذه انما كانت في تقاليد الفرون الوسطى ؛ اذ ان بترارك الذي اصدر احكاماً سيئة المقصد على البابوات ، لم يكن قط ليقصد تحقير المركز البابوي لانه كان محافظاً ويعتبر البابوية مصدرراً لكل سلطة . بيد ان انتقاد الاشخاص لم يكن من جهة اخرى

ليعزز هذا المركز الذي ادركه ايضاً رشاش الانتقادات اللاذعة التي وجهت الى مجمع الكرادلة . فمركزية الحكومة البابوية المتعاطفة قد اولت الكرادلة في الواقع شأنًا عظيمًا . كانوا مستشاري البابا حين يدعوهم الى الاجتماع وقاموا الى جانب ذلك بالاشراف على شؤون الديوان والمحاكم والمجلس الرسولي والقضادات وادارة دول الكنيسة . وتمكن بعضهم احياناً من اتباع سياسة شخصية او اقله خدمة صوالح الأمير الذي يدينون له بارتقائهم الى مقام الكردينالية . وقد توفرت لامراء الكنيسة وسائل الحفاظ على مرتبتهم : حشم وخدم منزليون ، مساكن عظيمة ، ثياب رسمية ، نصيب من موارد الكنيسة العادية (الخدمات المشتركة) ، انعامات استثنائية خاصة ؛ موارد الرتب الكنسية الكثيرة على الرغم من مساعي يوحنا الثاني والعشرين للحد من سوء استعمالها . وامتألت مصالح الادارة البابوية بازلامهم الذين كان الكثيرون منهم يتخبطون في حالة عوز شديد ويبحثون عن رتب كنسية شاغرة . وتذكرنا لهجة الانتقادات ضد هذه التجاوزات بلهجة القديس برناردوس معنفاً احبار عصره . فبعد وصف بترارك لهؤلاء الرجال « الذين اغتمتهم قطعة جوخ حراء صغيرة تتألف منها قبعاتهم » ، اعتبر جرسون (Jerson) ان « الذين يجمعون ٢٠٠ وحتى ٣٠٠ رتبة كنسية » خليقون بان يعرضوا في معرض جنث المجرمين ، وتكلم نقولا دي كلامانج « في « دراسته عن خراب الكنيسة » عن « لجنة جشعهم القاتمة المرعبة » . واغتمت بريجيت السويدية ، وكاترين السينية من بذخهم اغتنام الروحيين الذين تعرضوا لاضطهاد مؤسف في الوقت نفسه الذي توسعت فيه الحقوق الاميرية البابوية . ولكن هل كانت لكرادلة افينيون ابناء اخوة ومحبيون اكثر من اسلافهم كرادلة روما يا ترى ؟ وما هي قيمة كلام المخادع الذي لم يثبت بالدليل قط لا بترارك ولا فيلاني ولا مارسيل البادواني . فقد استطاع جوفروا الباريسي بدوره ان يتهم الرومانين بانهم لا يحبون البابا الا لغاية مادية .

الا ان الشكوى الحقيقية لاعداء البابوية ، وهي ابعد هوى وبغياً ، فغير هذا كله : فالأخذ على بابوات افينيون انهم كانوا فرنسيين ، وملأوا مجمع الكرادلة بغاسكونيين وكرسينيين وليموسيين يضمون اخلصهم ؛ وانتظروا تهدئة دولتهم الايطالية حتى ينتقلوا الى بلاد لا تكرم الضيف ، وايدوا اخيراً وجهة نظر ملك فرنسا ضد انكترا على الصعيدين المالي والدبلوماسي . ومهما بلغ من غلو بعض هذه التهم ، فانها قد اسهمت مع ذلك ، في حينه ، في احراج مركز السلطة الروحية في معترك المنافسات السياسية واضعاف ثقة الناس بها اضعافاً ملحوظاً .

التنظريات الامبراطورية الجديدة
استفاد في الدرجة الاولى من هذا الضعف اصحاب النظريات السياسية وانصار الروح العلمانية والتواقون الى الحلم الامبراطوري الذين رغبوا في تحقيق انتقام الدولة من ادعاءات ثيوقراطية ما زالت متصلة حتى بعد ما الحق بها القانونيون الفرنسيون من استبدال واخزاء . ففي السنة ١٣١٢ بالذات ، اعلن اكليمنضوس الخامس في رسالته « العناية الراعية » ، كمال السلطة البابوية ، كما اعلن يوحنا الثاني والعشرون ، في السنة ١٣١٦ ، حقه في الرئاسة في السماء وعلى الارض . فوجد الكرسي الرسولي

آنذاك مرثة اخرى اشد مناوئيه عناداً في المطالبين بالتاج الامبراطوري الذين تمكنوا من ابقاء ايطاليا تحت رحمتهم . اجل قضى الموت على طموح هنري السابع عشية تنويجه في روما (١٣١٣) ، ولكن لويس دي بافيير قد توفى الى حمل التاج ، رغم انف البابا ، في المدينة الازلية ، في السنة ١٣٢٨ . انه لنجاح سريع الزوال في الحقيقة ، ونجاح ظاهري اكثر منه واقعي : ذان كردينا لا واحداً لم يتخل عن يوحنا الثاني والعشرين ؛ ولم ينظر احد نظرة جدية الى البابا المزيف « بيير دي كوربارا » وادارته الوهمية ، فاضطر الدخيل بسرعة الى الخضوع وانهى ايامه في قصر افينيون حيث فرضت عليه اقامة هنيئة مغمورة . ولم تحضر الجماهير البيزية تمثيلية اذلال الشخص الحشوي الذي يمثل يوحنا الثاني والعشرين الا مكرهه وبناء على امر امبراطوري . اما الامبراطور فقد اضطر الى الهرب من ميلانو تخلصاً من سخرية الحفراء . ولكن اذا اثبتت هذه الهجمات الامبراطورية عدم جدواها ، فان الصراع المرير الذي اوجده بين الامبراطورية والبابوية قد اتاح للروح العلمانية التي سيرت اصحاب النظريات ان تطلع بحسرات لم تخاطر على بال بشر من قبل .

فعوالى السنة ١٣٠٨ ، لم يجترئ السترسي المجلبرت دادمون ، في نقاش قريب العهد ، على تميين من تعود اليه السلطة الواحدة الضرورية للعالم المسيحي . وبعد مرور خمس سنوات ، وبوحي من بعض نظريات ابن رشد في الارجح ، اشاد دانتي بدوره بـ « الشمسين » المتساويتين بالتطابق . اجل لقد كان من المتادين بالوحدة المسيحية ولكنه انبأ بانفصال محتوم بين السلطة العلمانية والسلطة الدينية ، فقوض من حيث لا يقصد احد الاسس التقليدية لهذه الأخيرة ، برغبته في الدفاع عن قبض الجسم السري التي لما تخط بعد : وان دحضه الجدلي لـ « هبة قسطنطين » قد مهد الطريق ، قبل قرن كامل ، لانتقاد لوران فالو . وألف ماروسيل الياوواني ، أحد انصار لويس دي بافيير ، في السنة ١٣٢٤ ، كتاب « نصير السلام » الذي اعلن تفوق الدولة التي يعود اليها وحدها أمر الاشراف على المصير الزمني للجنس البشري . فليست من ثم سلطة البابا الزمنية ، والبابا مجرد معتمد للجمع او للامبراطور ، سوى حصيلة سلسلة من الاغتصابات ؛ وليس بالتالي للسلطة الكنسية من وجود الا في الدولة وبواسطة الدولة : هذه هي النتائج القصوى التي استخلصها مارسيل من مفهوم الخير العام في فلسفة ارسطو . اضع الى ذلك ان مصدر السلطة الدينية ، الذي هو جمهور المؤمنين ، علمانيين وكهنة ، قد جعل من نظام المراتب امراً نافلاً ؛ وان الكهنة ، المتساوين جميعهم ، يرشدون رعاياهم الى خلاصهم بانوار الوحي دون غيرها . فلا عجب من ثم اذا ما حيا مشايخ « الانجيل الازلي » ، من روهين واخوة صفار ، في لويس دي بافيير ، المنتقم للحكم على ميشال سيزينا ، الذي يحسد الفقر الفرنسي الملمزم ؛ واذا ما اقدم سكان روما على المنادة بالامبراطور في الكابيتول . وهكذا فان القحمة الامبراطورية ، التي هتف لها اليواكيميون ، قد تلونت بالذكريات الماضية والابتغاءات القومية ايضاً .

لهذه النزعات نفسها استجابات ، بعد مرور عشرين سنة ، مفاخرة « كولا دي رينزو »

الغربية في روما : تولى السلطة يوم أحد العنصرة من السنة ١٣٤٧ ؛ استحيا رمزي في بيت
 الهاد القسطنطيني في اللاتران ، عقبه تسليم الاسلحة في أول آب المصادف ذكرى حمل اوكتافوس
 للقب اوغسطس ؛ بعد مرور اسبوعين ، حمل المهامي عن حقوق الشعب ستة تيجان كمقدمة
 لتسلم السلطة الامبراطورية . فحدث آنذاك هذا التناقض الغريب : روما امبراطورية بدون
 امبراطور وبابوية بدون بابا ؛ وكان على شعب روما وعلى المدن المتحالفة معه ان تستعيد السيطرة
 على العالم وحق منح الشارات الامبراطورية . اجل كانت المغامرة قصيرة الامد وانتهت بشكل
 عجز ومضحك معاً . ولكن في مجرد حدوثها لمفزي بعيد الدلالة على عجز الكرسي الرسولي
 عن ادارة شؤون العالم المسيحي الزمنية .

ففي منتصف القرن الرابع عشر هذا لم يعد تعبيراً « الشعب الروماني » و « الامبراطورية »
 ليشملا كافة الشعب المسيحي ولا كافة العالم المسيحي . اطلق التعبير الاول آنذاك على سكان
 مدينة روما دون غيرهم ، كما اطلق التعبير الثاني على المملكة الجرمانية دون غيرها . ولم تكن
 مطالبات لويس دي بافوير الشاملة لتخضع بلاط افينيون : فقد درج احد الكرادلة على ان يقول
 للبابا : « ايها الأب الأقدس ، احذر الغضبة التوتونية » . والشئ الوحيد المهم في نظر البافيري
 كان مملكته الجرمانية وسيطرة عائلته على الامراء الألمان ، وهو قد اكره على الدخول في صراع
 لا يخرج منه ، لان التاج الامبراطوري كان ضرورياً لتحقيق ما يصبو اليه . وأدرك خلفه شارل
 الرابع ان تنويجه في روما (١٣٥٥) احتفال لا اهمية له ؛ وحين حصرت « البراءة الذهبية » ،
 في السنة ١٣٥٦ ، حتى انتخاب الامبراطور بسبعة ناخبين من الألمان ، لم يدهش أحد من اغفال
 ادعاءات البلاط الروماني ، لان تحرر الامبراطورية من الوصاية البابوية كان أمراً مفروغاً منه .

وبينما كانت الامبراطورية تحقق هذا التحرر ، وروابط التبعية الاقطاعية
 الكنائس القومية
 بين الكرسي الرسولي والتيجان الخاضعة له تسترخي أو تنحل ،
 لم تعد المباديات والآراء البابوية لتلقى اذناً صاغية لدى الحكومات الا بمقدار تأمين صوالح هذه
 الأخيرة . لقد كثر الكلام ، طوال القرن الرابع عشر ، عن حملة صليبية شاملة ، ولكن الصوالح
 الخاصة جعلت الامراء يتصامون في كل مكان حيال نداءات الدبلوماسية الافينيونية في سبيل
 التهدئة : فلم تتحقق بالتالي وحدة الممالك ضد القائلين بغير الدين المسيحي . وبرزت بجدة آنذاك
 بسبب تعاضم المركزية في حكومة الكنيسة ، مشكلة تقليدية هي مشكلة العلائق بين
 السلطتين . فقد تعارض منح بعض الرتب وصوالح المانحين العاديين ؛ كما ان تعيين الاجانب خيب
 آمال خيريجي الجامعات واصطدم بالشعور القومي لا سيما في انكلترا ابان الحرب الفرنسية .
 وكان من شأن استئناف الأحكام أمام « محكمة روما » احتمال اعادة النظر في الدعاوى التي
 فصلت فيها المحاكم الملكية ؛ كما ان جمع العرفة الرسولية للاعشار والضرائب والرسوم المختلفة قد
 حرم الحكومة الانكليزية من بعض الموارد الاميرية . لذلك كانت انكلترا أول من عارض
 هذا الوضع ، وزاد في معارضتها له انها اتهمت البابوية بالتحيز لعدوها . وليس مرده اهمية

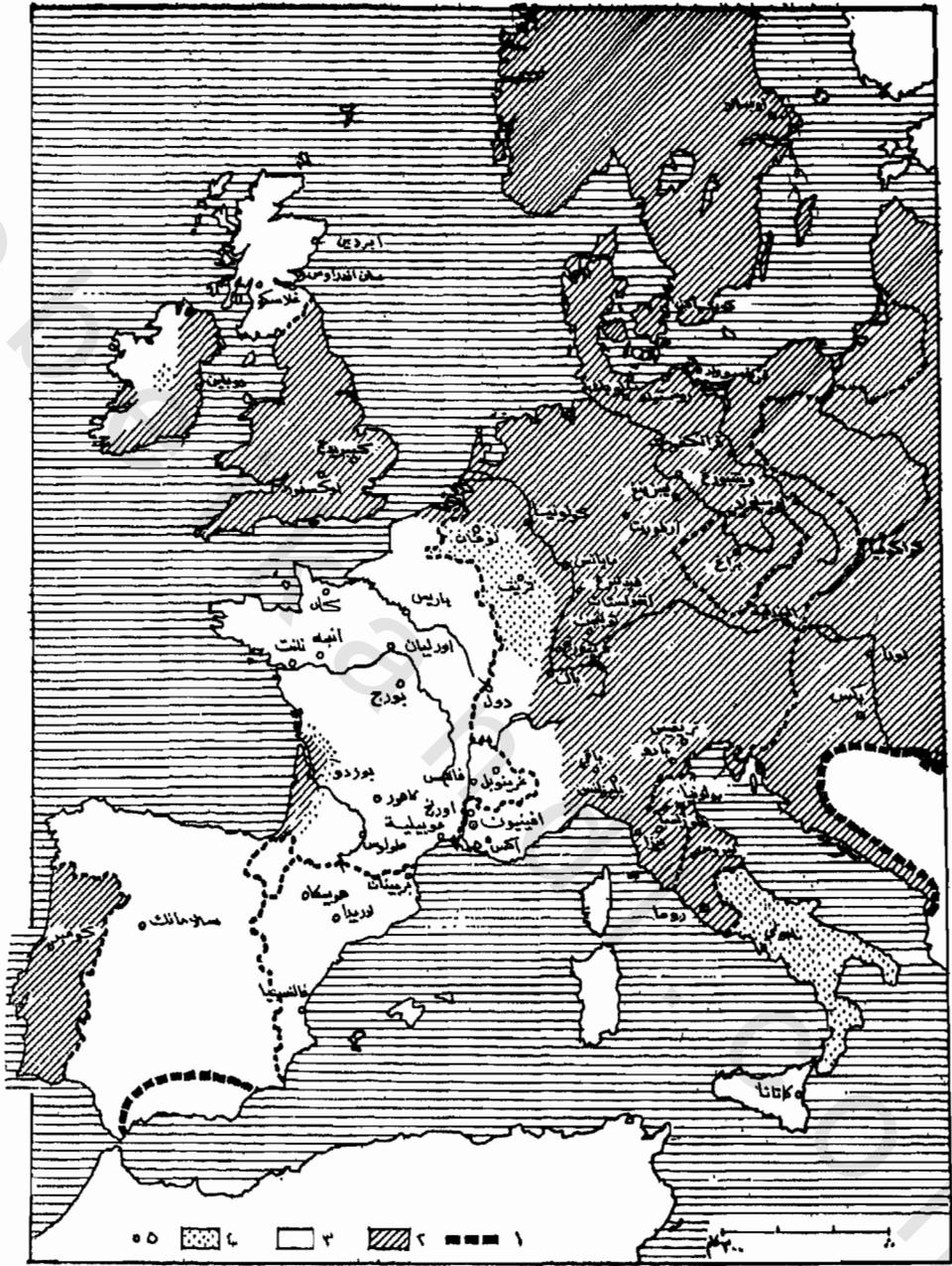
الشكاوى البرلمانية المتكررة من تجاوزات الكرسي الروماني الحقيقية او الوهمية ، بما فيها حملات البرلمان الصالح على «مدينة افيونيون الخاطئة» ، واهمية الانظمة المعادية للبابا التي اعلنت في السنة ١٣٥١ والسنة ١٣٥٣ وجددت او اكملت في السنوات ١٣٦٥ و١٣٩١ و١٣٩٣ ، الى فعاليتها - فقد بقيت حرفاً ميتاً - بل الى المبادئ التي تستخلص منها . فلما كان الملك هو الوالي الأخير لكافة الرتب في انكلترا بوصفه سيداً على حفدة واقفيها ، ادعى لنفسه بحق الحلول محل الأولياء المقصرين كي « يعيد حرية الانتخابات » ؛ وما ذلك في الواقع الا ليراقب مراقبة مباشرة كل تعيين في المناصب الكنسية الهامة ويفرض على الاكليروس اكبر اسهام ممكن في نفقات الدولة ويدير بنفسه كنيسة قومية لا يكون البابا سوى مرشدتها الروحي البعيد . ومنذ السنة ١٣٧١ اقترح اخوان اوغسطينيان على البرلمان حجز ممتلكات الكنيسة كي تسدّد بواسطتها ، للخير المأم ، النفقات الباهظة التي تقتضيها حرب مشؤومة ، فسبقا بذلك النظريات الويكليزية . ولم يخطيء الأساقفة الانكليز في تخوفهم من هذا الاقتراح : فقد كانوا يخشون الوصاية الملكية الثقيلة فوق خشيتهم المطالب البابوية . الا ان الملك ما زال يؤثر الاتفاق مع الكرسي الرسولي ومقاسمته اسلاب كنيسة انكلترا على السير حتى النهاية في تنفيذ المقررات البرلمانية المتطرفة .

ولم ينقض جيل على ما حدث في انكلترا حتى نظمت فرنسا بدورها ، اثناء اضطرابات الانشقاق ، كنيسة قومية خاضعة للسلطة العلمانية . وطيلة بقاء البابوية فرنسية ، اقتصرت الاصطدامات بين السلطتين على المنافسة المثيرة بين المحاكم المدنية والمحاكم الكنسية التي حاولت جمعية فنسيان ، في السنة ١٣٢٩ ، التمييز بين صلاحياتها الخاصة ، والتي اصدر شارل الخامس في معرضها مرسوماً حدّد من صلاحيات المحاكم الاسقفية ، الا ان الموقف اللطاف الذي وقفه بلاط افيونيون قد ساعد كثيراً على تذليل الصعوبات النادرة التي اثارها براءات التولية الرسولية وحق الاسلاب او عدم اقامة ذوي الرتب من الأجانب . ولم يحدث في الحقيقة اي امر هام حتى اليوم الذي اقدمت فيه الحكومة الملكية ، بعد مرور عشرين سنة على الانشقاق ، على تبني قضية « الوحدة » ، ودعت الأمراء ، رغبة منها في اكرام البابوات المتصلبين على الاستقالة ، لان يجرموم حق رقابة الكهنة الوطنيين واسباب المعيشة معاً . وان حركة شق عصا الطاعة في السنة ١٣٩٨ ، التي اعدتها كلية اللاهوت في باريس ، وهي أول من طلع بالغلبيكانية الجامعة ، والتي حظرت مؤقتاً استئناف الأحكام أمام الكرسي الرسولي ، قد أولت البرلمان صلاحية مطلقة في قضايا الرتب الكنسية التي تمنح أصحابها دخلاً معيناً والدعاوى الخاصة بحياة الاسقفيات والخورنيات وجمعيات التسول . وحين تقرر في السنة ١٤٠٣ العودة الى الطاعة ، لم تتجمل صحابة الملك عن هذه الغلبيكانية البرلمانية ، التي خولتهم حق الاطلاع على الشؤون الروحية . فقد فرضت مراسم السنة ١٤٠٧ على الكرسي الرسولي اختيار أصحاب الرتب الكنسية من بين عدد من الكهنة تقررره لجنة جامعية . فسارت فرنسا بذلك على الطريق المؤدية الى الأمر الذي صدر عن الملك والمجلس في بروج حول الشؤون الكنسية وأتاح تحديداً واضحاً « للحريرات الغلبيكانية » .

فكان هنالك أولاً حق كنيسة فرنسا في ان تدير شؤونها بموجب « القوانين المقدسة » ، أي مقررات المجامع الأولى والأخبار الأولين ، وهي كل لا يس ولا يمكن ان يحورّ بارادة البابا التي لم يعد لها على المملكة سوى « سلطة معتدلة » . وكان هنالك ثانياً ، في حقل الرتب الكنسية أو الحقل الجبائي ، سيطرة صحابة الملك سيطرة فعلية على الشؤون الكنسية : اذ ان الانشقاق المعثر الذي تقاسم المسيحيين حول باباوين أولاً ، ثم حول ثلاثة باباوات ، قد حمل اللاهوتيين على ان يسندوا ، ولو مؤقتاً ، ادارة كنيسة فرنسا الى « ابن الكنيسة البكر » وقضاته . وكي لا تتألم من هذه السيطرة العلمانية الجديدة ، لن تجسد بابوية القرن الخامس عشر وسيلة أفضل من قسمة الصلاحيات عن طريق اتفاقات التخلي .

اضطرت البابوية ، قبل ان ينتهي بها الأمر الى هذا الحل ، الى مواجهة المذهب المجمعى خطر آخر مصدره الكنيسة نفسها استهدف اذلال سلطتها اذلالاً نهائياً . فحق حدوث الانشقاق الكبير ، كانت الأسباب المتدرج بها أبدأ ، لعزل أحد البابوات وانتخاب بابا آخر يقاومه ، عدم الاهلية أو جريمة الهرطقة . وبجحة الهرطقة هذه ادعى لوبس دي بافيير عزل يوحنا الثاني والعشرين ، كما سبق لفيليب له بيل ان عزم على استصدار الحكم على بونيفاسيوس الثامن . ولكن باباوين تحلوا اثناء الانشقاق باهلية شخصية مساوية وتقاسما الشعب المسيحي ، فازهرت القداسة في كلا الجانبين : كلترين السينية ، وكاثرين الاسوجية وجيرار كروت بين مناصري اوربانوس الرابع ؛ والرسول العظيم فنسان فرييه بين مناصري اكليمينضوس السابع . فأين هي الحقيقة يا ترى ؟ ان تهمة الهرطقة تلتصق بدون تبصر ، ما زالت في نظر اللاهوتيين أضعف من ان تحمل مسألة جديدة . فدوت حينذاك ، كما لم تدور يوماً من قبل ، الدعوة لعقد المجامع ، ونضجت النظرية المجمعية .

اذا كان الاحتكام الى المجمع ، بصدد مقررات اصدرها بابا ظالم أو غير واقف على الحقيقة ، قد بات أمراً عادياً منذ قرابة قرن ، فرد ذلك الى انه استجاب لبعض نزعات الفكر المسيحي التي لا تخلو من خطر كبير على كل حال . استخلص بعضهم ، من تحديد الكنيسة كما نقحه كونراد دي جلنهورسن (جماعة المسيحيين المؤمنين في العالم بأسره) في السنة ١٣٨٠ ، النتائج القصوى ، مقلتين من دور نظام المراتب أو ملائحته تماماً . وعلى تقيض ذلك ، حمل بعض الاساقفة ، الدلالة على خضوعهم للكرسي الروماني ، هذا اللقب : « الاسقف بنعمة الله والكرسي الرسولي » ، وتناول التأديب الكلسي جان دي بويي في السنة ١٣٣١ لانه علّم في باريس ، ان سلطة الاساقفة وحتى الكهنة تنبثق مباشرة من الله دون ان تمر بالبابا : فكان ذلك بمثابة عودة الى أحلام « الروحانيين » بصدد كنيسة يتنازل فيها الكهنوت الرسمي عن مكانه لحياة رهبانية ينزل عليها الوحي ، وانباء بتهجيات أمثال ويكلييف وهوس على نظام المراتب ، وتشجيع للجمعيات الدينية والرهبانية على مقاومة محاولات الاصلاح التي قام بها يوحنا الثاني والعشرون وبندكتوس الثاني عشر وانوشنتيوس السادس .



الشكل (رقم ١٦) العالم المسيحي الغربي في عهد الانشقاق الكبير

- ١ - حدود العالم المسيحي اللاتيني .
- ٢ - العالم المسيحي الخاضع لاوربانوس حوالي السنة ١٣٩٠ .
- ٣ - العالم المسيحي الخاضع لاكلينمنضوس حوالي السنة ١٣٩٠ .
- ٤ - مناطق التناقص بين هذا وذلك .
- ٥ - مدن جامعية و « مكاتب » في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

أضف الى ذلك ان النظرية الجمعية قد نضجت في القرن نفسه الذي شاهد توسع نظام الجمعيات التمثيلية في كافة الممالك . واعتقد مجلس الكرادلة بإمكانية الاستفادة من مشابهاها فحاول بعد السنة ١٣٥٢ فرض وصاية الكرادلة على الأحرار الجدد . الا ان انتقاد القانونيين والمفكرين قد تخلى هذه الرغبات الاليفارشية . فقد انتهت آراء مارسيل البادواني في السياسة الى حملة عنيفة على نظام المراتب : اذ انها قالت بمساواة كافة الكهنة وعينت لادارة الكنيسة العليا المجمع المسمم الذي ليس البابا سوى ممثله فحسب . وعلى غرار « بجد » غليوم دركهام ، « في » حوار « ، دور المجمع ؛ وقد اتاحت له حداقته الجديدة التأكيد بأن وحدة الكنيسة لا تتنافى وتعدد البابوات .

بيد ان معاصري الانشقاق ، على الرغم من تأثرهم بالأراء الجديدة ، لم يقبلوا كآتهم بواقع انقسام الكنيسة وزوال نفوذ البابوية . فان مؤلفات « جان بتي » و « ونقول دي كلامانج » ولا سيما « جرسون » و « بيير دايي » تم عن توفهم الى وحدة العالم المسيحي . وقد اشهر جرسون ، في حكمه على وسائل الضعف بقوله : ليست الحرب او اراقة الدماء ما يحل معضلة الانشقاق . ولكن تصلب البابوات والامبالاة للحكومات قد اديا الى فشل الحلين الاولين بين الحلين الثلاثة التي اقترحها دايي في السنة ١٣٨١ : التسوية والتخلي . فلم يبق غير الحل الثالث ، أي المجمع العام ، الذي يلحق ضرراً كبيراً بسلطة خليفة بطرس . وقد سبق لجامعة باريس في السنة ١٣٩٤ ان اخضعت ، بما يشبه الاستفتاء ، لحكم ١٥٠٠ شخص تقريباً ، آراءها في حياض الكنيسة ؛ الا ان ترددات البابوات المتماقنين وتراجعاتهم وبماعتهم ورفضهم الكليل مصالحة ولكل تنازل قد جعلت الاجراء الى المجمع أمراً لا مخلص منه . وتجدر الاشارة هنا الى ان فعالية المجمع لم تبد ، في البداية ، اعظم من قدرة البابوات على الدفاع عن شرف حقوقهم : اذ ان كرادلة الجبهتين تخلموا عن حضور المجمع المزعوم التي دعا اليها البابا وان المتراحان واجتمعوا في بيزا في السنة ١٤٠٩ ؛ فوضع المجمع نصب عينيه تخليص الكنيسة من صراع مانواين دون كرادلة ضد كرادلة دون بابا ، واهمل نصائح جرسون الحكيمية ، وسار الى ايجاد ما نفس ثالث « للعجوزين المشؤمين » ، مما زاد بالطين بلة .

في جو البلبلة هذا طلبت النفوس الخيرة المتديبنة ، ماعتيتها ، تحكيم مجمع مسكوني حقيقي . وكان الطرف من الخطورة بحيث توجب الاعتراف له بحق الاجتماع دون دعوة بابوية وباضحام ملائمة الجامعات الكبرى اليه للاستشارة . ورأى الامبراطور سيچيمونيد من واجبه أخذ المجمع تحت حمايته والترحيب بانعقاده في كولستانس (١٤١٤) . فانبا اختيار العقول وايضاح الفكرة الجمعية في مذهب فلسفي باصلاح حكومة الكنيسة اصلاً ينطوي على مزيد من الديموقراطية . اكد المجمع انه يستمد سلطته مباشرة من الله وان له ملء الحق في الاجتماع كل عشر سنوات ؛ وحددت مراسم أخرى صلاحيات الخبر الأعظم في ما يتعلق بالحكم والراتب الكنسية والقضاء والشؤون المالية وحق بالنظام الكنسي ؛ وفرضت عليه العمل بقرارات المجمع

تحت طائلة التأديب والعزل . وكان في النتيجة ان اصلاح الكنيسة « في رأسها واعضاءها » لم يترك للبابا سوى سلطة رمزية : وهكذا فان البابوية ، التي اكتفت السلطة المدنية بمناقشتها ، قد اتضعت أمام ملائنة الجامعة ورأي المؤمنين العاديين . ولم يقتض لاعادة سنى السلطة البابوية قبل منتصف القرن الخامس عشر سوى عناد مارتينوس الخامس وخلفائه ، وقد ساعده على النجاح فقدان ثقة المؤمنين في مجمع « بال » بسبب تجاوزاته وعجزه .

٣ - وهن السلطة الفكرية

ادعى الجامعيون ، في الوقت الذي هيمنوا فيه على الكنيسة ، حق اصلاح المجتمع العلماني ايضاً . فاعتقدوا ، بفضل القانون الكابوشي في باريس ، وفضل جان هوس في براغ ، وويكيليف وتلاميذه في اوكسفورد ، بانهم مدعوون لان يُدخلوا على الحكم مبادئ منطقهم الصارم أو يعمدوا المجتمع الى بساطة المساواة الانجيلية . واذا كذب الواقع ادعاءاتهم ، فمرد ذلك الى ان المدرسة ، التي غالباً ما تكون سبّاقة في الحقل النظري ، كثيراً ما تكون متأخرة في الحقل العملي . فان اولئك الذين توجهوا بانظارهم الى « نور الامم » في محنة الايمان ، لم يلبثوا ان شعروا بأن الجامعة ، بعد ان فقدت وحدة تعليمها الصافية وشمول ثقافتها ، قد تباعدت عن السلطة السياسية ، وان طرائقها الجافة لم تسفر عن أي شيء من شأنه ارضاء العقول المجددة والنفوس الصوفية .

تعدت الجامعات
 بدأت الحياة الجامعية ، اقله في الظاهر ، وكأنها تتقدم تقدماً عظيماً . فان « المكاتب » ، وقد تكاثرت في البلدان التي ازدهرت فيها المدارس منذ زمن بعيد ، قد انتشرت ، في اقل من سنتين ، في كافة أنحاء اوروبا الجرمانية والسلافية ، وبلغت شاطئ البلطيك وحتى ضباب ايرلندا وسكتلندا .

نظمت هذه الجامعات الجديدة كتبها تقريباً على غرار جامعة باريس او جامعة بولونيا . واذا ما استثنينا اوكسفورد حيث انصهرت « امة الشمال » و « وامة الجنوب » في السنة ١٣١٣ ، توزع الطلبة « اماً » امّن مفوضوها ادارة الجامعة بالاشتراك مع عمد الكليات والرئيس . وعرفت المدارس الثانوية كذلك تقدماً كبيراً ايضاً . وهكذا ازدهرت في باريس مدارس السوربون ونافار وكليرمون ومونتيفو وليزيو ولموان و « سانت - بارب » ؛ وفي اوكسفورد ، مدارس اوريل وكوينز ونيو كولدج وماجدولين و « اول سولز » التي أسست تخليداً لذكرى ابطال « ازنكور » ؛ وفي كمبردج ، كلية الملك ؛ وفي براغ ، كولييجيوم كارولينوم ؛ وفي ايطاليا ، التي لم تتأثر بنسبة غيرها بهذه الحركة ، عرفت بولونيا حيوية الكلية الاسبانية التي أسسها الكردينال البورنوز والكلية الغريغورية التي أسسها غريغوريوس الحادي عشر . وتحقق كذلك

بعض التقدم في تنظيم العمل وحتى في تخصيصه : ففي السنة ١٣٧٩ ، دشت نيو كولج في او كسفورد نظام « الاوصياء » ؛ وبعد مرور عشرين سنة انبأ توزيع المهام على الاساتذة باحداث المنابر العصرية . واخذت كليات الطب ، التي ترتدي بالضرورة طابعا تقنيا ، تشرح الجسم البشري ، مستعينة في ذلك ببحث المحكومين بالاعدام ؛ وصدرت المبادرة في هذا الشأن عن البابا الذي امر بتشريح جثث ضحايا الطاعون في افينيون ومدن أخرى كثيرة في ايطاليا . ففدا التشريح ودراسة الاعشاب الطبية مواد دراسية مستقلة . واملت كلية الطب في باريس ، في السنة ١٤٧٠ ، 'حزم العلف التي كانت لها ، في شارع فوار ، بثابة المقاعد ، وانتقلت الى بناء خاص في شارع لابوشري اودعته المكتبة النخصية التي تجمعت لديها منذ قرن ، على غرار مكتبة المؤلفات القانونية في اورليان . وتكوّنت خارج ايطاليا ، حيث تعددت المكتبات ، مكتبات أخرى في افينيون وانجيه و « كان ، ناننت وبواتيه وكبردج ؛ وكانت عطايادوق غلوستر القوام الاساسي لما سيصبح « المكتبة البودلية » .

اذا سطع نجم كبريات الجامعات في بعض حقول المعرفة - الفنون واللاهوت في باريس ، واللاهوت في سلنكا و او كسفورد و كولونيا ، والطب في مونبليه ، والحقوق في بولونيا - فلانها قد سعت كلتها لتأمين تعليم كامل ، دون ان تتوفر دائما لديها الكليات الخمس التي جهزت بها جامعة كان . فان البابوية ، السخية في توزيع الامتيازات ، لا سيما في عهد اكليمينسوس السادس واوربانوس الخامس ، قد ترددت احيانا في الموافقة على انشاء مراكز الدراسات اللاهوتية : واذا حصلت جامعة براغ على هذه الموافقة منذ تأسيسها في السنة ١٣٤٧ ، فان جامعتي فينبا وكراكوفيا لم تنشئا هذه المراكز الا اثناء الانشقاق الكبير ، الاولى بعد مرور ٢١ سنة على تأسيسها (١٣٨٥) والثانية بعد مرور ٣٨ سنة على تأسيسها ايضا (١٤٠٠) . ومرد ذلك الى ان كل كلية سمت آنذاك للاستعانة باكبر عدد من الملائنة اللامعين كما تشهد بذلك براءات تأسيس جامعات هيدلبرغ (١٣٨٦) و كولونيا (١٣٨٨) وارفورت (١٣٨٩) . كانت الجامعات ، على غرار امها الباريسية ، مدارس اسقفية سابقة في اغلب الاحيان ، فبقيت من ثم خاضعة للسلطة الكنسية . وخضعت فوق ذلك الى نصراء الآداب والفنون والامراء الذين انعموا عليها بهباتهم . ففنى الوقوف الجامعية - لا سيما في لوبك وغريفسولد - هو احدي ميزات نصرة الآداب والفنون آنذاك . وكان المهم في نظر الملوك ارساخ استقلال الدولة فكريا وابقاء الطلبة الوطنيين فيها واجتذاب الاجانب اليها واخيرا اعلاء اسمهم بين الناس . وحين غدت الحياة الجامعية سلما للوجد واداة للحكم ، ارتدت طابعا قوميا صرفا ، فكان ذلك سببا أولا من اسباب ضعفها .

قابل تعدد الجامعات ، في الواقع ، تقدم الدول القومية وتجزئة نطاق الصلاحيات الدينية . فان جامعة براغ التي اسسها الامبراطور شارل الرابع في السنة ١٣٤٧ وتألقت من « امتين » جرمانيتين (بافارين وسكسون) و « امتين » سلافيتين (بوهميين وبولونيين) كانت معدة

لجمع الشعوب في ثقافة مشتركة وبث تعاليم اللاهوت في الامصار السلافية . فسارع الامراء
 الجاورون ، بدافع التنافس ، الى تأسيس جامعات زاهرة مائة : ارشودوق النمسا في فينا ،
 وكازيمير الكبير في كراكوفيا . وسار مارسيل « دنجن » على خطى البيرو دي ساكس ،
 الرئيس الأول لجامعة فينا ، فادخل الفكر الباريسي الى جامعة هيدلبرغ التي جعل منها
 الكونت البلاطي روبرخت الأول دي ويتلسباخ مركز دعاوة « عمرانية » تمتد دائرة اشعاعه
 الى مناطق الرين الاوسط والاسفل .

يفسر ازدهار الجامعات الايطالية وطينة البلديات ونصرة الامراء للآداب والفنون والتنافس
 في حقل الثقافة . فان شهرة جامعة « المعرفة » في روما ، التي خبا نورها في السنة ١٣٧٠
 بعد لمعان دام ٦٧ سنة ، قد استعيدت في السنة ١٤٠٦ ، ثم في السنة ١٤٣١ ، بفضل اوجانيوس
 الرابع ؛ ودانت كذلك جامعة بادوا لاسرة كرارا بتأسيس كليتها ؛ وفي السنة ١٣٤٢ والسنة
 ١٣٤٩ ، ابي خلال سبع سنوات ، اضافت بيزا وفلورنسا الى اسباب تراجهما ، تنافس جامعتيها ؛
 ويصح القول نفسه عن بافيا وفراري وبليزانس في السهل الباداني . وكذلك اتفق بورجوازيو
 روستوك (١٤١٩) ، بمساعدة المدن الهانسية ، على تعليم اولادهم في مدينتهم ، ثم اسست جامعتهم
 فرعاً لها في غريفسوولد (١٤٥٦) . ثم حذو حذوم على التوالي في تريف وماينس وتوينجن
 وفريبورغ (بريسكو) وبال والنجلستات وليزيغ . وانتقل التنافس الى الممالك الجنوبية
 فتولت سلالة اراغون وحدها تأسيس جامعات برينيان وهويسكا ولريدا وفالنس . ويرد ذلك
 الى تعاضل الاثرة الاقليمية خلال القرن الخامس عشر : فهدف فيليب له بون الى تحرير دوله من
 وصاية باريس بتأسيس جامعة « دول » في السنة ١٤٣٣ (وقد نقلت الى بيزنسون في السنة
 ١٤٨١) وجامعة لوفان في السنة ١٤٢٥ ؛ واكره « رينه دانجو » رعاياه البروفنسيين على
 الاختلاف الى آكس التي تأسست مدرستها في السنة ١٤٠٩ ؛ وفي السنة ١٤٦١ تأسست مدرسة
 في نانت عاصمة دوقية بريطانيا . وكان جواب الانكليز على تأسيس حكومة ولي العهد لجامعة
 بواتيه (١٤٢١) احداث جامعة في بوردو (١٤٤١) ؛ وكان الهدف من تأسيس جامعة كلن
 (١٤٣٧) الحيلولة دون اختلاف النورمنديين ، وهم لا يزالون خاضعين للملك انكلترا ، الى باريس
 التي استعادها شارل السابع . وفي ما وراء المانش كذلك ، كان طرد الارلنديين من اوكسفورد
 باعثاً لقيام « مكتب » « دوبرن » ، كما كان طرد السكتلنديين ، اثناء الانشقاق ، باعثاً لاحداث
 جامعة « سانت اندروز » وجامعتي غلاسكو (١٤٥٠) وبردن (١٤٩٥) من بعدها . وتوقف
 السكتلنديون انفسهم عن الاختلاف الى كولونيا وباريس حين توفر لهم التعليم في اوبسال
 (١٤٧٧) وكوبنهاغن (١٤٧٨) ، لا بل ان الملك كريستيان الرابع سيعد بعد ذلك الى منح
 رعاياه من التعلّم في الجامعات الاجنبية .

بات عدد هذه المؤسسات مرتفعاً جداً : فتأخر بعضها او اقل نهائياً .
 فاضطرت جامعتا بيزا وفلورنسا ، في منتصف القرن الخامس عشر لان

تأخر الدروس

لان تنصهرا في جامعة واحدة ، والمحط مستوى جامعات نابولي وافينيون وغرينوبل وبرينيان وغلانكو ؛ وانضمت جامعة كاهور الى جامعة تولوز . وكان للظلامسة التي رفعها الملافنة الباريسيون الى البابا في السنة ١٤٢٣ ما يبررها : « ان ما بقي مناهد بالزوال النهائي بسبب احداث « المكاتب » الجديدة . واذا تارجح عدد الطلاب في المراكز الكبرى - باريس وبولونيا وسلانكا - حول ٥٠٠٠ طالب ، فان طلاب اوكسفورد لم يتجاوزوا ال ٣٠٠٠ ، وربما لم يبلغ طلاب تولوز وفينتا وليزيغ ال ٢٠٠٠ ، ولم يختلف الى القسم الأكبر من الجامعات الاخرى سوى بعض المئات فقط . فأخذ العالم الجامعي يفقد حيويته بذوبانه تدريجيا .

اضف الى ذلك ان الاساتذة والطلاب ، باهمهم المبدأين الاساسيين اللذين سلكوا بموجبها حتى ذلك التاريخ ، اعني بها دولية شؤون الفكر والاستقلال حيال السلطة السياسية ، قد عرضوا مستقبلهم لخطر كبير . فلم يكتف الامراء بابقاء جامعاتهم تحت وصايتهم المالية واكره رعاياهم على الاختلاف اليها ، بل ادعوا اكثر من مرة حق تعيين الاساتذة ومراقبة تصرفاتهم . فالحركة الويكليفية ، على الرغم من انها قمت بسرعة ، قد اتاحت لملك انكلترا وضع اوكسفورد مرة اخرى تحت السلطة الاسقفية ، وقد عين فيها هنري الرابع اول « استاذ ملكي » . وفي فرنسا نفسها ، وطن الحريات الجامعية ، باتت الاضرابات المدرسية دون جدوى . وكادت جامعة اورليان تقفل ابوابها في السنة ١٤٠٥ ، حين فقدت سندها الزمني . وما لبث البرلمان ، الذي لم ينقطع عن التدخل في شؤون المدارس ، ان اصبح في السنة ١٤٦١ مرجعها الرسمي الأعلى .

اضف الى ذلك ايضا ان الجامعات ، التي تأثرت بالخلافات الدينية والتحاسد القومي وتدخلت في الامور السياسية ، كانت بذلك كمن يسمى لموته بنفسه . فبعد ان سادتها الاهواء الجماعية وحيوة العصر ، باتت لسان حال الرأي العام ، كما تشهد بذلك امثلة براغ وباريس بنوع خاص . ففي براغ عجزت « اتفاقات الامم » ، التي اعلنت اكثر من مرة دون جدوى ، عن وضع حد للمشاجرات بين الطلاب الالمان والطلاب السلافيين اللذين أدت بهم النوايا السيئة والمنافسات العنصرية واللغوية والاخلاقية الى التنافر والتعادي . وحين اعلن جان هوس ان الامة البوهيمية (بمعناها الجامعي) يجب ان تحكم الامم الاخرى ، توصل الى فوز التشيكيين ، في الجمعيات ، بثلاثة اصوات مقابل صوت واحد للالمان ، في حال ان اربعة اخماس الاساتذة كانوا من الالمان . فكان ذلك سببا لرحيل هؤلاء الى ارفورت وهيدلبرغ ولا سيبا الى ليزيغ . وكان اختار الافكار هذا مؤاتيا لتقبل آراء ويكليف ، وهو يفسر كيف ان المنازعة الهوسية نقلت جامعة براغ من الصعيد اللاهوتي الى المعترك السياسي .

اما النفوذ السريع الزوال الذي استعادته جامعة باريس في عهد شارل الخامس والدور الرئيسي الذي لعبته في حل عقدة الانشقاق ، فلا يخفيان الضرر العظيم الذي الحقته بها مناجزاتها في النطاق السياسي . فإن انتصارها لاكليمنضوس السابع كان سببا لتزوح العديد من الاساتذة

والطلاب الاجانب الذين استهوتهم مراكز الدروس الجديدة في المنطقة « العمرانية » : كالبيرو ساكس ومارسيل دجن كما سبق ورأينا . ثم ان مظاهر الانشقاق السياسية قد ارغمت الملكية على تحديد موقفها من الشؤون الانكليزية او الايطالية ومن المسألة الكنسية على السواء . وكان من سوء طالعها اخيراً ان الحرب الاهلية جاءت تجهز على ما تبقى من سمعتها . فلم يفلح « جان بتي » في اعلاء نفوذها بتطوعه للدفاع عن قاتل « لويس دورليان » دفاعاً لم يقتفره له جرسون قط ولم ينثن عن لومه عليه أمام الكلية وأمام مجمع كونستانس ايضاً . بيد ان الجامعة ، باكثريتها ، قد ساندت القضية البورغونية لانها رأت فيها نصرة لاصلاح الدولة ، ذلك الاصلاح الذي اعتقدت ان باستطاعتها فرضه في السنة ١٤١٣ بواسطة خطب « اوستاش دي بافيي » و « بنوا جنتيان » وبوضع القانون الكابوشي . اضعف الى ذلك ان علائقها بالتمرد وقبولها بمعاودة طرورها وتحليلها عن ولي العهد قد انتهت في داخلها الى ردود فعل متعاقبة وعمليات تطهير متوالية ففقدت اعتبارها ، في المرحلة الاخيرة من مراحل حرب المئة سنة ، بالموقف الذي وقفه اعضاؤها وبهبوط مستوى التعليم فيها .

وجت جامعة باريس هذا الهبوط وعزقه الى سوء الحظ ومنافسة شقيقاتها جود الناهج الصفري ولها . وقد ادعت منذ زمن بعيد ايضاً ان الكهنة انما هجروها لان الكرمي الرسولي لم يحتفظ لهم بربتهم الكنسية التي تدر عليهم دخلاً . غير ان الهبوط مرده في الواقع الى اسباب اعمد خطورة واعظم شمولاً : فلازمة الجامعة قد عمت الغرب باجمعه بسبب المحطاط المنهج والعقيدة والفكر .

ولم تكن جامعة اوكسفورد آخر جامعة تأثرت بهذا الهبوط . فقد فقدت في القرن الرابع عشر التقدم الذي حققته منذ روجيه بيكون في دراسة الطبيعة دراسة صحيحة ، مؤثرة المدول عنها بحكمة الى المنطق السديد والدوران في حلقة من السفسطة العميقة . وكان ويكلف على صواب في تهكمه من زملائه الذين يبتكرون ، كما يقول ، مذهباً منطقياً جديداً كل عشرين سنة . اجل لقد استهدف علم الصرف والنحو النظري غاية حميدة هي تعبير دقيق عن مداليل واضحة : ولكن التمسك بالشكليات قد جفف التعبير واستنزف المداليل . ثم انتقل الداء الى جامعات البر الاوروي التي تأثرت قبل ذلك بالاضطراب البدي في ايطاليا ، والحروب الاهلية في اسبانيا والمانيا وبوهيميا ، والحرب ضد الاجنبي والتنافس بين الاحزاب في فرنسا ، والخلافات الدينية في كل مكان . اخذ بيارك على « مكتب » كولونيا جود فلسفته المقلدة ، ولكنه شكاً كذلك من ان بولونيا « تبدو وكأنها لم تعد بولونيا » ، وقيل بالاضافة الى ذلك انها كانت في السنة ١٤١٦ ، على شفير « انحلالها التام » . وكتب « انكا سيلفيو » في كلامه عن جامعة فينا ، في منتصف القرن الخامس عشر ، « ان البيان والشعر شبه مجهولين تقريباً » . ولم تكن جامعة باريس افضل حالاً : فقد اعوزتها الكتب شأن الجامعات الاخرى ؛ وعت الشكوى فيها من المشاجرات وعدم انتظام الدروس وامال الاساتذة وتمطيل الطلاب ؛ اجل لم يكن كل هؤلاء

« فرنسوا فيون » ، ولكن الكسالى كانوا كثيراً : فقد كتب شاهد عيان في القرن الرابع عشر « ان الذين ينسخون مادة دروسهم لا يتجاوزون العشرة بالمئة ؛ وان صفوتهم اولئك الذين لا يستفيدون من اية منحة ، والذين يتأخرون في دروسهم حالما يتحسن وضعهم المالي » . ولكن لا تسئل عن الحجج حين تطرح امثلة لا طائل تحتها كهذه : « لماذا يكون الرهبان اكثر سمنة من باقي الناس » او « لماذا يصاب اليهود بالزيف اكثر من المسيحيين » ؟

ان الاصلاح الذي نهض به الكردينال « دستوتفيل » لم يستطع ، على الرغم من فضله ، استئصال جذور داء عضال . فقد تعود الناس الشنونة ورضوا بها ، وبدت الجامعات الفرنسية ، ولا سيما جامعة باريس ، على الرغم من احداث المنابر الجديدة فيها ، وكأنها مصابة بالشلل . ضمت كلية الفنون علماء واسمي الاطلاع ، ولكنها افتقرت ، منذ وفاة نقولا دي كلاننج في السنة ١٤٣٧ ، الى مفكرين مبتدعين ، وكانت كلية اللاهوت ابعد تأخراً ايضاً بعد ان فقدت اعلامها في عمليات التطهير - لا سيما عملية ابعاد الاوكهاميين في ايام الاحتلال الانكليزي - فباتت توزع علماً مهيناً نفعياً تقليدياً . ولم تهتم هذه الكلية وتلك للبحث العلمي بل تنكرتا لعلم اللغات والأدب القديم اللذين كانا بمثابة خشبة الخلاص « للمكاتب » الايطالية . فما عادت هذه الجامعة « ذات الراسين » كما درج روبر « غاغين » على تسميتها ، لترضي العقول المتميزة والنفوس التواقفة الى التقدم . فبحث جان جرسون وبيير دايي وامثالهما ، خارج انظمة المدرسة ، عن تفتح شخصياتهم . اصف الى ذلك ان المدارس الثانوية نفسها ، وكانت المباديات في معظمها اقل تقييداً ، لم تفتح قط على آفاق الفكر الجديدة . فلم تجهل مدرستا مونتيجو والسوربون علم اللغات فحسب ، بل الأدب والشعر والعلم الروحاني ايضاً . وقد بلغ من حياة الجامعات على هامش العالم المعاصر ان استطاع احدهم ، في معرض الكلام عنها ، كتابة ما يلي : « ان فقدان الانسجام بين عمل الجامعات التقليدية وتزايد نشاط العالم الخارجي يترك انطباعاً بان هنالك تناقضاً وصراعاً . ففي الوقت الذي تخمرت فيه العقول ، وتساءلت القلوب في عالم مضطرب عن معنى الحياة ، لم يكن لدى الجامعة من جواب سوى قياساتها المنطقية » .

٤ - اختار الافكار والقلق الديني

ما هي الحقيقة ؟ ومن هما العالم والانسان ؟ لقد واجه القرنان الرابع عشر والخامس عشر هذه الاسئلة الازلية بقلق خاص . لقد تراحت فيها وتشابكت آراء جديدة ، هي مصادر الفكر المعاصر ، وخيال خلاق ، وكافة مظاهر الفكر العباس .

ان في قصة « الخواتم الثلاثة » التي كتبها بوكاس لوصفاً موجزاً للقلق نزعات العصر الذي ساد ذلك العصر : ترك احد الآباء ، لابنائيه الثلاثة ، ثلاثة خواتم متشابهة دون ان يعلن عن الاصلي الصحيح بينها ، فاعتقد كل من ابنائيه بانه هو من يمتلك هذا

الحاتم الاصيلي ؛ وهذه هي حال الديانات الثلاث، المسيحية واليهودية والاسلامية ؛ فالاب السماوي يعرف الفضلي بينها ، بينما يعتقد كل واحد بانه يمارس الديانة الحقيقية . يتضح من ذلك ان بعض العقول المحرقت عن التأليفات الجامعية الكبرى وانتهت الى التسليم بحقيقة متعددة. ثم ان كراهية بيارك لدانتي والسرور الذي شعر به في معارضته يكشفان القناع عن المضادة بين الجليلين . استطاع مؤلف « المهزلة الالهية » ان يوفق بين مذهب العقلين والمذهب الاوغسطيني وان يتصور امكانية وحدة العالم المسيحي في توزيع السلطات توزيعاً متعادلاً ، فسلك ، في موضوع رؤية الثالوث ، طريقاً كانت مراحلها الشعر والمحنة - التي تنقل النعمة - والاختطاف ؛ وكان مرشده في هذه الطريق فرجيل وبياتريس والقديس برناردوس . فهل كان ذلك منه انتحالاً لفلسفة القديس توما ام حكمة بشرية صرفة ومفوماً علمانياً للمدينة ؟ لا بل ان فكر دانتي المرتكز الى اليقين بان العصور القديمة تكون جزءاً من مخطط العناية الالهية قد استعاد كمال الانسان والتاريخ البشري السائر في طريقه نحو مصيره الواضح المعالم . اما قلق بيارك ، وهو خاص بالقرون الوسطى دون منازع ، فيتصل بالتقليد الاوغسطيني : فالثقة المعقولة افسحت المجال لاقتضاض الوجود الذي لم يكن ليرضى بالتأليفات الكبرى . وكان الوقت قد فات حين البنت كلية اللاهوت الباريسية الرقابسة المفروضة على فلسفة القديس توما . ومرد ذلك الى ان العلم الفرنسي الموجه نحو اعادة النظر في المبادئ والمناهج والنتائج قد حال دون كل رجوع الى الوراثة .

ان الفكر في القرن الرابع عشر قد اخذ يتطور في الواقع انطلاقاً من دونس سكوت لان القديس توما . كان دونس خصماً للروحيين وابناً حقيقياً للقديس فرنسيس راغباً في اقصاء الفطرسة الوثنية عن الفكر ، فمال طبعاً من ثم الى ابعاد المذهب العقلي عن مفهومه للاله والعالم ؛ فأراه وحي الكتاب الها هو ارادة خلافة وحرمة أكثر منه منظم عقلي للخليفة . لذلك فبيننا لا يستطيع العقل الوضيع بلوغ الحقيقة الا عن طريق القياس المنطقي الامينة ، يجب ان يكون البحث عن الله اندفاعاً ترشده المحبة . فن جهة اذن بشّر ايثار المفاهيم الصريحة المتميزة بالتقدم العلمي والسعي وراء الدقة ؛ ومن جهة ثانية ، مهدت موجبات المحبة الطريق لازدهار صوفي يثير الاعجاب . ومها يكن من الأمر ، فان انكار الاتفاق بين الايمان والعقل قد اعاد وضع كل الامور على بساط البحث - أسس المعرفة ونظام العالم ومفهوم الانسان والحياة - وفتح طرقاً متباعدة ؛ فأرسي البعض فلسفتهم على العقل وحده واستشف البعض الآخر مقتضيات الاختبار العلمي بينما اهتدى بعضهم ، من غير الصوفيين ، الى سر لاهوت أدبي في الفكر القديم . اجل تفاوتت هذه الطرق اخصاباً وفعالية ولكن الانسان التوافق الى ادراك جوهره ومصيره قد سلكها كلها .

ان أتباع ابن رشد ، باهمهم العمل العلمي الذي نهض به معاصروهم قد أوصدوا امامهم طريق المستقبل . فقد اضاع « جان دي جاندين » وقته في الدفاع عن « سيجر دي برابان » ، خليفة ارسطو الممتد ، واكتفى بعلم الطبيعة الذي وضعه « الستاجري » . اجل ان كتاب

« المدافع عن السلام » ، الذي أسهم فيه ، يحمل في متنه مبدأ أولوية المصلحة العليا التي سيصبح ميكافلي داعية لها . كما ان سخرية جاندين التي تخلو من الاحترام وانتقادات مارسيل البادواني اللاذعة تكاد لا تحجب الحاداً عميقاً ارغمتهم الاعراف الاجتماعية على اخفائه في بلاط أفينيون نفسه حيث كان لهم بعض الاصدقاء . ولكن اللامبالاة الدينية في ايطاليا واسبانيا قد تخطتهم بتسترها وراء العلوم العربية ، مما أتاح للغرب الاهتمام الى نواح جديدة من المعارف القديمة .

التقى جان دي جاندين ومارسيل البادواني ، في بلاط لويس دي اوكهام والنشاط العلمي
بافير ، بغليوم اوكهام الذي كان له ولتلامذته الفضل الاول في انطلاقة التقدم العلمي . فكان لنجاح آراهم في منتصف القرن الرابع عشر أثره الكبير في نكوص فلسفة القديس توما التي انكفأت عن باريس ووجدت لها في كولونيا مكاناً تلجئ اليه . انت اوكهام ، الذي أبصر النور حوالي السنة ١٢٨٠ ، تلقى تعاليم دونس سكوت في الارجح ودرس ، مع على غراره ، في اوكسفورد وباريس . وقد انسجم فكراً ، في هذا « المكتب » الاخير ، مع دومينيكايني متحرر من فلسفة القديس توما هو دوران دي سان بورسرين ، ومع فرنسي مثل هو بيير اوربول . وكان الجدال قد تجدد آنذاك بين مذهب الواقعية ومذهب الاسمية . فكان ان الفكرة ، التي ليست في نظر اوكهام ، وريث الاوكسونيين ، سوى مراس في حقل الاختبار ، او سوى انضاج العقل للتأثيرات التي تتلقاها الحواس او « هوى من أهواء النفس » ، قد لعبت في البرهنة دور تمثيل الأشياء التي تعبر عنها الكلمات . هذا هو سبب نسبية معرفتنا للواقع ؛ وهذا هو ايضاً سبب عجز علم ما وراء المادة واللاهوت العقلي . ويتضح من ثم ان بمكنة اللاهوت الموحي به وحده ان يرسم لنا مفهوم صفات الله ومفهوم الروح اللامادية ومفهوم السنّة الادبية . ولكن فن احكام البرهان ، بالمقابلة ، هو الشرط الواجب لكل نشاط عقلي .

على الرغم من حكم كلية باريس على المذهب الاوكهامي في السنتين ١٣٣٧ و ١٣٥٠ ، فانه قد احتل فيها مركز ممتازاً كان منطلقاً لاشعاعه . فقبل ان يتولى البيروني ساكس ومارسيل دنجن الاشراف على مصائر جامعتي فينّا وهيدلبرغ الفتيتين ، تغدياً في باريس بأفكار « البادىء الكريم » الى جانب جان بوريدان و « نقولا اورسم » . وتكونت في اجتماعات الاوكهاميين السرية ، التي أشهرتها الكلية ، تقنية جديدة للمنطق غالباً ما انتهت الى طريق غير نافذة ، حين باتت الاسمية غاية بحد ذاتها ؛ فكانت النتيجة انزافاً فكراً هو السبب الأساسي للأزمة الجامعية . ولكن الاوكهامية قد اتجهت شطر درس الظواهر الحسية ايضاً : اعتمدت الاسمية نهجاً واستندت الى الملاحظة والاختبار ، ففدت بذلك حافزاً مخلصاً للتقدم العلمي . فعرفت الرياضيات والهندسة وعلم الآليات ، وعلم طبيعة الكرة الارضية والعلوم الطبيعية الاخرى ، آنذاك ، تمايرها العصرية الاولى ، بينما أتاحت جهود الاسمية تعبيراً أوضح لمفاهيم أساسية هي مفاهيم العدد والمسافة والوقت : فكانت النتيجة تقدماً في علم المحاسبة والجغرافيا وصناعة الساعات .

ان اوكلهم ، بزعرته اركان مملكة ارسطو ، قد أثار التساؤل حول نظريته في العالم أيضاً . فلم تعد مركزية الارض عقيدة ايمانية ، واستُشِفَت امكانية تعدد العوالم الذي سينادي به « نقولا دي كو » في الجيل التالي ، واكتشف بوريدان مبدأ سنة الجداد ، وأوضح اورسم سنة النسبية بين سرعة سقوط الاجسام والوقت ، فكان ذلك مقدمة لأبحاث « نقولا دي كو » النظرية ولاكتشاف كوبرنيك . وانتشرت من جهة ثانية تعاليم ارخميدس بفضل نقل نصوص ترجمتها العربية المعروفة في القرن الثالث عشر الى اللغة اللاتينية على يد جيرار دي كريمون ، فتأمن بذلك ، وبواسطة ألبرتي و «نقولا دي كو» ، اتصال تقليدها بـ « ليونار » . وعلى تحقيقات القرن الرابع عشر أيضاً ، لا سيما في نظرية البير دي ساكس حول انتقال مكان مركز الثقل الارضي بفعل قرض القشرة الارضية وفقدان التوازن بين اليابسة ومياه البحار ، بنيت نظريات ليونار في الجيولوجيا والاحاث . ودفع الاهتمام الى بطليموس بالجغرافيا وعلم وضع الخرائط الى الامام ، في جنوى وبالما (في ماجورك) وفالنس ، كما تشهد بذلك مجموعة الخرائط المعروفة بالكاتالونية في « مكتبة » شارل الخامس . كان نقولا اورسم مستشاراً مسموع الكلمة لدى هذا الملك ، وعالمًا يشار اليه بالبنان ، وغدا في فرنسا ، الى جانب بيير دايي ، احد واضعي اصول الجغرافيا الاولين : اجل ما زالت الجغرافيا آنذاك علماً اختبارياً ، بانتظار تحسين آلات الرصد الفلكي والخرائط الطبوغرافية الموروثة عن المصور القديمة والعرب . الا ان بعض النجاحات التقنية الاخرى تتم عن الرغبة في الدقة لدى رجال العلم في ذلك العهد ، على الرغم من ان اضطرابات القرن الرابع عشر لم تكن لتشجع على الاكتشاف . فقد ظهرت الساعات العامة الاولى في كان وبيزا وباريس في الوقت الذي ظهرت فيه ساعة « برج القصر » الشهيرة ، وقد حلقت المانيا في هذا المضمار . وعرفت الهندسة المائية السدود ذات الابواب في الفلاندر ومستنقعات بواتو وسهل ميلانو منذ اواخر القرن الرابع عشر ، وصنعت مجارف الرمل الاولى في زيلندا بعد مرور ثلاثين سنة تقريباً ، وما لبث اكتشاف المنافع المائية للأفران ان أعد وثبة الصناعة المعدنية الالمانية . وكان اختراع ذراع الدافعة ومقبض ادارة الآلة اخيراً ، في أوائل القرن الخامس عشر ، مقدمة لتحويل او اختراع عدد من الآلات : كدولاب المغزل والمضخة والمخرطة .

وجاءت النظرية في الوقت نفسه تدعم تقدم الاختبارية ؛ فمنذ أواخر القرن الرابع عشر تعددت الأبحاث ، التي ترجمت عن المؤلفات القديمة او المعاصرة ، في ايطاليا الشمالية والمانيا الريفانية والجنوبية ، حاملة أسماء قيصر *Kiyser* وفونتانا وسنّيني وماريانو وألبرتي . وهكذا حضر عصر ليونار الذي « لم يكن » ، كما كتب عنه بحق ، ذلك الجن الخفيف والناقص المتميز عن عصره . فبمد نقولا دي كو ، دخلت جذور تعاليمه في قلب القرن الرابع عشر ، وما كان في الارجح ليفتح تلك الآفاق الغريبة امام العلم المعاصر لو لم ينتقل الفكر الغربي ، قبله بزمن طويل ، من

محاولة فهم جوهر العالم الى محاولة فهم ظواهره . ولعل ذلك اخصب ما حققته وأسهمت به الاوكهامية .

أما مظهرها الاخير ، ولعله الأهم في نظر اهل زمانه - اسلوبه الجدلي - فلم يؤدّ الا لسفطة عقيمة . وخيبت الاسمية الاوكهامية الآمال في النهاية، فكان مصير « الطريقة الجديدة » الاممال في أواخر القرن الرابع عشر . فعاد « القدماء » ، من أتباع توما وسكوت ، الى الهجوم ، لا سيما وان العقول والافتدة ، التي لم ترتض بالاسمية الجافة ، قد بحثت ، امام قسارة ذلك العصر ، عن موجب الحياة والامل اما في دراسة الادب القديم واما في للصوفية . وقد اقترن احتقار الواقع المعاصر ، في كلا الحالين ، باحساس مرهف جداً .

دراسة الادب القديم الاول
كانت دراسة الادب القديم في البدء مجهوداً يستهدف الوصول الى

مذهب أسمى من الواقعية الموضوعية المسيطرة آنذاك . اجبل ليس فرنسكو دي بتراركو - بيترارك - من يتقيد بمذهب معين : اذ ان ابن محمر العقود الفلورنسي هذا قد نفر من الدروس الشرعية . استفاد من رتب كنسية وأكثر من التنقل ، فنجول بين مدينة واخرى مؤمناً معيشته بهطايا نصرانه المتعاقبين ؛ انتقل من توسكانا الى هولندا مروراً بباريس ، ومن اكس-لا-شابيل الى نابولي ، ومن روما الى مونبلييه وافينيون ، واختار فوكلوز خلوة مفضلة . رافق القرن بكامله تقريباً (١٣٠٢ - ١٣٧٤) ، فحرکه هوى : الادب اللاتيني ؛ وتسلط على عقله حلم : احياء القيصريّة البابوية المسيحية وحطمت خيبة امل : المحبة التي لم تشاركه اياها لور . بيد ان الاكرام الذي كان موضوعه في الكابيتول (١٣٤١) والتعلق الذي أحاطه به الجميع لم يسكتنا عذاب نفس شاعر متقلب المزاج . واذا هو تجنب الجدل وسفسطات أتباع ابن رشد ، فان التأمل الباطني دون سواه كان له مدرسة حكمة ، كما ان الادبار كان له خشبة الخلاص الوحيدة امام التشاؤم : فالفرح والألم لا شيء كلاماً . وقد عبرت مؤلفاته عن قلق رجل شاهد أثر الطاعون الكبير في فلورنسا . وحيز لم يجد مؤلف « حياة العزلة » التهذئة المنشودة في عاطفة مسيحية على بعض الغموض ، التجأ الى القدماء . الا انه مقت ارسطو ، معلم اتباع ابن رشد ؛ ولم يستخلص مثاليته الدينية من فلسفة افلاطون الا من خلال مؤلفات شيشرون او الابهاء ، وقد أعوزت مثاليته هذه الاسس الفلسفية والعملية ؛ وقد بحث عن التعزية في العاطفة السني يتكلفها شيشرون وسينيكا . وكانت هذه كلها آفاقاً مغلقة بالنسبة لمعاصريه ، كما نرجح ، اذ ان تلاميذه قد شعروا بالقلق نفسه . فان بوكاس ، على الرغم من انه ندم على كتابة « الايام العشرة » ، لم يتمكن ، في مؤلفاته الاخرى ، وعلى الرغم من ايمانه الكاثوليكي الصادق ، من ان يقدم لمعاصريه سوى علم اخلاقي وثني متحرر من كل مفهوم فائق الطبيعية . لذلك لم تكن واقعيته مرشداً يفضّل العلم الاخلاقي الموضوعي الذي اقترحه جان دي مونخ على قراء الجزء الثاني من « قصة الوردة » .

على ان فرنسا ، على غرار ايطاليا ، حظيت بمشاهدة ازدهار الادب الشيشروني الاول في

بلاط شارل السادس ، بفضل لوران دي برييفيكت وجان دي مونتروي وغوتيه كول ونقولا دي كلامنج . وكان مقدراً للجيل التالي، بفضل معرفة القدماء معرفة افضل ، ان يوسعوا الطريق التي شقها بيترارك وان يتوصلوا ، في السنة ١٤٠٠ ، الى تحقيق ما تأقت اليه نفسه تحقيقاً عظيماً . ولكن هذا الاتجاه ، التفاؤلي والواثق من النجاح ، يعبر عن الاتجاهات الاولى للنهضة ويختص بايطاليا في الدرجة الاولى .

استمرت الاوغسطينية ، على الرغم من فقدان حظوتها مؤقتاً في الجامعات ، في
 الصوفية تغذية تيار صوفي ليس حنين بيترارك اليها سوى انعكاس شاحب له ، بينما تألف المذهب السكوتي معها تألفاً تاماً اذ انه اراد اسما خيرا في النشاط البشري على سمي الارادة ، بفعل المحبة ، للامتثال للأوامر الالهية . وتوصل معاصر سكوت ، الكاثوليقي رامون لول ، المعروف « بالملقان الملهم » ، عن طريق مذهب عقلي خاص مبني على احد أشكال الادب القديم ومعرفة اللغات الشرقية والبرهان الحسابي ، الى السمو بالتأمل الفرنسي نحو الذرى نفسها . فتمليّة جداً هي المؤلفات التقوية التي اقبل القراء على مطالعتها اقبالهم على قراءة « الاسطورة الذهبية » للدومينيكان يعقوب دي فوراجين او قصائد جاكوبوني دي تودي ، وعرفت « زهيرات » القديس فرنسيس رواجاً قل نظيره منذ اوائل القرن الرابع عشر . وكان مقدراً للصوفية ان تغدّي تياراً مزدوجاً ، في الجماهير - وهذا ما يفسر المحرفات ايمان قليل الاستنارة - وفي الاوساط المثقفة - وهذا ما يفسر غمّ النفوس المتشددة في ممارسة الفضائل الانجيلية .

وعرفت البقاء طيلة القرن الرابع عشر فلول شيع القرون السابقة : هرطقة الاطهار في لندوك و كورسيكا وبييمون و بوسنيا؛ وعاش الفالديون جماعات منعزلة في كل مكان تقريباً ، ولا سيما في اراغون ودوفينه وبييمون وحتى في بوهيميا حيث تم الاتصال بينهم وبين الهوسية ، ولكنهم برهنوا عن تصلب لم ينجح التفتيش ولا الحملات التأديبية في التغلب عليه . وبلغت حركة الروحانيين منتهى نشاطها في عهد البابوات الثلاثة الاول في افيينيون ؛ فقد ناهضوا الديرين دفاعاً عن مثل الفقر المطلق ، وكلفوا بالآفاق الجليانية التي وسعها مفسرو « يواكيم دي فلورا » ، وتأثروا بتحريضات جمعية « الاخوة الصغار » المنشقة ، فتناولوا بالانتقاد السلطة الكنسية والبابا الذي نعتوه « بالمسيح الدجال » والبلاط الروماني الذي شبه « ببابل » . وقد حدث ما هو أسوأ من ذلك ، اذ ان الوكيل العام للجمعية الفرنسية ، ميشال دي سيزينا ، كاد يجرّ الديرين أنفسهم الى حركة بيير دي كوربارا (١٣٢٨ - ١٣٣٠) الانشقاقية لانه عارض البابوية في المشادة حول فقر المسيح . ولكن « القانون » الفرنسي ، وهو أشد الزاماً من قانون الديرين مع انه يضارعه في احترام السلطة ، كان آخذاً في تجديد حرارة الاخوة الذي اصبح ، في النصف الاول من القرن الخامس عشر ، رسالة برناردين دي سيان وجان دي كلبستران . وقد بلغ من قوة الاندفاع نحو الزهد انه اخذ يزهر في كل الاتجاهات .

كانت رينانيا وهولندا ، الى جانب المناطق الجنوبية ، اعظم مراكز الصوفية حيوية فان جاذب الاختلاء والتكشف قد وجه الدعوات نحو الجمعيات التي حافظت على حرارتها النسكية والتكفيرية او استعادتها . فلم يعرف البندكتيون والمتسولون ، بعد ذلك ، النجاح الذي عرفته أشد الجمعيات صرامة أعني بها جمعية الشارترين : فالى الـ ٣٧ والـ ٣٤ فرعاً التي أسسها هؤلاء في هولندا خلال القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر ، اضيف في القرنين التاليين ١١٠ و ٤٥ فرعاً جديداً . ويفسر جاذب الفقر النجاحات التي أحرزها القانون الفرنسي ، ونجاح ريمون دي كابو في المحافظة على وحدة الاخوة الوعاظ عن طريق اصلاحهم ، واصلاح جمعية القديسة كلير على يد كوليت دي كوربي في اوائل القرن الخامس عشر . ولم تكن حياة العزلة اقل جاذباً ، كما يشهد بذلك تكاثر النساك والمنزلين عن الناس : فليس من دير او مدينة دون زاهد ناسك مختلر في صومعة قريبة من كنيسة او مقبرة . هكذا عاش في السنة ١٤٢٩ ، في مستودع عظام الابرياء في باريس ، الاخ ريشار الذي لم يظهر الا في الساعات الخطيرة ، حائناً المؤمنين المشدوهين على التوبة منذ الفجر حتى المساء . وهكذا عاشت ايضاً السيدة جوليان النوروشية التي اشركت في الحياة الصوفية ، حوالي السنة ١٤١٣ ، احدي سيدات لن ، مارجري كنب ، واضعة اغرب مؤلف انتجه الادب الانكليزي بما تضمنه من تنبؤات ومناجيات صوفية .

افضت الاخوة الدينية الى قيام جمعيات وجماعات كثيرة صعب على الكنيسة ان تلس فيها دلالات العقيدة القويمة . هذه كانت حال الرجال المتسولين والنساء الهائشات في الاديرة : فقد اتهمت بعض جماعاتهم بالهرطقة الالبية ؛ وقد اطلق ، في عهد لاحق ، لقب « لولار » (كاهن فاجر) على بعض المتجولين من هؤلاء المتسولين ، قبل ان يطلق على اتباع الويلكيفية . الا ان هؤلاء الرجال وهؤلاء النسوة الذين الزموا ، في حياتهم المشتركة ، بممارسة الفضائل المسيحية ، لم يكونوا متمتمين كلهم . فقد كان لزاماً على كل امرأة من هؤلاء النسوة ان تقضي سنة ابتداء وتؤدي ست سنوات في الحياة المشتركة وتبلغ الثلاثين قبل ان تعيش في احد المساكن الفردية التي تميز هذه الحركة ؛ وكانت تخضع في حياتها الاخيرة هذه لرئيسة عامة هي « السيدة الكبرى » . اصف الى ذلك ان هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء خضعوا تدريجياً لنظام متشابه ، اعني به نظام العالمين الخاضعين للقانون الرهباني او نظام القديس اوغسطينوس . فيجب من ثم ان نميز بينهم وبين « الجالدين » الذين اتوا غرائب لم يتعرف اليها طقس او قانون او كهنوت .

آوت مناطق بال وستراسبورغ ، على صعيد يختلف كل الاختلاف عما ذكرنا ، ندوات من المثقفين ، « الملانين الاقفاء » ، والكهنة والرهبان المنعزلين الذين اجتمعوا طوعاً هادفين الى تحقيق تقدم روحي جماعي . عاش « اصدقاء الرب » هؤلاء ، الذين اشتهرت بهم المقاطعات الرينانية ، في ظل بعض الرجال البالغين في الطريق الصوفية شأراً بعيداً . نذكر بين هؤلاء راهباً دومينيكانياً مشهوراً هو المعلم جان اكهارت الذي انهى في السنة ١٣٢٧ ، في « مكتب » كولونيا ، العمل الذي بدأه في باريس ؛ توفي قبل ان يرغم على تقديم خضوعه ، المضمون سلفاً ، واقترح

صوفية ميتافيزيقية ، ولكن الاتحاد بالله الذي صبت اليه نفسه اصطبح بمذهب الوهية الكون .
 وبين تلاميذه ، برهن جان تولر (المتوفى في السنة ١٣٦١) عن انسه غير بعيد ، ولو بمزيد من
 التحفظ ، عن تفكير معلمه ؛ وارتدت الصوفية ، مع هنري سوز (المتوفى في السنة ١٣٦٦) ،
 طابع الجليل الشخصي والعاطفي حيث تحتل العذراء ، عند اقدم الصليب ، المكان الرئيسي
 وحيث يشع كمال النفس ، التي توصلت في الام الى الاتحاد الالهي ، باعمال البر والمحبة .

وقد سمى وراء هذا الاتحاد بالله ، عن طريق الزهد ، اناس كثيرون في هولندا ، ارض
 التصوف المختارة : جيرار غروت و « دي دفنتر » في غنت ، وجان رويسبروك في بروكسل .
 بفضل غيرة الاول تأسست جمعية اخوة و اخوات الحياة المشتركة التي مارس اعضاؤها ، على الرغم
 من حياتهم الجماعية ، العمل الرسولي ونشر الكتب التوقية ؛ ويجب ان نعزو لهذه الجمعية النجاح
 المقطع النظير الذي عرفه كتاب « الاقتداء بالمسيح » المنسوب الى تومادي كمين ، وحارب
 رويسبروك من جهته ، وهو مؤلف « الاعراس الروحية » ، نزعة الاكهارتية التجردية وعاد الى
 القول باسهام الروح اسهاماً ناشطاً في تليبيتها دعوة النعمة الالهية .

وتوصل بيير دايبى الى رأي آخر ، منبثق عن ريشارد دي سان فكتور والقديس برناردوس ،
 مؤداه ان التأمل وحده قمين بأن يسد مسد الحدود العقلية في مذهب او كهام ويطلع النفس على
 أسرار الوحي . وسلك تلميذه جرسون السبيل الذي يؤدي من « الطريقة العصرية » الى « التقوى
 العصرية » . كان عميد « سان - دوناسيان » في بروج وعرف الصوفيين الفلمنكيين الذي شغلوا
 منه الفكر في البداية ؛ ولكنه بحث ، بوصفه جامعيًا وعالمًا بالأدب القديمة وطرفًا في مناقشات
 زمانه ، عن طريق مشتركة للحياة الروحية يوفق بها بين النظرية والصوفية ويتجنب الاخطار التي
 ركبها اكهارت والجلسارات التي عابها على رويسبروك . فقال بزهد يناوب عن العقل المجرّد وبلقن
 النفس سرّ الوجود الالهي فتستسلم للانخطاف بقوة النعمة . ومن بعده وصف راهبان شارترتيان ،
 هالودولف ودنيس ، درجات نعمة الصلاة : فتأمن من ثم ، عن طريق القرن الخامس عشر ،
 الاتصال بكبار متصوفي القرن السادس عشر .

آل « الهيام بالصليب » الى السمو بالصوفيين نحو رفعة الكمال قبل القديسة تريزيا
 والقديس جان دي لاكروا بقرنين كاملين . احتفظ جرسون طيلة حياته بأحدى
 ذكريات طفولته : ابره يسند ظهره الى الحائط شابكاً يديه بشكل صليب وقائله : « هكذا ،
 يا بني صلب الاله الذي خلقتك وخلصك » . واشركت كاترين دي سيان بالام المسيح قربارت
 آلام صحتها المنهارة ؛ وشعرت كولايت دي كوربي يرمياً ، في ساعة آلام المسيح ، بالام جسدية
 سادة جداً . واحتل آنذاك المركز الاول في الممارسات التوقية التعبد للدم المقدس والجراح المقدسة
 وكلمات يسوع السبع على الصليب ؛ وكانت « ساعة الآلام » تستهل « درب الصليب » الذي لم
 يحدّد عدد مراحل بعد . وقد آثروا آنذاك إحكام التأمل في يسوع مسيحاً متأماً على احكام

الذوق

التأمل فيه قائماً من بين الاموات ظافراً . ولا ريب في ان التعبد القرباني ، الذي أقرّ في القرن الثالث عشر ، بإقامة عيد خاص للقربان المقدس ، قد انتشر انتشاراً مطرداً ؛ ومهما يكن من جهلنا للطقس الديني الذي رافق تناول القربان ، فيبدو ان هذا التناول قد بات اقل ندرة : فقد نصح الى راهبات مستشفى المخلص في ليل في اواخر القرن الرابع عشر بتناول القربان اربعين مرة بعد ان كان عدد التناولات المفروضة ستة فقط بحكم قانونهن . ولكن عبادة القربان المقدم للمؤمنين في معرض مشع كالشمس قد أعاد الى الكثيرين منهم ذكرى السهرة في بستان الزيتون بالتفضيل على ذكرى التجلي في جبل طابور . وبجركة اجاعية ، اضافت النفوس القلقة ، الى تكريم العذراء الام التي عبّر مثالو القرن الرابع عشر عن نضارتها الطاهرة بتأثير عقيدة نشرها دونس سكوت في فرنسا ، الشعور مع عذراء الآلام التي توصلوا الى رفع عددها الى مئة وخمسين قبل ان يحدوده بسبعة . وام الآلام هذه ، التي اوحى موضوع تمثال « التقوى » ، هي الوسيلة الطبيعية للانسان : فانتشر استعمال المسبحة الوردية في القرن الخامس عشر بفضل الدومينيكانى البريطانى الين دي لاروش .

وبرز الموت اخيراً ، وهو ما اقض مضاجع الناس في تلك الايام المضطربة ، بمظهر الفساد الذي يرافقه . فان « التمثال المرتعد » الذي نصب للكردينال « دي لاغرانج » على قبره في كنيسة السيدة في افيينيون يمثل الميت « جثة عارية من اللحم ، شعثة الراس ، غائرة العينين ، بارزة الحرقدة » ، وتستخلص منها الكتابة المحفورة على القبر هذا الدرس : « انما نحن هباء وجثة نتنة وغدام وطعام للديدان . وانت سوف تصبح مثلنا هباء » . وتبارى الوعاظ ، رغبة منهم في الحث على التوبة ، في تحليل تفاصيل آلام المسيح ، اذ ان موهبة الدموع ، بمجرد التفكير بالخطيئة ، لم تكن وقفاً على الصوفيين : فقد توجب على هؤلاء ، اذا ما استندنا الى النصائح المعطاة لأخوة الحياة المشتركة او الى دنيس الشارترى ، ان يمارسوا تمارينهم التقوية في الحفاء ، بينما حذر جرسون هواة التأثر والصوم والامانة بتذكيرهم ان الغلو في التوبة هو فخ من فخاخ ابليس .

لم تكن الحاجة الى ابليس في الواقع اقل منها الى القديسين في الديانة الشعبية ، ولذلك فهو قد احتل في تمبذ الجماهير مكاناً متعاطف الاهمية . ولما كان كهنة الحورنيات أنفسهم متميزين في الغالب يجهلهم المطبق ، على الرغم من ارتفاع نسبة خريجي الجامعات بينهم ، ومسؤولين عن عائلات كبيرة ، وكثيرين جداً على كل حال ، فقد برهنوا عن عجزهم عن وضع حد لهذه الغرابات ، هذا حين لم يسهموا فيها بأنفسهم . وتظهر لنا الانظمة الجمعية وسجلات الزيارات ان الوضع المادي في طبقات الكهنوت الدنيا لم يتحسن قط بل سار من سيء الى أسوأ بفعل مصائب العصر ؛ وفي ما كتبه نقولاً دي كلامنج عن انهيار الكنيسة الدليل الصادق على ما أثاره فيه هذا الوضع من سخط ووجوم . واذا اتاح تقدم التعليم في الطبقات الوسطى ، حوالى اواخر القرن الرابع عشر ، انتشاراً اعظم اتساعاً للمؤلفات التقوية (كتب الساعات ، وكتب التعليم المسيحى ، وكتب تفسير القداس وكتب الصلاة) ، فان جمهور المؤمنين لم يستفد من هذا الانتشار . ومهما

يكن من الامر ، فان تسلط فكرة الشيطان هو دوغما ريب احدى ميزات ذاك العهد واطولها بقاء لانها ، على الرغم من الاصلاح ، ستستمر حتى القرن السابع عشر نفسه . فقد اعتقد الناس كلهم آنذاك بالسحر وشراب العشق والرقيه ومقاسمة الشيطان ، اما رغبة منهم في تعاطيها واما سعياً وراء فضح من يتعاطونها ومطاردتهم ؛ وليس اسهل ، في سبيل النيل من عدو ، من اتهامه بالرقيه والسحر .

ليس من عجب ، في مثل هذه الظروف ، اذا ما ضلت الجماعات طريق التقوى الحقيقية . ولنا على ذلك شواهد كثيرة ذات اهمية . فقد ازدادت حدة الحقد على اليهودي مدنس القربان بازدياد عدد « المعجزات القربانية » التي ظهرت اولها في باريس في السنة ١٢٩٠ ، ثم انتشرت في فرنسا الشمالية وهولندا ، ودامت حتى الثورة التي استهدفت افناء اليهود في بروكسل في السنة ١٣٧٠ . وقد سبق لنا وذكرنا تجاوزات الحركة المعادية للعنصر السامي التي دفع اليها انتشار وباء الطاعون في السنة ١٣٤٨ والتي لم ينج منها اليهود المطاردون بكرامية الا بالاتجاه الى الاراضي البابوية . واجتابت المانيا الغربية والجنوبية في آن واحد زمر « الجالدين » ، العراة حتى الزنار الذين يؤلفون دائرة ويقومون بمحركاتهم الاحتفالية التي تتعاقب فيها ، تعاقباً مطرداً ، السجدة والابتهالات والجلدات المتبادلة بواسطة سيور جلدية مثقلة بالحديد . وكان من شأن التبشير الشعبي ، الذي مارسه حكام قديسون من امثال « فنانا فريه » ومصالحون اجتماعيون او كهنة ضالون على السواء ، ان يفضي الى كل حركة مفاجئة : فلنفكر هنا بـ « جون بول ، كاهن كسنت المعنوه » الذي اثار ، في السنة ١٣٨١ ، فلاحى انكلترا على اسيادهم ، او يجاهير المناطق الشمالية التي طاردت ، في السنة ١٤٢٨ ، سيدات طبقة الاشراف كبنايا ، تلبية لنداء المدعو توما كونكت : « الى الطنطور ! الى الطنطور ! » .

المهرطقات الجديدة
ولكن شتان بين هذه الحركات الفوضوية وبين المهرطقات التي انتشرت ، في آن واحد تقريباً ، في انكلترا وبوهيميا والتي كانت في البدء تيارات فكرية جامعية قبل ان تنتهي الى الشعب بصورة مبسطة تتشابك فيها نزعات قومية واجتماعية أحياناً . فالنقد العقلي للمعاند ، سواء في الوريكليزية او الهوسية ، قد رافقته الرغبة في تجديد الكنيسة اخلاقياً والعودة الى الصراحة الانجيلية ، وأدى الى رفض السلطات الكنسية وبعض الطقوس – أسرار وعبادات – التي كانت في نظرم عيب كنيسة غارقة في الزمنيات وطامعة بالخيرات المادية .

دأب جون ويكليفي ، في كليات او كسفورد التي أقصت الاوغسطينية الفرنسية عنها الاسمى الاوكهامية ، كما في مجلس الملك الذي استخدمه منذ السنة ١٣٧٤ حتى السنة ١٣٧٨ خبيراً في خلافاته مع البابوية او الاساقفة ، على تحديد السلطة المدنية والكنسية على السواء ؛ ولم يلبث منطلقه الحماقد ان قاده الى انتقاد السلطات الكنسية ، والى حدود حرية الارادة نفسها . فنجم عن تساوي السلطتين ، اللتين لا يسمح بممارستها الا لمن هم في حال النعمة ، حق الامراء في ان

ينتزعوا من رجال الدين الممتلكات التي حولها فساد الكنيسة عن غاية تخصيصها الاولى . اقيمت عليه دعوى كنسية اوقفت مرتين وانتهت ، غداة الانشقاق الكبير ، بتوبيخ أسقفي بسيط لا بالحكم الذي تمناه غريغوريوس الحادي عشر . ثم أقصي عن او كسفورد حين دب الخلاف بينه وبين المتسولين حول سر القربان ، وشجعه مشهد الشقاق فبلغ منه ان قال بكنيسة روحية فحسب ، لا باباً ولا كرادلة ولا أساقفة فيها ، تقتصر سلطة كهنتها ، المتساوين صلاحية وفقراً ، على التبشير والوعظ فقط . وأرسى الحياة الدينية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً ، وقد طلب ، تمهيداً لذلك ، نقله الى اللغة الانكليزية . فلا فائدة بالتالي من التضرع الى العذراء والقديسين والحج الى الأماكن المقدسة واللجوء الى العفرائات ، وحتى الى الاعتراف بالخطايا :

فوثبات الضمير المستقيم هي التي تحمل الخطيء من خطايه ، والمسيح يستطيع ، بفضل علم سابق يقارب القضاء السابق منذ الازل ، التعرف الى خاصته . وأنكر تحول الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه في سر القربان ونظر الى الاسرار نظرتة الى مجرد رموز .

استؤصلت الهرطقة الويكليفية بسرعة من الاوساط الجامعية ، وحتى قبل موت ويكليف نفسه (١٣٨٤) ، ولكنها انتشرت بظاهر تقوي ، معاد للسلطات الكنسية والطقوس ، في اوساط محدودة من الفلاحين او الصناعيين المدنيين الذين كانوا في بعض الظروف عوناً للأشراف الريفين على رجال الدين . اجل لقد أتاح تضامن الاساقفة والحكومة الملكية حصر هذا الانتشار . ولكن جمع كونستانس ، الذي صدق الحكم على الويكليفية ، قد أمر بإبعاد فلول الهرطقة الى خارج الاراضي المسيحية : فقد علق آباء المجمع الآمال ، بتسوية الشقاق ، على تنظيف حقلين من حقول العالم المسيحي نبت فيها الزؤان حديثاً .

ساعد الوضع الاجتماعي ، والاحتكاكات المنصرية واللغوية ، وتجاوزات الكنيسة القائمة ، كذلك ، على انتشار الهرطقة في بوهيميا ايضاً . كان تأثير ميلك دي كرومرز ولا سيما توما دي ستيتي قد اوصل تلميذاهما جان هوس الى تخوم الايمان القويم ، ولكن سعيه وراء صوفية قادرة على ان تعيض من عبوس الاسمية ، قد أعده لأن يتقبل من او كسفورد ، قبيل السنة ١٤٠٠ ، وبواسطة جيروم دي براغ ، تعاليم ويكليف الجديدة . لم يكثر المعلم البراغي عندئذ بالاحكام الأسقفية والامبراطورية والبابوية ، بل جاهر بأرائه وانتقاداته . وفي هذه الأثناء اضطر أسقف براغ ، زبينك التشيكي ، الذي ساند هوس ، الى الاستقالة من منصبه ، فزاد بذلك انتشار الهرطقة : ونقل الكتاب المقدس الى اللغة التشيكية ، وللدلالة على الاستقلال ، عاد المؤمنون الى تناول جسد الرب تحت اعراض الخبز والخمر معاً ، ودرج هوس على القول انه يستأنف دعواه ، على البابا يوحنا الثالث والشرين^(١) الذي حكم عليه ، الى رئيس الكنيسة الاوحد ، يسوع . حوكم امام المجمع وحكم عليه دونما التفات الى الفسح الامبراطوري ، فأذل وأحرق مع جيروم دي براغ في كونستانس في السنة ١٤١٥ . انه لحكم قاس أدى الى الثورة الهوسية التي

(١) اقبل هذا البابا واعتبر غير شرعي . وهذا ما يفسر ورود اسم البابا يوحنا الثالث والعشرين في عصرنا هذا .

« هيئة الترجمة »

يصعب مع تشابك بواعثها الاجتماعية والاقتصادية والقومية تحديد خطوطها الدينية البحتة .
 انها افضت ، بما أتاه « الطابوريون » من اعمال بطولة عنيفة انتصروا فيها تكراراً على « الحملات
 الصليبية » الامبراطورية والبابوية الموجهة ضدهم ، الى نظام جمهوري دان بالتساوي بين الفلاحين ،
 الجنود ، الخاضعين لسلطة فرسان تشيكيين متحمسين ، الذين جمع بينهم كلهم حرص على الصراحة
 التقوية ينسب ببعض مظاهر « الصعاليك » في القرن السادس عشر او « الرؤوس المدورة » في
 القرن السابع عشر .

٥ - التصنع في التعبير الادبي والجمالي

قلق الوجود والتوق الى حياة فضلى : ان كافة الارتياحات والمتناقضات التي تميز الفكر
 الفلسفي والحياة الدينية ، تبرز ، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، في التعبير عن الحياة
 الاجتماعية وفي مظاهر الفن على السواء . فقد اثير نقاش بين المحسوسات والمعقولات ، وبين
 البدهة والتصنع ، وبين الفظاظاة والشعور الرقيق ، لم تسمح اية نزعة باستشفاف جواب جازم
 بصدده .

متناقضات الحياة الادبية
 ليس عسيراً علينا ان نرسم ، بواسطة المحفوظات القضائية
 ومؤلفات مهذبي الاخلاق المغمتمين - في وقت ازدهر فيه لون
 « الاحلام » و « المراثي » - لوحة قائمة السواد لاخلاق المجتمع المسيحي في عهد الطاعون والحرب
 اللذين طال امرهما في هذه البلاد او تلك . فهل نحن امام مجتمع « مختل التوازن » ، فقد كل
 رزانة في التظاهر بالذليلة والبهيمية ، وقارب الجنون في اغلب الاحيان ، وانتقل ، دون تحول ، من الجريمة
 الوقحة الى دموع التوبة ، وتباهى احياناً بقبائحه واستنشق بلذة رائحة الجثث النتنة ؟ ان
 خطوطاً كثيرة في هذه الصورة الخيالية المفجعة حيناً والبطولية حيناً آخر ، ترد الى الوهم الذي
 يولده فينا النظر الى الاشياء البعيدة . فان نجاحات الروح العلمانية والطبقة البورجوازية من جهة
 قد انمت ، كما سبق واشرنا الى ذلك ، الميل الى الهجو الاجتماعي وحرية كبرى في التعبير وواقعية
 لا تعقدها الاصطلاحات ، واشتدت المضادة من جهة ثانية بين الاخلاق التي لم تزل فظة والتفخيل
 المتزايد لدى الطبقات العليا ، فبرزت من ثم المتناقضات الاخلاقية بمزيد من القوة .

لم يكن الناس في القرن الرابع عشر ليهتموا لسهاجات حياتهم القصيرة وغير المستقرة اجمالاً
 او ليحترموها عند الآخرين . فهل في تدشين اول مستشفى لهجانين في ممبرغ ، في السنة ١٣٧٥ ،
 دليل على تفاهت الامراض العقلية يا ترى ؟ مهما يكن من الامر ، فان بلاطاً واحداً لم يخل من
 مجانينه واقزامه ؛ وليس من عيد شعبي الا وكان لهم فيه الدور الاول ، وقد احصاهم الناس
 في عداد الوحوش الغربية . ولم يستطع الملوك والعظماء ، شأنهم في ذلك شأن اسلافهم منذ قرون ،
 الاعتدال في ميولهم الفظة : فان سوروات الغضب الشديد عند جان له بون الابي او ادوارد الثالث

البشوس ، وعوارض الطهيجان عند فيليب له بون الذي كان يسكنها بالسير على الحصان حتى النهكة في غابة « سواني » ، ونوبات « السويداء » عند « الجسور » ، تتجدد عند كل من لم تدفعه حياته ، الحربية حيناً والمتفخلة حيناً آخر ، الى مراقبة اهوائه . وقد اعترف فرواسار ، على الرغم من اعجابيه الاعمى بطبقة الفرسان ، بان « اكبر الامراء واكبر الاسياد . . . ما كانوا ليتميزا عن البهائم لولا وجود الاكليروس » . وان في جاذب علوم السحر والتنجم التي اسهم في نشرها رجال الدين انفسهم بسبب ميلهم الطبيعي الى التشكي من داء لمسوه في كل مكان ، لدليلاً على ان الناس قد حاولوا في الاوقات العصيبة استمالة كافة القوى الفائقة الطبيعة او الجهنمية اليهم : فهنري دي ترنستار لم يقدم على عمل شيء دون استشارة ساحره الطليطي الذي ادعى استحضر الموتى ؛ وروي عن غاستون - فيبوس ، كونت فوا ، ان روحاً مؤالفة كانت تشعره بالاحداث ساعة حصولها بالضبط . وان في استصواب رجل متزن كجرسون وضع دراسة لتحويل شقيقاته عن تعاسات الحياة الزوجية لصدى للتقليد الرهباني القديم الذي استرذل الفعل الجنسي واحتجاجاً على الفجور والضلال اللذين شاهدهما بأم عينه . واستند مذهبو الاخلاق الى هذه الافراطات في اصدار حكم مطلق على العصر بكامله ، ابتداء من القصة الهجائية التي اهتم كافة المعاصرين بتمضية وقتهم في تسيح فوفيل - الحمار الاحمر الذي كان يرمز الى مجموع الرذائل كلها - حتى الشاعر اوستاش ديشان الذي لمن

« زمنه الكلي الرجاجة والبهتان »

وعصره المليء بالكذب والغطسة والحسد »

وقد زادت في تشاؤمهم رؤيتهم للأهواء الجماعية التي كانت الجماهير المدنية سريعة التأثر بها ، فتذرف الدموع سخية عند سماع المواعظ وتقبل على تناول الاسرار بجمرة وتطرد بنات الهوى تلبية لدعوة مبشر - وقد تتساهل معهن في اليوم التالي - او تقوم « باهتزازات » دامية تشرك فيها الكائنات السماوية اشراكاً غريباً : ففي أثناء مذابح الحرب الاهلية ، في السنتين ١٤١٣ و ١٤١٨ ، وضع المهيتجون الباريسيون القبعة البورغونية الصغيره على رأس تمثيل قديسيهم . اضع الى ذلك ان اللهو الشعبي غالباً ما تميز بفضاظة مثيرة كمشهد تنفيذ الاحكام بالموت الذي كانوا يستطيون التادي فيه ، وكللمبارزة التي جرت في باريس نفسها بين عميان تضاربوا بالعصي حتى الموت . وكان لكل مدينة لصوصها الذين يسيطرون على الشوارع المظلمة ليلاً : فقد أُلّف هؤلاء اللصوص ، في باريس نفسها ايضاً ؛ « مملكة الصعاليك » التي اطلق فيها اسم « الصعاليك الاحرار » على من يرفض منهم الاسهام في تحمل الاعباء المشتركة . ثم جاءت الحرب فأخرجت زمر اللصوص وقطاع الطرق والقتلة هذه من اغواطها ؛ وبلغ من « صعاليك » القرن الخامس عشر ان حملوا شارة حجاج سان - جاك نفسها .

اذا كانت الاهواء عنيفة واذا شجعت مصاعب الحياة القلقة على جمع الثروة بأسرع السبل - كان جبابة الضرائب والصيارفة والتجار اول المبادرين الى هذا الجمع وقد اهتموا بالغش وسرقة

أموال الدولة عموماً - فهل يميز لنا ذلك لجاهل « البورجوازي الشريف » و « الفلاح المسكين » الذين لا نعلم بوجودهما الا حين يأتيان عملاً يؤخذان عليه فيلتمسان، بذرف الدموع ، برامات الغفران ؟ هنالك طريقتان امام الانسان للحكم على عصره : اما الحكم عليه حكماً مبرماً كما يفعل مهذبو الاخلاق والمهاجرون ، واما الارتضاء به بسلامة قلب ، دون تجاهل علاقته ، واتباع اخلاق منتصفة ترفض كل مجاوز وافراط وتفسح للذة والمنفعة مكانها . تتمثل الطريقة الاولى ، في انكلترا، بنقد لنفلاند الاجتماعي الذي استوحى المواعظ الشعبية في رؤيا لا بريس بلومن . وتتمثل الثانية بسخرية شوسر الباسمة في كتابه « قصص مع كينتربري » الذي ينم عن ذوق شامل واحترام للأعراف الاجتماعية .

الفروسية وأدب الجمالة
لا ريب في ان مثل الفروسية أرسخ هذه الاعراف تأصلاً في طبقة النبلاء مع ان تجدد العائلة المنتمة اليها أمرع حصولاً منه في السابق . وهو ما زال مرتكزاً الى الفضيلة الرجولية التي تقاس بتمجيد الاقدام والنجاح الشخصيين؛ وليس نصيب الفارس منها ، في سعيه وراء البطولات ، دون نصيب البورجوازي في صراعه لجمع الثروة . وان في ما اطلقت عليه ايطاليا اسم الفضيلة (Virtù) محاولة لتعظيم الخزم وطول الاثارة والسيطرة على النفس : وانما هي زهد بشري أكثر منه مسيحي فيه تتأدى خشونة القرون الوسطى ، وتترامى أناقاة النهضة ، ويبعث الرجل الشريف والرجل الصالح احدهما عن الآخر دون ان يتلاقيا بعد .

الا ان من واجبنا القول بأن الفروسية والجمالة ، بفرض الزاماتها فرضاً مطرد الشدة ، قد برهنتا عن عجزهما عن عكس أنظمة المجتمع الجديدة ؛ فكانتا من ثم مثلاً مصطنعاً اصطنع بالتكلف الادبي وتختد في الخيال الوهمي ، حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يرضوا بتشويه فضائل الفروسية وطالبوا باحترام دستورهما .

ما فتئت المرأة ، وفقاً لمثل الجمالة ، تلي التصرفات الشريفة ، ولكن هذه التصرفات قد ارتدت طابعاً آخر . فاذا كانت لور ، بالنسبة لنيترارك ، « سيدة روحانيته » ، فان الفارس ينهل وحي بطولاته من « سيدة أفكاره » . فقد قال والد « جاك دي لالين » لابنه : « قليلون هم النبلاء الذين بلغوا فضيلة البطولة السامية دون ان يلهجوا بسيدة او آنسة » . من اجلها تقسم الايمان الصعبة او الفريسة احياناً ؛ فقد أقسم مرافقو ادوارد الثالث من الجنود لسيداتهم ، في السنة ١٣٣٧ ، بأنهم سيحبون احدى عينهم بقطعة نسيج سوداء الى ان يأتوا مأثرة كبرى . والفارس التائه انما ينتظر من « سيدته » ، في البلاط نفسه او أثناء الخدمة العسكرية ، مكافأة بطولاته البعيدة الكثيرة ، عند انتهاء مصائبه ومحنه . ولم ينتقد انطوان دي لاسال هذه الماديات قط في كتابه « جهان دي سانتري الصغير » الذي ألفه لابن الملك « رنيه » ، بل بقي أميناً « للعصر السالف النبيل » ؛ وعلى غرار جهان ، تذكر « جاك دي لالين » ، الذي كان مثلاً حياً في تشرده البطولي ، دروس « سيدة بنات الاعمام الحسنات » ؛ فقد تمكن من استئالة قلوب

الاميرات يهداياه واستطاع في أحد الايام دخول ميدان المعركة حاملاً في أعلى خوذته بخاراً مطرزاً بالجواهر ، وفي معصمه اسولراً ، كما كلامها شهادة باعجاب المعجبات به . وغدت الالوان والشعائر رموزاً متفقاً عليها للأمانة المثالية ، ما زال يتوخاها ، في خدمة الصليب دون غيرها وفي احترام المرأة ، الفرسان الملتفون حول فيليب دي ميزير وبوسيكو في جميتي « آلام المسيح » و « الترس الاخضر المزدان بالسيدة البيضاء » . بيد ان الكثيرين من اعضاء الجمعيات الجديدة - جمعيتا « النجمة » و « رباط الساق » في القرن الرابع عشر ، وجمعيتا « الجزة الذهبية » و « القديس ميخائيل » في القرن الخامس عشر - قد اضافوا المشاغل العالمية الى ابتغاءات الفرسان البطولية في الايام السالفة ، لا بل اقاموها مقامها احياناً .

اذا المرأة احتلت مركزاً رئيسياً دون منازع في « بلاطات الهبة » التي ابتكرها الامراء البورغونيون ، فهل بقيت ذلك الموضوع الخالص لهبة حلال ؟ ثارت كريستين دي بيزان ، في نقاش حاد ، على الاخلاق المتراخية في « قصة الوردية » ؛ فيين « جان دي دونغ » وظهور كتاب « مئة قصة جديدة » ، مروراً بـ « الزوج الباريسي » و « أفراح الزواج الخمسة عشر » ، انتشرت اخلاق عالمية أخفت ظواهرها المباشرة احتقاراً متفاوت الوقاحة للمرأة قوامه ازدياد الرجل لكائن ضعيف ولادة لذة . وما أسعد المرأة التي تحترم من اجل كثرة اولادها ؛ فقد كتب مؤلف لاتيني ما يلي : « لا يقاس جمال المرأة ، في نظري ، بطلاوة وملاحة محياها بل بجسمها العامر الممدد لأن ينبغي لك بنين حسناً جداً » . وأبناء الزنى كثر في كل العائلات ، وليس من يفكر باخفائهم او حرمانهم من الارث ؛ والهبة خارج الزواج تعظم وكأنها منتهى التنعم ، وتتصف ألقاظ الرجال ، من محاربين وغيرهم ، بحرية مفرطة : فاذا لم يجد السيد « دي لاتور لاندرى » افضل من أماليج لفراد الحرس لتربية بناته ، فان مجتمع المدن الايطالية ، وبلاط بورغونيا من بعده ، قد خصصاً السيدات ، بصورة طبيعية جداً ، بكل عناية مستهجنة يعجبها الذوق اللطيف . ولا يرى احد غضاضة في اشراك الديانة في هذه المظاهر الاباحية : فان لويس دورليان ، الذي أرحى لشهواته العنان ، كان يرتدي المسح ايضاً ؛ وقد مثل ابنه شارل ، الشاعر ، تأوهات « عشاق العفاف » بآلام ابناء القديس فرنسيس السرية .

أنى لمثل الفروسية المتأخر هذا ، من جهة ثانية ، تدميت اخلاق الجندي المتعود اعمال القوة والعنف ؟ لقد قضت مبادئه بأن تتبادل قوى الخصمين ، في الحرب والمبارزة على السواء ، وبأن يكون النصر حليف أعظمها شجاعة : ولكن ذلك لم يجعل ، في ساحة المعركة او أثناء الجولة على صهوات الجياد ، دون معاملة المشاة الاوباش وسكان الاكواخ بمنتهى القسوة والفظاظة . « قسوة واستلاب واغتصاب » ، ذلك كان شعار فرسان كثيرين روى فرواسار فظاعتهم بكل رضى ، لأنها غدت جزءاً لا يتجزأ من الاخلاق العامة وباتت ، في نظره ، هفوات تافهة لا يطالب بها رجل شريف ، بينما هي تصبح جرائم اذا صدرت عن القروي او البورجوازي او رجل الدين ، اذ ان القسوة ، المعتبرة فضيلة عسكرية ، كانت وقفاً على النبلاء . « هل تعرف ان تكون قاسياً

ومتطرساً ؟ ، طرح ' ' السؤال على البورجوازي « فليب فان ارتفلد » حين استلم قيادة الثورة في هنت . وكانت المباراة بين بورجوازيين أمراً مشيناً معزراً ، لأن الأرستوقراطية استأثرت بحق سماع « صراخ الدم » والدفاع عن شرف « الروابط الزوجية » . وقد اعتبرت الكين ، في مثل هذه الحالات ، تصرفاً منكراً ، ولكن صليبي « نيكوبوليس » التقى قد أسند الى احدهم مهمة اغتيال ابن عمه في احد الشوارع الباريسية المظلمة . لذلك كان شرعاً يعاقب بماقب به الفارس نمته بالفروي الحشن ؛ وحين حكم على السيد « جياك » لاقدامه على قتل زوجته ، اغرق في كيس غيظ كالو كان حيواناً مضراً ؛ وهذه ميتة لا تليق بالفارس .

لا ريب في ان الاخلاق الفظة ترد الى اعتبارات الشرف ، ولكنها برد قبل البذخ والذوق
ذلك الى الحرص المفرط على المال ايضاً . ففي وقت انهارت فيه المداخيل السيدية ، بينما زاد انتشار البذخ بين الطبقات الميسورة ، وفرض حسب التظاهر سخاوات وقفية كبيرة ، وما زال السخاء فضيلة الرجل الشريف الاساسية ، كانت المحافظة على المستوى الاجتماعي ضرورة ملحة . وكان الحسد والبخل ، على غرار السخاء ، « سيدين وملكين » . وحصل خدمة يدفع ثمنها ، ولا سيما الخدمة العسكرية . وقد كتب فرواسار : « الجنود لا يعيشون قط من الغفرانات » . ولما كانوا ، من جهة ثانية ، ينتظرون الغنائم والفدى من الحرب ، فكان طبيعياً ان يصبح الفارس سلاباً . فاذا توصل اوستاش دوبرشيكو ، الذي اعجب فرواسار بآثره البطولية ، الى ان يستولي عن طريق الخدعة على احد الحصون اكراماً لسيدته ، فان ثري الحرب كروكار ، قد ارتفع من مرتبة الغلمان الى مرتبة الاسياد .

في طبقة النبلاء هذه ، التي كثر فيها حديثو النعمة ، شغل الشبان بالهم بالبذخ الذي سخر منه الهجو البورجوازي في « تقليد رينار » :

« المماشرات السيئة تتسلط على العقل
هذا يلعب بالكماب وذاك يحبي الحفلات
هذا يجادل وذاك يحارب
كلهم كرماء وذوو مال وفير
ولا يعلمون من أين تأتيهم الاموال » .

وليست غرائب الذوق والرغبة المستجدة في اقتناء الاقمشة الثمينة كالحرير والفراء وقفاً على طبقة ذات مزايا معينة . فبמיד الطاعون الكبير ، كما قال فيلاي الفلورنسي ، « ارتدت اوضاع اللسوة الملابس الجميلة التي ارتدتها من قبلهن سيدات ارستوقراطيات أدركتهن المثية » . وفي انكلترا ، هبنا حاولت بعض القوانين تقييد النفقات المفرطة بتدريج البذخ في الملابس بحسب مرتبة الافراد و ثروتهم . ويرد ذلك الى ان الذكور استمدوا ، منذ اوائل القرن الرابع عشر ، الزي « الجزئي » الذي اختلفت ألوان الملابس والاحذية والقبعة فيه بين الجهة اليمنى والجهة

اليسرى . واضيف اليه ، حوالي السنة ١٣٤٠ ، زي الملابس القصيرة الضيقة ، بينما حافظ المجدون وحدهم ، أي رجال الدين والقضاة والاساقفة والاطباء ، على الثوب التقليدي الطويل . وفي النصف الثاني من القرن ، حلت القميص القطنية محل القميص الصوفية الناعمة ، واستعملت الفراء النادرة لصنع القبعات وتزيين الملابس ، المصنوعة من الاجواخ الخفيفة ذات الالوان الزاهية المتنوعة ، القادرة على التعبير عن الفوارق الاصطلاحية بين مختلف العواطف . وزاد الشكل العام غرابة : فاذا أُرجمت المرأة شعرها الى الوراء حتى لا يظهر منه شيء على جبهتها ، فانها كست رأسها بالطنطور او بقبعة المنجم المقرنة المزدانة بخمار طويل متسدل ؛ وقد انتقد السيد « دي لاتور - لاندرى » زي كشف أعلى الصدر والكتفين والذبول السابغة التي يجب رفعها والقائما على الاذرع ، والخصر المشدود حتى اضاقه النفس . اما زي الرجال وهو أشد غرابة ايضاً بآكتافه المستعارة المحتشة وضيق زتار ثوبه المخصر المنحدر الى الركبتين ، فقد اظهر نصف الجسم الاعلى بشكل مربع منحرف يعلو ساقين محيلتين محشورتين في سروال ضيق ملتصق بها تلتعلان حذاءين أشبه بطرف مقدم السفينة - كأظفار الحيوانات المسيخة ، كما يقول اوستانش ديشان . ويتكامل كل ذلك بقبعات عالية او مستديرة من الجوخ او من الفرو . واختفت اللحية في أواخر القرن بعد ان درج زي ارخائها وتقسيمها الى قرنين « مغناجين » ؛ اما الشعر ، الذي كان في البدء طويلاً ومتوجماً ، فقد قص بعد ذلك بشكل كمة قروية . وهو هذا اللباس الغريب الذي سخر منه « جان دي كونديه » في قصة جاءت تسميتها « القرد » في محلها

سبق لبيترارك وشنتر على هذه الأزياء المشينة ، وعبثاً حرّم اوربانوس الخامس وشارل الخامس الاحذية الملسنة . الا ان القرن الخامس عشر قد زاد في الطين بلة فكس الجواهر والاقمشة الثمينة ، ولا سيما الحرائر والملابس المزينة بالصفائح الذهبية والفضية . فافضى بنخ الملابس الى ابراز المضادة بين الثروات وبؤس الجماهير ، مع انه استجاب لسعي الناس آنذاك وراء حياة افضل ووراء شكل جمالي معين يمثل الادب والفن ، لا غرائب الأزياء ، مظاهره الحقيقية .

استطاع القرن الرابع عشر ، في كل شكل من اشكال التعبير الجمالي ،

مصائر الفن القوطي

ان يطبع بطابعه تنوع محاولاته وحتى جسارتها احياناً . كان لزاماً عليه ان يتحرر من الوصاية الجائرة التي كان الفن القوطي العظيم قد فرضها على كافة أنحاء اوربوا ، درنما تنكر لمبادئها ؛ ولم يكن باستطاعة الاجيال اللاحقة ، امام إرث القرن الثالث عشر ، اي امام تنسيق النسب الهندسية ، وحقيقة النقاشة المحصنة بالمثالية ، والميل الى الاضواء والالوان ، وتناسق الاصوات المتعددة في الغناء ، واللغة الادبية - الفرنسية - المسلم بها لغة شاملة ، سوى ان تستنزف صيغه المفرطة الكمال التي مالبت ان استقرت استقراراً نهائياً ، او ان تحاول الابتعاد عنها بالبحث عن تزيين اعظم اخصاباً واقل تبعية ، او عن ضرب من ضروب « فن غريب » ينحيا من الجمود والخطاط . وكان مقدراً ان تنجم عن هذه الابحاث صيغ جديدة تأتلف فيها التقاليد المقبولة والطرائق الممتحنة مع نزعات جريئة ومخضابة . فلسنا بعهد حيال

الكلاسيكية التي شهد القرن الثالث عشر ازدهارها، حتى ولا حيال فن «عظيم» جداً في أكثر الأحيان : اذ ان كل نظرية جمالية يجب ان تدرس مجردة ، أي بمنزل عن القوانيين المدرسية ؛ والنظرية ، او بالاحرى النظريات التي أبصرت النور في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لا تستحق الاستخفاف الذي استهدفها بسهولة

اذا ما استثنينا ايطاليا التي التهمت آنذاك نحو طرق مختلفة ، وأينسا ان كل دولة من دول اوروبا ، على الرغم من فوارقها القومية او الفردية ، حاولت تجديد طريقة تعبيرها الجمالي بتلدين الصيغ القوطية . وقد ادت النزعة العامة الى الاختبارية والفلسفة الكلامية ، عند بعض هذه الدول ، وكان لفرنسا قصب السق في هذا المضمار ايضاً - الى اعطاء المركبات المعنوية شكلاً نهائياً يكاد لا يختلف بجموده عن جمود الخطوط الاولى في التصاميم . وجدت الاختبارية في الوقت نفسه في معرفة الخصوصيات وساعدت على تمييز الالوان واتناء مظاهر الذوق المختلفة ، بينا اوجبت الفلسفة الكلامية على العقول وضوح التعبير ، وكال الشكل . فنشأت من ثم ، في منتصف القرن الرابع عشر ، مطابقت بين النزعات الفكرية والادبية والفنية وطرائق التعبير عنها .

الميل الى الوضوح : تلك هي حال الالوان المجرّدة والمتميزة ببعض الفتور في هندسة العمارة . فان في ارتفاع العقود ، وفي صلابة الركائز التي آلت فيها التيجان ، حين لم تضمحل نهائياً ، الى مجرد طريدة من اوراق الشجر ، وفي دقة النقوش الناتئة ، وفي توسيع النوافذ المفرط ، وفي تفضيل الاشكال الهندسية المشعة ، لمعظمة اشبه بمعظمة اللوحة الكبيرة المنجزة . ولكن البناء يتميز بمزيد من التنسيق وتتميز انارته بمزيد من الرّوق والمساواة في التوزيع . وتطورت تقنية زجاج الكنائس ، فقد اعتمد اللون الرمادي بالتفضيل على غيره في الخلفيات ؛ وانتشرت الالوان الاخرى المختلفة ، التي اضيف اليها اللون الاصفر الممزوج باللون الفضي ، في صفائح زجاجية مزدوجة عريضة ، ما زالت تلوّن في داخلها ، ندرت فيها الفواصل الرصاصية . وان ما دشنه القرن الثالث عشر المشرف على الانتهاء ، في كنيسة القديس اوربانوس في «طروا» قد قفّح في كنيسة سانتوان في روان ، وفي كاتدرائيات متر وستراسبورغ ، وفي كركسون ، وفي البي - حيث انجز معبد محصن بالقرميد - وانتشر في ما وراء الرين وحتى وراء الجبال ايضاً . اما ايطاليا فقد تأخرت عن الركب ، ولن يلفت الانتباه فيها ، طوال القرن الرابع عشر ، سوى مثل كاتدرائية اورفيانو . ولكن الامر يختلف كل الاختلاف في شبه الجزيرة الايبيرية حيث تأثرت برشونة وبالم وجيرونا وبلبلونا وطليلة بالنمط المشع في فرنسا الجنوبية الذي نشاهده حتى في «بطلمها» من اعمال البرتغال . وانتشر هذا النمط المشع الانيق الفاخر دراكافي المانيا حيث انهى احد الفنانين الفرنسيين ، في السنة ١٣٢٢ ، خورس كاتدرائية كولونيا : والى القرن الرابع عشر تعود ، في اقسامها الهامة ، تحقيقات هولندا البنائية القوطية الكبرى في غنت وبروكسل ولياج . وابتكرت انكلترا اخيراً علماً جمالياً خاصاً : فبعد ان رضيت ، طولان جيل كامل ،

عن التزيين المتعل بالخطوط المنحنية المتقابلة والزخيرات اللحيمية والاقسام الناتجة السمجة ،
سارعت الى اعتماد الخط المستقيم الجاف ، في اطار مستطيل اقصيت عنه القناطر عملياً ، وهويت
فيه العقود المتقاطعة دونما هدف ، التي انتهت الى رسم مراوح غريبة . فارتفعت الروائع الاولى
التي تمثل هذا الفن « العمودي » في بريستول وغلوسستر حوالي السنة ١٣٣٠ ؛ وهو قد بلغ
ذروته في اواخر القرن في خورس يورك ، وخورس كنتبري الذي اتماه هنري يفيل في السنة
١٤١١ .

اما الفنون التصويرية ، التي لازمت هندسة العمارة حتى ذلك العهد ، فقد اتجهت نحو الاستقلال .
فادى مثل الاقتداء الجمالي ، الامين لتقليد واقعية القرون الوسطى ، بالنقاشة والتصوير ، الى
البحث الدقيق عن صحة الاحكام والكمال التقني ، وقد اعتبرا منفصلين عن بعضها ولم يكثر
للتوفيق بينهما وبين الاطار الذي انزلا فيه . ولم تعد نقاشة التماثيل في الابنية ، وقد الجئت الى
ملاحظة التفاصيل وتمثيل جسم الانسان تمثيلاً صادقاً ، سوى تكلمة ضرورية للبناء ؛ كما لم تعد
التماثيل المرتفعة جزءاً لا يتجزأ من البناء ، فبرز كل منها تحت مظلة ضخمة ، واخذت مشاهد
القباب والاسكف والصفائح الخشبية في اسفل الجدران تفسح المكان للصورة الفردية : ذلك هو
زمن انتشار صور العذراء حاملة ابنها التي تتميز ببعض التكلف في تراخي الوركين ، ولكن
النقاش قد رسم على ثغرها الابتسامة الحقيقية التي تبسّمها النسوة الشابات . وبرز فن الصورة
الفردية عند نقاشي ورسمي المدافن ايضاً ؛ فقد اهلوا النقوش والرسوم المقدسة التي اعتمدت في
المدافن الملكية او الاسقفية خلال القرن الثالث عشر وشغفوا بتمثيل الموتى تمثيلاً معبراً مألوفاً .
هكذا تظهر لنا « المذارى المرحات » في ارفورت ، وشارل الخامس في اللوفر ، ومدافن سان
دني وافينيون . وهذه ايضاً هي النزعة التي اتفقت وتقليد العصور القديمة في المنابر التي نقشها
نقولاً بيزانو ، والتي اشعت ، من خلال مدرسته ، على اسبانيا وايطاليا ايضاً .

وفي فرنسا ايضاً كما في ايطاليا - في سينا وفلورنسا - ارسخ التصوير استقلاله وبميزاته
الجديدة . فها هي من جهة ، عند منعطف القرن ، واقعية جيوتو المنتصفة - تألف كما سبق
ورأينا ، بين العاطفة القوطية ، والاشكال القديمة - التي يعبر فيها عن محبة الفرنسيين للطبيعة في
مشاهد معتادة ، مستعارة من « الاسطورة الذهبية » في صور « بادوا » الجدرانية . وهذه هي
من جهة ثانية ، مدرسة دوتشيو ومارتيني في سينا ، التي قد تكون دون الاولى روحانية ،
ولكنها تتميز بواقعية مؤثرة وجليلة الفائدة ، بما تعرضه من ذكريات الشرق الكثيرة في مشاهد
الحدائق والقصص الزاهية التي ملأت بها جدران قصر البوابات في افينيون . وبسلوك هذه السبل ،
قطعت شوطاً كبيراً ، في مجالات التقدم ، المدارس الفرنسية ، اي مدرستا افينيون وباريس ،
اللتان بحثتا كلتاهما عن طرائق جديدة للتعبير التصويري ؛ فان الصورة التي لم يبق لها من مكان
في كنائس غدت معرضاً للزجاج سوى المثلثات القائمة بين اقواس العقود ، والتي اقصيت عن
المساكن الخاصة بفعل انتشار التنجيد والفرش ، وكلاهما اوفر دفأً وفضل تأثيلاً ، قد رسمت

آنذاك على اللوحة الخشبية في الرافدة المركزة وراء المذبح او في صفحة كاملة من مخطوط مزوق. اجل لقد فقدت بذلك طابعها البنائي العظيم ؛ ولكنها استعاضت عن هذا الفقدان بموهبة امثال جيرار دورليان مصور جان لوبون ، والواقعية الشديدة التعبير في « نسيج مذبح ناربونا المهذب » وتزيينات « جان بوسيل » : فهنا قد سيطر الاهتمام بتصوير التفاصيل الدقيقة ، دونما علاقة مباشرة بالنص المقصود تزيينه بالصور ، حتى ان الفنان قد نسي المؤلف العام الذي اعدّ تصاويره له .

ان الحركة العلمية السائرة قدماً بفضل الاختبارية ، قد فرضت على الالوان والتماير الادبية النثر العامي ما لم تفرضه مباشرة على هندسة العمارة والفنون التصويرية من ضبط في تأدية الفكر . فكانت ترجمة مؤلفات القدماء ، الى اللغة الفرنسية بنوع خاص ، مدرسة تعلم المرونة والدقة ، فاتاحت خلال القرن الرابع عشر تحسين اداة التعبير عن الفكر تحسیناً مستمراً : تراجم فيجيس وفيتروف ، و ترجمة نقولا اورسم لمؤلفات ارسطو . وبدأ انتشار الروح القانونية بانتشار مجموعات المنتخبات والتفسيرات ؛ وبينما كان الايطالي برتولو مستمراً ، في بيزا وبادوا ، في وضع متعارفاته باللغة اللاتينية ، وسع جان ده ماره وجاك دابليج وجان بوتيليه في فرنسا الطريق التي شقها « بومانوار » من قبلهم ، فظهرت حينذاك « عادات » بريطانيا وفرنسا ، و « طراز حصن باريس » ، و « المجموعة الريفية » ، وكلها روائع عصر من رجال الاختصاص .

وباستطاعتنا ان نذكر التاريخ أيضاً ، مع انه لم يبلغ بعد درجة الفن . فهو بعد جان لو بيل ، قد اشتهر ، بفضل فرواسار ، بالوان لم يتوصل اليها جوانفيل في مذكراته . فان فرواسار الذي تقصى الاخبار برصانة وصدق لم يعترف له بها احياناً ، وكان قادراً على الاحاطة باحداث الغرب كلها ، وشفف بمعرفة مجتمعه عصره وحرص على تفسير ما رأى ، قد حدد مهنته خير تحديد : « لو قلت : حدث كذا وكذا في ذلك العصر ، دون ان اكتشف السرّ او القي الاضواء عليه ، لكنك دونت مذكرات لا تاريخاً » . فالشغل الشاغل الجديد انما هو الوقوف على اسرار البلاطات والقلوب والبحث عن دوافع الاعمال عند عطاء هذا العالم . اجل لم يكن ذلك وقفاً على فرواسار ، ولكن اوروبا لم تعرف له نظيراً ، لا في اسبانيا ولا في انكلترا ، ولا في هولندا نفسها حيث يجب ان نذكر اسمي برابانتس ويستن الشهيرين .

ليس المجال بعيداً بين التاريخ ، وهو سرد بطولي او ازدرائي للاحداث ، وبين الرواية الخيالية والقصة البطولية والخبر والنقد الاخلاقي . فقد تمثلت في كافة انحاء اوروبا جميع هذه الالوان باشكالها التقليدية او الجديدة الجريئة . واستمرت فرنسا في طرق مواضيع الاغاني الایمائية ، اذ ان القصة البطولية والهائلة ، نثراً او شعراً ، قد احتفظت بمكانتها ورواجها ؛ وولع الاجانب بدورهم بالختارات « على طريقة فرنسا » . فظهرت في ايطاليا « القصص الملكية

الفرنسية « وفي المانيا « كتاب المغامرات » وفي اسبانيا « الفتح العظيم ما وراء البحر » ، بينما اوحى برسفال ؛ في انكلترا ، « السيد غواين والفارس غرين » ، وعرف ترستان ترجمة تشيكية ، واقتبس اوزياس مارش عن اللغة الكاتالونية نغبات شعر الجاملة . ولكن بودوان دي سيبورك ، على الرغم من انه ما زال يتميز بنفحة ملحمة ، قد عرف ، في السنة ١٣٢٥ ، الحميا التي جعلت في القرن نفسه من « تاريخ فارس الآلهة » ، قصة البطولية الاولى . وفي الواقع ، برز الميل اكثر فاكثر الى القصة ؛ ففي « قصص من كنتبري » لشوسر ، التي تم عن اعجاب المؤلف بيوكاس وتقليده له ، والتي تمتاز ببساطة سيكولوجيتها وظرافة نقدتها الاجتماعي ، وفي « كونده لوكاتور » لجوان مانويل بلغت القصة الذرى ، بينما كان « جات دي كونده » يقف في اللغة الفرنسية حكايات منظومة جميلة . وهكذا كان الهجاء والواقعية على موعد في الادب . فحارب تجاوزاتها الصادرة كلها عن جان دي مونج ، كل من غليوم دي دينيوفيل وجون بونيان بروح مسيحية . بيد ان « حج الحياة البشرية » و « تقدم الحاج » لم يحولا كلاما دون دخول النفحة الداعرة الى اسبانيا مع « كتاب الهبة » لجان رويز ، كما لم تمنعنا كاهن طروا ، خالق الثوب الرهباني ، من تقليد رينار باستهزاء وقحة . وناقسه كثيرون في هذا المضمار لاسيا الاسباني « بيرو لوبيز دي ايالا » الذي برهن عن عنف لاذع في « ريمادودي بالاسيو » ، والفلمنكي « جان فان بوندال » . وكان الادب بالاضافة الى ذلك علمياً ، وقد جمع بين الروح النقدية والثقافة واعتمد في التعبير التقنية المدرسية الرائجة آنذاك ، اعني بها الرمزية .

ليس من فن اكثر تصنعاً من علم البيان : وعلم البيان هو الاسم الذي اطلق على الشعر آنذاك . فتجسيم المثل المجردة والتعبير عن الافكار بالوان ثابتة (القصيدة الاسطورية ، القصيدة القصيرة ذات الادوار ، النشيد الملحمي) كانا مليئين بالاحطار وعرضاً للانتكار والوحي للجفاف . ولكن هذه الاشكال الثابتة كانت مطابقة لهوس الرمزية العام ، القريبة الى الفهم نسبياً في الفنون التمثيلية ، والمعامة كل التعمية في البحث الادبي . ولولا عبقرية غليوم دي ماشو لآنتهى الامر بالشعر الى هوة التكلف والابتذال . اما فضل هذا الكاهن القانوني الرسمي الاصل ففي تجميل اشكال فنّه الجلمدة - القصيدة القصيرة ذات الادوار ، ولا سيما القصيدة الاسطورية - بتعبير موسيقي مجدّد : « الفن الجديد » الذي هو مجهود تقني لتنويع اساليب التعبير ووضوحها . وابع تجميل الكتابة الموسيقية بقم جديدة ، وقد رسمت خطوطه الكبرى منذ القرن الثاني عشر ، تصور كل الاوزان الممكنة . فبات بمكنة الايقاع ان يصبح اشد تعقيداً وبمكنة الآلات الموسيقية ، ولا سيما الارغن ، ان تبلغ فرديتها . فاطل ايقاع الاصوات المتعددة ، بالفعل نفسه ، على الواقعية . وعلى الرغم من افراطات على بعض الجفاف احياناً ، فان خصب التقنية الجديدة يقاس بمدى انتاج متقن . فالى جانب « البصر يقول » و « يقال عن الحديقة » ، انبأ « نشيد القبرة » بموهبة جانكين الوصفية ، كما ان « قداس السيدة » - المعروف بقداس مسح شارل الخامس - هو اول قداس متعدد الاصوات في التاريخ الكنسي فرضت فيه المدرسة الفرنسية ، بفضل ماشو ، مفاهيمها على الغرب .

اما اوستاش ديشان الذي عاصر ماشو دون ان يرتفع الى مستواه ، فقد خلف انتاجاً ضخماً - ٨٠٠٠٠ بيت من الشعر تقريباً - نهج فيه نهجا واحداً لم يتح له بلوغ السهولة الممتعة والرشاقة . وجعل منه « فن الاملاء » معلم القواعد النظرية الشعرية لاجيال من المربين ، اذ انه وضع القواعد النهائية « لمهنة » ليس الموسيقيون وعلماء البيان بعد سوى عمالها المأجورين . ففي كل مكان ، في المهارات الكلامية او تنضيد القوافي ، في التصنع او العاليمات ، طغت الرمزية وباتت طريقة التعبير عن فوارق علم الاخلاق وابتغاءات النفوس . فهاهي الوردة مثلاً : بسطت في زجاج الكاتدرائيات فمثلت تنسيق الفكر حول حقيقة بديهية عامة ؛ وقدمت للمجلدين في احدى المباريات ، فرمزت الى عقب التعبير الرقيق ؛ تنثر في الوردية ، اكراماً للعدراء ، اوراق « الوردة التي صار الكلمة فيها جسداً » كما يقول دانتي . وتفرض فكرة النثر هذه فكرة تقدم تدريجي وتوق الى الجمال والخير ؛ وفي ذلك زهد عالمي وديني بدا في تصرفات العاشق عند جان دي مونخ كما في رؤى فلاح وضيع في « بيرز بلومن » ، وفي مآثر « جهان دي سنثري » الصغير كما في المراحل الصوفية في « الاعراس الروحية » . وهكذا حافظ الاحساس على حقوقه في هذا الفن العابس الصناعي الذي كان في الغالب جدلياً وتعليمياً ؛ وهو سيفرضها منذ اواخز القرن الرابع عشر .

الفن اللهي انه لتطور بطيء ومعقد افزعته ، في كلا مظهري الحنو العالمي الكاذب وتحريك العواطف الصادق ، الاشكال العارية والهندسية . ولكن خشيته هذه ليست شبيهة بذاك الدوار المفاجيء الذي يعترى اناساً يفقدون ، عندما تعم الفوضى ، كل معاني الاعتدال . واذا حدث لهم ، برودة فعل منهم ضد جفاف الاشكال ، ان يخلطوا بين الحشو والتزيين وان ينظروا الى التكلف كما الى الذوق اللطيف ، والى تحريك العواطف كما الى الهوى ، واذا بدا الميل الى الاخراج ميلاً شاملاً ، فيجب ان نعتز بان الفن اللهي انما يملك فيضاً من « الغرابة » ويخفي في الوقت نفسه الثروة الحقيقية .

ان الشارع التجاري القديم الذي يصل في روان ، عاصمة الفن القوطي المشرف على الزوال ، بين « سانتوان » و « سانت ماكلو » ، يجمع بين مفهومين للفن والحياة : فهناك الفن المشع في تناسقه المرتفع والمنطقي ؛ اما هنا فالعقد اعظم انخفاضاً ، ولكنه في منتهى المتانة ، تتنضد فيه الخطوط المنحنية والخطوط المنحنية المتقابلة اشكالاً اهليلجية ومثلثات ، الا ان سهم العقد ، على الرغم من تسنيته الجميل ، لا يضاها صفاء عظمة « البرج » المتوج . تتناول التزيين آنذاك كل اقسام البناء ، بما فيها الهيكل الهندسي نفسه - الاعمدة ودعائم الجدران والزواجر . انه لعلم جمالي جديد قد يكون اقتبس عن انكناز بعض الاشكال التزيينية المنحنية الخطوط التي ظهرت في اوكسفورد (كلية مرتون) واكستير (الكاتدرائية) منذ السنة ١٣١٠ والسنة ١٣٢٧ - واهملت بعد ذلك في ما وراء المانش - ولكنه من الانسجام مع تطور الفن الفرنسي بحيث لن

يلت ان يعم المناطق نفسها التي سيطر عليها الفن المشع . لتترك من ثم ايطاليا جانباً : اذ ان تشييد « الرائعة المزيفة » ، التي هي كاتدرائية ميلانو ، لدليل جديد على ان شبه الجزيرة حرم لا يدخله اي نوع من انواع الفن القوطي ؛ وانكلترا ايضاً التي استثمرت ، على نمط واحد تقريباً ، موارد الطريقة العمودية ، والتي حققت رائعة تلفت الانتباه هي « كلية الملك » في كمبردج . يبقى امامنا فرنسا التي انتشر فيها الفن الجديد بسرعة ، وهولندا ، والدول الجرمانية ، من كولونيا حتى فيننسا ، واسبانيا والبرتغال حيث اقترن نمط الاقواس المتقاطعة الكثيرة بعظمة الفن الاسلامي الشرقي في اسبانيا ، حتى كرس بذخ الفن البرتغالي ، في تومار وبليم ، الجمع بين الرومنطيقية القوطية وعظمة المسال الظاهرة ، وهو جمع بين العالم القديم والعالم الجديد . وكان مقدرراً للفن اللهي ، وهو اشد اعتدالاً في الكنائس القروية ، ان يملأ اريافنا ، حتى ما بعد القرن السادس عشر ، بآبنية تمتاز بالمتانة والرشاقة . وقد اعتمد كذلك في هندسة العمارة المدنية ووافق رغبة العظماء في الرفاهية : القصور البندقية ودور البسليات وابراج الاجراس في الشبال ، ومقر جاك كور في بورج ، ومسكن رئيس الرهبنة الكلونية في باريس - وكلها من التشابه بحيث يكاد يستحيل الاعتقاد بان الفارق الزمني بينها هو قرابة قرن كامل - والحصون اخيراً ابتداء من « بيرفون » حتى نانت ، كل هذه الابنية تشهد بما لا يترك مجالاً للشك ، بقيام مفهوم للحياة يعرف الانسان بموجبه كيف ينظم ، كما يطيب له التنظيم ، الانفاق على الزخرف .

تحريك العواطف والواقعية
وهي المناطق الفرنسية ايضاً التي عبرت خير تمبير ، في نطساق
الفنون التصويرية ، عن الحزنو المعقد ، الصوفي والشهواني معاً ، في اواخر
عهد الفن القوطي . ولسنا الآن ، كما في السابق ، امام مدارس اقليمية ، بل امام جماعات من
الفنانين استالتهم عطايا احدى اسر الامراء : انجو ، وبري ، وبورغونيا بنوع خاص ، اذ ان
ازدهار بورغونيا وهولندا قد جعل من امرأها اوسع زين الفنون ثروة . وقد جمعت روائعهم
بين عاطفة اعظم تهذيباً وواقع شديد التأثير جداً ؛ فالعذاراء المرضعة في التزاويق هي امل الحياة
البشرية ، ولكن هذه الحياة تزح تحت الالم في تمثيل « التقوى » في فيلنوف - ليزا - فينيون ؛
وتتجلى الانسانية كذلك في المسيح منتظراً العذاب « في فينزي (ايون) » ، كما في « الصلب » ،
في « غابة بروتات » الشهيرة ؛ كما ان تمثيلات « الانزال الى القبر » التي حققتها المدارس
الشمبانية والبورغونية ، لا توحى اضطراب المأساة بقدر ما تفرض السكوت والتأمل . ولم
يكن النحاتون والنقاشون والمصورون معتمهين حين جعلوا من الميت الرفيق الدائم للانسان
الحي ، وحين اكثروا من « رقصات الاموات » ، وحين رتب كلوس سلوتر وتلاميذه الواقعيون ،
حول الميت المضطجع على المدافن البورغونية ، موكب « الباكين » ؛ وفي صفاء الصوفية ،
اوحى ظفر المختارين ، الى الاشقاء « فان ايك » ، موضوع « تمجيد الحمل » الرائع ، كما ان رؤيا
يوحنا ستقدم ، حتى « دور » ، مواضعها للنحاتين والمزوقين ولعمال التطريز والتدبيح في انجيه .
لم يقض تحريك العواطف اذن على واقعية القرن الخامس عشر . فاذا هي ما زالت عابسة ،

في الامبراطورية ، مع كونراد ويتز ، فانها قد تلذنت في المناطق الاخرى تحت التأثير الايطالي وبفضل الالوان الساطعة التي تقدمت تقنياً وجلى فيها مصورو المناطق الشمالية . وحققت ، مع روجيه دي لباستور ، عظمة قوّة وهادئة في آن واحد ؛ فنور الاخوة « فان ايك » الساطع ، مثلاً ، يمتاس بدقة مناظر الريف اللياجي تحت اقواس « العذراء » المنسوبة للمستشار رولين ، معيداً الى الذاكرة المزوقين والمشاهد الريفية في « ساعات » شانتيي ومناظر منطقة « تور » التي جلى « فوكيه » في رسمها . ولا عجب اذا ما ضم هذا الفن الفرنسي الالماني ، بالمعيد من خطوطه ، تأثيره الى تأثير الفن الايطالي على الفنانين الكاتالونيين (جايم هوغيه) او البرتغاليين (نونيو غونسالفس) .

ففي التصوير اذن ، كما في الصياغة ، وكما في تحقيقات التدبيح والتطريز في اراس وتورنيه وبروكسل ، اقترنت واقعية الملاحظة وكمال التقنية برقة القرن الخامس عشر . اما الفن الادبي الذي طمى عليه . تصنع علماء البيان ، فلم يعرف قط هذا التجدد ؛ وليس مجالس البيان وللندوات الادبية من فضل الا في اشاعة الميل الى الشؤون الفكرية وتهذيب اللغة تهذيباً بلغ درجة التكلف . فهل فيه ما يستوقف القارئ . يا ترى ؟ هناك بعض القصائد النضرة القصيرة ذات الادوار من تأليف كريستين دي بيزان وشارل دورليان ، كما ان هنالك بعض القصائد العميقة التي تتميز ، على ما فيها من حشو ، بالقلق والثقة معاً ، في تحريكها الصادق للمواطن ، والتي يجب ان نبحت فيها عن عبقرية « فرنسوا فيون » . الا ان المحاولات كانت اعظم تجديداً في الموسيقى مع ان التمرنات الصوتية والتلحينات المعقدة في الانغام المتعددة الاصوات قد ابدت كليا المحاوف التي كانت ابدتها ، على غير جدوى ، حبال هذه التجديدات ، البراءة الحكيمة ، التي اصدرها يوحنا الثاني والعشرون في السنة ١٣٢٢ . وانما انتشر الاتباع آنذاك ، وهو ابتكار فرنسي انكليزي ، وواصلت الموسيقى غير الدينية ، في ايطاليا كما في اسبانيا ، اختبارات ومحاولاتها ؛ فسمت مقاطعة هينو بفن الطباخ نحو الكمال بفضل دوفاي واوبرخت و« وجوسكين ده بريه » و« او كجيم » . آنذاك تملذت المانيا وايطاليا نفسها لـ « معلمي الشمال » .

غير ان تمثيلية « السر » الدينية ، وهي خير تعبير نموذجي للقرن الخامس عشر ، تخطت الى حد بعيد ، بشموها وبديهيتهما ، كافة اشكال المسرح العالمي المتنوعة من تمثيلات اخلاقية وتمثيلات مضحكة وتمثيلات يتكلف ابطاها الجنون ، على الرغم مما « للمعلم باتلين » من حسنات وفضل . وتوسع المسرح الديني في « المداخل » الايطالية والتمثيلات الكلتية لسير القديسين واللوحات الانكليزية الحية ، فاثبت مرّة اخرى منشأه الشعبي في مواكب العربات الرمزية في اشبيلية وبروج . الا انه لم يبلغ ، في اي مكان ، الرونق الذي بلغه في فرنسا : فان « المعجزات » التي غدت طقساً شعبياً ومثلت او رقصت احياناً في المعبد ، اصبحت تستغرق اياماً عدة بتمثيل حدث انجيلي متتابع ، وغزت فناء الكنيسة الذي يتسع لمشاهدها الكثيرة ، وجندت اخويات كاملة للقيام بادوار الممثلين . وبات هذا الطقس الشعبي حدثاً اجتماعياً اعيد فيه

باستمرار تمثيل « سرّ السيدة » او « سرّ الآلام » . واقفن خير ائقاف بفضل ارنو غريبان فحرك عواطف الجماهير واسال دموعها . اجل لم يخل من الابتذال ولا من الخشونة ؛ ولكن الاستاز المبرقشة والموسيقى والغناء الغريغوري والاعاني الشعبية وتمعدّد الاصوات والآلات قد اسرت الحواس كلها ، كما ان اطالة النص لم تترك اي مجال للراحة . ولعل في ذلك خير شاهد على شمول انتشار مفهوم جمالي عميق التأثير .

مكذا تبدو لنا ، معقدة وغنية ، على ما تثيره من حيرة في اغلب الاحيان ، روح الاجيال الاربعة او الخمسة التي عاشت في اوروبا الغربية والجنوبية منذ حوالي السنة ١٣٢٠ حتى السنة ١٤٧٠ تقريباً . وسيتاح لنا ، بعد استفاضة درسنا لمتناقضاتها ، ووقوفنا عن كذب على خطوط ابتداءاتها ، ادراك ردود فعل هذه الاجيال امام الصعوبات المادية التي هاجتها بقوة والانقلابات السياسية التي كانت هي ابطالها وضحاياها في آن واحد .

الفصل الثاني

متاعب أوروبا المادية

يعود الى أواخر القرون الوسطى ادخال هذه الطلبة الجديدة في صلوات الربيع : « من الجوع والحرب والطاعون ، خلصنا يا رب » . الجوع والحرب والطاعون ، تلك هي الأخطار التي هددت الانسان في كل برهة ؛ وتلك هي الضربات الثلاث التي ورد ذكرها في الاغنية التقوية - لا فرق اذا كانت اصطلاحية او صادقة - التي نظمها الشاعر البريطاني جان مسكينو :

« بثس الحياة حياتنا المحزنة
التي تستبد بها ، ليلاً نهاراً ،
الحرب والموت والجوع والبرد والحر » .

١ - الحرب

ان اسم « حرب المئة سنة » الذي ابتكره المؤرخون المعاصرون يتنافى والحقيقة في نواح كثيرة ، ولكن له الفضل في انه يعيد الى الذاكرة ديمومة الضربة العظمى . ان هذا النزاع الفرنسي - الانكليزي ، الذي نشأ حوالي السنة ١٣٣٦ عن المعضلة الاكيتينية المزمنة ، لم يتوقف الا في السنة ١٤٧٥ ؛ وقد تتابعت حوادثه المتكاملة طيلة قرن ونيف ؛ وجرت في فترات انقطاع أعماله العسكرية منازعات على نطاق أضيق في بريطانيا واسبانيا وهولندا . اضعف الى ذلك ، في كل من الممالك المتحاربة ، الصراعات بين الاحزاب التي غالباً ما انتهت الى حروب أهلية ، والثورات ومؤامرات الامراء ومغامرات الاسياد الذين استغلوا الظروف لاشباع رغباتهم ، وثورات الفلاحين والفتن في المدن ، ناهيك عن الغارات الفجائية التي قامت بها ، برأ وبجرأ ، العصابات المسلحة والقراصنة وقطاع الطرق ؛ وان الكلمة المشهورة التي قالها كاهن كاهور القانوني في أواخر القرن الرابع عشر لا تفقد شيئاً من صحتها لو قالها أبوه وأبناء اخوته ايضاً : « طيلة حياتي لم أرَ سوى الحرب » .

اضف الى ذلك ايضاً ان تكرر النزاعات المسلحة ، ان لم يكن ديمومتها ، واقع يشمل الغرب المسيحي بأجمعه . فلتنوه هنا بانقسامات الممالك الايبيرية ، وبمجمعاتها على المسلمين في غرناطة ومراكش حين أمّحت لها خلافاتها متسماً من الوقت لذلك ؛ وبالمنافسات بين الممالك في سكندينايفيا؛ وبالمزاحة، المسلحة غالباً ، بين مدن الشراكة الهانسية وبين الدانمارك او انكلترا؛ ولتنوه كذلك بأن المنظمة التوتونية قد واصلت ، عند الحدود الشرقية للعالم المسيحي اللاتيني ، معركتها الكبرى ضد السلافيين وسمت الى سحق انطلاقة بولونيا ، بينما فتحت الغزوة العثمانية ، في الجنوب الشرقي ، جبهة حرب جديدة دائمة . وبصرف النظر عن الامبراطورية ، التي عجزت كل قواها عن وضع حد لسجس الـ « ريتز » - ولنزاعات أعظم اتساعاً بين الامراء احياناً - ، فان ايطاليا كانت مسرحاً لمشادات معقدة وطويلة الامد لم تكن حرب استعادة اراضي الكنيسة على يد الكردينال البوروز ، بين السنة ١٣٥٣ والسنة ١٣٦٤ ، التي كان ثمنها خسارة فادحة في الارواح ، سوى حادث واحد من حوادثها الكثيرة ؛ فمن الشمال الى الجنوب، بقيت شبه الجزيرة الايطالية ، حتى الصلح السريع الزوال الذي عقد في لودي في السنة ١٤٥٤ ، لا بل حتى التدخل الفرنسي في السنة ١٤٩٤ ، ميداناً مقفلاً تقابلت فيه ميلانو والبندقية ، سينا وفلورنسا ، فلورنسا وبيزا، وتنازعت اسرنا انجو واراغون نابولي وصقلية ، ناهيك عن مخاصمات اقل شأنًا واضطرابات داخلية وسياسية واجتماعية في كل اخاذاة .

عجز الدبلوماسية
فما هي القوة التي كانت قادرة على منع اراقة الدماء بين الملوك والامراء؟
لم يتوفر للدبلوماسية ، التي اخذت تفكر ببعض مبادئ واعراف الحق الدولي ، سوى وسائل غير ثابتة . اجل كان مندوبو الكرسي الرسولي يجوبون الغرب بصورة متواصلة لتسوية الخلافات بين الامراء المسيحيين . فمنذ بندكتوس الثاني عشر حتى اوجانيوس الرابع ، أي منذ السنة ١٣٣٥ حتى مجمع أراس في السنة ١٤٣٥ ، ليس من جبر روماني - باستثناء فاصل الانشقاق المؤسف - الا وبذل جهداً كبيراً لوضع حد للنزاع الفرنسي الانكليزي ، وذلك بفرض هدنات ، و « ايام » بين المتفاوضين ، ومؤتمرات صلح ؛ ولكن جهودهم لم تعط قط سوى نتائج سريعة الزوال جاءت في اعقاب مساومات استغرقت وقتاً طويلاً جداً ، كما خبر ذلك المندوبون الذين بدأوا مساعيهم في السنة ١٣٧٢ وتوصلوا بعد جهود سنوات ثلاث ، الى عقد هدنات قصيرة ، ولكنهم اخفقوا اخيراً في التوصل الى شروط صلح مقبولة ، فاضطروا ، في السنة ١٣٧٧ ، الى التسليم بتجدد الاعمال الحربية .

قضت العادة ، في سبيل تسوية الخلافات ، باضافة التسوية الحبية او التفاوض المباشر بين الملوك الى التحكم البابوي او وساطة شخص ثالث . ونشأت عن تقليد « المحاكم المتنقلة » المؤتمرات بين الفريقين المتحاربين التي حاولت ، منذ اجتماع مونترروي في السنة ١٣٠٦ حتى اجتماع شالون - سور - سون في السنة ١٤٤٤ ، تسوية قضايا الاضرار الملحقة بمناطق الحدود والقطع البحرية . الا ان الحاجة مستت با استمرار الى تجديد الجهود - التي كانت ثمرتها مبادئ قانونية مخصصة على كل

حال - بسبب تجدد اعمال العنف بصورة دائمة . ومع ذلك فقد أكثروا ، في كل هدنة ، من الضمانات والتأكيدات ، وأسندوا صلاحية النظر في الخلافات المحتملة الى « محافظي الهدنات » . غير ان الحدود غير الواضحة ومبادعات الضباط والجنود في المسكرين وتصفية الفدى المتوجبة كانت منطلقاً لمنازعات غالباً ما تشعل نار الحرب . وقد حدث أيضاً ان الامراء الذين هالتهم فكرة النزاع الدامي وتشبهوا تشبهاً صبيانياً بشرف الفروسية ، فكروا جدياً بتسوية نزاعاتهم في معركة فردية : فادوارد الثالث وفيليب السادس في السنة ١٣٤٠ ، ولويس دورليان وهنري دي لنكستر في السنة ١٤٠٢ ، قد فكروا بالاستغناء عن اصطدام الجيوش ببارزة جميلة .

يضاف الى ذلك ، على الرغم من الحصانة المعترف بها للسفراء ، انهم احتجزوا من الممثلين الاجانب ، الذين ما كانوا ليحصلوا على وثائق الامان الابد بعد وقت طويل ، والذين يهتك سر مراسلاتهم احياناً : فهم يتهمون « باستكشاف اسرار البلاد » . لذلك فان البابوية والبندقية ، اللتين كانتا اول من لجأ الى الاتصالات الدبلوماسية الكتابية ، قد ابتكرتا كذلك لغة المفاتيح والشفرة أيضاً . واذا اضفنا ان هذه البعثات كانت محدودة الصلاحية ، والايخبار تنقل ببطء ، والاشاعات الكاذبة تنتشر بكثرة ، وان اقل حادث - كقتل « جان سان بور » على جسر مونقرو في السنة ١٤١٩ مثلاً - قد يفضي الى فشل كل المساعي ، اتضح لنا هزال « الانقطاع عن الحرب » .

أدلاء الطرق وفرق المرتزقة
 ما لبثت الحرب ان اصبحت مهنة آنذاك بفعل التقاليد الاجتماعية والظروف السياسية والضرورات الاقتصادية والمقتضيات التقنية .
 اجل ما زالت تحتفظ خلال القرن الرابع عشر بخطوط كثيرة من وجهها في القرون الوسطى . فهناك في الدرجة الاولى أعرافها المستوحاة من آداب الفروسية : كتب التحدي ، طلب المبارزة ، المعارك الفردية ، الهدنات المحلية ؛ ثم تكوين الجيوش المبني على تفوق الفرسان والنبلاء ؛ وذهنية المحارب اخيراً . وقد اجمل جان دي بوي ، في بحثه العسكري ، الآراء السائدة بصدها : « الحرب ، في الحقيقة ، دفاع عن الحق » ؛ و « ما أكثر ما أدى التمرن الطويل عليها الى انسكاب الدموع عند التفكير بالذهاب للموت او للعيش مع صديق عزيز » ؛ « السلاح يشرف الانسان أياً كان » ؛ والحرب امتحان شرف ومدرسة صداقة ، و « شيء مفرح » اجمالاً . ولكن إعداد ضابط شاب هو ، في المانيا ، دخول احد المغامرين في خدمة عائلة تبتغي ثأراً او في خدمة مدينة ؛ وفي فرنسا ، غارة ليلية مفاجئة للاستيلاء على ماعز وأحصنة احدى حاميات الاعداء ، وسرقة ملابسها « المنشورة » .

ثم ان الاندفاع وراء الاخطار والمكاسب والبطولة وارتفاع عدد الولادات بالنسبة لمداخيل العائلات الشريفة المتدنية ، لا سيما في المناطق الآهلة بالسكان ، قد حملا اخوة الابكار على طلب المغامرة . يضاف الى ذلك ان الوحدات الاقطاعية ، المؤقتة ، لم تمد لتفي بمحاجات الحرب المستمرة ، كما ان نظام قيادتها قد حال دون تأليف وحدات مرنة ومتجانسة . ولنا ، منذ أواخر

القرن الثالث عشر ، في « مستأجري » فيليب لو بيل ، والاتفاقيات المعقودة بين ملك انكلترا او الفرق الفسكونية ، وحاملي الاقواس الفولاذية العاملين في خدمة فيليب دي فالوا والزمر المسلحة العاملة في خدمة ملوك اراغون وقشتالة دليل على اضطرار الامراء للجوء الى المرتزقة . وقد طبع هؤلاء الجنود المحترفون حروب القرن الرابع عشر بطابعهم الخاص . وقد قصد بعضهم مناطق ثانية جداً بحثاً عن المغامرات : « فالفرقة الكاتالونية » ، قد حاربت في آسيا الصغرى ووقفت الى احتلال الاتيك في السنة ١٣٠٩ ؛ وبعد ذلك ، تركت « الفرقة النافارية » في موريا ذكرى مرورها في محلة « نافارين » التي حملت اسمها (حوالي ١٣٧٥ - ١٤٠٠) . ولكن حروب فرنسا واطاليا هي التي جعلت من « الفرقة » منظمة دائمة ومن « دليل الطرق » مثلاً اجتماعياً .

لم يتميز دليل الطرق خلال الاعمال الحربية عن مجندي الملك . الا انه اختلف عنهم أثناء فترات المهادنة . فهو حينذاك رجل غريب عن بيئته وعاطل عن العمل يستحيل ارغامه على العيش في مجتمع منظم . وما ان عقد صلح بريتنسي (١٣٦٠) ، كما يقول فرواسار ، الذي عرف العديد من أمثاله ، « حتى اجتمع رفاق مساكين كثيرون من مارسوا مهنة السلاح وتشاوروا فيما بينهم وقر رأيهم على ان عليهم ، وان قرّر الملوك الهدنة ، ان يؤمنوا سبل معيشتهم . » وبعد مرور ثمانين سنة ، كان صلح أراس (١٤٣٥) وهدنة تور (١٤٤٤) فاتحة لطفيان « السلاخين الذين لم يتقاضوا منا أي اجر » ، كما ورد في كتاب صفح منحه شارل السابع لأخدمهم ، فاضطروا بسبب ذلك الى الاعتصام بالارياض وتأمين « معيشتهم على حساب اعدائنا ورعايانا بسلب ونهب ممتلكات كل من يصادفون » .

وفيا يلي موجز لتاريخ « نفل موليون » الذي روى لفرواسار تفاصيل مغامرته : استلم أسلحته كفارس في بواتيه وانضم الى « الفرقة الكبرى » ؛ وهي مؤلفة من ١٢٠٠٠ رجل (كما يقول فرواسار) من الاشراف الفقراء او اولاد الزنى ، المغامرين المنتمين الى بلدان كثيرة ، الجامعين بين الجشع الفسكوني ، والشهوانية الفلمنكية ، والحدة الاسبانية ، والتقلب الايطالي ، والحشونة البريطانية ، والفظاظة البيكاردية ، والقساوة الالمانية ، وغطرسة الانكليزي « الذي لا يحترم سوى امته » . لكل زمرة كهنتها وصندوقها وشرطتها وعجلاتها وخيولها وخدامها وصناعيوها وبغاياها ؛ وقد رافق هؤلاء المؤمنين ، الذين أرادوا ان يجعلوا منهم صليبيين ، مع ان بعضهم ، من امثال جون دي هرلستون ، ما كانوا ليتأخروا عن احياء الاعياد والولائم بمشة كأس مسروقة ، كهنة مرشدون يخدمونهم باقامة القدايس . وعلى الرغم من خضوع هذه الزمر لنظام حديدي وتشاركها دونما دمج ، فانها قد أكلت ، « متأخرة » ، نهب القصور والمدن والقرى في وادي الرون ، واستولت على « جسر الروح القدس » وألزمت البابا بدفع الفدية وجالت وصالت في أنحاء اللندوك واطاليا الشمالية . اسهم النفل معها في هزيمة الجيوش الملكية في برينيه (١٣٦٢) ، ثم حارب في سانسير واوراي بقيادة هوغ كلفرلي الذي رافقه

حتى بلاد قشتالة وانتقل بعد ذلك الى خدمة « بيير الطاغية » والتقى برفاقه القدماء الملتحقين بـ « دوغكلين » . ثم استدعي أدلاء المعسكرين عند تجدد النزاع الفرنسي الانكليزي ، ولكن النفل قد خاض الممارك لمنفعته الخاصة في الدرجة الاولى .

وفي عهد السلاخين ، لم يكن رودريغ دي فيلندراندو وفرنساوي دي سوريان وبرينيه غرسار وكثيرون غيرهم ، ممن استبسوا في معية جان دارك احيانا ، دون ضباط الفرقة الكبرى شجاعة وبأساً . وقد حصل غرسار من شارل السابع على مكافأة كبرى لمحافظة على حصن « شاريتيه سور لوار » بمجاوله دون استيلاء جان دارك عليه . اما فيلبراندو ، فعلى الرغم من اخلاصه للقضية الملكية ، فقد سيطر على جنوبي فرنسا على رأس زمرة بلغت من التنظيم درجة قل نظيرها . وحين عجز شارل السابع عن القضاء على السلاخين ، اسند الى ابنه لويس مهمة ايجاد عمل لهم ، دون افنائهم ، في اراضي الامبراطورية وعلى نفقة الامبراطورية .

كان تجنيد الفرق زمن الحرب وتخصيصها بتعويض بطالة عند اعلان الهدنة تدابير ظرفية ؛ الا ان الفرق ، في الواقع ، قد حوّلت الوحدة الاقطاعية القديمة الى جيش محترف . كان الانتقال غير محسوس بين صاحب الاخاذة المأجور في أواخر القرن الثالث عشر والضابط الذي يستخدمه الملك وحده محدداً عدد المهندسين ومدة الاستخدام وسلّم الأجور ، على غرار ما درجت عليه انكلترا منذ السنة ١٣٥٠ . وجاء الاصلاح الفرنسي في السنة ١٤٤٥ ، الذي شمل المناطق الجنوبية في السنة التالية ، يبق في الخدمة ، في ايام الهدنة ، على عشرين فرقة من ١٠٠ حربية ، أي ٨٠٠٠ فارس محارب ، اذ ان الحربية وحدة ثابتة تضم ستة فرسان : فارس كامل السلاح ، نبالان ، حاملا خناجر وخادمان . الى هذه الفرق ، المعروفة « بمرق النظام الكسر » ، تضاف ، عند الاقتضاء ، فرق النظام الصغير او الاجر المحدود ، التي كان باستطاعة الملك « كسرها » على هواه . اما الاجر فمنتظم ، وتموله الضريبة الدائمة ؛ حصص من اللحم والخضار والعلف ؛ تعويض اضاءة ؛ مسكن يؤمنه الاهالي ؛ وهكذا فان الاصلاح قد نظم ، في خدمة الملك ، مهنة المحارب . اما ما حدث في السنة ١٤٤٨ من تعيين ٨٠٠٠ نبال معفين من الضرائب قدمتهم القرى بنسبة « قوتها » بالرجال والثروة ، فلم يكن له من قيمة عسكرية بقدر ما كان له من مغزى : أعني به الدور الذي ترك للمشاة في الممارك . وقد سارت فرنسا ، في هذه التطورات ، على خطى الايطاليين الذين استخدم شارل السابع ثلاث فرق منهم في السنة ١٤٢٤ ، والسويسريين الذين استوحى لويس الحادي عشر نظامهم عندما شكل « زمرة » البيكاردي ، اسلاف فيالقنا المعاصرة .

منذ قرابة قرن ، داست ايطاليا جماعات من المحاربين الفرقة الايطالية *Condotta* المحترفين ، أعني بهم في الدرجة الاولى فرقا من الطراز المألوف أشبه بالدول العسكرية الراحلة بقيادة بعض الاجانب كالاخ موربالي وهو شريف بروفنسي و « اخ

صغير ، سابق ، الذي غدا فارساً من فرسان رودوس ثم رئيس زمرة ثم قطع رأسه كالأشقياء في روما ، بعد « كولا دي رنيزو » ، والدوق « ورنز دارسلنجن » ، « عدو الله والشقفة والرحمة » ؛ والانكليزي « جون هوكوود » و « فرقة المقدسة » ؛ وبريطانيو « سيلفستربود » الذي افتخر بنهب « شيزينا » . ثم سئمت الدول من الاجانب ، فاتجهت بأبصارها الى الايطاليين : فكان ذلك عهد الفرقة الايطالية الذي دام حتى الربع الثاني من القرن السادس عشر . فالفرقة التي يحد أفرادها من منطقة معينة في شبه الجزيرة تتسم بطابع « قومي » صرف ، تدين بنشأتها الى شخصية رئيسها الذي يعطيها حتى اسمه ؛ ولما كان طامعاً بنبل المنشأ ، فإنه يختار رجاله بين زبنه ويكافئهم كما جاورين لا كشركاء . ويحرص على انتاج دائم ، فيؤثر الاستغلال على التدمير ، ويبقي جماعته من ثم في وضع يتيح لهم القيام بالخدمة ويناقش مخدمه عقد الاتفاق الذي يحدد الواجبات المتبادلة ؛ فانما هو ملتزم يبحث عن افضل السبل نفعاً .

تألف « الحربة » الايضية من ثلاثة رجال فقط - ليس بينهم سوى محارب واحد - ولكن تشكيل الوحدات يخضع لنظام واضح : مس حرباء تؤلف مركزاً ، وعشر حرباء علماء ، وخمس وعشرون وحدة تؤلف لواء ؛ عدد المشاة يقارب عدد الفرسان . وقد بلغ من تدريب هؤلاء واولئك ومن صفات ضباطهم وقادتهم ان شهرة المنتمين الى الفرقة الايطالية ، على الرغم من تلون ضربت به الامثال ، قد طبقت آفاق الغرب ، ابتداء من جيوفاني دلي اوبالديني (القرن الرابع عشر) حتي برتولوميو كولونيوني وفرنسكو سفورزا (القرن الخامس عشر) ، مروراً بـ « مالاتستا وكرمنيولا وبيتشينيونو . فحين عن « لشارل الجسور » ، ولعله اعلم امير بين امراء قالوا بالشؤون العسكرية ، ان يعيد تنظيم قواه ، استشار الايطالي « كجبواسو » ، واستند الى النظم السائدة في ايطاليا وفرنسا ووضع مبادئ تنظيمية العظم الذي يعود الى السنة ١٤٧٣ . ولكنه مع ذلك كان متأخراً : اذ ان السويسريين ، الذين احيوا الكتيبة القديمة بالعتاد مربع يجمع ١٦ حربة في كل جهة من جهاته ، قد أنبأوا بذلك انهم سيمسجون جنود المستقبل . ومهما يكن من الامر ، فان الهندية لم تعد ارجحاً ، واذا سلمنا بأن النسب قد يوفر الاعداد لها ، فإنه لا يوفر لها الجدارة اللازمة : فهي مهنة ، ويجب ان تلقن كهنه .

الفن العسكري
 اكتسب الفن العسكري ، بالمقابلة ، مميزات جديدة : ازدياد قوة النار ، وتماظم دور فرق المشاة ، والميل الى تحقيق التعاون بين « الاسلحة » المختلفة ، وتنسيق حركات الجنود ابان الاعمال الحربية . فنذا ان توصل الغرب ، في القرن الثالث عشر ، الى تمحيص النظرون ومزجه ، بالنسب الملائمة له ، بالكبريت والفحم ، استطاع اسماح صوت البارود . فحققت الفلاندر ذلك منذ السنة ١٣١٤ ، ثم استعصى تدريجياً عن الفخاخ بالقطع النارية الخفيفة والمدافع القصيرة الضخمة ذات الفعالية في مهاجمة المراكز المحصنة . اجل لم تسفر القنابل القليلة التي أطلقتها مدافع الانكليز في كرسي في السنة ١٣٤٦ الا عن اثاره دهشة الفرنسيين ، ولكن ميلانو ، في السنة ١٤٤٧ ، استسلمت لفرنسكو سفورزا بعد

قصفتها بالمدافع ؛ وقد أ ٣٣ مصنع ترميم المدافع الذي أحدثه بسونو و « بور » و « جيريو » في احرار النصر الذي حققه الفرنسيون في « كستيون » (١٤٥٣) ؛ ونظم لويس الحادي عشر وشارل الجسور « زمر » مدفيعتهم ، وظهرت في السنة ١٤٦٧ ، في معركة « مولينا شيللا » مدافع الجبال الخفيفة . الا ان كلفة السلاح الجديد الذي ارتبط انتاجه بتوسع استثمار المناجم ، وصعوبة تحريكه ونقله قبل اختراع مسنده في اواخر القرن الخامس عشر ، قد حالتا دون انتشاره . اصف الى ذلك ان رجال الحرب لم يؤمنوا على العموم بمستقبله ، شأنهم في ذلك شأن « جان دي بوي » ولا سيما ما كيا في الذي اعتبره مضرأ أكثر منه مفيدأ .

وأهل هؤلاء الرجال أنفسهم ، زمنأ طويلا ، دور فرق المشاة . الا ان ملك انكلترا ادوارد الاول قد برهن عن براعته اذ جعل قوة الرماية ومجالها ثلاثة اضعاف ما كانت عليه باحلاله ، محل القوس القديم والقوس الفولاذي ذي المقبض ، « القوس الطويل » ، « الغالي » البالغ مترين ارتفاعأ ، وبالجموع قبل سواه الى خطة ازال الفرسان عن جيادهم . كان الفرسان ، وفاقأ لهذه الخطة ، بآمن من الضربات أثناء قيام النباليين في بدء المعركة بمسلهم الذي يحطم قوة العدو الهجومية ؛ وبعد تحقيق هذه النتيجة يتطون صهوات جيادهم لتفكيك وحدة جيش الاعداء . ولا تقسر هزائم الفرنسيين ، في كرسي وفرنوي والمعارك الأخرى التي تخللتها ، بفارق الشجاعة او العدد ، بل بتفوق النباليين الانكليز من جهة ، ومن جهة الفرنسيين بسوء توزيع الجنود قبل المعركة وبعتماد ازال الفرسان عن خيولهم دون هدف معين . اصف الى ذلك ان المشاة الانكليز ، في فرنوي ، قد تحركوا وهاجموا الفرنسيين جانبياً ، بينما ما زال « جان دي بوي » ومنافسوه يعارضون كل مناورة تصدر عن المشاة . ولكن التجديد لم يتجاوز هذا الحد ؛ فقد تأخر الانكليز في استخدام الفرسان لأعمال المشاة ، دون ان يتحلوا بمرورهم على كل حال ، فذاقوا الامرين ، في فورميني ، من جرأة مناورات الكونت الشاب دي كليرمون .

اما سر هذا الفن العسكري الجديد فهو حذاقة القائد وسرعته ومهارته . فان العقلية اللاتينية ، التي تحلت بالتعاليم الموروثة عن فيجيس ، قد جعلت من الجندي في الفرقة الايطالية رجل حرب كامل الصفات . وان تفسيرأ حرفياً لاحدى أهاجي مكيا في قد يحمل على الاعتقاد بأن التظاهر بغير الحقيقة والمفاجأة والكين والحيلة والمساومة ليست سوى « مداعبات » ؛ ولكن الواقع هو ان الضباط ، قد حافظوا على الجنود الذين يستثمرون خدماتهم ، وآثروا ارغأ العدو على المناورة والجماء الى وضع يائس على انهاكه وانهاك انفسهم في معارك متعاقبة تكلف ثمنأ باهظأ .

احتل المشاة ، وفاقأ لهذا الفن ، وسط الجيش ، وأحاط بهم الخيالة عند الجناحين والفرسان في المؤخرة . ولكن الايطاليين لم يقاتلوا سوى الايطاليين ، دون اتصال بالخارج ، وبسلاح كان قد أكل الدهر عليه وشرب حوالي السنة ١٤٧٠ ، فأتاحوا للسويسريين فرصة الاستفادة من دور المشاة الهام . سُلح الطابور السويسري بحربة اطول من رمح الخيال وناور بحركة عسكرية

سريمة ابان احتدام المعركة . فزعم جان دي بوي ان ذلك خطأ ونسب اليه هزيمة السويسريين في « سان - جالك » في السنة ١٤٤٤ . ولكن غرانسون ومورا سيفندان مزاعم المخطط الحربي التقليدي . وهكذا فقد احتلت كافة مقومات الجيش العصري مكانها قبيل الحروب الايطالية .

الحرب البحرية
اذا صح ان الحرب البرية قد غدت مهنة واتجهت لأن تصبح تقنية قائمة بذاتها ، فان ذلك يصح بأولى حجة عن الحرب البحرية . ومرد ذلك الى ان نوع حياة اهل البحر وذهنيتهم يجعلان منهم وسطاً اجتماعياً خاصاً ، والى ان الفن البحري ، وهو لا يزال اختبارياً جداً ، يقتضي دأباً طويلاً وجولات توجبها المهنة ؛ والى ان المعركة البحرية ربما تتطلب جرأة وسرعة لا تتطلبها المعركة البرية . ومرد ذلك بصورة خاصة الى ان الملوك ، الذين ما عادوا ليكتفوا بمصادرة مراكب التجارة والصيد في زمن الحرب ، أرادوا ان يقتنوا نواة اسطول حربي على الاقل تكون ملكاً خاصاً بهم . ففي وقت واحد ، وفي كافة المناطق البحرية ، تنظمت ، باسم « امارات البحر » ، قيادات بحرية تتمتع بسلطات قضائية ايضاً : امير قشتالة وامير اراغون وامير البرتغال ؛ وكان لكل من فرنسا وانكلترا اميران : امير بواتان في المتوسط وامير فرنسا في المانش ، للاولى ، وامير الشمال وامير الغرب للثانية ، ويفصل بين قيادتها مصب التاميز . وكان لدوقية بريطانيا وكونتية الفلاندر ودوقية غويان امراؤها ايضاً .
لم يستطع ملك انكلترا سد حاجته بالبواخر التي قدمتها له « المرافىء الخمسة » تقليدياً ، فبنى منها بماله في « سوئبوتون » ؛ وكان للملك فرنسا دار صناعة في روان ، هي « دار السفن » وقاعدتان رئيسيتان هما هارفلور ولاروشيل . اما معدل عدد البواخر ، وهو يختلف باختلاف العهود ، فربما بلغ الخمسين قطعة في كلا البلدين ومعظمها من القوارب الشراعية المسطحة والقوارب الشراعية ذات المهاديف . ودون ان يهمل الحصان مساعدة حلفائها البحرية ، أي الاسطول القشتالي والجنوبي للاول والاسطول البرتغالي والاراغوني للثاني ، فقد درجا على طلب مساعدة مراكب مأجورة ، ايطالية بنوع خاص . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الحاجة ماسة ، في كل البلدان ، لمنح قباطنة السفن التجارية اجارة بالسلح في رحلاتهم وبهاجمة قطع الاعداء : وهذا شكل من أشكال مهنة الحرب يماثل ، في البحر ، ما كانت تعتمد فرق المرتزقة في البر . كان القرصان عوناً على الاعداء ، ولكنه في زمن السلم يلحق الاذى بالحلفاء ايضاً ، شأنه شأن المحارب المحترف الذي كان يتحول ، بحسب الظروف ، من اجير امين الى قاطع طرق ومن قاطع طرق الى اجير امين . وفي كلا الحالين كانت المكاسب عظيمة .

الاجر والغنيمة والفدى ، تلك هي مكاسب الحرب « الدسمة » ومرترق
مكاسب الحرب
المحترفين الذين يرغبون في ان تطول الحرب . فقد كان جواب « جون هو كورود » لبعض الرهبان الذين تمنوا له السلام : « أتريدون ان يميتني الله جوعاً ؟ فأنا اعيش من الحرب كما تمشون انتم من الصدقات » . اما معاصره « امريغو مارشيه » فقد عبر لفرواسار عن

سفه لانقطاعه باكرآ عن « حمل الخير » أي « عن السلب والنهب » . : « آه كم كنا سعداء حين كنا نسير ممتطين خيولنا ونجد في الارياض كاهنا غنياً او على الطرقات ناجراً ثرياً ... كنا اذن نفرض الفدية على هوانا . وكنا كل يوم نكسب مالا جديداً » . وخلص الى القول : « كانت حياتنا شقة كيفما نظرنا اليها » .

« نظر الجنود الى اجورهم نظرم الى كسب تجاري » كما تحقق من ذلك « اينيا سيلفيو » . وسبب ذلك ان الحرب كانت صفقة تجارية يجريها مستثمرون يحملون اسم الادلاء او السلاخين او القراصنة ؛ واسم « Compagnis » (فرقة - شركة) مشترك بينهم وبين التجار . والشركاء (الرفاق) انما يعملون معاً ، متكافلين متضامنين في المربح والخسارة . اجل هنالك مناطق أوفر كسباً من غيرها ؛ ولكن ليس ما يعادل الطرق الكبرى التي يسلكها المسافرون ، وليس من دولة نظير فرنسا « ارضها عذبة ، يطيب العمل فيها ، وتملأها القرى الكبيرة والمناطق الجميلة والمروج الغناء والخور اللذيذة الضرورية لتغذية الجنود وانعاشهم » . ولذلك فان أفراد الفرقة الكبرى ما لبثوا ان نفروا من العيش في بورات اراغون .

تأسست جمعيات القراصنة « لتجمع الغنائم » الواحدة من الاخرى ، ونهجت عادات مماثلة لعادات التجار . وان العرف ، الذي كرسته العقود واجتهادات محاكم وحدات الفرسان او امارات البحر ، قد نظم بدقة توزيع الغنيمة . ولم يختلف سوى في نقاط تفصيلية بين البندقية وجنوى ومرسيليا وبرشلونة والمرافئ البريطانية والنورمندية والانكليزية ومياه بحر الشمال البعيدة . فبالاضافة الى الحصص التي يصيبها ربح نسبي ، كان مجرد الاشتراك الفعلي في العمل يعطى حقاً في المكسب يختلف باختلاف مرتبة المشترك . وقد حدث ان طالب بالمكسب بحارة شاهدوا من بعيد عملية استيلاء على احدى السفن ؛ وحدث احياناً ان استصعب كل قرصان ما استولى عليه ، اما ما كان يحدث في الغالب فهو القسمة .

وغالباً ما كانت هذه المكاسب مرتفعة جداً . فليس من يجهل عمليات الجنويين والكانالونيين الراجحة في المتوسط ؛ ولم يكن المانش طيلة حرب المئة سنة ، وبحر الشمال ابان نزاعات المدن الهانسية ، اقل مورداً للارباح . اما في البر فان رجال « الامير الاسود » العائدين ، في السنة ١٣٥٥ ، من منطقة تولوز ، « وهي من أغنى مناطق العالم ، ولا يزال سكانها يجهلون ما هي الحرب » ، قد نقلوا من الغنائم « ما جعل أحصنتهم لا تقوى على التقدم » . وما كان « الدليل » « سيجين دي باديفول » لينتقل من مكان الى آخر الا مصطحباً عربته ذات العجلات الاربع كي ينقل عليها مغانم . ودامت الحال معه على هذا المنوال حتى أوعز ملك نافار بسمه ووضع يده على ثروته . ولكن بئس المصير مصير المدن التي لم تقدر نفسها بالمال ، كليون او افينيون مثلاً ، تجنباً للسلب والنهب ، او لم تجند فرقاً تدافع عنها كما كون ومترز ، او لم يعدد اميرها مسبقاً ، كما أهمل ذلك هنري دي ترانستار في السنة ١٣٦٥ ، محطات مرتزقته وقومينهم ؛ اذ ان الذعر نفسه قد أرحاه الجنود النظاميون والادلاء على السواء . ودرجت العادة احياناً ، قبل الهجوم ، على

أجلاء من لا يقوون على المقاومة من نساء واطفال ، « محافظة على شرف الكياسة » : كما حدث لسكان روان او بونتواز حين نزحوا عن مدينتهم والتجأوا الى باريس في السنوات ١٤١٨ - ١٤١٩ . وكان الاستيلاء على مدينة ما يعني اباحة سلبها ونهبها سلباً ونهباً كاملين . فكانت الحرب من ثم غذاء للحرب .

كانت الفدى ما يعوّل عليه في المغامم وما يسمى اليه الساعون وراء المكاسب : فقد نحشني هنري الخامس ان يفسد انتصاره في ازنكور اذا ما اتاح لرجاله الوقت الكافي لجمع الاسرى ، فأصدر من ثم امره بتقتيلهم ولم يستثن من هذا التدبير سوى ارفعهم مكانة . وهنالك بعض الفدى المشهورة : فدية الملك جان ، وفدى دوغكلين ، وفدية الكونت دي دينيا ، وفدية شارل دورليان . وقد حددت اجتهادات كثيرة مصير أسرى البحر او البر : الاسير ملك أسرته ويجب ان يعاد اليه اذا ما فر وقبض عليه شخص ثالث ؛ وتحدد قيمة الفدية بالمناقشة بين الأسير و « سيده » ، وفاقاً لتسمير متعارف . واذا قضى شرف المالك ومصالحته باحسان معاملة أسيره وبفرض فدية عليه تتلام وامكاناته ، فان هذا الاخير يعتبر « مردولاً وحائثاً اليمين » اذا لم يسع جهده للدفع ؛ وغالباً ما ينعم عليه بحرية مؤقتة كي يجمع القيمة اللازمة . وانما ما أكثر الذين لاذوا بالفرار دون ان يدفعوا فديتهم ! الا ان الاسير كان مادة دين وقد أمكن بهذه الصفة الاتجار به : ملك جاك كور ، بالاشتراك مع دونوا ، اسيرين انكليزيين عاليي الشأن ، قدم احدهما لجان دي بوي الذي لم يجر عليه ذلك سوى نفقات معيشته . ولم تدر الفدى كلها ما درته فدية الملك جان التي لم يسدده الا نصفها فحسنت مع ذلك وضع الخزينة الانكليزية طيلة سنوات . اما فدية السيد « دي شاتوفيلين » ، التي حددت بـ ٢٠٠٠٠ قطعة ذهبية ، فلم تدر على الدائنين سوى دعويين طال عهدهما وانتهت بعائلة الاسير الى الافلاس . وبلغ من اقتتار أسير آخر انه عجز عن تسديد ديونه واضطر الى التخلي عن قصره لجاك كور . فكانت الحرب من ثم صفقة رابحة شريطة الحصول على مغامم وافرة وعدم الوقوع في الاسر .

٢ - البلايا العامة الكبرى

ان الحرب ، وهي عمل الانسان ، قد زادت في قلق حياة هددتها باستمرار ضربات عمياء كاللها طبيعة لم تقهر بعد . اجل لقد كان للمسافر الحامل اجازة مرور قانونية بريق امل في تجنب التوقيف والفدية على شواطئ وطرق فرنسا أثناء الحرب ، وفي معاير « الجورا » و « الالب » ، وفي مياه المتوسط وبحر الشمال . وحدث كذلك عادة الثأر وتدابير الانتقام ، بعض الشيء ، من خطر القراصنة ، ومخاوف الوقوع في العبودية في البلاد الاسلامية . ولكن عبثاً انبرت الرؤوس والمرافئ ، اذا غرق السفن لم يكن شيئاً نادراً : فان سفناً كثيرة كانت تغرق ، عند رأس « الراس » ، في كل شهر من أشهر الشتاء ، وكان سكان الشواطئ يستفيدون من حطامها . وكان إخطاء الطريق ، في البحر كما في الجبال ، ايذاناً بقضاء محتوم .

اضف الى ذلك ان اخطار الماء والنار واطار المرضى والجوع كانت تهدد بالانسان في عصر داره . فان كتاب « يوميات بورجوازي باريسى » عاصر معاهدة طروا واعمال جان دارك البطولية ليس سرداً لما اتفق على تسميته بالاحداث التاريخية، بل ذكريات ابن مدينة اقضت منه المضجع تقلبات الطقس وحالته الصحية وهاجس التموين . واتت الحرائق ، في مدن انكلترا وفرنسا والمانيا وفي كل مكان ، على احياء كاملة ، وساعدها على ذلك مواد بناء قابلة للحريق وتكدس المنازل فوق بعضها وهزال وسائل مكافحة النار . وعرفت تولوز نفسها ثلاثة حرائق في النصف الاول من القرن الخامس عشر مع ان الفرميد كان آخذاً في الحول فيها محل الخشب والسياع . ولكن الحرائق الكبرى اخذت تندر تدريجياً، حتى في مدينة خشبية كلها، كـ «روان» مثلاً ، بفضل انتشار الاغمية الاجرية والاردوازية : انسان في القرن الرابع عشر وثلاثة في القرن الخامس عشر مقابل ثلاثة عشر في القرن الثالث عشر . وكلت كل مدينة لبعض ابنائها (شيوخ البلد) امر مكافحة النار ، كما حرص في كل مكان على العناية بعيون الماء والاكتثار منها . غير انهم قد اتقوا بصعوبة اضرار الماء ، اي اضرار المطر الذي يتلف المحاصيل ويفيض الانهار ويغمر بالمياه دورياً الاحياء المنخفضة في تولوز وبوردو وليون وباريس وروان ولندن غنت وانقرس ، وينتزح الجسور والطرق على طول السيول المتوسطة . ولم تكن مياه البحر اقل ضرراً ، فهي قد غمرت مناطق « الفنس » الانكليزية الخصبه في السنة ١٣١٤ - ١٣١٥ وخربت ، تسع مرات على الأقل بين السنة ١٤٠٤ والسنة ١٤٥١ ، سدود « الفريز » في الفلاندر ، فارجت بذلك الشاطئ الى الورا وسببت من الحسائر الفادحة ما ارغم « جان سان بور » على ان يتولى بنفسه ، في السنة ١٤١٠ ، مراقبة اعمال الترميم . وقد غمرت آنذاك بعض القرى غمراً نهائياً .

ولكن شر الضربات ، بامتداده الجغرافي كما بنتائجه ، كان الاوبئة . فقد عجزت التدابير الصحية واعمال الوقاية وحتى الطب الذي نميل الى الاعتقاد بتقدمه ، لاسيما في زمن الحرب والانحطاط الاقتصادي ، عن حصر اضرارها او عن تحرير الجماهير من هاجس « الفناء » . وقد اخفت هذه الكلمة الاخيرة امراضاً متنوعة جداً ، ولكن الطاعون الذي نقلته السفن الجنوبية من الشرق في السنة ١٣٤٧ قد اجمل كافة الاهوال . لقد تكلمنا في السابق عن اتساع نتائجه التي شملت اوربا جمعاء والتي نجمت عن انواعه الثلاثة : الجلدي والرئوي والمعوي . وعاش الباقون على قيد الحياة من الشبان والفتيان في قلق مقض دائم بسبب ارتعادم فرقاً من ذكره ، وقد كتب احدهم : « اكتب وانا انتظر الموت بين الاموات » . ويعود ذلك الى ان الطاعون الاسود قد نم في الدرجة الاولى عن حالة صحية سيئة قد تزداد سوداً بين ساعة واخرى ، واطهر في الدرجة الثانية عجز وسائل الوقاية .

سبق لاوروبا ان عرفت قبله ، بالاضافة الى العدوى المحلية ، اوبئة اخرى شاملة كالزحار ، وضروباً اخرى من العدوى ، في بلدان الشمال ، بين اسوج والوار ، حوالي السنة ١٣١٥ . وبعد الوباء الكبير الذي انتشر في السنة ١٣٤٨ ، شاهد الباقون على قيد الحياة تجدد البلية في السنوات

١٣٥٨ - ١٣٦٠ و١٣٧٣ - ١٣٧٥ ، وانتشارها انتشاراً أوسع بين السنة ١٣٨٠ والسنة ١٤٠٠ ؛ ففي السنة ١٣٩٩ ، كانت عمليات الدفن دائمة في باريس ، وحظر على المتادين اعلان اخبارها . وفي السنة ١٤١٤ والسنة ١٤٢٧ حجب السعال الديكي صوت الوعاظ اثناء القداديس . وفي السنة ١٤٣١ فتك الطاعون نفسه بالوف الضحايا من الشبان ثم عاد وانتشر انتشاراً شاملاً ، مع الجدري ، في السنة ١٤٣٨ . وبعد مرور ثلاثين سنة ، لم يبق من محل لقبر واحد ، اثناء « فناء » آخر ، في مقبرة الأبرياء في باريس . وقد توصل بعضهم الى تقدير ضحايا الطاعون وحده ، في انكلترا ، بين السنة ١٣٤٩ والسنة ١٥١٧ ، بثلاث مجموع الوفيات . ولما كان الطاعون قد شمل اسبانيا واطاليا والمانيا والبلدان السكندينية ، فلا غرابة والحالة هذه اذا ما استمر الانخفاض في كثافة السكان حتى القرن السادس عشر .

بيد ان الحكومات والشعوب قد حاولت كافحة الامراض بوسائلها الهزيلة . كان الاطباء قليلي العدد : ففي السنوات الاولى من القرن الرابع عشر ، ما كان « الملهفون المرموقون » الثلاثون في باريس ليرضوا بالاهتمام بالجراحة ، ولو امن لهم ذلك ثروة طائلة ، لا سيما وانهم كانوا يتقاضون « مرتباً كبيراً » يتناسب « ومنصبهم الكبير » ؛ وتحلى الجراحون - الحجاجون بدورهم عن عمليات صعبة كاستخراج الحصى وحز القروح « لحزازين » ليس ما يعادل جساتهم سوى جهلهم . وعلى الرغم من التقدم الذي نجم عن اعتماد التشريح في الجامعات ، فقد تدنى مستوى الطب بعمل المتهنين غير القانونيين . وقد لوحق منهم ثلاثة وعشرون دفعة واحدة امام المحاكم في باريس في السنة ١٣٣٢ . وارتفعت الشكوى في القرن الخامس عشر من القوابل الواقي مارسن مهنتهن دونها تفويض بذلك من القاضي .

على الرغم من علم امثال « غي دى شولياك » طبيب اكليمنوس السادس ، او « جنتيلي دا فولينيو » ، او علماء كلية الطب الفرنسية ، مرتدي القلائس المربعة ، الذين استشارهم الملك ، في السنة ١٣٤٨ والسنة ١٣٧٣ ، حول الطاعون ، فان حياة السكان - حتى العظما منهم الذين كانوا يتوتون في سن مبكرة على العموم - لم تكن قط في ايد جديدة بالثقة . اكتفى الطب بالتعليم القديم ، الذي شوهد جدل متكلف ، وبعض الاختبار ؛ ولم يجرؤ احد ، الا في اسبانيا واطاليا ، على الاستعانة صراحة بالتعليم اليهودي والعربي . وقد فسروا ظهور الطاعون ، بتصادم الكواكب وسوء سمعة المريخ . اما المداواة المعتمدة فكانت اما مضرّة ، كتجنب كل تهوية ، وأما غير ذات فمالية ، كالمطهرات العطرية ، واما داخلة في التدابير الصحية العادية البسيطة ، او الوقائية الحثيئة ، او العلاجية العديدة التأثير .

غير ان التدابير الصحية العادية كانت افضل من الطب ، والتدابير الصحية الخاصة افضل من التدابير الصحية العمومية : وكان لزاما ان تكون الحياة منظمة جداً كي تقاوم الطاعون والاطباء . كانت الملابس ، من صوف وفراء ، جيدة وكافية ، ولكن التدفئة ما زالت غير كافية لا سيما في الأرياف . والبيوت اعوزها النور ؛ واستخدم الورق المطلي بالزيت بدلا من

الزجاج الذي ما زال مادة بذخية حتى في المدن . وما كانت المساكن الريفية لتتلقى نورالشمس الا بواسطة الباب في اغلب الاحيان ؛ واضطر الصناعيون اليدويون ، في المدن ، الى العمل على مقربة من الشوارع التي تفتقر هي نفسها الى النور بسبب تجهيزات الوقاية من المطر والحرارة فوق المداخل . وكانت الحمامات العامة مؤمنة نسبيا حتى في مدن من المرتبة الثانية ، ولكن المساكن الخشبية آوت الى جانب الأدميين جرذاً هي أخطر ما ينقل الطاعون ، وكثيراً من البراغيث التي يرشد « المقتصد الباريسي » الى طريقة لافنائها يعتبرها واجباً يومياً . وليس من ريب في ان التدابير الصحية العامة قد افادت من دروس الطاعون الكبير : فمنذ السنة ١٣٥٠ حظّر تجول الخنازير في شوارع باريس ؛ وبعد مرور ست سنوات ، نظم فيها القاضي « هوغ اوريو » اول بلاعة (مجرور) تحت الارض ؛ وانما توجب ، حتى القرن السادس عشر ، اصدار اوامر متكررة بارغام السكان على نقل اقدارهم الى المطامر العامة بدلا من الالتقاء بها في الشارع او في نهر السين ؛ « ومن العجب العجاب ، كما قال احدهم بسذاجة في السنة ١٤٠٤ ، ان تشرب منه الاجسام البشرية دون ان تتعرض للموت او للامراض المستعصية » .

اما الواقع فهو سوء التغذية ، قيل جوّ المدينة التي اتسعت لمروج وحقول فسيحة ، وقيل وخامة المساكن التي اثبتت بعض الحُسبان كفاية الهواء فيها ، ما سهل انتقال العدوى الوبائية ، لان الارياف نفسها لم تنج منها . عادات غير صحية : فلا معلقة فردية ولا صحيفة فردية . ونظام غذائي غير معتدل : كثير من المقدمات والنشويات والمرقيات والدهنيات والتوابل ؛ وقليل من المأكّل الطازجة المغذية . ونقص في الاغذية بنوع خاص ؛ اذ ان انتشار الاوبئة قد صادف ، في الزمن ، المحول والمجاعات .

ان ما نعرفه عن تاريخ المحول يفوق ما نعرفه عن وطأتها وامتدادها . فهي ، سواء كانت محلية او شاملة ، قد نجمت على العموم عن عدم اعتدال الفصول وغالباً ما اشتدت بفعل اضرار الحروب . فلنقصر الكلام هنا على مجاعتي القرن الرابع عشر الكبيرتين : هطلت في السنتين ١٣١٤ و ١٣١٥ امطار طوفانية عاقت زرع الارض في فصل الخريف وحالت دون نمو الحبوب ونضجها ، بينما قضى فصل الصيف البارد على الامل يجمع الملح وقطف العنب . فحين نضبت كافة الموارد بين روسيا وجبال البيرنيه ، ارتفعت الاسعار وبلغت معدلات غير اعتيادية ، وانتشرت المجاعة مسببة اوبئة خطيرة . وبعد مرور ستين سنة ، جاء دور اوربا الجنوبية : اصابة الكروم بالصرّ في السنتين ١٣٦٥ - ١٣٦٦ ، حصاد سيء في السنة ١٣٦٨ ؛ وفي السنوات ١٣٦٩ و ١٣٧٠ و ١٣٧١ ، جفاف وحصائد سيئة وموتان ؛ وفي السنة ١٣٧٤ ، قضى الجفاف ، و « الامطار والعواصف » من بعده على كل شيء : فظهر الطاعون مرّة اخرى ، وزادت الظروف السياسية والعسكرية في خطورة الغائقة وارتفاع الاسعار ؛ في اللنفدوك صودرت المواد الغذائية لاجل الجيوش ؛ وفي ايطاليا اتخذت الادارة البابوية من تصدير الحبوب الى الدول الاخرى في شبه الجزيرة سلاحاً دبلوماسياً . وفي كل مكان استفاد المضاربون من هذا الوضع السيء ، امام عجز

السلطات العامة ، السيئة التنظيم ، المفسدة بالرشوة والمسؤولة ، فوق كل ذلك ، عن نظام جبائي جائر . اجل لم تخل تدابير ممثلي غرينفوريوس الحادي عشر من الجراءة : فهم قد حاولوا منع المضاربة واوجبوا ، تحت طائلة الغرامة ، تقديم تصريح بالمخزونات ، وارادوا ، بعد احصاء الموارد والمخارج ، تنظيم توزيع اسباب العيش واخضاعها لتسيير محدد . ولكن صرامة طريقتهم قد اخفقت امام عدم ادراك مرؤوسيههم وتصلب الانانيات الاقليمية .

تفاقت في كل مكان روح الاثره المحلية ، وزاد في حدتها قلق مقض من نقصان المواد الغذائية . فازداد مثلاً التنافس التقليدي بين باريس وروان في تجارة الحبوب طيلة ايام المحول : خلال زمهرير السنة ١٤٠٨ - ١٤٠٩ الذي جتدمياه الانهر في كافة انحاء فرنسا الشمالية ، وقدرافقته المجاعة والطاعون ، او حين تجددت الحرب الانكليزية فزادت في هشاشة اسعار المواد الغذائية ، او اثناء البؤس الذي طال امره منذ السنة ١٤٣٧ حتى السنة ١٤٣٩ والذي يجدر قراءة وصفه في ما تركه بورجوازي باريس والمؤرخون البورغونيون .

تمرضت الحياة اذن لازمات دورية كبرى تخللتها ، في تعاقب مطرد ، فترات هدوء نسبي ومراحل صعوبات محلية . وكان الانسان تحت رحمة المحاربين والاطباء والمضارين وبلايا الطبيعة . فاذا لم يكن خبزه مؤمناً ، هل كان باستطاعته شراؤه يا ترى ؟ بهذا السؤال ننتقل الى فقدان التوازن الاقتصادي .

٣ - فقدان التوازن الاقتصادي

انه لاسهل علينا ان نتكلم عن فترات ازدهار اقتصاد القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفترات انحطاطه وانخفاضه ، وتقلباته القصيرة الامد ، من ان نضع خطوط بيانية تبين اتجاهاته العامة .

ان انكلترا ، الغنية بوثائقها المالية ، تبسط امام اعيننا حركة صادرات انجمادات الاقتصاد صوفها الخام واجواخها وحركة اموال خزانتها الملكية . وقد حاول بعضهم وضع بيان بالاسعار فيها ، كما حاولوا ذلك في هولندا وممالك راغون وقشتالة ونافار . فنحن نعرف حجم النبيذ الفسكو في المصدر في بوردو والمستورد في انكلترا . وقدرت - تقديراً خاطئاً أحياناً - اهمية انتاج الجوخ في ايبير استناداً الى وزن الرصاص المستخدم لوسم الاجواخ . ويعرف العلماء اسعار الحبوب والاجواخ والعظم في تولوز والقمح في صقلية والجاودار في كونسبرغ خلال القرن الخامس عشر ، ونصيب تجارة المدن الهانسية في انكلترا وحجم صيد الرنك والتجارة البحرية في « دياب » . ورفعت المصادر الجبائية النقب ، بصورة غير مباشرة ، وفي فترات يتفاوت مداها ، عن نشاط مرسيليا وجنوى وبرشلونة ولوبك ولاسيا مبورغ . واتاحت سجلات بعض الصيارفة البروجيين وتجار اللنغدوك ورجال الاعمال الايطاليين تتبع

تقلبات فوائدهم بينما اخذت بعض حسابات السيادات المعلمانية والكنسية ترفع النقاب ، في كل مكان تقريباً عن ترجيح قيمة موارد الاراضي . فاستخلصت من كافة هذه الارقام ، وكلها جزئي وناقص ، حقيقة المخطاط بعيد المدى باستطاعتنا كشف اغراضه وتشخيص طبيعته . ان هذا المخطاط الذي نهضت منه ايطاليا بسرعة وتسرب الى انكلترا ببطء وكان اطول بقاء وربما ابعد عمقاً في فرنسا التي خربتها الحرب ، قد ارتدى مظاهر اقليمية متنوعة جداً ، وتفاوتت ايضاً بين شكل وآخر من اشكال النشاط الاقتصادي واصاب الاوساط الاجتماعية المختلفة اصابات مختلفة جداً ايضاً . اما النتيجة الرئيسية للامرات التي تجددت تكراراً فكانت ، كل مرة ، بعض الهبوط في الانحجام الاقتصادي كما يثبت ذلك شمول اتفاق المخطوط البيانية المختلفة ومشابقتها في الرسم الاسنان المنشار واتجاهها العام نحو الانخفاض ، لا سيما في القرن الرابع عشر .

والحقيقة هي ان وحدة عوامل المخطاط وترابط المجتمعات الغربية ، قبل استثمار الاقاليم باقتصاداتها الخاصة ، قد فرضا تميم الامرات دون ان يفقدها فوارقها المحلية . افلا يتوجب علينا والحالة هذه البحث عن السبب الاول لانقلاب الوضع في فقدان التوازن ، الذي لاحت بوادره منذ قبل نهاية القرن الثالث عشر ، بين السكان والانتاج الزراعي ؟ فواقع الارتفاع النسبي في كثافة السكان ظاهرة كان إيقاف اصلاح الاراضي ، وجود التقنية الزراعية العاجزة عن تحسين الانتاج ، وخذود حركة التعمير ، دلالتها ونتيجتها في آن واحد . واذا كان الطاعون الكبير قد ابعد ، بما فتك به من ضحايا ، شبح تكاثف السكان طيلة اربعة قرون كاملة ، فان التوافق بين العرض والطلب ، الذي كان من شأنه - ولعله حقق ذلك في بعض البلدان - ادخال تحسين مؤقت على الوضع الاقتصادي ، لم يلبث ان فقد ، لا بفعل حالة حرب شاملة ودائمة فحسب ، بل خصوصاً بفعل ما طرأ على الاوضاع النقدية من اضطرابات لم يعرف لها نظير من قبل .

لم يحفظ التاريخ من هذه « الانقلابات » سوى ما بلغ منها منتهى الشدة : اعني بها فترات انهيار بعض النقود - في فرنسا بين السنة ١٣٣٦ والسنة ١٣٤٣ ، وبين السنة ١٣٥٠ والسنة ١٣٦٠ ، وبين السنة ١٤١٦ و ١٤٣٠ - التي كان لها صدها وراء الحدود في معظم الانظمة النقدية ، والتي عقبها اصلاحات جزئية افضت الى استقرار الاوضاع ، وقد حاول تفسيرها : بمحاجات الحكومات العسكرية ، والسياسية التي كان هبوط النقد لها بمثابة افلاس جزئي موه ؛ وبالتسهيلات المقدمة لتجارة التصدير التي يمكن ان تباع موادها الغذائية بسعر اوفق ؛ وبضرورة اجتذاب النقود الاجنبية ، الذهبية والفضية منها ، الى مصانع السلك والمحافظة على مكاسب الاسياد . ويرد غموض المسألة الى تعقيد الانظمة النقدية التي قام فيها النقد ، المعترف به قانوناً في التعامل ، على قطعة الفلوس الصغيرة التي خففت باستمرار واستندت الى قيمتها في تسعير النقد الفضي او الذهبي الخالص تقريباً ، الذي كان اداة الصفقات الحقيقية . اما اذا نظرنا من فوق الى التطور النقدي خلال القرنين الاخيرين من القرون الوسطى ، فاننا نرى في الواقع اتجاهات

مشتركاً الى تخفيف وزن القطع النقدية تخفيفاً تدريجياً يختلف باختلاف البلدان : فان القطعة الكبرى في الفلاندر مثلاً قد فقدت ، بين السنة ١٣٣٠ والسنة ١٣٨٠ ، ٨٠٪ من قيمتها الاصلية ؛ وفقدت القطعة الفرنسية المعروفة « بتورنوا » ، خلال قرنين لا تدخل فيها عهود الفوضى النقدية ، ٧٥٪ من هذه القيمة ، بينما لم تفقد السترلية الانكليزية سوى ٤٧٪ فقط . ولكن المعدل السنوي لهذا الفقدان ، وهو ضئيل في الواقع ، لم يخفف « المجاعة النقدية » التي كان هذا النقد « الذائب » خير دليل على حقيقتها

حاول بعضهم وجود صلة بين هذا النقص في المخزون النقدي والتبدلات التي طرأت ، في منتصف القرن الرابع عشر ، على العلاقات بين الشرق والغرب : اذ يبدو ، حتى السنة ١٣٤٠ تقريباً ، ان الفضة قد صدرت من الغرب لدفع رصيد تجارته مع الامبراطورية المغولية ؛ وان الذهب الشرقي قد تدفق ، عن طريق بيزنطية بنوع خاص ، - حيث لم يبق ، مع ذلك ، في التداول ، سوى قطعة « الهيبيرير » الذهبية الخفيفة العيار جداً - على الغرب ، الذي استطاع آنذاك الاكثار من سك النقود الذهبية . ثم ما لبثت قيمة الفضة ان ارتفعت ، لان النفقات العسكرية قد زادت في طلبها لدفع مرتبات الجنود ولان اقفال طرق آسيا الصغرى قد حولت تجار الغرب نحو مصر حيث احتلت الفضة مركزاً يفضّل مركز الذهب . الا ان هذه الوقائع لا تفسر في الحقيقة سوى فقدان النسبة بين المعدنين والفوارق العظيمة احياناً التي قامت بين سعرهما القانوني وسعرهما التجاري ؛ فهي لا تعطي سوى فكرة غامضة عن الاسباب العميقة « لمجاعة نقدية » كانت حافزاً لبحث مطرد النشاط عن مناجم الفضة في الغرب . وليس مرد هذا البحث الى تزايد حجم الصفقات ، بل هو دليل شبع الاسواق الذي يولد الثروات ويفضي الى تقويم المال . وهذا هو سبب الواجب المتناقض الذي واجهته الحكومات وفضى بالمحافظة على استقرار النقد الذي هو شرط لا بد منه لسلامة الصفقات ، كما يقول نقولا اورسم . وبتخفيض قيمته الذاتية دورياً لمكافحة جمع الثروات والتخفيف من وطأة استقرار رؤول الى ازالة تضخم النقد الورقي .

يحدد مستوى يسار البشر او رؤسهم بقياس العلاقة بين اعبائهم
النقد والاسعار والاجور
ومواردهم ، ويعبر عنه بالاسعار . ولكن الاستفادة من هذه الاسعار
على الرغم من ضخامة حجم المعطيات الحسابية والتنويعات المتفرقة ، لاتزال في نقطة انطلاقها
لذلك فان تفسيرها سينطوي على صعوبات كبرى ؛ فساكثرنا من ثم التعبير عنها ، على ما بينها من
فروق ، بالنقود الراجعة التي كان لها معناها في نظر المعاصرين على تحويلها ، كما درجت العادة في
السابق ، الى غرامات ذهبية : فالذهب والفضة كانا كلاهما سلماً موضوع مضاربة تجارية ، وهما
شكلان بهذه الصفة عيارين قابلين التبدل .

ان بين الوقائع التي تبدو وكأنها تهيم على اقتصاد القرنين الرابع عشر والخامس عشر استمرار

هبوط الاسعار الزراعية ، ولا سيما اسعار الحبوب . وهو اتجاه عام يبرز حتى في اسواق البلطيك التوتونية ، وحتى في شبه الجزيرة الايبيرية وان حدث ذلك في عهد متأخر : ففي نافار تضاعفت الاسعار بين السنة ١٣٥٠ والسنة ١٣٩٠ ، وربما حدث الشيء نفسه في اراغون ايضاً ؛ وبدأ الهبوط في مملكة فالنس في اوائل القرن الخامس عشر ، وانتقل الى اراغون ثم الى نافار ، الى ان شمل كافة المناطق في السنة ١٤٤٥ . وفي انكلترا طرأ على الاسعار ارتفاع واحد استمر في الصعود منذ السنة ١٣٥٥ حتى السنة ١٣٧٥ ؛ الا ان الحيز قد سقط منذ السنة ١٣٧٧ الى ادنى سعر عرفه منذ ثلاثين سنة . ونجد الارتفاع الذي عقب الطاعون الكبير ، في كافة انحاء الامبراطورية ، كما نجده ، في اثناء مجاعة السنتين ١٣٧٤ و ١٣٧٥ ، في الدول المتوسطة . اما في هولندا ، التي تستهلك كثيراً من الحيز ، فقد ارتفع سعر القمح منذ السنة ١٣٤٠ وبلغ القمة في السنة ١٣٨٠ ثم انخفض بعد ذلك ولم يعد الى الارتفاع الا خلال عشرين سنة فقط (١٤٢٠ - ١٤٤٠) . وقد اهدمت في هذه الاسعار التغيرات الموسمية ، وهي ابعد التغيرات اثرأ في المعاصرين ، لان اقل تبدل في الحصائد واقل تقلب في حجم الطلب يفقدان الاسعار توازنها ، ويخففات كذلك من وطأة الاضطرابات النقدية المفاجئة ؛ وقد امكن ، في بوردو وتولوز ، وجود صلة بين ارتفاع وهبوط اسعار الحبوب ، المتعاقبين تعاقباً مطرداً ، وبين حوادث التقلبات النقدية ؛ وكذلك فان « استعمال الاسعار » في اعقاب انهيار النقود ، في باريس كما في روان ، قد جعل من السنة ١٤٢٠ - ١٤٢١ ، اقصى سنة مرت على فرنسا ونورمنديا .

اما ما نعرفه عن الاسعار الزراعية الاخرى - نبيذ ، منتجات تربية المواشي ، صوف ، نباتات صباغية - والاسعار الصناعية - مواد البناء والملابس مثلاً - لمصنوعات تؤلف الاجور في اكلاف تحضيرها حجماً لا يقبل الانقاص ، فيم عن مزيد من الاستقرار : الاسعار تستقيم هنا او تميل احياناً الى الارتفاع . الا ان هذا الارتفاع ، والحق يقال ، لم يثبت بالدليل الا في انكلترا وهولندا : فان تصاعد الاسعار ، في صناعة النسيج الفلمنكية ، قد عدل جزئياً ، في القرن الرابع عشر ، بتخفيض اسعار الجملة تخفيضاً منظماً ، ولكن الوضع تغير في القرن الخامس عشر ، حين اعتمد دوقية اسرة فالوا و « فيليب لوبون » بنوع خاص سياسة استقرار تحول دون تضخم النقد الورقي ، لا سيما منذ اصلاح السنة ١٤٣٣ ، فنقلت آنذاك وطأة الاسعار على الاقتصاد ، بينا تناول الارتفاع المنسوجات الانكليزية بدورها حوالي السنة ١٤٤٠ .

لقد تفاوت تأثر المنتج بهذا « الاختلاف » في الاسعار (هبوط في الحبوب ، وارتفاع في المنتوجات الاخرى) . فكانت النتيجة في الارياف المحصاراً في امكانات الكسب لا يخرج منه الا بالاكثار من زراعة الحنطة لعرض مزيد من الحبوب ، باسعار متدنية ، في الاسواق - ولكن ذلك يزيد في الهبوط - او بالاقلاع عن زراعة الحبوب وممارسة نشاطات اوفر كسباً : كزراعة الكرمة وتربية المواشي . اما في المدن فلم يكن من تناسب بين ارتفاع

اسعار المنتوجات الصناعية وبين انحصار الطلب وتخمّة الاسواق ، ولا يجحد التجار من يشتري البضائع الا باسعار متدنية يتحملون وحدهم نتائجها .

وكان اثر هذا الوضع في المداخيل اشد منه في الاجور . وسبب ذلك ان سوق العمل قد افاد ، منذ منتصف القرن الرابع عشر ، من نقص كبير في اليد العاملة ندرك مداه بعيد الطاعون الكبير . فكما ان الأرض التي هبطت قيمتها تدريجياً لم تجد سواعد كافية تنهض بما تستلزمه من اعمال ، كذلك احتاجت المصانع الى صناعيين . ومنذ السنة ١٣٤٩ تقاضى احد فلاحي « تدنفتون » احد عشر فلساً بَدَلَ عمل دفع له اجره ستة فلوس في السنة ١٣٣٦ . وفي السنة ١٣٤٩ ايضاً ، و « نظراً لغلاء العيشة وسوء حال اليد العاملة » ، استفاد عمال صناعة الاجواخ في « سانتومير » من ثلاث زيادات متوالية على الاجور : فقد مكنتهم الحاجة الى اليد العاملة من التصلب في تطلّهم . فاقرت السلطات العامة في كل مكان ، للحدّ من ارتفاع الاجور تدابير آنية لفتت الانظار كما لفتها هول انتشار الوباء من قبل . وصدر في انكلترا ، منذ السنة ١٣٤٩ ، قانون تكامل بعد مرور سنتين « بنظام الفلاحين » ، يحظر ، تحت طائلة العقوبات ، على ارباب العمل ، منح اجور تفوق اجور السنة ١٣٤٨ ، وعلى العمال طلب مثل هذا المنح . واصدر ملك فرنسا قانوناً مماثلاً في السنة ١٣٥١ وحددت جمعيات اراغون التمهيلية في السنة ١٣٥٠ ، وجمعيات قشتالة في السنة ١٣٥١ ، الحد الاعلى للاسعار ، واسندت امر تطبيقها الى البلديات . وكان قد سبق لبلدية برشلونة ان حدثت من المطالبات الرامية الى الحصول على اجور توازي اربعة او خمسة اضعاف الاجور القديمة . كما سبق لفلورنسا ان قررت نقل العمال من مصنع الى آخر لسدّ الثغرات ، التي اوجدها ارتفاع نسبة الوفيات ، سداً متساوياً . وعمدت بلديات اخرى ، كبلدية تولوز او متز مثلاً ، الى تسعير الاجور او تنظيم الاستخدام وشروط العمل .

الا ان هذا التدخل الشامل من قبل الدولة ، حتى في بلدان كانكلترا أحدثت فيها اجهزة قسرية ، لم يحقق استقرار الاجور ولا الحد من ارتفاعها . اجل ، ربما لم يطرأ في النهاية تطور يذكر على الاجور في فلورنسا والفلاندر - وكانت هذه الاخيرة اقل اصابة بالوباء - وربما بقي وضع عمال حي « سان جرمان » في باريس شبيهاً به في العهد السابق ؛ وهو استقرار شبه شامل في فرنسا . ولعله يرد الى تداع ابعده عمقاً في الاقتصاد ، بفعل هبوط الانتاج قبل انخفاض كثافة السكان ، وبفعل استمرار توافر العمل في المصانع . ولكن الاجور قد ارتفعت في كافة البلدان الاخرى : ففي اراغون ونافار اطرد الارتفاع طيلة القرن الخامس عشر ؛ وفي انكلترا ارتفعت قيمة الاجور الشرائية ، في اواخر القرن الخامس عشر ، الى اكثر من ضعفها في منتصف القرن الرابع عشر .

يجب هنا الانحاول معرفة اهمية الارباح والاجور وقيمتها الشرائية ، اللتين هما الشرطان الحقيقيان للحياة : فنحن لانعلم قيمة الارباح الاسمية وصلتها بالاسعار ، ولا حاجات البشر

الحقيقية التي تتغير بتغير العادات والاذواق . فماذا تمثل نقداً تلك العادات التي غالباً ما اعطيت عيناً ، كالأحذية والملابس والغذاء ، وحتى المسكن أحياناً ؟ اضع الى ذلك ان الاجور قد اختلفت بين مهنة واخرى ، ومدينة واخرى ، وفصل وآخر ؛ وان الصفات المهنية لم تكن اقل تنوعاً ايضاً . فلا ريب مثلاً ، بصورة عامة قبل منتصف القرن الرابع عشر ، وحتى في السنة ١٣٨٠ ، في غنت وفلورنسة ، في واقع وجود طبقة كادحة عملت في مصانع النسيج وتقاضت اجوراً متدنية غير كافية . وفي حالات اخرى كثيرة ، استطاع الصناعي ، العامل في خدمة رب مهنة صغيرة ، ان يؤمن معيشة متوسطة ، كما ان الفلاح ، للذي كان يوصي بممتلكاته لاحد ابناؤه او لتأمين معيشة ارملة ، لم يكن بالضرورة بائساً . وتبدوا الفوارق الاجتماعية اوضح تحديداً من المستويات المعيشية : فان الأجر اليومي لعامل ليوني ، في اوائل القرن الخامس عشر ، وهو يقدر بفلس « تورنوا » ، كان يساوي ، اذا ما اخذنا ايام العطلة بعين الاعتبار ، ٢٥ فلساً في الشهر و ١٥ ليرة في السنة ؛ وكان ثمن لبرة الخبز درهماً ونصف الدرهم ؛ وتراوح دخل الحريف والبناء والمسقف بين ٢٥ و ٦٠ ليرة في السنة ، كما تراوح دخل التاجر وصانع الفراء وصانع الجوخ والنجار بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فلس . فيتضح ، مع حفظ النسبة ، ان الارباح لم تكن مرتفعة قط ، وفي ذلك دليل على عسر الايام : ففي اوائل القرن الرابع عشر ، لم تتوصل اوسع الشركات الايطالية ثروة ، الا بفضل ادارة دقيقة جداً ، الى تحقيق ارباح تتراوح بين ٧ و ١٥ ٪ ، بينما حققت في السابق ارباحاً تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ ٪ . الا ان المشاريع التجارية والمضاربات الزراعية وتأجير العقارات المستأجرة ، بعد تجزئتها ، ربما درت مزيداً من الارباح . ففي تولوز ، قاربت نسبة الارباح ٢٥ ٪ في القرن الخامس عشر واستقر الدخل العقاري حوالي ١٠ ٪ ، وبلغت ارباح التجارة البحرية ، في روان ومرسيليا ، حتى ٣٠ ٪ أحياناً . ولكن هشاشة المشاريع جعلت ارباحها غير الكيدة .

بيد ان الضرر قد ادرك دخول الاخذات وشتى الدخول العقارية بصورة خاصة بسبب استحالة التوفيق بينها وبين مختلف ظروف الاضطراب الاقتصادي . فبات من ثم لازماً علينا ، في الدرجة الاولى ، ان نحاول تقدير نتائج الخطا طويل الامد على الارض ومالكها .

ان الطاعون الكبير ، ببليته اليد العاملة ، قد استعجل انهيار الاراضي مصر الاراضي التقليدي . فالتطور كان قديماً وشاملاً على الرغم من بعض الفوارق الزمنية . وليس سوى الامبراطورية ، في مناطقها الشرقية - الاراضي المستعمرة وراء الإلب - ما عرف تجدد الاملاك الواسعة . اما في البلدان الاخرى فقد استرخت روابط التبعية الشخصية نهائياً وتفككت عرى التجمع القديم حول هذه الاملاك ، بينما كانت الاراضي آخذة في الانتقال من مالك الى آخر . وفي انكلترا ومنطقة تولوز ومنطقة بوردو ونورمنديا وبورغونيا والمانيا الغربية استطاع الفلاح ان يستفيد من صعوبات مالكي الاراضي . فقد تضافرت نفقات الحروب الدائمة ، والفتدى الواجبة الدفع ، وتخفيضات اسعار النقد التي اذابت الدخول الثابتة كما يذوب الثلج

بفعل حرارة الشمس ، وواجب المحافظة على مستوى المعيشة ، وانتهت باسياد كثيرين الى ضيق شديد اشبه بحالة الياس . كما ان الاستمرار في قسمة الارث انصبه متساوية ، والافراط في توزيع الاراضي بموجب الرصيات ، قد اسها كذلك في انقاص مساحات هذه الاراضي انقاصاً عظيماً . وهناك ما هو شر من ذلك : فنذ الربع الاول من القرن الرابع عشر ، انقص هبوط الاسعار الزراعية دخول الاراضي السيدية الاحتياطية . ثم جاءت أزمة اليد العاملة ، فوق كل ذلك ، تسبب ارتفاعاً في الاجور ، وبالتالي زيادة في اكلاف الاستثمار .

بيد ان فقدان التوازن بين حجم الانتاج ومستوى الاسعار ، وبين ندرة اليد العاملة وانقاص الطلب ، لم يكن سوى وجه واحد من تعقير ابعاد عمقاً واطول مدى . فلما كانت استقرار الحبوب قد عادت الى الهبوط منذ الربع الاخير من القرن الرابع عشر ، ولما كانت اكلاف الاستثمار - ولا سيما الاجور - قد حافظت على ارتفاعها ، استمر نظام الاراضي الواسعة في التداعي والتخلخل واستحال إيقاف التطور القديم نحو استثمار الارض استثماراً فردياً .

زد على ذلك ان السيد ، الذي اعوزه المال ، قد ارغم على التنازلات كي يبقي في الارض اليد العاملة النادرة ، حرّة كانت ام عبديّة . فاسهم اعتناق البعض وتخفيف اعباء البعض الآخر ، اللذان تماكلاهما عن طريق المساومات والمزايدات ، في حل اواصر تملق الفلاحين باسيادهم . كما ان الفدادين الذين لم يمتقهم القرن الثالث عشر قد حصلوا على الحرية بالتراضي او بالفدية او بالتهديد بالفرار . وكان الاعتاق فردياً او جماعياً ، وافادت منه العيلة او القرية احياناً ؛ كما كان كاملاً او محدوداً ، مشروطاً بانتفاء ضريبة الاقتطاع ومنع انتقال ارض الممتق : ففي فرنسا مثلاً عرفت مقاطعات شمبانيا وايل دي فرانس وبري وغيرها ، وكلها سناطق فدادية شخصية او عينية ، شتى ضرورت الاعتاق . واعيد النظر كذلك في الاعباء ، عبديّة كانت ام حرّة ، عيناً ام خدمات : فعددت هنا ، وخفضت في غير مكان الى ما دون قيمتها السابقة ؛ وامكن التخلص منها احياناً بدفع اقساط دورية ، كما امكن ابدالها ، عندما تكون تسخييراً ، بمبلغ معين ثابت سرعان ما تخف قيمته في هيمان الجاهي السيدي . فنذ عهد الطاعون ابدل حوالي ٥٠ ٪ من من التسخيرات بمبالغ نقدية في ٨١ اقطاع موزعة على ٢١ كونتية ؛ وبعد مرور ثلاثين سنة تجاوزت النسبة ٦٠ ٪ .

وغدت المشاركات الزراعية في الاراضي التابعة للاقطاعات اعظم مرونة ، فبرز الميل الى ابدال عقود المزارعة بعقود التزام تترك للمستثمر ، بفضل استثمارات متوسطة الاجل ، الاستفادة من فائض الحصاد . وهكذا فان نسبة حصة كهنه سان - سورين في بوردو ، قد هبطت من ٦٩ ٪ الى ٥٣ ٪ في الثلثين الاولين من القرن الخامس عشر ، بينما حلت المشاركات القاضية بدفع ضريبة خفيفة ، في اراضي زراعة الحبوب في الفوريز ، محل المشاركات القاضية بتقديم انصبه من الامار . وقد اشتهر في انكلترا مثل اسياد بركلي الذين حوّلوا استثمارات اراضيهم التقليديّة الى

استثمارات حررة؟ وبصورة عامة ارتفع ، في الاراضي التابعة للاقطاعة ، عدد المستثمرين « الاختياريين » والمتعاقدين ارتفاعاً عظيماً طيلة القرن .

اذالم تسمح كل هذه التضحيات باستثمار كافة الاراضي التابعة للاقطاعة فالاستثمار المباشر ، باولى حجة ، قد اثبت يوماً بعد يوم انه اقل دخلاً ، اذ ان العبيل المأجور ، وهو المنجم من التسخير الذي ولى عهده ، قد اثبت انه باهظ النفقات . وفي المناخات المواثية لتربية المواشي ، كمناخ انكلترا مثلاً ، حول السيد قسماً من اراضيه الصالحة للزراعة الى مروج ، رغبة منه في ان لا تنتهي الى البوار . وغالباً ما اجر قطعاً هامة بشروط توافق المستأجر : انتفاء الالتزامات المالية ، كراء خفيف ، مدة تعاقد كافية لحمل المستأجر على تحسين العقار . وفي منطقة تولوز تخلى اصحاب الاقطاعات للمستثمرين عن بعض الاراضي البائرة لمدة طويلة نسبياً دون ان يفرضوا عليهم اية اتاوة . وفي نورمنديا سلم الالسياد الاراضي باجور منخفضة ولكنهم اشترطوا على المستأجرين اصلاح الارض بالسجيل وزرعها بشجر التفاح واحياء قطعان المواشي . اجل ان هذه الجهود اشبه ما تكون بعمل (بنلوب) في تلك الارياف المعرضة لخراب دائم . ولكنها تضحيات تم عن بصيرة المرتضين بها ، نشاهدها في المانيا الغربية والجنوبية ايضاً ، حافظت على ثروة السيد العقارية كاملة سالمة .

الا ان هذه الثروة تعرضت لمزيد من الخطر حين نضبت موارد الالسياد فاضطروا الى بيع الحقوق والاراضي : اما عن طريق الاستقراض المتفاوت موارد ، تخلصا من العقوبات الكنسية المفروضة على المراهبة ، والمكفول برهن الاتاوات او الدخول او الاراضي ؛ واما عن طريق البيع « الوفاثي » الذي اعتبر موافقاً جداً بفضل ما ينطوي عليه من امكانات تاجيل وتسوييف ؛ واما عن طريق تعيين الدخول العقارية بنوع خاص . وقد كشفت هذه الاخيرة برهن الضريبة المفروضة على المزارعين او الحصص الزراعية او الاقطاعة بكاملها ، او مجموع ثروة البائع احياناً . وقضت بالتخلي مؤقتاً عن حق او ملك يحمل بموجبها محل « السيد الطبيعي » « سيد » او عدة « اسياذ » لم يعرفهم الفلاح من ذي قبل . وغالباً ما حدث ، بعد تراكم الدخول المتوجبة على الارض ، ان بيعت الارض بيعاً نهائياً . وما اسعد السيد الذي لم يرهن احتياطي املاكه ولم يضطر ، في النهاية ، الى بيع اقطاعه الى مالك جديد ا زد على ذلك ان الارث الوالدي نفسه ، وهو مجزأ في جوهره وموزع على اصحاب حقوق معينين ، قد ابتلع بدوره احياناً .

كان المستفيدون من عملية قطع الالسياد صلاتهم المباشرة بالارض والفلاحين وتحولهم الى اصحاب ايرادات ثابتة من عائدات الارض السنوية المستثمرين الفلاحين من جهة ، ومن جهة ثانية اولئك الذين توفر لديهم المال فوجدوا في محاصيل الارض فرصة لتوظيفه: اعني بهم البورجوازيين . وان التطور الذي ثقلت وطأته على الاشراف الفرنسيين بنوع خاص ، لم يرق كذلك بالاشراف الالمان والاطاليين ولا سياً بالاكليروس . وقد شاهد هذا الاخير ، لا سياً في ايطاليا ، ذوبان املاكه الشاسعة بين ايدي موقعي العقود الزراعية المعروفة بـ « المزعومة » ، المؤقتة مبدئياً والدائمة

في الواقع . اما الارستوقراطية الانكليزية، التي تعودت استثمار اراضيها استثماراً سليماً، فقد تمكنت من الوقوف في وجه التطور ، لا سيما في املاكها الرهبانية التي غالباً ما ضرب المثل بحسن ادارتها ، وفي اقطاعات عائلاتها الكبرى . بيد ان آل بركلي اضطروا ، في اواخر القرن الرابع عشر ، الى التحول بدورهم الى اصحاب ايرادات ثابتة من عائدات الارض السنوية ؛ وتلاحظ مبطه الاقطاعة كذلك في الشمال كما في الجنوب وفي بلاد الويلز ، في املاك آل « برسي » و « مورغر » و « كلار » و « بوهن » .

ان عزو هذه الهبطه العامة في الحياة الزراعية الى عجز اقتصاد القرون الوسطى عن زيادة وسائل الانتاج بتحسين التقنية ، انما هو تفسير عصري لوقائع ما كان المعاصرون ليعوها في الارجح . فهل يسعنا ، قبل الجزم ببؤس مالكي الاراضي نهائياً ، التأكد من ان الخسائر التي منوا بها لم يعوّض عنها موارد اخرى غير زراعية ، « كالارياح الوافرة » في الحروب ، وجعالات ال « الاتباع » الانكليز ، والوظائف الجزئية الكسب التي اسندت للامراء ورجال الكنيسة ؟ والواقع هو ان عائلات كثيرة من طبقة الاشراف القديمة قد استطاعت الابقاء او الحصول على وضع اقتصادي دونه وضع جدودها قبل حرب المئة سنة .

بيد ان كل ذلك لم يمنع طبقة متوسطة من الفلاحين الميسورين من الاستفادة من انهيار نظام الاملاك الواسعة ؛ فقد حصل بعض « حديثي النعمة » من اصحاب الاملاك على حقوق وحتى على اراضي الاسياد . ومنذ منتصف القرن الرابع عشر ، توصل ثلاثة مستثمرين في « ويدون بك » الى جمع معظم الاراضي الشاغرة في ايديهم ، بينما هبطت نسبة صغار المستثمرين الى ٥٠ ٪ . وهذا ما حدث لمستثمري اراضي الكنيسة في نورمنديا ولفلاحي المانيا الغربية والجنوبية ايضاً ، الذين توصلوا ، خلال القرن الخامس عشر ، الى الارتفاع فوق مستوى امثالهم ؛ كما حدث ذلك لفلاحي منطقة « جوزا » الى الجنوب من باريس ، حوالي منتصف القرن الخامس عشر ، ولـ ٤٠٠ رب عائلة ميسورين سجل التاريخ اسماءهم في منطقة بوردو بعد السنة ١٤١٤ ، ولآل « برتوت » الذين كونوا لانفسهم ثروة عقارية طائلة في نورمنديا بين السنة ١٣٨٠ والسنة ١٤٦٠ .

وآثر البورجوازيون توظيف ارباح تجارتهم في الممتلكات والعائدات العقارية : اذ ان الاراضي ، التي هي اضمن من الاعمال لتوظيف الاموال ، دليل تقدم في السلم الاجتماعي . ويحتل آل « البرتي دل جيوديشي » مركز الصدارة بين عائلات التجار الايطاليين الاثرياء التي جمعت ثروات عقارية طائلة في منتصف القرن الرابع عشر : فحول « بيت السيد » ، الذي تجدد فيه الميل الى « السكنية » الريفية ، امتدت الحقول المستثمرة التي سترسل محاصيلها ، بعد اقتطاع مؤونة السيد منها ، الى الاسواق التجارية . وسار على هذه الخطة نفسها ، حول المدن ، بورجوازيو اوغزبورغ واوالم ونورمبرغ في المانيا الجنوبية وبورجوازيو بورغوس وبرشلونة في اسبانيا . وسيطر « مدينو » متز على الارياف المجاورة . وفي القرن الرابع عشر كان لتجار « بوردو » كرومهم الخاصة في « ميدوك » ، كما ان مجهزي السفن في روان استعاضوا عن

مخاطر البحر بمحاصيل ' أرض . ويجدر التنويه هنا بالقطاعات الكبرى التي حصل عليها « جاك كور » من الاشراف المقتدرين في مناطق بوربونيه وبري وفوريز ، بينما ارتفع حفدة « كليمان باستون » ، الذي لم يملك وراء المانش سوى مطحنة وبعض الاراضي ، الى المصف الاول بين تجار الصوف .

وظف البورجوازي أمواله في أراضيهِ واعتمد في استثمارها على مهارته في الكسب ، فأدخل الى ايطاليا و « مسين » ومنطقة تولوز عادات الاقراض والدين . أقرض الكروم ، واشترى المحاصيل قبل جمعها ، وأسس الشركات مع مربي المواشي وضارب في جمع الاعشار وبرهن عن خبرته في معرفة الاراضي الخصبة التي تدر خمسة اضعاف البذار . وفي هولندا ، وفر له انطلاق صناعة النسيج ، عن طريق زراعة الكتان ، تعويضاً عن الصعوبات الزراعية . وذهب تاجر الصوف الانكليزي ، من مرعى ، الى مرعى يختار الجزز ويتاعها . وتنقل تاجر الحبوب او التبيد في باريس او روان ، بين الحقول والكروم ، وزار اهراء الحبوب وسقائف الخمر واشترى المحاصيل التي تغذي تجارته ، قبل جمعها احياناً . فلم تكن الارض في نظره فرصة توظيف مثمر يرفعه الى مرتبة الاسياد فحسب ، بل وفرت له المواد الخام و سلع التجارة .

فهل باستطاعتنا ، انطلاقاً من هذا الاتصال بين المدن والارياض ، الاستنتاج
صناعة النسيج
ان هبطة موازية في الصناعة والمقايضات قد رافقت بالضرورة الهبطة الزراعية الطويلة الامد ؟ ام ، على تقيض ذلك ، ان ارباح السلع التجارية - وهي قطاع اقتصادي اقل جموداً - قد عوضت عن نقص ارباح الارض ؟ يبدو جلياً ان الانحطاط الاقتصادي كان شاملاً حيث كانت الازمة الزراعية ابعدهم عمقاً ؛ ففي انكلترا مثلاً لم تعوض طاقة السوق الداخلية على الاستهلاك وتصدير الاجواخ المتزايد عن النقص في تصدير الصوف ؛ وقابل تقدم صناعة الاجواخ تأخر في تربية المواشي . ولكن اذا كانت بعض اسواق الانتاج والاستهلاك قد تأخرت تأخرأ ملحوظاً ، فان أسواقاً اخرى قد برزت وتقدمت ، وانتقل غيرها تدريجياً الى جوانب الطرقات الجديدة ؛ ولا ينكر ان صعوبات اشتداد التنافس الاقتصادي كانت حافزاً كبيراً للتقدم التقني والمباداهات الخلاقة . الا ان اللوحة تتميز هنا بكثير من الفوارق .

سننتأكد من كل هذه المتناقضات الظاهرة في درس خامات صناعة النسيج ومنتجاتها . اجل لقد ولى واقع احتكار الصوف الانكليزي وصناعة الاجواخ الفلمنكية التي لاءمت نسانجها الثقيلة فصول الشتاء الشمالية الطويلة والبرد المسائي القارس في المناطق الجنوبية ؛ وولى كذلك زمن اللقاءات ، في اسواق شبنانيا الدورية ، بين الصناعي الفلمنكي والشاري الايطالي الذي كان يصبغ الجوخ وفاقاً لأذواق الزبن الجنوبيين او الشرقيين . ولكن المقصود ليس ازمة صناعة الجوخ فحسب بل تعدد المنافسات وأسواق الخامات بصوة خاصة .

فهناك منافسة محلية ، في هولندا ، بين صناعة الاجواخ الريفية وبين صناعة الاجواخ المدنية

التي تأخرت في « أراس » ودواي وسانتومر وبروج وغنت وايبير ، بينما استجابت مراكز الصناعة الريفية لرغبة زبن اقل ثروة في اقتناء الاجواخ الخفيفة . وان في انطلاقة قرية هندشوت الفلمنكية لرمزا لتفوق الحرير على الجوخ القديم الثقيل . وهناك منافسة ايضاً بين الفلاندر وبين مينو وبرابان ومنطقة لياج وهولندا التي تعددت مراكز صناعاتها ، لا سيما في الشمال ، على حساب العواصم الاقليمية القديمة : فتقدمت لوفان وبروكسل ومالين و « بوا - له - دوك » ومايسترخت وليدن على سانتومر ودواي اللتين سقطتا نهائياً ، وعلى أراس التي وجدت في الوشي البذخي وسيلة وقتية تؤخر بها سقوطها . فيتضح من ثم على العموم ان صناعة هولندا قد حافظت على مركزها او عوّضت عن خسائرها . ولكن المنافسة الاجنبية لم تكن بأقل شدة ، فتأثرت الفلاندر والامارات المجاورة بالحرب الفرنسية الانكليزية التي حالت دون انتظام وصول الصوف من وراء المانش وسببت ازمات بطالة ورفعت كلفة المصنوعات الصوفية : وقد سبق ورأينا ان سياسة الاجور المتدنية والتخفيضات النقدية لم تكف للقضاء على المنافسة الاجنبية ولا للحيولة دون هجرة العاطلين الى الخارج .

اما في اسواق المنسوجات فقد تحسن مركز الاجواخ الانكليزية تحسناً مفاجئاً في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، فيما المحذر تصدير الصوف الخام ، المحصور في أيدي شركة انكليزية ذات امتياز استقرت نهائياً في كاليه ، من قرابة ٣٥ ٠٠٠ كيس سنوياً في السنة ١٣٥٠ الى ٥٠٠٠ كيس فقط في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . فان صناعة الاجواخ الانكليزية ، التي تقدمت بفضل المهاجرين الفلمنكيين هنا وبفضل الصناعيين المحليين في غير مكات ، وكانت الى جانب ذلك أساس ثروة « المغامرین التجار » ، وانتشرت ، انطلاقاً من انكلترا الشرقية ، في المناطق الجنوبية والغربية وحتى في « يوركشاير » ، نحو الشمال ، قد وطدت ، خلال القرن الخامس عشر ، شهرة نسانجها الخفيفة المختلفة توطيداً كان كافياً لأن تعرف نجاحاً كبيراً حال تصديرها من لندن وسوثمبتون وبريستول : فقد عثر حتى في روسيا على الاشعرة الرصاصية الموضوعة على النسائج المصدرة من لندن بواسطة تجار المدن الهانسية . واحتل الجوخ الانكليزي في تولوز ، منذ السنة ١٤٥٠ ، مركز الصدارة الذي كانت الاجواخ الفلمنكية والبرابانية لا تزال تحتله ، بنسبة ٩٠ ٪ ، في السنة ١٣٩٨ . ولم تتوان « الامة » الانكليزية الناشطة ، في انفرنس نفسها ، عن مغالبة الانتاج المحلي وخزن نسانجها المعدة لمزاومة اجواخ هولندا في الاسواق الالمانية .

زد على ذلك ان مصانع جديدة قد أسست في كل مكان تقريباً وحاولت تموين الاسواق الاقليمية . فان صوف الامبراطورية ، الذي كان يصدر في السابق الى لومبارديا ، قد جمع الآن في فريبورغ التي عاش ثلثا سكانها من صناعته في منتصف القرن الخامس عشر . وتقدمت في فرنسا صناعة الاجواخ الشمبانية والنورمندية والبرية والنغدوكية . وظهرت في اسبانيا ، حيث أدخل المرينوس حوالي السنة ١٣٤٠ ، الاجواخ الاراغونية والكاتالونية . وفي الفترة المتراوحة

بين السنة ١٣٣٠ والسنة ١٣٤٠ ، كان هنالك في فلورنسا ، اذا صدقت رواية فيلاني ، ٢٠٠ حانوت تنتج بين ٧٠ و ٨٠ ألف قطعة سنوياً ؛ وحين تغلبت مصانع « فن الصوف » بعد ذلك على الازمة التي تعرضت لها في أواسط القرن الرابع عشر ، استعانت بالمهاجرين الفلمنكيين على أثر الشغب الذي سببته جماعة « الشيومبي » ، وهكذا فان صناعة الاجواخ الفلورنسية ، التي لم تتأثر بنسبة ما قيل عنها ، قد حافظت ، على الرغم من ارتفاع أسعارها ، وحتى في الشرق نفسه ، على زبن لا يرضون عن مصنوعات المتنازة بديلاً . وهي قد استوردت الصوف الانكليزي من سوثبتون حيث أُلّف الايطاليون مستعمرة صغيرة . اما الآن فهو الصوف الاسباني ما استخدم لمصنوعات الاستهلاك الراجع .

انتشر استخدام الصوف الاسباني ، بعد ايطاليا ، في مدينة بروج ، في أواخر القرن الرابع عشر : فقد قام قبالة كاليه ، مركز التجار الانكليز ، احتكار تجار بورغوس للسوق البروجية ، كما ان انطلاقة « الامم » الاسبانية في الفلاندر قد أفادت من رواج صوف المرينوس . فان هذا الأخير ، وان كان أقصر من الصوف الانكليزي ودونته جودة ، قد وافق متطلبات السوق الجديدة : اذ انه بات وسيلة بقاء لصناعة هولندا التي غذت به صناعة الاجواخ الجديدة وصدرته بعد ذلك لا الى اسبانيا فحسب - التي عاد إليها صوفها - بل الى المانيا العليا وبروسيا ايضاً ، مما عوّض عن اقفال السوق الفرنسية .

نمت في الوقت نفسه كذلك صناعة النسائج القطنية والكتانية والقنبية . فاستقرت صناعة نسيج القطن الجديدة ، التي مونتها البندقية بقطن الشرق ، في ايطاليا الشمالية أولاً ، أي في كريمونا حيث جمع آل اقتادي ثروتهم الطائلة ، ثم اجتازت البرنر : وان « اندريا بونسنيوري » الذي انتقل الى خدمة « جورج فوجر » ، قد جسّد الشاحن الايطالي الطامل لمصلحة الملتزمين في مدن المانيا العليا . وكذلك فان صناعة نسيج الكتان التي حصرت في « هينو » حول « آت » وفي الفلاندر حول « كونتره » وفي برابان حول نيفيل قد بلغت من التقدم شأواً جعلها تغذي ، في الاسواق الالمانية وحتى الانكليزية ، حركة تصدير زاحمت النسائج اللورينية والشمبانية . اما صناعة نسيج القنب ، فقد أنتجت في نورمنديا ، بحسب ما نعلمه عن تاريخ النسيج الفرنسي ، مقداراً من نسيج الاشرعة الغليظ أتاح بيعه للانكليز ، بينما توفقت بريطانيا (فيتره وبولدافيد ولوكروان) وبواتو الى تأمين زبن دائمين في اسبانيا والبرتغال .

وحدثت تبدلات مماثلة في توزيع مواد التلوين . فان حجر الشب ، الضروري لتثبيت ألوان النسائج وألوان الجلد على السواء ، قد أمنته ، حتى منتصف القرن الخامس عشر ، المناجم الجنوية في فوجيا من اعمال آسيا الصغرى . الا ان الصناعيين قد آثروا على الاصباغ الشرقية ، النادرة والباهظة الثمن - القرمز والبقم - اصباغ القوة والعظم والزعفران الغربية المنشأ . فبيع زعفران جنوبي فرنسا والافرنسي ، وهو من الصنف الممتاز المكلف ، حتى في أسواق القسطنطينية ؛ الا انه استبدل أخيراً بزعفران كاتالونيا وخصوصاً بزعفران أكيل ، في جيبسال

« البروز »، الذي كان يصدر الى مراكز صناعة النسيج في المانيا العليا . وتقدمت على بيكارديا ونورمنديا وتوسكانا ، وهي الاسواق التقليدية لأكثر الاصباغ استعمالاً ، أي العظم ، وكلها قريب من مراكز النسيج الكبرى ، مناطق امتازت بظروفها الطبيعية او الاقتصادية : الأكتين وسهل البو . فقد وجدت الاولى ، حول الي وتولوز ، منذ اواخر القرن الرابع عشر ، كما وجد الثاني ، حول الاسكندرية ، حتى اواخر القرن الخامس عشر ، في صادراتها من العظم ، مادة لمضاربات مثمرة .

ان تلبية رغبة الزبون الذي يفضل الجوخ الخفيف على الجوخ الثقيل
تجارة المواد الغذائية
والكتان على الصوف ، واحلال الصوف الاسباني محل الصوف الانكليزي ، والاستعاضة عن الدوس البطيء بالاقدام باستخدام المطحنة الريفية السريعة . واستعمال الشب الايطالي بدلاً من الشب الآسيوي والعظم اللومباردي او الاكتيني بدلاً من العظم البيكاردي ، والتوفيق في فلورنسا الى عمل لا يتوفر في غنت ، والتعويض عن فقدان السوق الفرنسية بفتح أسواق شمالية ، كلها أدلة على طاقة التاجر على تخفيف وطأة الانحطاط الاقتصادي . وان في بعض القطاعات الهامة من التجارة الدولية لأدلة لا تقل عنها شأنًا ، ولا سيما في قطاع الخمر . فكيف استطاعت التجارة الفسكونية ان تعيش بعد انفصال الاكتين عن التاج الانكليزي يا ترى ؟ بدا الهبوط ، الذي ظهرت بوادره منذ امد بعيد ، وكأنه لا دواء له : ١٠٢٧٢٤ برميلاً في السنة ١٣٠٨ - ١٣٠٩ ، ٧٨٤٢ في السنوات ١٣٧٩ - ١٣٨١ ، ٦٠٠٠ في السنة ١٤٥٠ - ١٤٥١ ، و ٣٠٠٠ أخيراً عشية استعادة فرنسا للاكتين . اعترف لويس الحادي عشر نفسه بوجود الحفاظ على ثروة بوردو ومنطقتها ، فاستعادت التجارة نشاطها ولو ببعض الصعوبة . وزاحت كذلك بعض الخمر في اوروبا الشمالية الجمعة التي تزايد صنعها واستهلاكها : خور « لاروشيل » و « بواتو » ، وخور « فرنسا » ، وخور او كسير و « بون » ، وقد نقلت كلها ، بواسطة الانهار والطرق والبحر نحو هولندا والمانش ، فجمعت أراس « دام » من بيعها وفرض الرسوم على عرضها ، منذ الربع الاخير من القرن الرابع عشر ، نصيباً كبيراً من عائداتها . ولم تتمكن خور الرين والموزيل ، التي جنى منها المسيونيون بعض الارباح ، من مزاحة هذه الخمر بسهولة ، بينما لم يستورد الشمال ، من الجنوب الذي شكلت فيه تجارة الخمر قطاعاً ناشطاً جداً ، سوى بعض الخمر الحلوة ، كخمور « رومينيا » و « ملفوازيا » ، مستخدماً السفن الايطالية لنقلها .

لم تنج هذه البقعة او تلك يوماً من المحول ، فسادت في كل مكان فطرة دفاعية للحفاظ على الخنطة ، ولكن المضاربين تحدوا الرأي العام والحواجر الجمركية . فكانت المعضلة ، في البلدان المتوسطة ، معضلة دائمة ؛ واذا ما صدقت المؤلفات التجارية - « ممارسة التجارة » لبيفولوتي او بحث دا اوزانو - فان السهول الايطالية واللفندوك وافريقيا الشمالية ، ولا سيما صقليا ، قد صدرت فائض حبوبها الى المناطق المفتقرة الى القمح او الراحة تحت وطأة الجوع . وغدت اسبانيا والبرتغال من كبار أكتالي الخبز منذ أواخر القرن الخامس عشر ، فأخذتا تنظران ،

منذ ذاك الحين ، الى السهول المراكشية ، واستوردتا في الوقت نفسه الحنطة الفرنسية وحنطة هولندا التي لم تعد المانيا الشرقية بحاجة اليها بعد ان اقررت قراها او كادت . فقد ولّس من ثم زمن بلغت فيه مدن الشراكة الهانسية اوج ازدهارها وغذت انكلترا وفرنسا الشمالية (القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر) .

أتى اهل الشمال بالرنك مع الجاودار وعادوا بالملح مع الخمر . فقد غذى «جون بورغنوف» ، وشأنه في ذلك شأن بريطانيا وسانتونج ، تجارة «أساطيل الملح» السنوية ، ومون كذلك انكلترا وهولندا التي عجزت انتاج ملاحاتها الباهظ الاكلاف عن سد كافة حاجات صيد الرنك ، فيما اخذ السمك يهاجر شواطئ «سكانيا» نحو مياه بحر الشمال .

ان حاجة التجار الملمحة الى تخفيض نفقاتهم الخارجية قد دفعت أسواق التجارة وطرقاتها بهم الى التشارك وتحويل طرقاتهم واستبدال أماكن لقائهم والبحث عن أسواق جديدة . وهكذا فان فتح «السوند» للسفن الثقيلة المحولة ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قد أتاح انقاص اجور المراكب بابطال المرور في المضيق الدانمركي . ولما كانت شراكة المدن الهانسية ردة فعل دفاعية أكثر منها مظهراً من مظاهر قوة تسير في معارج التقدم ، فقد ناضلت كي تفرض على الدانمركيين حرية التجول في مياهها وكي تحافظ على أسواقها في لندن وبروج وبرغن ونوفغورود . غير ان الاتحاد لم يوفر على مدن المانيا الشمالية نتائج الهبطة الاقتصادية الشاملة ؛ فان لوبك ، على الرغم من مركزها الممتاز قد تأخرت عن ركب شريكاتها ومنافساتها في بروسيا ؛ كما ان بعض مدن المنطقة الغربية ، ولا سيما كولونيا ، قد صممت على الدفاع عن مصالحها الخاصة ؛ زد على ذلك ان هذه المدن كلها قد تضررت بفعل المزاخمة الانكليزية والنيبرلندية حتى في البلطيك . فتقهقرت من ثم الشراكة الهانسية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، لا سيما حينما سقطت سوق نوفغورود في أيدي «ايفان» الثاني في السنة ١٤٧٨

وعلى غرار أسواق مدن الشراكة الهانسية ، كانت «المؤسسة الالمانية» في البندقية و «الامم» الايطالية والاسبانية والانكليزية في بروج ، ثم في انفرس ، اجهزة دفاعية ايضاً ؛ فان الاسواق التي يديرها ويمثلها لدى السلطات المحلية مجلس وأمين سر ، و «الامم» التي قام على رأسها قنصل ، قد أمنت لأعضائها الاقامة في منزل واستخدام مخازن مشتركة واخوة جمعية دينية ، وضمان المساعدات المتبادلة ، والاستفادة من سلطة قضائية خاصة ، وفوائد نظام جبائي خاص ، وامتيازات تجارية خاصة . وقد بررت شتى ضروب المخاطر نمو مثل هذه التجمعات .

تحولت خطوط المواصلات أكثر من مرة بين قطبي اقتصاد القرون الوسطى ، هولندا وايطاليا ؛ الخطوط البحرية التي سارت عليها منذ السنوات ١٣٢٠ - ١٣٤٠ ، بأعداد متزايدة ، السفن الجنوبية والبندقية المسطحة ، نحو بروج ، بينما أدخلت «هياكل سفن» خليج غسكونيا ، الى برشلونة وجنوى والبندقية ، طرازاً لمركب اسهل قيادة ، مجهز بدفة من طراز جديد ، وجامع

بين الشراع المربع والشراع اللاتيني . فأدى من ثم انطلاق برشلونة الى مزاحمة المدن الإيطالية . وسارت على طريقي السمبلون والغواتار البريتين معظم وسائل النقل ؛ فأمنت اولهما المواصلات الى سوق « شالون - سور - سون » الدورية الحديثة العهد ، واتجهت من ثم ، على طريق اللورين ، نحو الشمال ، واستوفي رسم المرور عليها في « جوغ » من أعمال الجورا ؛ أما الثانية فقد انحدرت في وادي الرين عن طريق بال . وعرفت فرنسا الداخلية ، التي لم تمر فيها هاتان الطريقتان ، تحولات مماثلة ، على نطاق اضيق ، في خطوط المواصلات التجارية . ولنا في الطرقات الاكيتينية خير مثل على ذلك : فان سائقي العجلات البيارنيين ، رغبة منهم في تجنب مخاطر الحرب ومراكز استيلاء رسوم المرور السبعة والعشرين على الفارون ، شقوا ، في اواخر القرن الرابع عشر ، طريقاً مباشرة تصل تولوز ببايون لأجل نقل الجوخ والمظلم المستوردين من انكلترا او المصدرين اليها . ويتضح من ذلك ان ما أملى على التجار اختيارهم هو تجنب المخاطر قبل تباين أسعار النقل النهري والبحري . وخلال حرب المئة سنة تقاسم السين والواز والطريق البرية والبحر المواصلات بين باريس وهولندا . وحدث الشيء نفسه بين الانهار الكبرى وطرقات السهول الالمانية والبولونية . وارتبط مصير أماكن المعاملات التجارية بتحولات الطرقات ايضاً ؛ الا ان هذا الارتباط في المرافئ البحرية التي حددت الطبيعة مواقعها اقل منه في مراكز الاسواق الدورية الدولية الكبرى . فقد لوحظ في هذه الاخيرة اتجاه الى الانتقال شرقاً والاقتراب من الطرقات المارة في المهازات الالبيية . فقد خلفت اسواق شمبانيا اسواق شالون وجنيف وقرنكفورت ، ثم اسواق ليبيغ ؛ وفي عهد لاحق ، أي بعد السنة ١٤٥٠ حاولت اسواق ليون الحلول محل جنيف ، بينما دافعت ميلانو من جهة ، وبروج وانفريس و « برغ - اوب - زوم » من جهة ثانية ، عن أسواقها الخاصة . الا ان عهد الاسواق الذهبي كان في الحقيقة مائلاً الى الهبوط ؛ ومرد ذلك الى ان طابع التواتر فيها ما عاد ليتفق وعادات التجار المقيمين المستقرين وُعرف اجراء الصفقات التجارية والمالية المباشرة في مراكز الاعمال نفسها بواسطة العملاء او بالمراسلة احياناً .

استمدت عناصر تحسين تقنية الاعمال من خبرة التجار الجنوبيين ، اسبانيين تقنية الاعمال او ايطاليين ، ومستت الحاجة اليها امام واجب الدفاع عن النفس في الظروف الصعبة . فقد توجب ، في آن واحد ، استدراك مخاطر المشاريع التجارية وحصرها ، والتعويض جهد المستطاع عن نقص الادوات النقدية ؛ وهذا ما أفضى الى مظهري الطرائق التجارية : الشركات ، بالنسبة لنظامها ، والمحاسبة والدين ، بالنسبة لسيرها . وتلقى التاجر الايطالي ، بفضل دراسة « الطاولة الحسابية » والتمرين العملي ، ثقافة تفوق بها على منافسيه الشماليين ، من انكليز وغيرهم ؛ الا ان الصيرفي البروجي ما لبث ان اصبح قادراً ، على غراره ، على تحسين مسك الدفاتر التجارية منذ منتصف القرن الرابع عشر : ففدا السجل اليومي وسجل الصندوق و « ورقة النقد » أشياء عادية . ولما كانت الأرقام العربية ، التي ظهرت في ايطاليا منذ القرن الثالث عشر ، لم تنتشر فعلاً الا اعتباراً من القرن الخامس عشر ، فقد درج الناس زمناً

طويلاً على الحساب بواسطة قطع معدنية تمثل قيمة نقدية مختلفة . ولكن طريقة مسك الدفاتر المزدوجة ، التي استعملت في اليونان منذ قبل السنة ١٣٤٠ ، قد انتشرت شيئاً فشيئاً . فنجمت عن معاملات الصيرافة تدريجياً المعاملات المصرفية المصرية : الودائع ، والحسابات الجارية والتحويلات الداخلية والخارجية . اما التحويلات الحطية ، المعروفة « بالبوليصات » ، التي يرتقي اقدم نماذجها ، وقد اكتشف في بيزا ، الى منتصف القرن الرابع عشر ، فقد اشتق منها « الشك » الحالي . ومن عقد المفاوضة ، الذي اتفق عليه في البدء امام مسجل العقود ، للاقرار خطياً بدين يدفع بنقد آخر وفي مكان آخر ، اشتقت السفتجة التي تستلزم ، بموجب تحديدها ، عملية مفاوضة دون نقل المال فعلاً ، وعلمية دين . ثم تأسست اجهزة عامة اتخذت ، بعد مصارف ساحة رياتو في البندقية ، شكل المصارف الحكومية في جنوى (دار القديس جرجس ، في السنة ١٤٠٨) ، وبرشلونة (١٤٠١) وفالنس (١٤٠٧) . واتجهت عمليات فتح الاعتمادات الى التركز في اوساط الاعمال الكبرى وانحصرت في أيدي الايطاليين او كادت : في سينا والبندقية وفلورنسا وجنوى وبروج وافينيون ولندن وبرشلونة ومونبلييه ، خلال القرن الرابع عشر . وبعد استلاب المؤسسات الايطالية على يد البورغونيين في السنة ١٤١٨ ، تخلت باريس عن مركزها لجنيف التي انتقلت منها الاعمال الى ليون حوالي السنة ١٤٦٠ . ونشطت حركة هذه المراكز جميعها بفضل انتشار ممثلي الشركات الكبرى .

لم تتجانس أنظمة الشركات الايطالية : فقد غلبت سيطرة الدولة في البندقية ، والمشاريع العائلية في فلورنسا ، والروح الفردية في جنوى . وسارت الشراكة الفلورنسية الظروف ، فانتقلت في القرن الخامس عشر ، من نظام الشعب المتعددة الى نظام الفروع . فقد جمعت الاولى ، وهي شركات ذات اسم جماعي ، حتى ٢٥ مساهماً احياناً ، وعدداً كبيراً من العملاء الموزعين على الشعب : وان في هذا ، لعمرى ، حصرية جعلتها سريرة المطب ، كما خبرت ذلك عائلات « فرسكوبلدي » والبرقي و « اتشياولي » و « بروتسي » و « باردي » . اما الثانية ، التي يقدم لنا آل « مديشي » افضل مثل عنها ، فقد اعتمدت نظاماً حصرياً في ادارتها وأموالها ، دون ان تعتمد في ادارة كل فرع ؛ ففي حزمة هذه الجمعيات المتوازية على غير جمع واتصال ، لم يكن عجز جمعية عن وفاء الدين ليحجر وراه بالضرورة عجز الجمعيات الأخرى . وقد مارست كافة شركات النظام الاول والنظام الثاني ، في آن واحد ، الصناعة والتجارة والاعمال المصرفية ؛ وحقق بعضها احتكارات افقية وعمودية : كآل زكريا ودرابيريو في جنوى ، وقد اشتهروا في تجارة حجر الشب ، وكالبندقيين « اندريا بربريغو » و « جياكومو بادوير » او اللوكي « رابوندي » الذي كان صيرفي البلاطات الفرنسية ، او آل داتيني دي برانو ، الى جانب الفلورنسيين . فقد تتلمذ على هؤلاء احد تجار رافنسبورغ ، على مقربة من كونستانس ، ويدعى « جوزف هومبيس » ، وأسس ، في اواخر القرن الرابع عشر ، « مصرف رافنسبورغ الكبير » الذي كان المثال الاصيل للمشاريع العظمى المائلة التي أنشأتها المانيا العليا بعد مرور قرن على تأسيسه . وأهم المثل « جبال كور » ايضاً الذي تذكرنا مشاريعه المتنوعة بالمثال المديشي .

لم تكن فطنة رجال الاعمال الايطاليين شيئاً باطلاً ، لأن الافلاس ، على الرغم من ضآلة عدد القادرين على تقليدهم في طرائقهم ومشاريعهم ، كان بالمصاد لأعظم ممارسي الاعمال التجارية : فبعد انهيار آل « فرسكو بلدي » في السنة ١٣١٢ ، جاء دور آل « سكالي » في السنة ١٣٢٧ وآل « بوناكورسي » وآل « اوساني » وآل « كورسيني » في السنة ١٣٤١ وآل « اتشياولي » وآل « بيروزي » في السنة ١٣٤٣ ، وآل « باردي » في السنة ١٣٤٦ . ولم يحل التضامن العائلي واتحاد الشركات دون منافسة شديدة تنازعوها بتأثير منها ، في ما تنازعوها ، الفوائد الادبية والمادية لاستثمار الاموال البابوية : فقد انفصل آل البرتي « الجدد » عن آل البرتي « القدماء » ، وآل « تشركي » « البيض » عن آل تشركي « السود » ، وارغم آل البرتي « القدماء » آل « غواردي » على اعلان الافلاس (١٣٧٠) ، قبل ان يصيروا انفسهم الى الانهيار امام آل « البيزي » وآل « ريتشي » .

يجب ان نفسر هشاشة المشاريع هذه بمرض التعاطف والعجز عن مواجهة طلبات الدائنين بسبب الاقتتار الى الاموال النقدية ، لا بعجز ادوارد الثالث مثلاً عن وفاء آل باردي وآل بيروزي حقوقهم ، او مطالب « شارل الجسور » من آل « مديشي » . وهكذا فقد انهارت فروع شركة آل مديشي في لندن وبروج وليون في اقل من ثلاثين سنة (١٤٦٦ - ١٤٩٤) . ولعل الدعوى المقامة على جاك كور اوقفت نشاطه في منحدر مماثل ايضاً . وحوالي السنة ١٤٤٠ ، عانت برشونة الامرين من أزمة الثقة . وزيانا ، على مستوى دون هذا المستوى ، مدينين لتصفية حسابات صيارفة بروجين كثيرين ولحجز سجلاتهم ، بكشف النقاب عن طرائقهم .

ليس قدم الاساليب التجارية والمصرفية دون عدد الافلاسات تأييداً لشعور الركوند الاقتصادي الذي سيطر حتى الربع الاخير من القرن الخامس عشر . ففي مرسليليا وبرشونة وفالنس واشبيلية وحتى في ليشبونة حيث كانت رؤوس الاموال الجنوية ترتقب فرصة قريبة لمكاسب جديدة ، ما زالت المشاريع التجارية تتمدد شكل شركة التوصية الذي احتفظ بطابع شخصي وعائلي . اما الشركات المساهمة الكبيرة التي استثمرت مطاحن تولوز منذ القرن الرابع عشر فتبدو وكأنها شذوذ عن القاعدة . واذا ما استثنينا الشركات الايطالية ، لم يشاهد قط ، قبل السنة ١٤٥٠ ، عملاء يمثلون اولياءهم تمثيلاً دائماً في المدن الاجنبية . ولم تعرف السفتجة في مرسليليا قبل السنة ١٣٦٠ ، وفي تولوز قبل أواخر القرن ، وفي روان قبل اوائل القرن التالي ، وقد أقصرها التجار الذين استخدموها على اعمال تجارية صرفة لم تتطور تطوراً يذكر . وفي بروج نفسها استلذمت تقنية الدفع التمهيات والاعترافات الخطية بالدين ، وتحديد المواعيد ، وكلها وسائل تقليدية . ويجوز القول نفسه في التأمين البحري الذي اعتمد في بروج منذ السنة ١٤٩٥ وادخل بعد خمسين سنة الى المرافىء الاطلسية ، مع انه قديم العهد في المتوسط .

وجملة القول ، اذا تقدمت تقنية الاعمال بفضل تحول الاسواق والطرق التجارية ، واذا آلت الى تخفيف وطأة الهبطة الاقتصادية ، فانها قد توقفت بفعل هذه الهبطة نفسها كما توقفت بفعل

اللبق المطرد . ولم تكن فوائد الطرائق الجديدة الا في متناول ابعد التجار همة وأوفرهم ثروة . فكان من ثم محتوماً ان ينتقل العلق الناجم عن ظروف طالت معاكستها الى النطاق الاجتماعي ايضاً .

٤ - الاضطرابات الاجتماعية

التسخت الاجتماعية كان مهنيو تورنيه ، في السنة ١٣٠٢ ، يفكرون باليوم «الذي سيساوي فيه الجميع في الثروة» . وبعد مرور ثمانين سنة أذكى جون بول بدوره ، في اغنية شهيرة ، احقاد الفلاحين الانكليز الثائرين على أسيادهم وعلى مأموري الجباية . وكان « الشعب الصغير » يصرخ آنذاك في فلورنسا : « ليحيا الشعب ! » . والى هذه الأقوال الممادية للسلطة ، انضمت ، خلال قرن من البؤس ، دعوة الروحانيين الى تحقيق المساواة . فنذ العشرين سنة الاخيرة من القرن الثالث عشر ، كانت مدن هولندا قد دقت ناقوس الخطر وكان لانذارها رجع صدى في الارياف . فعرفت الارياف ، التي لم تتماش أنظمتها تماماً ودور المسال المتزايد ، والمسدن التي سيطر عليها القابضون الحريصون على اسباب الثروة الجديدة ، تسختها واضطرابات الاجتماعية معاً . وتجدد الاشارة الى ان هذه الصراعات ، التي سبقت انقلاب الوضع الاقتصادي بزمن بعيد ، قد تفاقمت بفعل الازمة ، لان الذين كانوا ينتجون او يبيعون شيئاً ما ، ويحددون الاجور ، ويستفيدون من حركة العرض والطلب ويتمكنون من ابقاء أرباحهم في مستوى الاسعار والنقد ، هم وحدهم من استطاعوا الارتقاء والبقاء فوق المستوى المادي العام . وتوصلا الى هذه الغاية ، دفع المنطق الاناني بالمستفيدين الى ان يقفلوا وراءهم الابواب التي فتحت امامهم سبل الثروة .

لا يزال الغموض يكتنف عدم السياق الظاهر في تعاقب الاضطرابات الاجتماعية في آخر القرون الوسطى . ولكن هذه الاضطرابات ، على الرغم من ذلك ، تؤلف بما لا يترك مجالاً للشك ، مجموعاً من ردود الفعل المتعاقبة ، المتشابهة والآنية احياناً ، لوضع اقتصادي واجتماعي واحد أقله في وسائله الفاعلة العميقة . وينهض المهنيون والفلاحون ، في هذا المجموع ، بالأدوار الرئيسية ، بينما يمثل الاشراف والاسياد ادوار الضحايا : تبين في الاوضاع حقاً ، وتباين في النسب العددية ايضاً .

الاضطرابات في المدن كان « فيليب دي بومانوار » ، في أواخر القرن الثالث عشر ، قد أدرك المعضلة خير ادراك : « نرى مدناً كثيرة لا يسهم البورجوازيون الفقراء والمتوسطون فيها بادارة المدينة ، التي هي وقف على الأرباب ، لان المواطنين يخشونهم بسبب ثروتهم او بسبب تسبهم . ويحدث ان يكون بعضهم حكاماً او محلفين او جباة وان ينقلوا في

السنة التالية ، وظيفتهم ... الى الاقارب من أنسابهم ... يتفق الأثرياء على ابعاد كل رقابة عن حساباتهم ، فيصبح من العبث اتهامهم بالسرقة والغش مها كانت مستندات الاتهام . لذلك لم يستطع الفقراء احتيالهم ، ولكنهم لم يعرفوا سبيلا للمطالبة بحقوقهم افضل من الثورة عليهم .

تشابهت معطيات المعضلة في كل مكان تقريباً. ارتفع سكان المدن ارتفاعاً مذهلاً خلال القرن الثالث عشر ، ولكن امتيازات البورجوازية بقيت وقفاً على اشراف قبليي العدد . فكم كانت عدد « المظاء » بين سكان غنت البالغين ٥٠٠٠٠ نسمة ، وسكان بروج البالغين ٢٥٠٠٠ ، وسكان أراس او سينا البالغين ٢٠٠٠٠ ، وسكان فلورنسا البالغين ٤٥٠٠٠ يا ترى ؟ ربما جزء من ثلاثين او اربعين في غنت ؛ وعشر عائلات تقريباً في ليل ؛ وأقل من اربعين في لياج ؛ و ٢٥٠٠ « عظيم » تقريباً في فلورنسا . هؤلاء جمعوا كافة الثروات بين أيديهم . كانوا ذوي املاك ريفية ، ولا سيما في ايطاليا ، فراقبوا بهذه الصفة ، شؤون التمنون وحددوا الاسعار . وجمعوا رؤوس الاموال ، فتصرفوا ، بهذه الصفة ، بمصير الثروات الخاصة والاموال العمومية . وسيطروا بالإضافة الى ذلك على العمل ، ابتداء من المادة الخام حتى بيع الانتاج المصنوع ، فأشرفوا بهذه الصفة على النقابات في مدن الشمال وعلى الفنون الكبرى في المدن الايطالية . وأمن لهم النظام السائد في كل مكان تقريباً ، والقاضي بأن تنتخب كل جمعية أعضائها ، الاحتكار العملي للوظائف البلدية : فأنبطت بهم دون غيرهم اعمال الادارة والقضاء والشؤون المالية . لهم القصور ؛ ولهم التعليم . ولما كانت يدا الشريف الفلمنكي غير جاسنتين وأظافره غير « زرقاء » ، فانه « يشرب النبيذ كل يوم » ؛ يمتطي الحصان ويستسمي نفسه « السيد » ؛ يدفن في الكنيسة . صناعي غنت يدعوه « عاطلا » . وخلال فترة طويلة ، اقام تضامن النسب حول الشريف حاجز دفاع اعتبره منيعاً .

ليس مجرد اتفاق من ثم اذا انفجرت النقمة الاجتماعية في اوساط صناعة الجوخ بنوع خاص ، وهي منذ القديم طليعة الحركة الادبية والاجتماعية . وقد سبق لبيير فالدو وفرنسيس الاسيزي والمتواضعين والروحيين ان وجدوا في اوساطهم صدى تقريظهم للفقر والتواضع . ويرد هذا الواقع الى ان تعدد عمليات صناعة الجوخ والفرق في الاجور قد احل الصناعيين ، ولا سيما الحلجين والقصارين ، في وضع متدن ابرز منه في اية مهنة اخرى . ولكن يجب الا يخذعنا هذا الواقع : اذ ان المهنيين غالباً ما انقسموا وتمادوا في مصالحهم ؛ ولذلك فان الانظمة المفيدة التي توصلوا الى تحقيقها منذ اواخر القرن الثالث عشر قد خدمت تنافسهم ووقوفهم في وجه الاشراف على السواء .

افتقر الشعب الى العلم والتلاحم ، ولم يكن من ثم قادراً الا على القيام باضطرابات لا طائل تحتها ، لو لم يجد قادة يجسدون شواعره ويعربون عن رغائبه . فنقم تارة على الاشراف بسبب الاجور والادارة البلدية ، كما حدث ذلك في هولندا طيلة القرن الرابع عشر ، وفي ستراسبورغ في السنة ١٣٣٢ ، وفي متز في السنة ١٣٤٦ ، وفي سينتا في السنة ١٣٥٥ ، وفي فلورنسا في السنة ١٣٧٨ ، وفي برشلونة في عهد لاسق ؛ وهاجم تارة اخرى رجال المال ، اليهود في المانيا زمن الطاعون

الكبير ، والاجانب في انكلترا : فبين السنة ١٣٦٠ والسنة ١٤٦٠ ، عرفت المملكة الانكليزية سلسلة من الحركات المعادية للاجانب استهدفت ، في لندن وسوثبتون ، الفلمنكيين اولاً ، ثم لجمار المدن الهانسية والايطاليين بنوع خاص . وغالباً ما استهدفت الثورة الشعبية مأموري الجباية والسلطات العامة والسلطة الملكية ايضاً : وهذا ما حدث بمناسبة النقود في باريس (١٣١٣) ؛ وبمناسبة الضرائب في باريس ايضاً (١٣٥٨ و ١٣٨٠) . ولم يخضع مثيرو الشعب لمذهب عقائدي ؛ بل لنزعات الى مساواة غير واضحة المعالم ، ما لم يتول امر التمرد احد الطماعين او الفوضيين او العقائديين سعيًا وراء بلوغ هدف شخصي او تحقيق نزعات بيئتهم .

اذا ما استثنينا « بيوردي كونتك » في الفلاندر (١٣٠١) و « كولادي رينز » في روما و « ميشال دي لاندو » ، العامل الحلاج ، في فلورنسا ، لم ينتم خطيب شعبي قط الى عامة الشعب ، بل الى طبقة الاشراف او الى اسمى المهن مقاماً ، كالجواخين في القرن الرابع عشر والجزارين في القرن الخامس عشر ؛ وكلنا يعلم العلاقات التي قامت بين سيلفستر دي مديشي « وميشال دي لاندو . وقد استفاد اللييجيون ابدأ من عون البورجوازيين الاثرياء على اساقفتهم او على آل « داتين » ، ارباب المصاهر الاولى في البلاد . وهو مارينو فاليارو ، احد عظام الاشراف ايضاً ، من نقل المعركة الاجتماعية الى البندقية حين ركزت الاضطرابات الشعبية ؛ وفي اوساط الاشراف ايضاً بحثت جنوى عن قادة احزابها . وكما في هولندا ، كذلك في بال ومايانس وكولونيا ، تحالف الاشراف الستراسبورغيون مع ارباب المصانع لانتزاع السلطة من النبلاء ، ثم مع النبلاء لانتزاعها من ارباب المصانع . وفي متز ، وقر الاشراف ، المنقسمون على انفسهم ، القادة لعمال المصانع ايضاً . وما كان ارباب المهن ، لولا هذه المحالفات ، ليستطيعوا الاشتراك في الحكومات المدنية .

اتسمت الاضطرابات الريفية بمزيد من العنف ، ولكنها كانت دون الاضطرابات المدنية تلاحماً ونجاحاً . وهي انفجارات بؤس وغضب اكثر منها نتيجة تصميم واضح الاهداف . فان ثورة الفلاندر البحرية قد استهدفت النظام الاجتماعي برمته ؛ وثورة فلاحى « ايل دي فرانس » لم تستهدف بلوغ غاية معينة ؛ وانصار « وات تيلر » ، بعد الاستيلاء على لندن ، قد تفرقوا حالماً قطع لهم ريشارد الثاني عهده الاول ؛ ولم يكن لثوار اللنفدوك « التوشين » لا برنامج ولا قيادة ؛ وثورة جاك كاد في مقاطعة « كنت » ، لم تسفر عن اية نتيجة على الرغم من الاستيلاء الشامل . واذا احرز ثوار كاتالونيا ، في الوقت نفسه ، مزيداً من النجاح ، فمرد ذلك الى ان مثلهم الاعلى في التحرر الزراعي قد وجد وحدته في مساندة البورجوازيين الكاتالونيين .

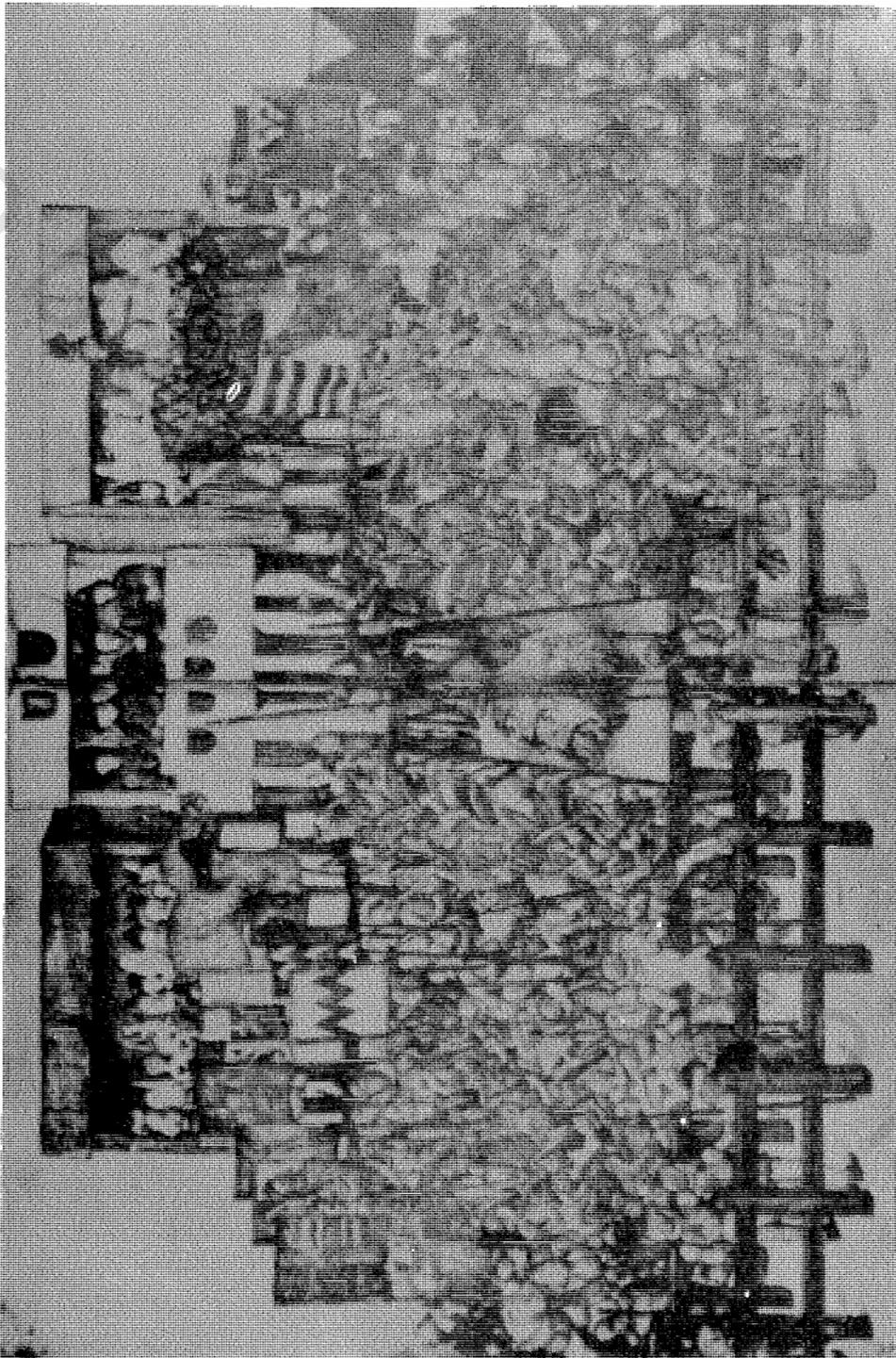
ان هذا الصراع المزدوج في سبيل تحرر الفلاحين ، ولا سيما في سبيل توصل اهل المهن الى منافع ومسؤوليات الثروة البورجوازية ، قد افضى في النهاية الى فشل مزدوج . ففي مرحلته

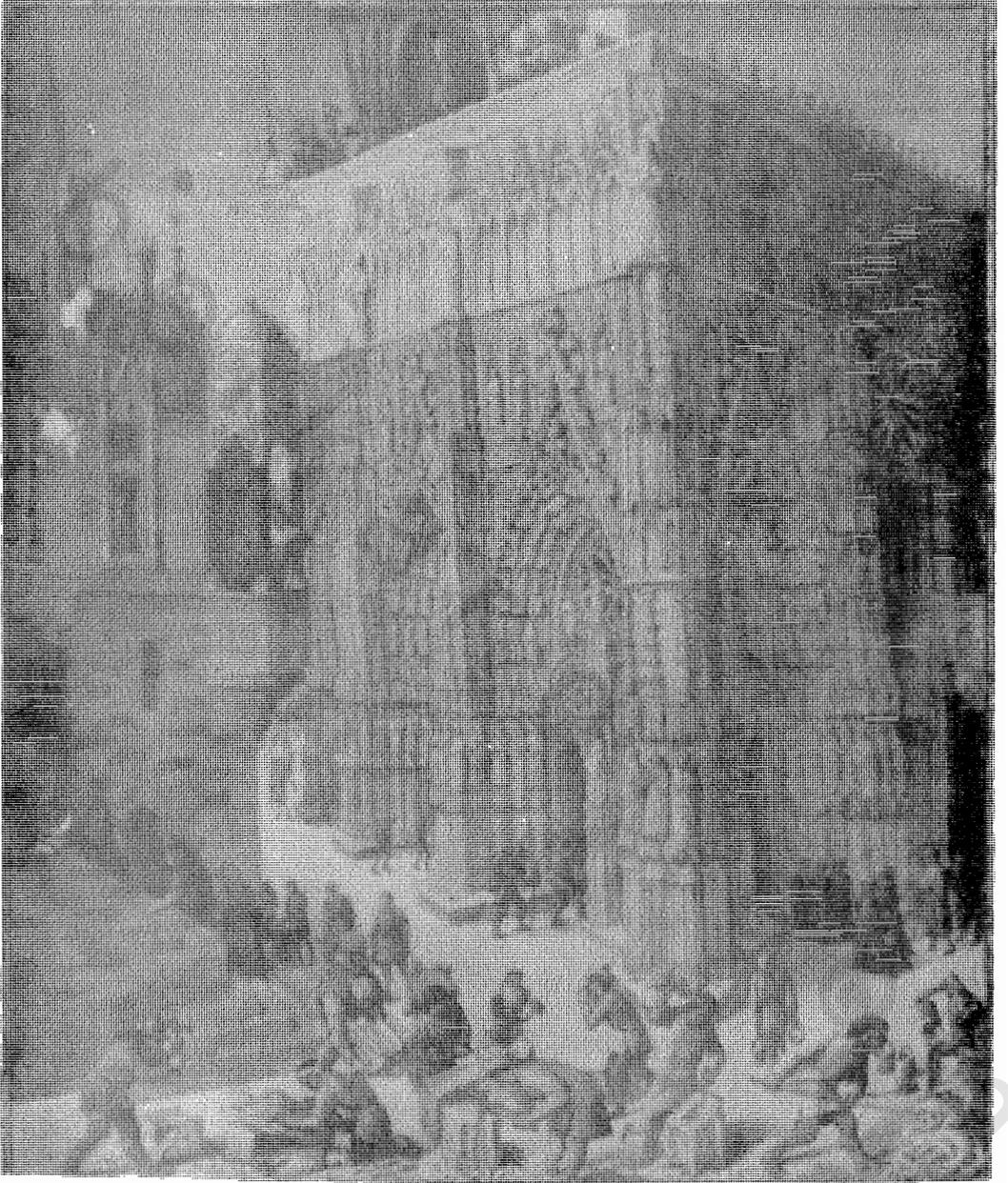
الاولى ، اي حتى السنة ١٣٨٠ تقريباً ، عرف الفلاحون واهل المهن ، هنا وهناك ، لنجاحات عابرة . وقد حدث لهم ايضاً ، بتأثير من صعودية الايام ، وبجفاف من يؤسهم في الاربعاء ، ان شعروا بواقع التفسخ الاجتماعي وصمموا على اكمال التحسينات التي حققوها بالنسبة لمصيرهم . وكان اول من نهض بالحركة المدن الفنلندية ، وهي اعظم تطوراً من المدن الاخرى ، وليساج المشهورة بنضاليتها . اجل كانت الاعترافات بالمهن كمؤسسات قد حدثت من دور السب والدم . وهي هذه الاعترافات نفسها التي ساعدت حينذاك ، على الرغم من مقاومة دائمة - هدهاء سلطة الكونثية في الفلاندر الذي سألده تاج فرنسا - على تجديد وتثبيت انتصار المهن : في غنت ، في السنة ١٣٦٠ ، بعد منافسة عنيفة دامت ١٥ سنة بين القصارين والحائك ، وفي لياج حيث كانت الغلبة للمهن في السنة ١٣٨٤ . وحدث الشيء نفسه في العالم الزراعي حيث تحققت ، على الرغم من المثل الذي اعطته الفلاندر مرة اخرى ، النجاحات المحرزة بمعيد الطاعون التي جعلت الفلاحين ينظرون بفارغ الصبر الى الانتماء من تبعية تحرروا منها جبرئياً . وان مسا طلاءوا به ريشارد الثاني ، في سهل ميل اند ، في السنة ١٣٨١ ، هو زوال ما بقي من الارتكافات الاقطاعية القديمة .

ان الاضطرابات التي انفجرت في آن واحد ، حوالي السنة ١٣٨٠ ، وان على غير ترابط ، في انكلترا وهولندا ومدن فرنسا والمانيا الغربية وفي ارياف اللندوك وفي برشلونة وفلورنسة . كانت في الاربعاء بادرة ازمة بلغت آنذاك ذروتها . اختلفت في اهدافها ، كما اختلفت في وسائلها ايضاً : فهنا فنن مدنية ، وهناك ثورات شاملة على نطاق اقليمي ، ونحوات في الفلاندر الى حرب اقطاعية ودولية . ولكن معناها الحقيقي اجتماعي في الدرجة الاولى : وهكذا فقد تولقت ماز الى مجنب ويلاتنا بالتخفيف وقائياً من طابع السبل ، الذي اتسم به النظام السليدي ، لمصلحة عامة الشعب .

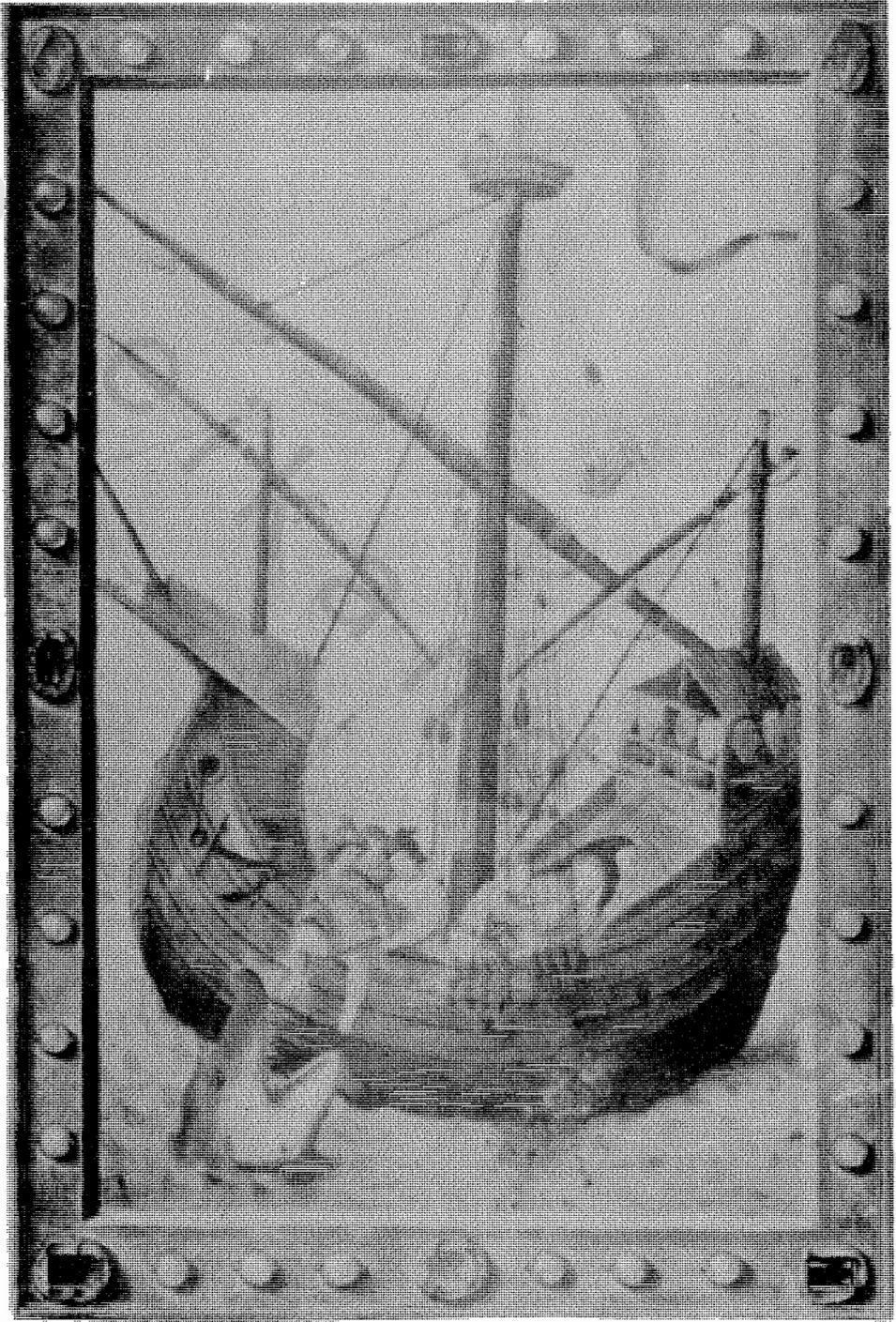
الا ان المهن ، التي توصلت الى السلطة حين اخذت قوة المدن بالتفهم ، قد عجزت عن تحسين وضعها الاقتصادي تحسيناً محسوساً . زد على ذلك ان طبقة جديدة من الاشراف قد قامت على انقاض الطبقة القديمة . ولم يجد احد من دواء للتغلب على الصعوبات المادية المتعاظمة سوى تصلب الانظمة التعاونية واقفال ابواب المهن في وجه طلاب العمل ، وبالاحتصاص جود الارضاج الاجتماعية . ففقدت المنازعات والمنافسات مادة بذخية وجب الاحتياط لها بالانتجاء الى سام وحكم يكون ملكاً او اميراً . فكانت القوة السياسية وحدها في النهاية من استفاد من العملية .

الرمحة ٣٣ - مباراة عسكرية

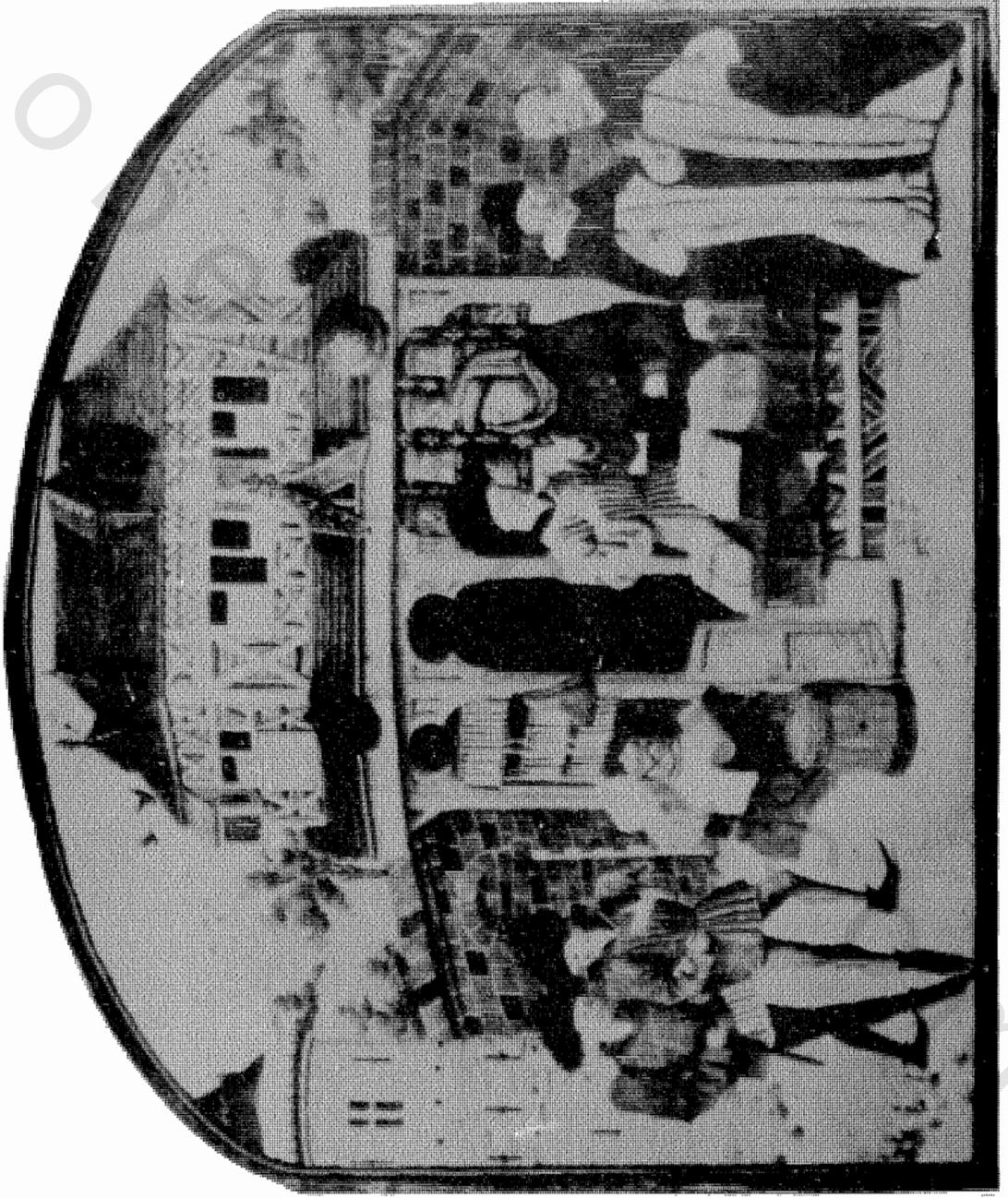


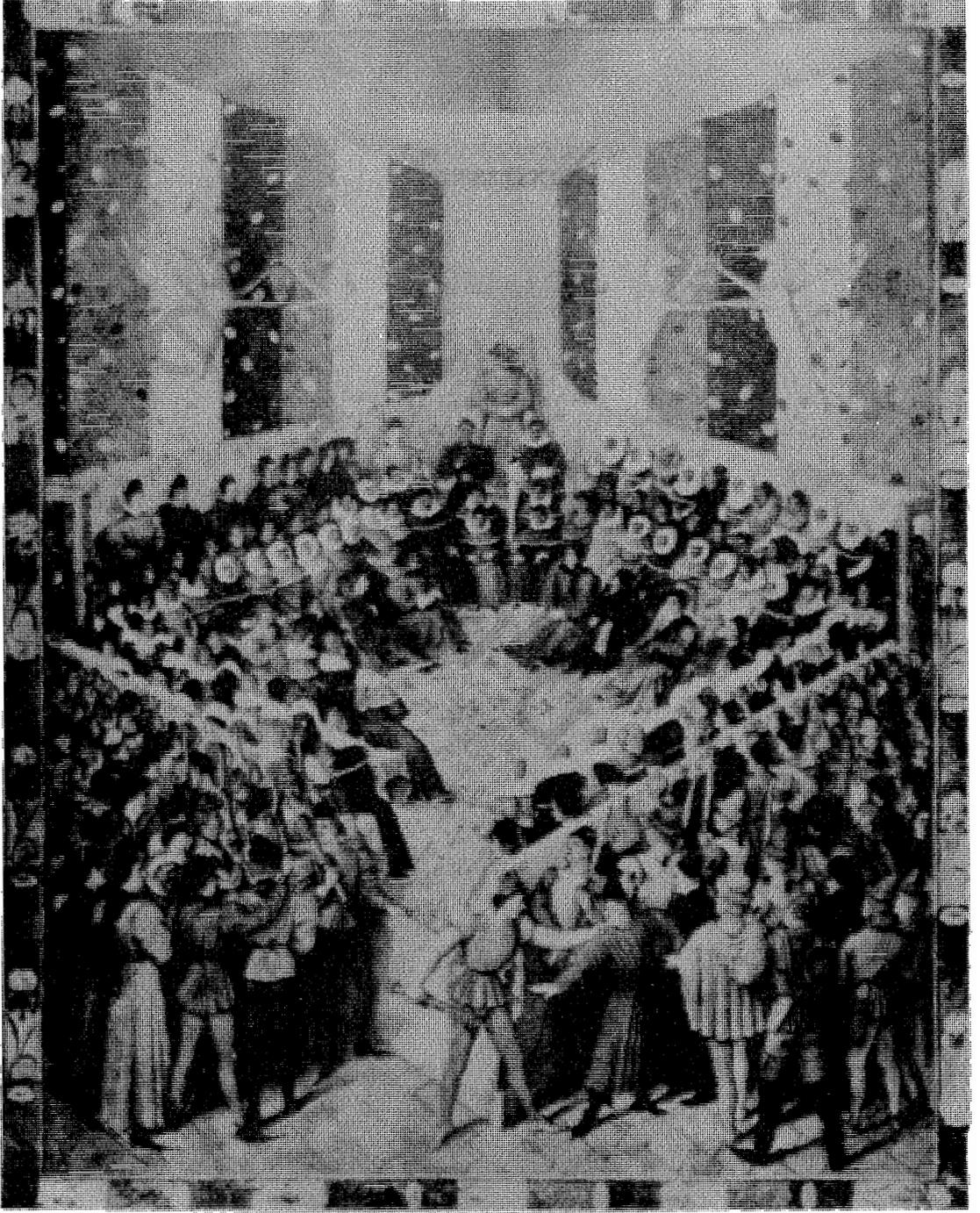


اللوحة ٣٤ - تشييد كاتدرائية (كاتدرائية بوج) .

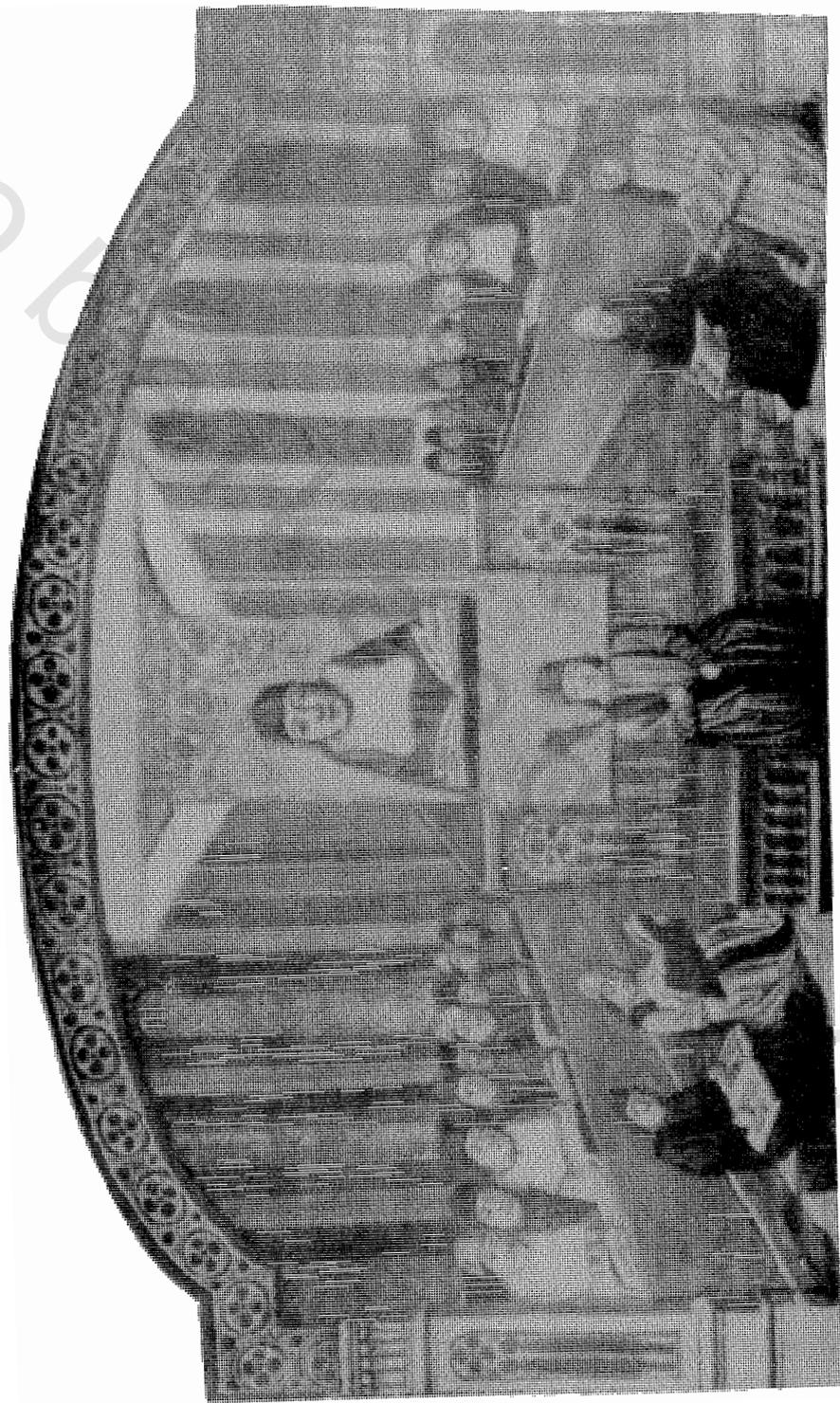


اللوحة ٣٥ - سفينة (يونان يتعلمه الحوت) .

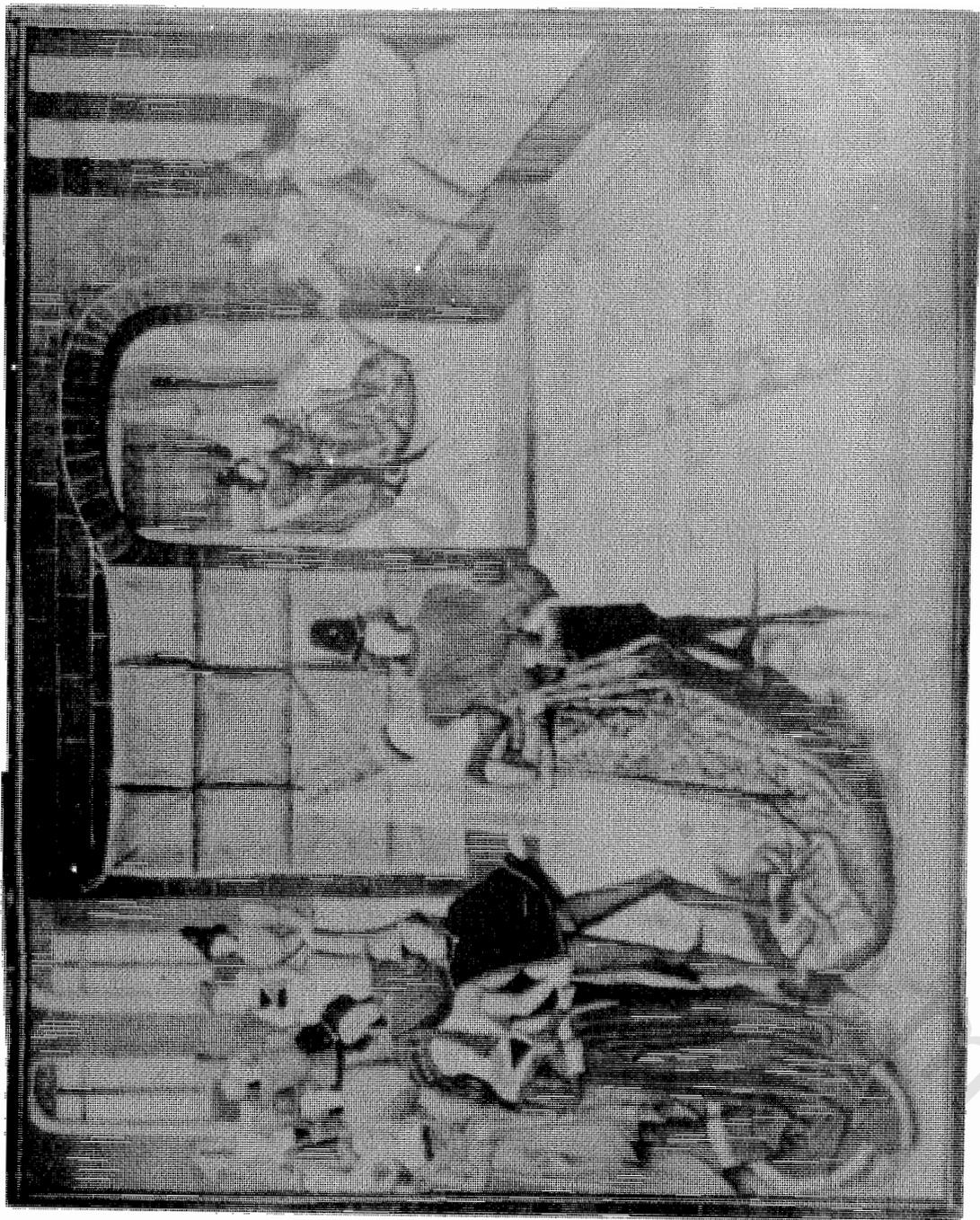




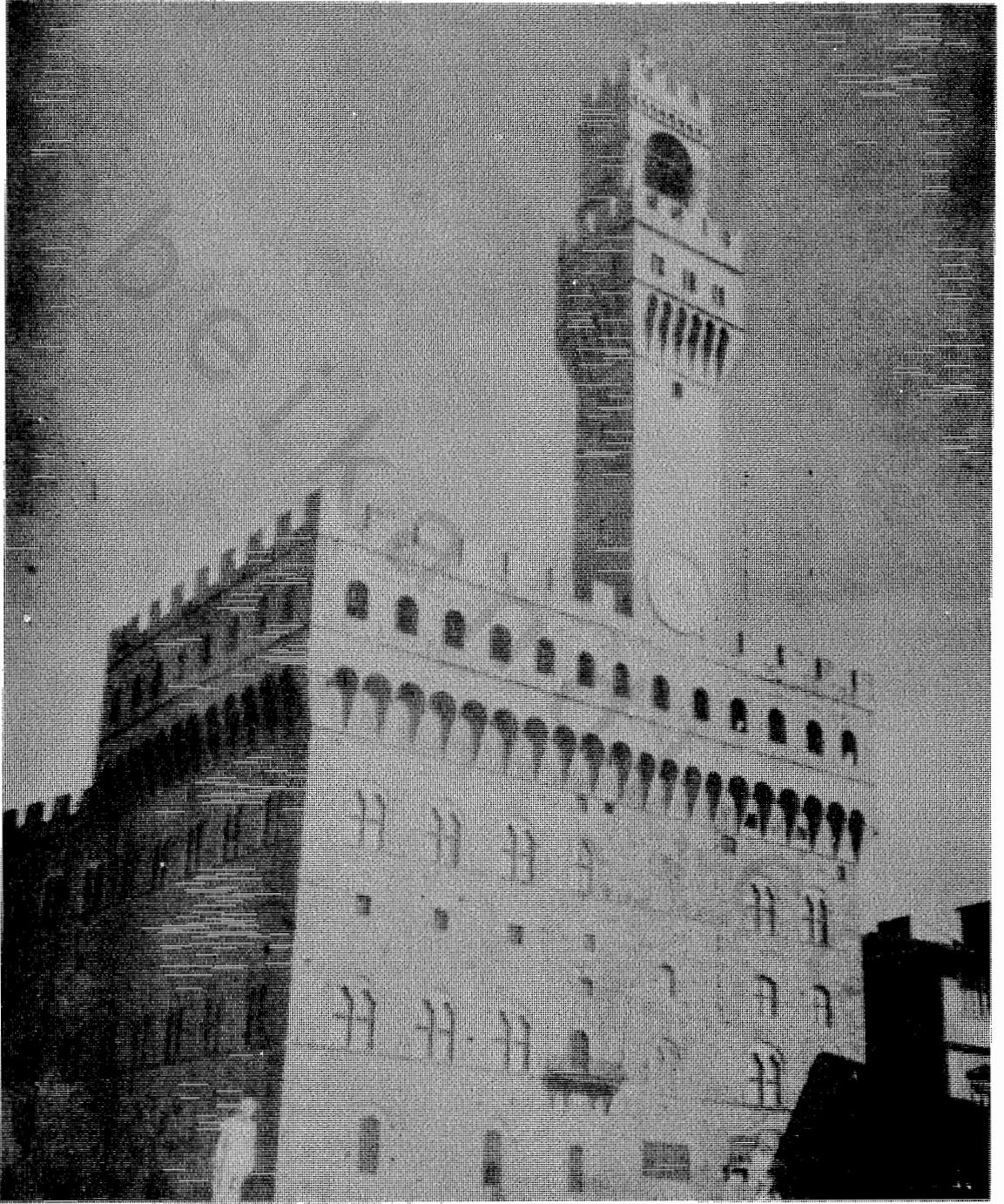
اللوحة ٣٧ - دعوى دوق آلانسون



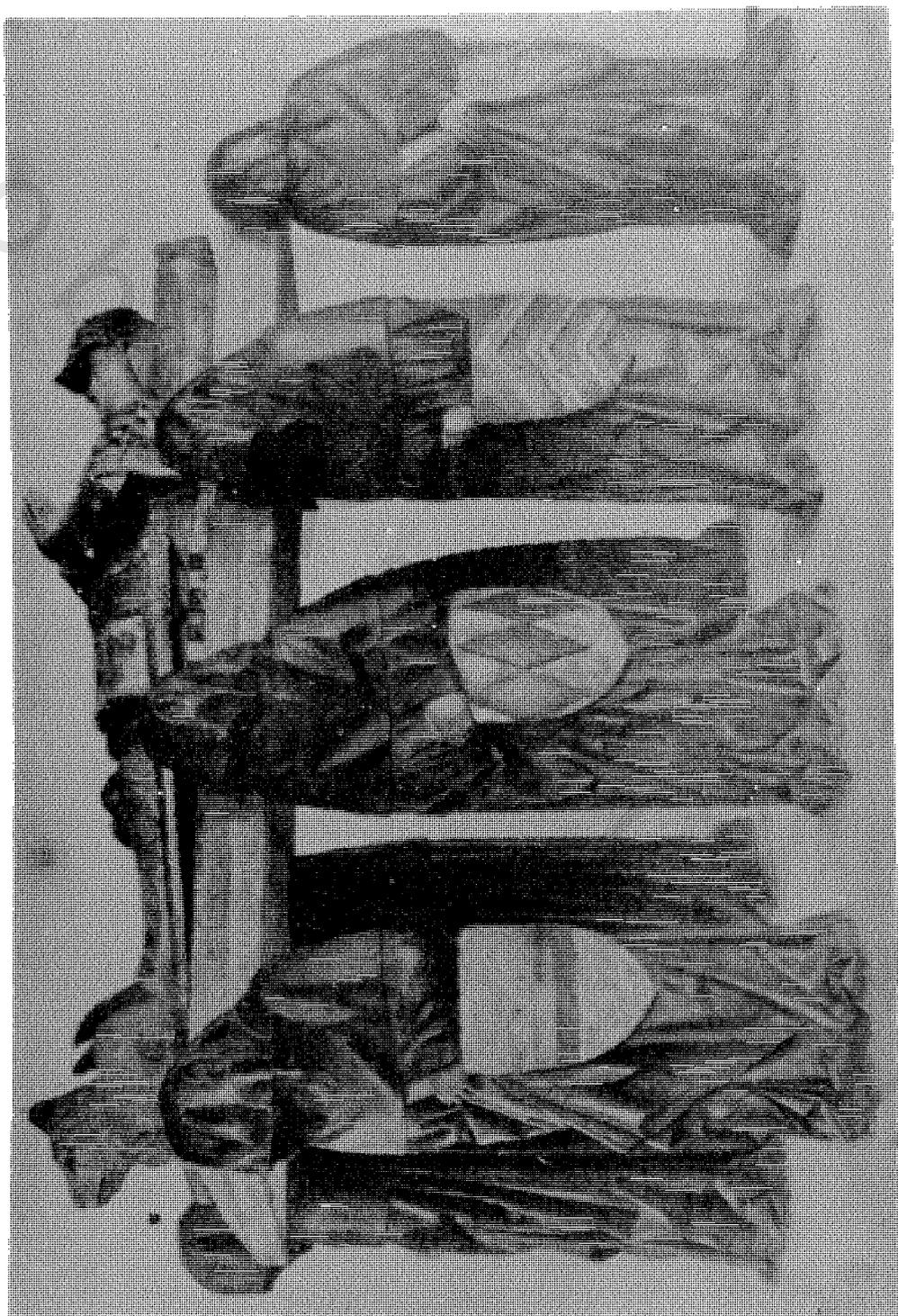
اللوحة ٣٨ - درس لاموت في السوربون .



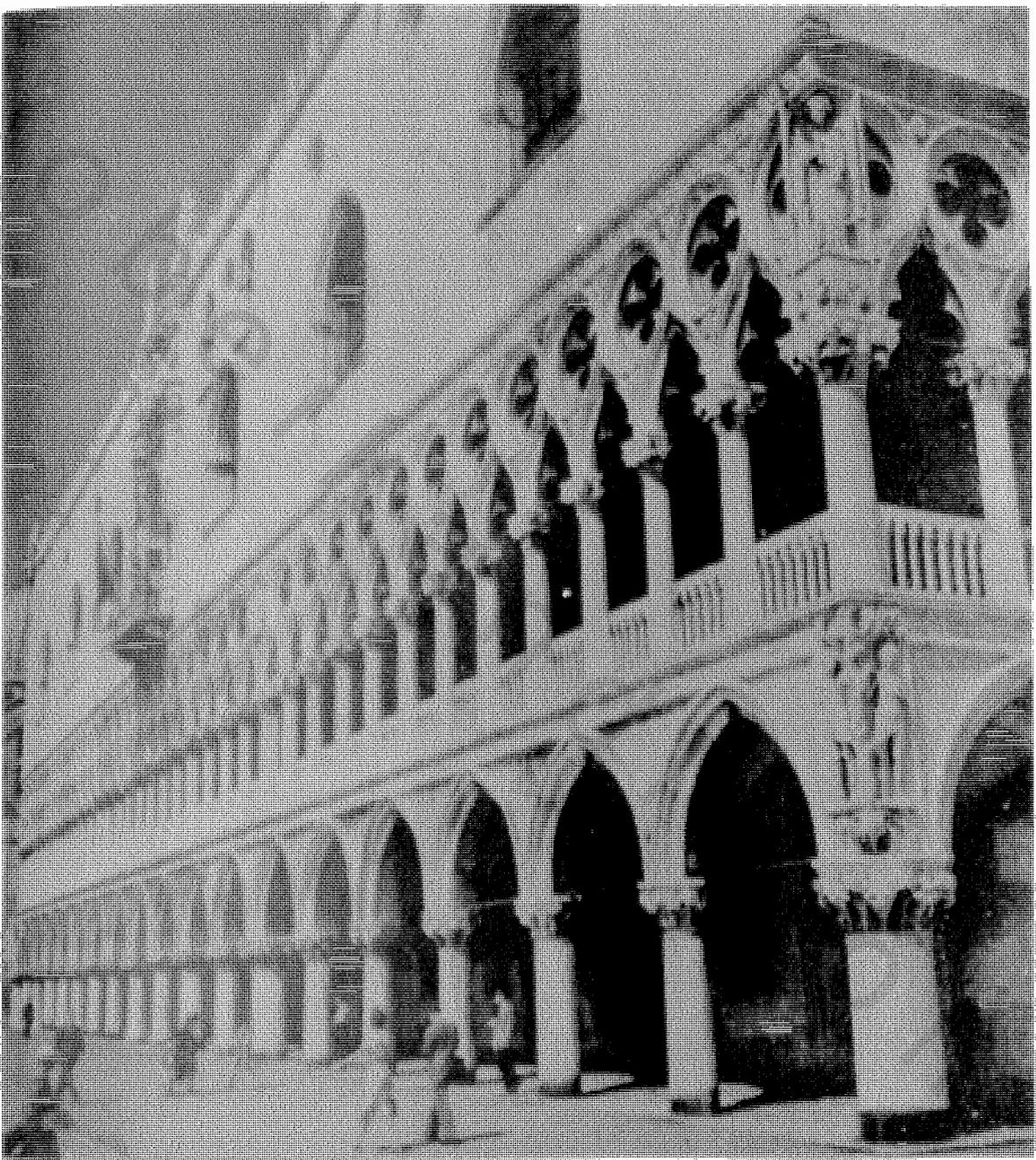
اللوحة ٣٩ - مشهد عروس (زواج رينو دي دوردون من كلايس الفاسكونية) بيزن مخطوطة



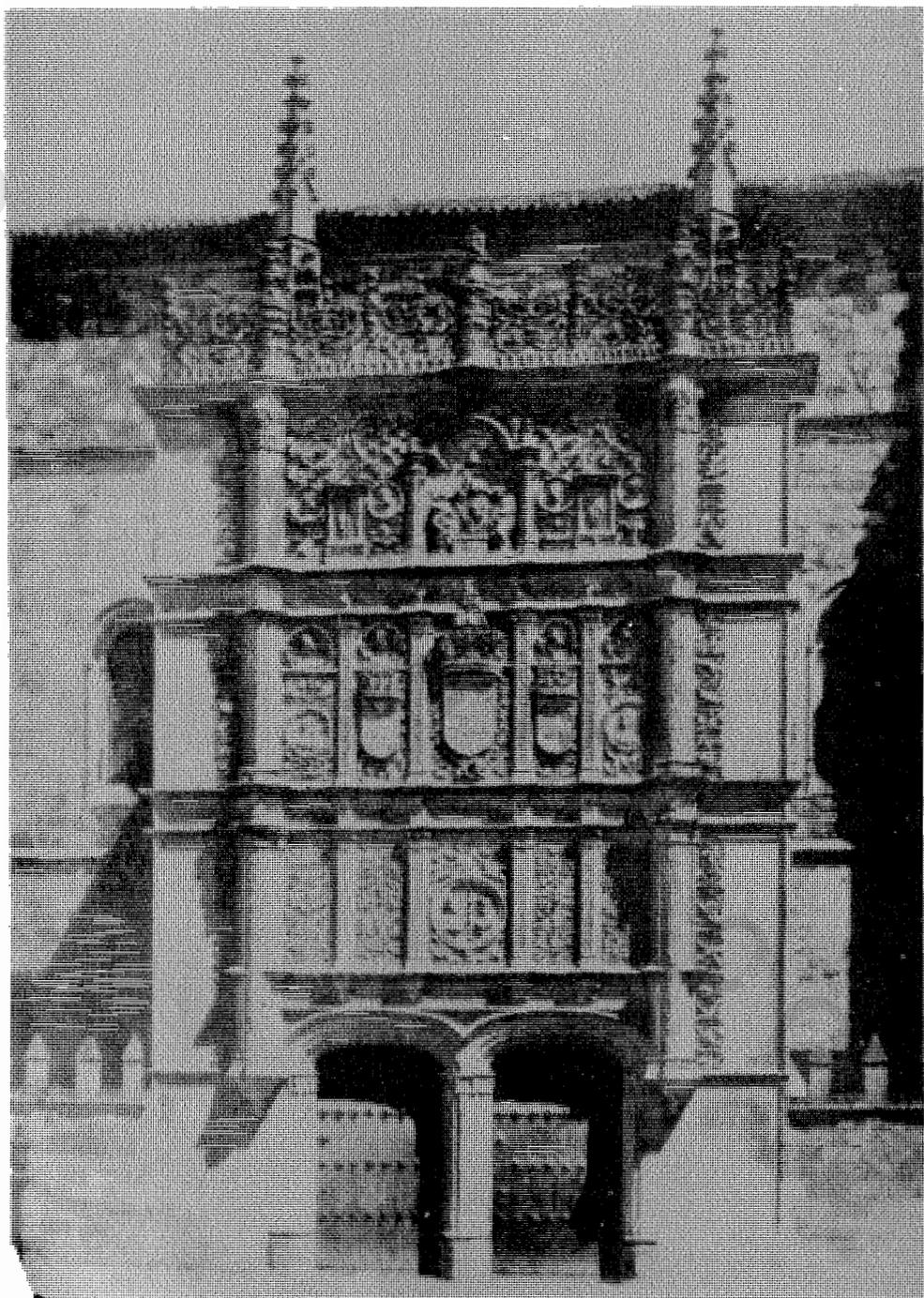
اللوحة ٤٠ - القصر القديم في فلورنسا (القرن الرابع عشر) .



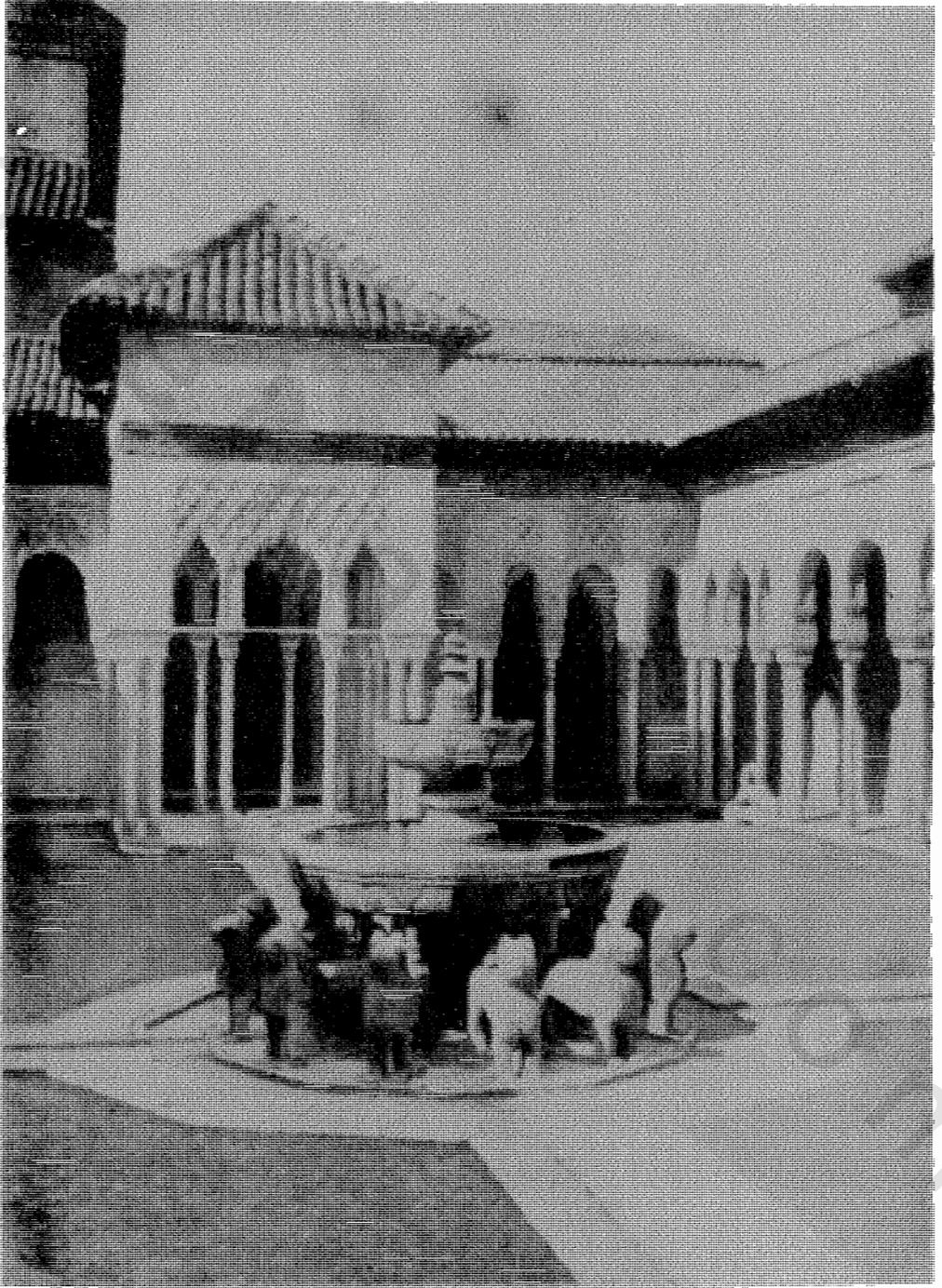
اللوحة ٤١ - ضريح قبيل بونت وزير المدالة في بورغونيا (القرن الخامس عشر) .



اللوحة ١٢ - قصر رؤساء المهورية في البندقية . (القرن الخامس عشر) .



اللوحة ٤٣ - الباب الضخم لجامعة سلنكا (اسبانيا) ، أوائل القرن السادس عشر .



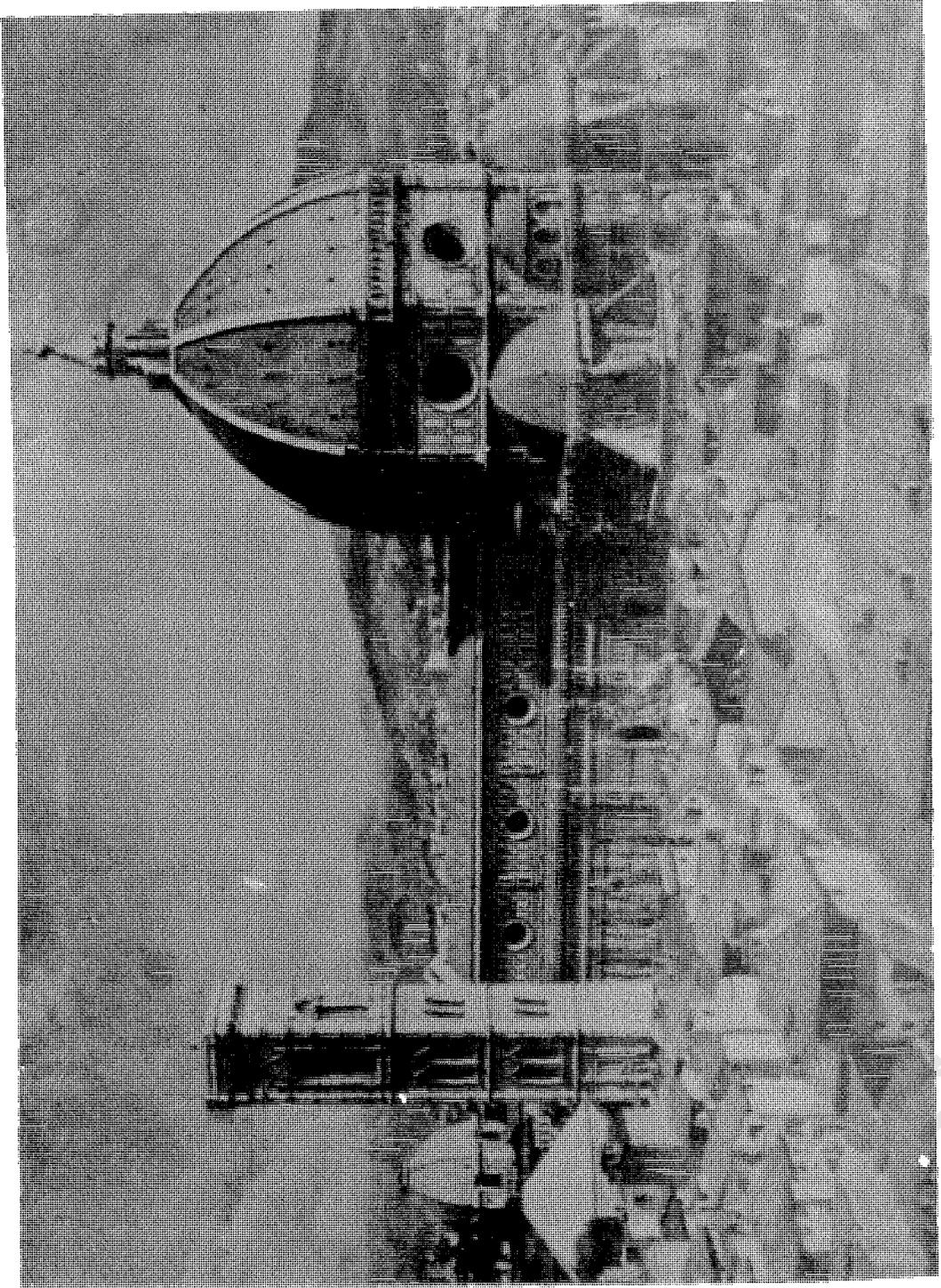
اللوحة ٤٤ - الحمراء في غرناطة (اسبانيا)



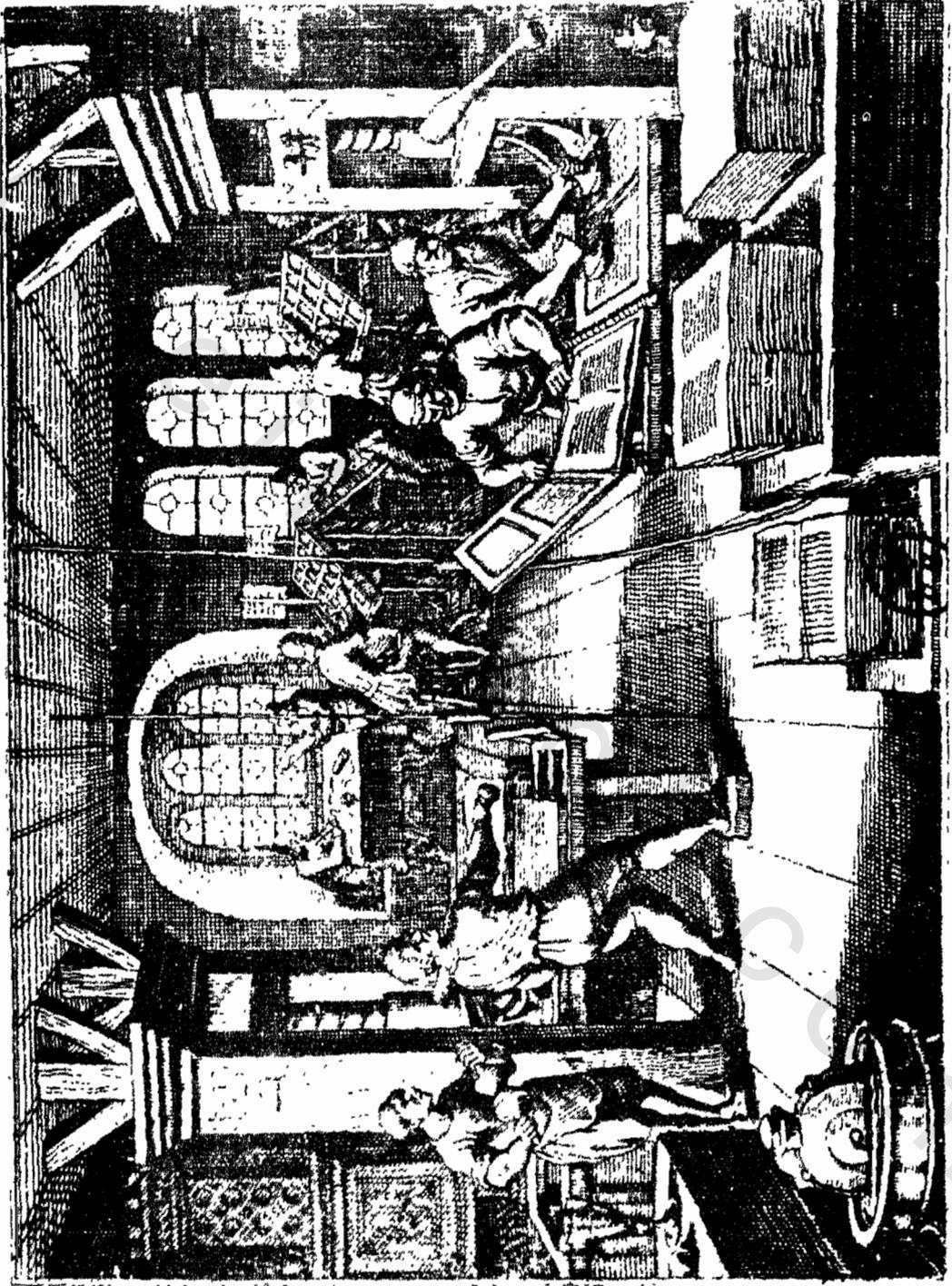
اللوحة ٤٥ - ابو زيد والحارث يزوران مزرعة



اللوحة ٤٦ - الأمير ماهي والأميرة ماهيون في حدائق امبراطور الصين



اللوحة ٤٧ - القبة والبرج في فلورنسا .



فقدان التوازن السياسي في أوروبا

لقد شدّد التاريخ التقليدي على بعض الخطوط الكبرى للمنازعات السياسية التي أقامت بعض دول الغرب على بعضها الآخر أو افقدتها توازنها الداخلي : فكان القرن الرابع عشر ، بحسب هذا التاريخ ، قد شاهد في كل مكان زوال العالم الاقطاعي ، بينما كانت الملكيات تتلمس طريقها مترددة وتكد في امتحانها العسير لابتداع الانظمة والمؤسسات التي ستفضي الى الدولة العصرية الا ان هذا التبسيط غير مقبول اذا رأينا فيه صراعاً واعياً ودائماً بين مبدأين متناقضين ، احدهما ملك الماضي - الاقطاع - والثاني ملك المستقبل - الملكية . فان تحول الانظمة الاجتماعية كان بطيئاً وناقصاً ولم يشعر به المعاصرون ؛ وقد اكتفي زمننا طويلاً بالاطارات القديمة التي لم تطابق مقتضيات الحياة الجديدة كل المطابقة ؛ واذا ما زالت الدولة الناهضة تبحث عن مبادئها ودعائمها ووسائل عملها ، فلم تجد في النهاية مرتكزها وسلطانها الا في عياء الشعوب التائقة الى السلام . ولعل ابرز دليل على فقدان التوازن هذا ، الذي تفاقم بفعل مصاعب الحياة المادية ، هو تعدد الازمات السلالية التي افسح لها التاريخ محلاً مختاراً والتي تحدّد مراحل حياة الامم كما تزيد في عنف احوالها السياسية .

علينا مع ذلك تجنب البحث ابي ثن عن التوافق بين المنازعات
منغزى المعاضل السلالية
السلالية ووقائع النظام الاجتماعي . فاوروبا مختلفة الاجزاء ؛ ومختلفة
من ثم اسباب نزاعاتها . بيد اننا نستطيع البحث عن بعض العلائق في ردود الفعل المتعاقبة التي
عينت ، في فرنسا ، ثم في انكلترا والممالك الاسبانية ، المراحل الرئيسية لحرب المئة سنة . كان
النزاع الفرنسي الانكليزي العظيم سلايا في ما تذرعه من اسباب وفي مرتكزه القانوني ، ولم
يتجدد في الزمن الا بعد ثبوت استحالة حل الروابط التي اخضع لها العالم الاقطاعي تمايش امتين
وقفت احدهما الآن في وجه الاخرى وانتهت الى مساندة الملكيات بعد ان وعدتا شيئاً فشيئاً
انها امتان . وما كانت مبادهة البارونات الفرنسيين ، الذين نزعوا عن البنات ، في السنة ١٣١٦
والسنة ١٣٢٤ ، الحق في وراثة العرش ، ثم آثروا ، في السنة ١٣٢٨ ، فيليب دي فالوا ، الامير
« المولود في المملكة » ، على « ادوار الثالث » الشاب ، مع انه كان حفيداً ، لجهة امه ايزابيل ،

للملك « فيليب لوبيل » ، واقرب وريث ذكر للتاج ، لتؤدي وحدها الى نشوب النزاع . وما كانت مغامرات ادوارد الثالث ، على ما نعتقد ، لتعرف نجاحاً راهناً ، لو لم تقدم لها ، في داخل مملكة فرنسا ، بعض فئات اقطاعية عيّل صبرها من سلطة ملكية اساءت التصرف احياناً - بعض النبلاء النورمنديين وبعض ذوي الاخاذات البريطانيين ، و « الحزب النافاري » الذي ساند سلالة افرو ، والنبلاء الفسكونيون النشيط المتقلبون - مساندة اسلحتها ومجدها : ففي بواتيه مثلاً (١٣٥٦) ، تقرر مصير المعركة عسكرياً على يد رؤساء الزمر الفسكونيين . اضيف الى ذلك ان اختبار قيام امارة اكيثينية واسعة ، منفصلة تماماً عن مملكة فرنسا وخاضعة مباشرة للتاج الانكليزي ، لم يدم عشر سنوات . فان شارل الخامس قد تذرّع ، بدوره ، بمعارضة النبلاء الفسكونيين لنقض الاتفاق واستند اليها لاستعادة سيطرته على الامارة كلها تقريباً . ثم حين تجدد النزاع بدافع من سلالة لنكستر ، في مستهل القرن الخامس عشر ، وحين ضربت معاهدة « طروا » عرض الحائط بمقررات السنة ١٣٢٨ وجعلت هنري الخامس ، في السنة ١٤٢٠ ، يتوقع صيرورة التاج اليه دونما التفات الى حقوق ولي العهد شارل ، لم يبد هذا الحل للنزاع السلافي مقبولاً ممن انضموا اليه الا لان تمادي شغور السلطة الملكية وحدّة الحرب الاهلية قد جعلهم يأملون في اعادة النظام على يد ملك حازم عادل بلغ سن الرشد . ولكن هذه المحاولة قد اخفقت بدورها ايضاً : اذ ان هنري الخامس واخاه « بدفورد » اللذين اضطرا لمواصلة الحرب ضد ولي العهد ، ونظرا اليه نظرهما الى رئيس حزب ، قد عجزا عن اعادة النظام الى نصابه في بلاد عمها الخراب . وهو ولي العهد ، الذي امسى شارل السابع ، من استفاد في النهاية من ابتغاءات السلام والوحدة التي عبّرت عن واقع قومي .

اما الثورات الانكليزية التي تصادمت فيها قوى اجتماعية مختلفة بعض الاختلاف ، فانها تنطوي مع ذلك على اوجه تشابه اكيدة مع الاضطرابات الفرنسية . فان الانقلاب الذي خلع به ادوارد الثالث ، في سن الثامنة عشرة ، نير وصاية امه عليه وقتل عشيقها مورتيمر (١٣٣٠) ، قد استند في الارجح الى بارونات معادين لكل عشيق ولتعمف اداري ربما رغبوا في مقاسمته فوائده ؛ ولكنه عكس كذلك ردّ الفعل القومي على التخليات المسلم بها في سكوثلندا واكيثين وفرنسا ، وكلها املاك واسعة سيوجه الملك الشاب اليها النشاط العسكري الذي تميز به هؤلاء النبلاء الوثابون . وهي هزائم الحرب الاولى ، التي عقبها مرحلة طويلة الامد من الهدن ، ما سمح لهؤلاء النبلاء انفسهم ، بعد مرور اربعين سنة ، بالانشغال مرّة اخرى بصراع الاحزاب انشغالا جعلهم يسلمون ، في السنة ١٣٩٩ ، باغتصاب هنري دي لنكستر ، وهو ملك دون حق وراثي ولكنه رمز البارونات الثائرين على « استبداد » ريشارد الثاني الذي اخذوا عليه ، بالاضافة الى ذلك ، تسليم برست وشزبورغ الى الفرنسيين والسعي لانهاء النزاع الطويل العهد والتزوج مرة ثانية من ايزابيل دي فرانس . ولكن السلالة قد فقدت كل نفوذ وسلطة بعد زوال ولاية هنري الخامس القصيرة ، فاتيح للاحزاب انتمادي في عنفها وتمادي في سخطها ، ولا من حافز يجر كها سوى

طموح رؤسائها - ريشارد دي يورك وابنه ادوارد - ومن ملاط يجمعها سوى التضامن بين العائلات وتكتل الزبن الاتباع . اما حرب الورد ، وقد كانت اضطراباً سطحياً ، فقد تذرعت باعذار سلالية : زواج هنري الرابع من فرنسية ، وتأخر ولادة وريثه ، وبلادة الملك ، والحشية من وصول سلاله « بوفور النغيلة » الى العرش . وسيان عند « صانعي الملوك » آنذاك كان مرشحهم فارساً لامعاً او مجنوناً حقيراً . اما الطبقات الاجتماعية الاخرى ، من بورجوازيين ودعاء ، وفلاحين وجلين ، وملاكين ريفيين حكماء ، فيما كانت تنتظر سوى قيام سلطة حقيقية ونهاية الاضطرابات ، على غرار ما انتظرته مثلاتها في فرنسا قبل زمن قصير .

ان الابناء الثائرين وابناء الزنى المعتصبين والاشقياء الاعداد ملأوا تاريخ الممالك الايبيرية آنذاك باحقادهم واحسادهم وجرائمهم . ومرد ذلك الى الخلافات بين الاحزاب في بعض الحالات ؛ والى انتفاضة قومية ضد سلاله اجنبية ، في حالات اخرى ؛ وفي غالب الاحيان ، كما جرى في بريطانيا وفي فرنسا نفسها ، الى تأثير النزاع الفرنسي - الانكليزي الكبير . فان البراز بين « بيير الطاغية » وبين اخيه من ابيه « هنري دي ترنتيار » ، الذي فصل فيه لمصلحة الثاني عن طريق مأساة « مونتيلال » (١٣٦٩) ، قد اثبت ان على قشتالة ان تبقي حليفة فرنسا ؛ واذا ساعد بورجوازيو ليشبونا ، تساندتم كافة الطبقات الشعبية وطبقة صغار النبلاء ، على تغلب « جان دافيز » ، الامير النفل ، على المطالب القشتالي بالمرش (١٣٨٥) ، فقد بدا هذا النصر لانكلترا وكأنه وسيلة لضمان حليف جديد في شبه الجزيرة . اما اراغون ، فعلى الرغم من مرورها في مرحلة توسع مزدهرة ، لم تحل من الاضطرابات السلالية ؛ كما ان « نافار » الصغرى قد عرفت مثل هذه الاضطرابات بعد انقراض سلاله « افرو » (١٤٢٥) . وقد ارتدت تسوية « كاسب » (١٤١٢) ، التي اعطت اراغون لفرديناند قشتالة ، ثم زواج ابن هذا الاخير ، جان الثاني ، من « بلانش دي نافار » ، طابع الهشاشة نفسه الذي تتميز به التسويات السلالية . فقد جاء الواقع يناقضها : لان صهر اراغون وقشتالة ونافار في دولة واحدة كان سابقاً لاوانه . ولكن ما يلفت الانتباه ، في هذه المأساة ، حدث يميز هو موقف كاتالونيا من جان الثاني ما بين السنة ١٤٦٠ والسنة ١٤٧٢ : فان المطالبين بالعرش الذين استدعتهم ، سواء انتسبوا الى اراغون او الجيو او البرتغال ، كانوا انصار صوالح ومشاعر السكان الكاتالونيين الثائرين لانزعاج استقلالهم ، قبل ان يكونوا انصار قضية سلالية .

بين الدانوب والبحار السكندنافية ، لم تحل مملكة واحدة من ممالك الشمال والشرق الاضطرابات السلالية التي ارتسمت من خلالها احياناً مداخلات شعبية قليلة الاهمية . لقد سيطرت الفوضى الشاملة ، في اوائل القرن الرابع عشر ، على البلدان الشمالية . فبينما اخضعت نروج واسوج بوحدية ، في اعقاب جريمة قتل مرعب ، لسيادة ملك فرد ، انحدرت الدانمرك ، في عهد كريستوف الثاني وفلدمار الثالث ، الى احط عهود تاريخها ؛ وقد ردّد احد الكهنة الدانمركيين مراراً آنذاك : « ايه داسيا الحزينة » ؛ وقد انتهى ملك فلدمار

الرابع المصلح نفسه (١٣٤٠ - ١٣٧٥) ، بسقوط كوبنهاغن على ايدي جيوش المدن الهانسية وبصلح « ستراسوند » (١٣٧٠) المذل . وعلى الرغم من ذلك ، فان زواج ابنته الوحيدة « مرغريت » من هاكون الزوجي ، وهزيمة مغتصب تاج اسوج المكلنبورغي (١٣٨٩) ، قد افضيا الى اتحاد الممالك الثلاث الذي وطدته جمعية « كلمار » وتتويج اريك (١٣٩٧) . ولكن هذا الاتحاد قد زال ، بعد انقضاء اربعين سنة ، باقالة اريك نفسه . فاتخذت الروح الحزبية في اسوج آنذاك شكلا قومياً وقدمت لها المنازعات السلالية غذاء حسياً .

يصعب علينا ان نكتشف معنى ابعاد عمقا للتسويات التي قام بها ملوك اوربوا الوسطى ، ولا سيما « لويس الاكبر » ملك هنغاريا الانجوي الاصل ، الذي افضت محالفاته الزوجية مع آل هبسبورغ وآل لوكسمبورغ « والبياست » الاخير في بولونيا ، عن طريق مجموعة من الوراثة ، الى ايجاد اتحاد مؤقت بين المقاطعات القائمة بين سهل الدانوب والفيستول الاسفل . ثم تجددت المحاولة ، وتحققت جزئياً ، في القرن التالي ، على يد سلالة جاجلون البولونية الليتوانية . ولكن زواج وريثة عرش هنغاريا من سيجيسموند دي لوكسمبورغ ، في هذه الاثناء ، قد اجاز التفكير باطماع مماثلة لسلالة بوهيميا . فلاريب ان هذه الاخيرة ، التي كان مؤسسها الحقيقي « شارل الرابع دي لوكسمبورغ » ، قد وعت كل الوعي دورها في اوربوا الوسطى . واذا ما حدث لهذا الملك ان ضحى بمصالح الامبراطورية لبوهيميا واهمل التقاليد الامبراطورية في ايطاليا وجعل من براغ عاصمة ومركزاً للجامعة جرمانية - سلافية ، فربما فعل ما فعل لانه نظر الى ابعاد من حدود الامبراطورية : وقد اظهرت قصور خلفائه وثورته بوهيميا الدنيية تداعي مشاريع واهية في الارجح .

وفي نطاق اضيق الى حد بعيد ، تتميز ايطاليا بتعقيدات اكثر تشابكاً ايضاً لا ايطاليا
يسعنا ان نستخلص منها سوى بعض الخطوط البسيطة . ففي الجنوب لا توجز مآسي جان الاولي دي نابولي البيتيية اضطرابات مملكة نابولي ، التي سبق وانتزعت منها صقليا ، والتي تشابك فيها اطماع بلقانية عادمة السياق يجشح جموح نبلاء نصف نابولين ونصف بروفنسيين . اصف الى ذلك ان التنافس الشديد بين سلاتي انجو واراغون ، وانتصار هذه الاخيرة في السنة ١٤٣٥ ، لم يكونا مجرد منازعات بين الاشخاص او السلالات ؛ فبالنسبة لتاج اراغون ، بصورة خاصة ، كان امتلاك شبه الجزيرة الايطالية تلبية لسيطرة بحرية حقيقية تؤلف التجارة الكاتالونية مرتكزها الاقوى ؛ وان في اقامة جيوش اراغونية في كورسكا الجنوبية ، وسلب مرسيليا (١٤٢٢) اقتصاصاً من هذا المرفأ الكبير لانضمامه الى الانجويين ، لدليلا على وحدة نادرة آنذاك في اوربوا بين الاطماع السياسية والمصالح التجارية .

وكانت ايطاليا الشمالية والوسطى اشد تعقيداً ايضاً ؛ فقد تعاقبت فيها ، على غير ظاهر منطقي ، المنافسات بين العائلات وبين الاحزاب ، والحروب والاعتيالات . بيد اننا ندرك

المصير الجلي الذي استدته الجمهورية البندقية ، تلك الدلة الاوليغارشية المركزية التي استعاضت عن خسائرها في ، ومانيا على ايدي الاتراك بمواقع انكفاء على شواطئ الادرياتيك وعلى اليابسة : فان حرب فراري (١٣٠٨ - ١٣١٣) كانت الدليل الاول على سياسة اقليمية ستوسع توسعاً مطرداً في الاجيال اللاحقة . الا ان فلورنسا ، في مستهل القرن الخامس عشر ، قد اروت غليل احقادها على بيزا ، وغدت من ثم الدولة الوحيدة الهامة في توسكانا ، فوطدت ثروتها . وهكذا فان اطماع سياسة الدوجية والسيادة فد جعلت للمدينة التجارية ابعاد دولة اقليمية ، بينما اعدت اطماع المستبدن الجامعة ، في لومبارديا ورومانيا ، حصراً آمثالاً للسلطات . فأخذ عهد الامراء شيئاً فشيئاً يخلف عهد التكتلات البلدية . ولنا عن الأولين مثل كلاسيكي في ميلانو ايام آل فسكونتي ، ولكنه مثل فقط ؛ فقد واصل « جيانغا لياور » (١٣٧٨ - ١٤٠٢) عمل « ماتيو » و « برنابو » ، واستطاع ان يترك لابنائه السيطرة على قرابة نصف ايطاليا الشمالية ، بين الالب والابنين ، بالاضافة الى اللقب الدوقي ؛ اما الوسائل التي امنت له ذلك فهي المصاهرات والمشتريات والوراثات التي تركت له او استولى عليها بالحيلة ، والسجن ، والاغتيال ، ودس السم ؛ وبلغ من رسوخ ومتانة هذه التقاليد الميلانية ان آل سفورزا ، في منتصف القرن الخامس عشر ، قد ساروا على خطى اسلافهم آل فسكونتي . اما مصير جنوى فكان اشد اضطراباً بفعل شدة ما نالها من ظهور النمانيين المفاجيء ، في المضائق وبحر ايجه ، وانقسام احزابها وطمع الميلانيين بها . ولكنها اعطت المشعل ، الذي سيقبض به ، باستنجاها بالاجني ، اذ انها وضعت نفسها مرتين تحت كنف ملك فرنسا ، منذ السنة ١٣٩٦ حتى السنة ١٤٠٩ ، ومنذ السنة ١٤٥٨ حتى السنة ١٤٦١ . وهكذا ارتسم خيال « امير » ما كيا في بشكل المستبدن ، كما ان اندفاع هؤلاء وراء الفتح والسيطرة قد مال الى تبسيط خريطة ايطاليا السياسية على غرار ممارسة السلطة . الا ان شبه الجزيرة ما زالت غارقة في الفوضى . ولعل الحياة فيها كانت اسهل من ان تشعر المدن ، على غرار المدن الالمانية او المقاطعات السويسرية ، بالحاجة للجوء الى حسنات رابطة المحاديه .

في ظل اختلاف الارضاح المحلية المدهش ، تراحمت الممالك والامارات والمدن في كافة المحاء اوروبانية توسيع اراضيها . فوجدت الدولة من ثم امام اعباء جديدة املاها عليها في الوقت نفسه اصحاب النظريات السياسية ؛ ولا يخلو من المغزى ، في قرن « مارسيل دي بادوا » وغلجوم او كهام وبقولا اورسم ، ان تتمثل سلالة آل فالوا وسلالة آل لوكسمبورغ ، وهما ارفع سلالات اوروبا قدراً ، « بملكين مكتبيين » ، شارل الخامس وشارل الرابع ، اللذين اندرجت ولايتهما بين ولايات اشد الامراء نزعة فروسية وهمية في ذلك العهد من امثال « جان له بون » و « شارل السادس » و « جان الاعشى » وسيجي سموند . ان في ذلك لرمزاً الى مجتمع لمسا يتعود مفاهيم الدولة الجديدة ، ورمزاً ايضاً الى التفاوت بين ضخامة الاعباء الجديدة الملقاة على عاتق الملوك وهزال وسائلهم التقليدية .

يرد شمول ديمومة الاضطرابات والحروب ، في الدرجة الاولى ، الى عجز نقص موارد الدولة
السلطة او حزب من الاحزاب عن احراز الغلبة وفرض السيطرة . فان

ملوك فرنسا وانكلترا انفسهم لم يجدوا آنذاك في موارد المناطق التابعة لهم الادوات اللازمة لتوسيع نشاطهم ، ولا سيما لمشاريعهم العسكرية . لقد سبق وتكلمنا عن ضعف القوى التي استخدمها اعظم الملوك قوة آنذاك ، كما سبق وتكلمنا عن الجهود التي بذلت في انكلترا اولاً ، ثم في فرنسا ، لرفع القوى العسكرية والبحرية الى مستوى المهام المسندة اليها ولتدريبها على فنون الحرب الجديدة . ولكنها جهود غير كافية لانها قامت على تنظيم اجتماعي ولى زمانه . فقد اسندت الخدمة الاقطاعية ، حتى المأجورة منها - وهذا ما تحقق منذ اواخر القرن الثالث عشر - الى تسلسل الاخذات العقارية ، ولم تسمح من ثم بتجنيد جيوش هامة ولا بالانضباط الضروري في النزاعات الطويلة الامد . وعلى الرغم من ذلك ، وحتى خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر ، فقد عند الملوك والامراء في شراء خضوع الاسباد الوراثيين ، والحؤول دون تجزئة الاقطاعات او انتقالها الى البورجوازيين ورجال الدين ، وحتى في فرض الفروسة على كافة المستفيدين من دخل عقاري يتجاوز العشرين ليرة ، كما جرت محاولة ذلك في انكلترا . فالجتمتع العسكري ، في نظرم ، لا يزال مرتكزاً الى تسلسل السيادة على الاراضي والى روابط التبعية الاقطاعية . ولكنهم ، بعد ان امست الحرب مهنة ، سمحوا بان تقوم حولهم روابط تبعية اخرى مبنية على المال لم يروا بعد بجلاء كل ما تنطوي عليه من محاذير : وهذا ما حدث للبارونات الانكليز الذين اضطروا ، في سبيل تقديم جنود مأجورين سيقودونهم الى اليابسة قلبية لكل مصادرة يطلبها ادوارد الثالث ، الى تعهد « فرقة » مأجورة يخدمونها بالتعاقد ، تتقدم مهمتها على الواجبات الاقطاعية او تتعارض معها احياناً . ولكن افراد هذه الفرقة ، الذين يلتحقون بمن يؤمن لهم الاجر الافضل ، ينتقلون من معسكر الى آخر يمثل سهولة انتقال فرق ادلاء الطرق او زمر المرتزقة الايطاليين . ومع ذلك ، لم يكن هناك من وسيلة ، لتفادي تشوش النظام الاجتماعي ، سوى اللجوء الى المرتزقة ، بسبب عدم وجود الجيوش الدائمة ؛ ومن هنا صعوبة الجمع بين الجنود المأجورين وبين الفرق الاقطاعية التي اشتهرت باحتقارها « لمشاة الادنياء » ؛ ومن هنا ، بالتالي ، انعدام تلاحم الجيوش . ومهما كان من الامر ، فقد توجب الاتفاق لمكافحة الخدمات ولتجهيز المرتزقة بالاقواس العادية والاقواس الفولاذية ، وتعزيز الحصون ، وبناء السفن وتموينها . ولكن عملية واحدة ، حتى ولو كانت محددة في المكان واخلوا من الكوارث ، وحتى من المعارك ، كحملة ادوارد الثالث على هولندا في السنوات ١٣٣٨ - ١٣٤٠ ، كانت كافية لاستنزاف اموال خزينة . كما ان مجرد تعهد حامية مؤلفة من ١١٠٠ جندي في « نخوم » كاليه قد ابتلع ، في السنة ١٣٧١ ، خمس الدخول العادية للملكية الانكليزية . فكانت كل حملة ، من ثم ، مجرد معضلة صارخة كبرى : اذ ان مصير النزاعات كان يتوقف الى حد بعيد ، على توفر الاموال او فقدانها .

ان ما نعلمه عن المداخيل العمومية بواسطة ما وصل الينا من محفوظات فرنسا المالية ، وبواسطة المستندات الاسبانية الكثيرة ، وان لم تدرس بعد دراسة كافية ، وبواسطة الحسابات

العائدة لانكلترا والدول البورغونية والمتصلة الوقائع اتصالاً نادراً ، تظهر بوضوح ان مداخيل الاملاك التقليدية قد باتت غير كافية في كل مكان . فقبل حدوث كوارث الحرب الانكليزية الباهظة التكاليف ، تثبت حسابات خزينة « فيليب له بيل » عجز الملك عن « العيش بما لديه » ؛ ولا تحتاج صعوبات « جان له بون » او صعوبات ملك بورج المفجعة الى أدلة حسابية ، مفقودة لسوء الحظ . اما حركة اموال الخزينة الانكليزية ، حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار الحيل الحسابية التي تشوّه واقع التفاوت السنوي بين هبوطها وارتفاعها ، فنظهر ، ابتداء من السنة ١٣٣٦ ، مزيداً من التضخم في الحاجات ارتفعت معه الواردات ، التي لم تتجاوز ٣٠.٠٠٠ ليرة حتى ذلك العهد ، فبلغت ٢٥٠.٠٠٠ ليرة احياناً ، دون ان تقل قط ، طيلة ما تبقى من القرن ، عن ١٠٠.٠٠٠ . ونعلم اخيراً ان الدوقين البورغونيين الاولين من سلالة فالوا قد اعتمدا على خزينة فرنسا لسد عجز دائم ، بينما عرف فيليب له بون ، على الرغم من وضع افضل ، سنوات صعبة جداً ايضاً .

لعله يجدر بنا اظهار فروق الوقائع ونميز ما لم يميزه اهل ذلك العصر الذين تعيشوا كلهم بالكد اليومي بين مصاعب صندوق المال وبين عجز الموازنة . فان الاموال العمومية ، مهما بلغ من سوء ادارتها ، قد بقيت قادرة على تحمل نفقات مشاريع عظيمة : جهود انكلترا في اوربوا التي تجددت طوال خمسة اجيال ؛ توسع اراغون في المتوسط ؛ تمكن ملك فرنسا ، بعد كريسي ، من شراء مقاطعة « دوفينه » ، ودفع فدية الملك جان بعد بواتيه ، واعادة تنظيم الجيوش بعد شارل الخامس ، وبذل مجهود مماثل في ايام شارل السابع ؛ وتمكنه كذلك من سد حاجات سلالة بورغونيا ؛ وقيام سلالة لو كسمبورغ اخيراً بعملية اعادة جمع الاملاك على نطاق واسع . ويبدو ان الممالك السكنديناوية نفسها ، على الرغم من قلة مواردها البشرية والمالية ، قد استطاعت ، في حروبها الدائمة ، ان تعيش من املاكها مدة اطول من ممالك الغرب . ولكن ما لا ريب فيه هو ان المشاريع الكبرى ، سواء أسفرت عن نتائج دائمة او فشلت فشلاً ذريعاً ، قد ارهقت أبداً اموال القائمين بها . فان الموارد العادية ، حتى ولو احسن استثمارها ، أعجز من ان تفي بحاجاتها .

تألفت املاك الملك ، في بلدان اوربوا المختلفة ، من عناصر ماثلة : أراضي استثمار زراعي ، احراج ، مناجم ، ملاحات ، رسوم مفروضة على اليهود (الذين اقصوا تدريجياً عن ممالك الغرب) ، عائدات الاسواق الدائمة والاسواق الدورية ، رسوم المرور ورسوم الجمارك ، النقود ، غرامات القضاء ، نصيب الملك من واردات الوظائف الكنسية . وكانت مداخيل الارض ذات أهمية رئيسية ، فأديرت من ثم خير ادارة ؛ وكان لها شأن كبير في المانيا وفرنسا حيث الاملاك الملكية اعظم اتساعاً منها في البلدان الاخرى . ثم ان ادارة الاحراج ، التي أعارها ملوك انكلترا انتباههم منذ زمن بعيد ، قد كانت في فرنسا ، خلال القرن الرابع عشر ، موضوع اهتمام متزايد حدّده بدقة ، في السنة ١٣٧٦ ، اول تنظيم على نطاق واسع تناول المياه والاحراج . وكانت مناجم الفضة موارد كسب للعديد من الامراء الالمان وملكك بوهيميا ؛ ووفرت الملاحات لدرقية

بريطانيا وبرغونيا ، وللعوك الاسبان ايضاً ، واردات عظيمة . وأمنت الجمارك في انكلترا مكاسب دائمة تفوق الى حد بعيد مداخيل الاملاك العقارية . وتفسر أهمية مداخيل سك النقود ، وهي عظيمة في فرنسا وهولندا وإيطاليا واسبانيا والامبراطورية ، وأقل شأنًا في انكلترا حيث عرفت النقود الذهبية والفضية مزيداً من الاستقرار ، تأثير هبوط الحركة الاقتصادية وارتفاعها على السياسة .

لم تخضع طرائق إدارة الاموال ، في تطورها ، لحركة واحدة في كل مكان . الا ان كافة الملوك قد وجدوا أنفسهم امام واجب مشترك قضى عليهم بالحصول على المزيد من المال دونما رقابة . استفادت انكلترا من رصيد تقاليد متصلة اشتهرت بها في ادارة مالية أثبتت التجارب حسناتها ؛ ولكن هذه الادارة تفتتت في نسقها المطرد المتردد ، وحال ضيق الاملاك العقارية وعلدة تلامي مداخيلها ، ببدل ثابت ، للمأموري الاحكام المدنية ، دون استثمار الحقوق الملكية استثماراً مجدياً . فوجب انتظار ولايسة سلالة لنكستر ، الذين ملكوا دون ان يحكموا ، حتى تلعب الاملاك الملكية ، وقد اتسعت بأملهم الخاصة ، دوراً اولياً مؤقتاً في تقويم اموالهم .

كانت الممالك الاخرى امام مهمة جديدة . فان الملكية القشتالية ، بعد ان بددت قسماً من أملاكها ، لم تقم لنفسها ادارة تشبه ادارة اراغون التي كانت أشد حرصاً على ان لا تفقد شيئاً من مداخيلها ؛ وما اعظم التباعد بين صلاحيات غامضة اعطيت الشرفين على الاملاك في قشتالة ودور محدد جداً اسند الى المشرفين على الملاحات الاراغونية ، وبين البلبلة التي سادت زمناً طويلاً ، هنا ، رقابة الاموال ونظارة دار الملك ، وتخصص بعض رجال قصر الملك هناك ، منذ أوائل القرن الرابع عشر ، في ادارة واردات ونفقات الممالك الثلاث التي تؤلف تاجه . اما في فرنسا ، فان القضاة ، يعاونهم الجباة وضباط الاحراج والجمارك ، ويخضعون أنفسهم لرقابة غيرهم ، فقد كانوا رجال الملك حقاً . وقد تقدم عليهم صندوق الخزينة وديوان المحاسبة اللذان حددا تدريجياً مهامها المركزية . اجل ان ادارة المداخيل العادية ، التي حددتها أنظمة شارل الخامس والد « مرموزيه » ، قد قاست ما قاست ، في عهد لاحق ، مما اقدمت عليه الاحزاب من تبذير . ولكن اموالها ، على اهميتها ، لم تعد ، منذ زمن بعيد ، لتقارن بالواردات « غير الاعتيادية » .

والسبب في ذلك هو ان الامراء ، الذين حاولوا في كل مكان استثمار املاكهم الى أقصى حدود الاستثمار ، قد عملوا ، في كل مكان ايضاً ، في سبيل دثور هذه الاملاك نفسها . فقد انحروا ، في معالجتهم بعض الحالات المستعجلة ، امام التماسات ذوي الخطوة ومطالب العطاء فتخلوا احياناً عن اجزاء هامة من هذه الثروة العقارية التي ما زالت تعتبر تراثاً خاصاً بهم . وليس المقصود هنا معاشات او اعطيات طارئة ، بل التخلي نهائياً عن مداخيل الارض ان لم يكن عن الارض نفسها احياناً . وبات الرهن آنذاك آفة ثروات الامراء . فبسببه تقطعت اوصال الاملاك القشتالية وصار اشرف الامبراطورية الى الافلاس ؛ وهكذا فلم يبق لأمير براندبورغ ، في السنة ١٣٧٥ ، من حقوق قضائية ، الا في ٣١ قرية من اصل ٤٦٧ اشتملت عليها املاكه الواقعة

بين الالب والاوردر . حاول الامبراطور شارل الرابع انهاء هذه العادات السيئة رغبة منه في جمع ثروة آل لوكسمبورغ مرة اخرى ، ولكن الداء نفسه قد أضعف الممالك السكنديناوية وممالك أوروبا الوسطى أيضاً . وكانت الصراعات الحزبية بين ارمانياك وبورغونيين في فرنسا فرصة لتبدلات خطيرة في امتلاك الاراضي حاول واضعو النظام الكابوشي إيقاف تيارها . ولم تنج املاك سلالة لنكستر من هذه الآفة أيضاً في عهد هنري السادس . اما دوافع هذه الآفة المستعصية فجشع الافراد الذي ساعدته المصاعب المالية الدائمة التي تحببت فيها الحكومات . ولكن المستفيدين كانوا اولئك بالذات الذين وجب اللجوء اليهم لسد عجز الخزينة . وقد بلغ من ضعف مداخيل الاملاك ان الدولة قد اضطرت ، لتأمين موارد جديدة ، الى الاستعطاء والالحاح في التسول ، وبلغ من تكرر حاجاتها الاستثنائية ان موارد غير الاعتيادية اصبحت في النهاية عادية واتجهت نحو الاستمرار ، وتجاوزت الى حد بعيد موارد الاملاك الطبيعية .

المراد الجديدة
كان من الجدير بنا ان نتوسع في دراسة القروض التي طالما اعتبرت شرّاً الحيل المالية ، مع ان امراء ذلك العهد قد اعتمدها في معيشتهم اليومية بسبب اضطرارهم الى استباق موارد الاملاك او الموارد الجبائية التي لاتجتمع الا في موعد متأخر . اما المقصود بهذه القروض فقروض قصيرة الاجل - ان اقرار الدخول ، مدى حياة أمير او أكثر ، بواسطة المدن او مجالس الدول ، لم يطبق الا في امارات هولندا - ترتفع فوائدها بارتفاع ديون الامير ، اذ ان المقرضين ، حتى المرغخين منهم ، يفرضون آنذاك فوائد باهظة ، ورهونات منقولة ، والتخلي عن بعض المداخيل . وتشكل هذه القروض ديوناً غير ثابتة هامة جداً احياناً ، وهذا هو وجه الخطر فيها ، على ان الادارات المالية تجهل قيمتها الصحيحة . ولكن سواء كان الدائنون رجال اموال ايطاليين استهوتهم هذه المضاربات الرابحة على ما تنطوي عليه من اخطار ، او هائنين لم تدفع لهم حقوقهم ، او مقرضين مرغخين ، او مدناً ملازمة باقراض أموال يزول دخلها بزوال صاحبها ، او ملتزمي املاك يسلسفون فوائد جبائيتهم ، فلم يكن بدّ منهم للملوك كما لم يكن أثقل منهم على ادارة الخزانة ادارة حسنة . فمست الحاجة الى موارد ثابتة تأمنت في كل البلدان بتنمية المساعدة الاقطاعية : مساعدة واقتطاع في فرنسا ، مدد نقدي في انكلترا ، « خدمة » في قشتالة .

لقد سبق ورأينا كيف ان الملكية الفرنسية حذت حذو الملكية الانكليزية ، في منعطف القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وتوصلت الى ان تفرض على مجموع رعاياها ، في الظروف الهامة ، وخارج نطاق الاملاك او العلائق الاقطاعية ، مساعدات نقدية يستعصون بها عن الخدمة العسكرية . اما ان يكون كل فرد قد ألزم آنذاك ، حين دعت الحاجة ، بأن يسهم مالياً في الدفاع عن الدولة ، فهذه قاعدة قانونية جديدة عادت الى القرن الرابع عشر مهمة حل الرأي امام الحرون على القبول بها . فالفت العقول تدريجياً ، ولو ببعض الصعوبة ، مبدأ شمول الضريبة ان لم يكن مبدأ استمرارها . ومنذ أوائل القرن الرابع عشر يبدو ان الدائمات قد عرفت

استمرار فدية الخدمة البحرية المطلوبة من غير الاشراف . اما الجديد الذي أتت به الاجيال اللاحقة ، فهو جعل « غير الاعتيادي » اعتيادياً ، ليس في مبدئه فحسب بل في طرحه وجبايته ايضاً . وقد استند في فرض الضريبة ، على الرغم من كفيات مختلفة ، الى الثروة المنقولة بوجه عام : المواشي ، الحبوب ، المزروعات ، الاحتياطي النقدي ، الديون . اما محاولات فرض الضريبة الشخصية التي جبيت ثلاث مرات في انكلترا بين السنة ١٣٧٧ والسنة ١٣٨١ ، فلم تسفر الا عن فشل وخيبة امل . وفي غالب الاحيان ، فرضت الضرائب على العائلات بالاستناد الى مقدار مواردها ، ولكن سرعان ما تحولت ضريبة الكمية النسبية الى ضريبة توزيع متساو ؛ وحدث احياناً في انكلترا وفرنسا مثلاً ، ان معدل الضريبة كان في المدن أعلى منه في الارياف ، لان تقدير ثروة سكان المدينة كان اصعب منألاً ؛ واستندت الضريبة في بلدان اخرى ، كما في اراغون مثلاً ، الى دلالة ظاهرة من دلائل الثروة كزوج ثيران مثلاً . وفي كل مكان ايضاً ، كان الطرح والجباية من واجب ممثلي المكلفين انفسهم . ولكن الذين سبق لهم وقبلوا بتقديم مدد مالي قد طالبوا احياناً بالجباية والادارة والرقابة : فقد عين البرلمان الانكليزي تكررأ ، لاسيما في أيام هنري الرابع دي لنكستر ، « خزنة حروب » واخضع حساباتهم لرقابته ؛ وقام مجالس الطبقات الفرنسية ، في السنة ١٣٥٥ ، بمحاولة مماثلة ، وسريعة الزوال ايضاً ؛ ولكن محاولة الممثلين القشتاليين ، ثم محاولة الامارات الالمانية وامارات البلدان البورغونية ، في القرن الخامس عشر ، كانت اطول بقاء . وهذا ما يفسر قيام ثنوية شبه شاملة في الادارات المالية : فرع للاملاك وآخر للمداخيل غير الاعتيادية . وعرفت فرنسا هذه الثنوية ايضاً ؛ فان نظام المختارين و « قادة » المساعدات ، الذي اقرته مجالس الطبقات في السنة ١٣٥٥ ، قد دام حتى العهد المعاصر ؛ ولكنها تسمية خاطئة لان المقصود بهؤلاء الموظفين ، منذ ولاية شارل الخامس ، ضباط ملكيون تعينهم السلطة ، ليس لمجالس الطبقات اي دور في اختيارهم . واذا كان شارل الخامس نفسه قد تأثر بتشكك ضميره وهومشرف على الموت فالقى « الاقتطاع » في السنة ١٣٨٠ ، واذا كان جان سان بور ؛ رغبة منه في استئالة الشعب ، قد الفى المساعدات ، فقد استطاع شارل السادس ، بدون استشارة المجالس ، ثم شارل السابع من بعده ، بموافقة هذه المجالس ، اعادة « الاقتطاع » والمساعدات ؛ فجمعت الملكية الفرنسية آنذاك ، بصورة منتظمة ، ثلاث فئات من الضرائب « غير الاعتيادية » : الضريبة على الملح التي امتت شاملة منذ ولاية « فيليب دي فالوا » ؛ والمساعدات على البضائع ؛ والاقتطاع . ولم يكن ملك انكلترا قد توصل ، في الوقت نفسه ، الا الى توطيد رسوم الجمارك ، بينما بقيت المساعدات النقدية رهن استعداد المجالس .

كان ، بالنسبة للحكومات ، ارتفاقاً حقيقياً ان قدين بوسائلها النقدية لحسن استعداد المكلفين . الا ان ادعاءات هؤلاء لم تكن ثورية على وجه التأكيد اذ ان العرف الاقطاعي قد ترك للامير ولاتباعه او رعاياه مهمة الاتفاق فيما بينهم على معدل المساعدة . اما الجدة فهي الميل الى الخروج من دور المعاوين والمستشارين لاجل مراقبة الامير . ولكن متاعب الحكومات

السياسية والمالية لا تفسر وحدها محاولات فرض الوصاية هذه : فان تقلبات دول القرون الوسطى ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ترد الى تطورها الاجتماعي قبيل اي شيء آخر .

ان السيادة التقليدية ، التي تشوشت رويداً رويداً تحت
القوى الاجتماعية الجديدة :
ضغط الاحداث الاقتصادية ، قد امست مرتكزاً غير كاف
للنظام الاجتماعي فطبقة الاشراف العقاريين التي افتقرت
وُحرمت حتى القيادة بفعل تقدم الدولة ، فقدت حتى استقلالها الشخصي . والروابط الاقطاعية
التي قامت على امتلاك اقطاع واقسام اليمين للسيد ، استبدلت تدريجياً بروابط جديدة تعاقدية ،
على اساس مالي ، افاد منها العظماء . اجل لقد كان تأسيس منظمات الفرسان ، في القرنين الرابع
عشر والخامس عشر ، ردّة فعل دفاعية تلمي الحاجة الى تشديد وفاءات مترددة وتركيز اخلاصات
تعرض للفقدان . ولكنها ردة فعل باطلة ؛ فان ظاهرة مركزية سياسية واقتصادية قد حدثت
من عدد الاسياد العظماء وجعلتهم اوفر قوة ، اي اشد خطراً . ولدينا امثلة لا تحصى عن ابتلاع
السيادات الكبرى للسيادات الصغرى وعن تسلط كبار اصحاب الاخذات على صغارهم . فان
الاقطاعيين الالمان قد خضمو تدريجياً لسيطرة طبقة عظماء الاشراف ؛ وقد برز هذا التطور في
ولاية براندنبورغ بصورة خاصة ؛ ولكننا نجد الواقع نفسه في امارتي فرنسا الجنوبية ، « فوا »
« وارمانياك » ، حيث انتقل ذلك السيد الفسكوني من سيادة الملك المباشرة عليه الى سيادة
الكونت ، ثم اعوزه المال فلم يبق له سوى حق تملك اراضيه ما دام حياً بانتظار فقدان هذا
الحق نهائياً . وهو المال ، في اطار الخضوع الاقطاعي الذي ابقى عليه هنا ، ما يربط البشر
بعضهم ببعض منذ اليوم : فان الشريف ، المدين لاميير يتقبل منه الخدمات اللطيفة والاعطيات
والمداخيل ، كان اشد تبعية له منه في الانظمة القديمة . وقد شكل مجموع هؤلاء الزبن فرق
العظماء وازلامهم ، او « محافظيهم » كما كان يقال في انكلترا ، لان الزبون كان ملزماً بـ « المحافظة »
على صوالح حاميه .

سار الامراء اخيراً على نهج الملوك بان احدثوا في دولهم مؤسسات ادارية مماثلة لمؤسساتهم
اختلفت اشكالها باختلاف الاخلاق القومية ووضع البلاد السياسي ودرجة الكمال التي بلغتها المثل
الملكية المستوحاة . فكان هذا الشكل قليل الوضوح في اسبانيا مثلاً حيث لم يجد « الرجال
الاغنياء » في قشتالة واراغون ، فوقهم ، مثل الملكيات المركزية . بينما كان اعظم بروزاً في
السيادات الالمانية الكثيرة - وقد تجاوز عددها الـ ٣٠٠ آنذاك - التي كان لامرأها ، على نهجهم
النهج البطريركي القديم ، الى جانب مجلس الامارة الذي يضم فيه الفرسان آرائهم الى آراء ذوي
المناصب التقليدية الكبرى في كل بلاط ، ادارة عملية تضم حكام الحصون والقضاة والجبابة . اما
انكلترا حيث كان النظام السبدي اقل تجمعاً اقليمياً ، فلم تر تحور العائلات الكبرى ، الا بعد

احداث اقطاعات القرن الرابع عشر ، ولم تر ازدهارها الا خلال النزاعات الحزبية في القرن الخامس عشر . ولكن لعل مثل دوقية لوكسمبورغ اوضح مثل على الاطلاق : فان هذه الامارة قد جهزت منذ السنة ١٣٦٣ بديوان وبكافة الاجهزة اللازمة لادارة دولة ، كما تشهد بذلك محفوظاتها النفيسة جداً .

وربما كانت مملكة فرنسا المملوكة التي ذهبت فيها الامارات الى ابعاد حد في تقليد المؤسسات المملوكة . فمنذ اوائل القرن الرابع عشر كان لكونتية من المرتبة الثانية ، ككونتية فوريز ، ديوانها وديوان محاسبتها ، وكان المجلس الكونتي يعقد جلسات قضائية على غرار « مجلس الملك » . ويمكن القول نفسه تقريباً عن الاقطاعات الكبرى كبريتانيا وبورغونيا وارمانياك وفوا ولا سيما فلاندر التي حرصت اكثر من اية مقاطعة اخرى ، بفعل مركزها الجغرافي البعيد عن المركز ، على اسناد سياستها الخاصة الى استقلال وسائل عملها والتخلص جهدها الامكان من صلاحية البرلمان . وجاء التقليد ، كما هو طبيعي ، اكثر مطابقة وكالا ايضا في الاقطاعات التي سلخت آنذاك عن الاملاك العامة لمصلحة اشقاء ولي العهد المملوكين .

بدأت اقامة هذه الاقطاعات وكأنها تتنافى واتجاه الدولة نحو المركزية ، وغدت في الواقع خطراً كبيراً على الملكيات ، لا سيما في القرن الخامس عشر . خلعتما الماضي ، اي المفهوم البطريكي والاقطاعي الذي استندت اليه التيجان في القرن الثالث عشر . وكانت الغاية من العهد بها الى اشقاء اولياء العهد ارساخ نفوذ الاسرة المملوكة ، التي كان اقطاع املاكها ممكناً ، على الرغم من انها ممتنعة البيع أو الهبة مبدئياً ؛ وكانوا ينتظرون من هذه الفروع اخلاصاً اعظم ثباتاً من اخلاص ذوي الاقطاعات الكبرى الآخرين لانه قائم على روابط النسب . اما الجدة في القرن الرابع عشر فهي مدى هذه الانعامات التي كانت المضادة في فرنسا ، مثلاً ، كبيرة بينها وبين الاقطاعات الوضيعة التي أمنها القديس لويس وخلفاؤه الى اشقائهم : ارتوا ، افرو ، كليرمون ، برش . وفي ذلك العهد ايضا ، تقرر في فرنسا كذلك قانون عودة هذه الاقطاعات الى التاج في حال انقراض نسل الذكور في احد هذه الفروع . اضع الى ذلك ان هذا النظام قد شمل كافة انحاء اوربا ؛ فمنذ النصف الاول من القرن الرابع عشر انعم لويس دي بافير على ابنه لويس باقطاعة مزدوجة في « تيول » و « براندبورغ » . وفي فرنسا انعم جان له بون بنورمنديا على ابنه البكر ، المنعم عليه بمقاطعة الدوفينه من قبل ، ثم على لويس بانجو و « ماين » وعلى جان بيري وبواتو واوفيرنيه ، بينما انعم شارل الخامس على ما عرف به من بصيرة وتحذر ، ببورغونيا على ابنه الثاني . وفي الوقت نفسه جعل ادوارد الثالث من ابنه البكر امير ويلز واكيتين ، ومن ابنه الثاني دوق لنكستر ، ومن الثالث دوق كلارنس ، بانتظار ان يجعل من ابنه الصغيرين دوق يورك ودوق غلوسستر . وفي الوقت نفسه تقريباً ، جعل شارل الرابع ايضا ، بعد ان امن خلافتها لابنه البكر فنسلاس ، من ممتلكاته في براندبورغ وسيليزيا اقطاعات لابنائها الثلاثة الآخرين . وقد نهجت هذا النهج بولونيا النائية نفسها ، اذ ان لادسلاس الاول جاجلون قد استصوب ،

ارضاء لانجاء ليتوانيا الخاص ولطموح ابن عمه فيتولد ، اقطاعه هذه البلاد .

ولكن صاحب الاقطاع ، في هذه الاراضي الشاسعة المسلوخة عن الاملاك العامة ، التي غالباً ما اضيفت اليها وراثات اخرى واقتناءات خاصة - ولتعد بالذاكرة هنا الى توسع سلالة بورغونيا المدهش - كان يحل محل الملك ويشرف وحده على الادارة المحلية ويحدث ، رغبة منه في مراقبتها وفي التملص من الرقابة الملكية ، اجهزة مركزية : مجلس ودويان ومحاسبة ، ومحاكم عليا احيانا . ثم جاء تحلي بعض الملوك الضعفاء عما تبقى من حقوق ملكية ، كالنظر في الدعاوى الاستثنائية ، او مداخيل الضرائب ، بكرس استقلال الامراء ويتيح لهم وضع يدم على موارد التاج : هذا ما توصلت اليه ، في فرنسا ، فروع بورغونيا وبوربون وبري واورليان ، وفي انكلترا ، فروع بوفور وغلوستر وپورك . وسبب ذلك ان اصحاب هذه الاقطاعات ، لا يزالون ، بفعل نسبهم ، قادرين على اعتلاء العرش احتلالا ، وعلى ارشاد الحكومة وتوجيهها في اغلب الاحيان . وقد شهد ذلك العهد ، لاسيا في فرنسا وانكلترا ، تعاظم دور ممثلي هذه الفروع في فترات قصور الملوك الشرعي سنا او عقلا . وقد ظهرت الوكالة العامة في فرنسا في عهد الملوك الاخيرين من سلالة « كاييت » ، ثم في اثناء اسر الملك جان ، وفي السنوات الاخيرة من ولاية شارل السادس ؛ وهو احد امراء العائلة المالكة ، من اصحاب الاقطاعات ، ممن مارس في أغلب الاحيان وكالة مجدية ومستقلة في مجالس اللنغدوك ؛ وحدث اتفاقا ان تولى الحكم في آن واحد خلال قصور شارل السادس وريشار الثاني عم كل من هذين الملكين ، فكان ذلك مقدمة للخصومات التي قامت بين فيليب الجسور وجان سان بور وبين لويس دورليان في بلاط شارل السادس ، وبين بوفور وغلوستر في بلاط هنري السادس الذي اضطر ، بعد عشرين سنة ، الى القبول بحماية ريشارد دي يورك . وكان هذا العهد عهداً مباركاً للامراء الذين لم يميزوا بين مصلحة التاج ومصالحهم الخاصة فتحولوا في آن واحد الى مدافعين عن « الملك العام » ، والى رؤساء احزاب . وهذا ما يفسر ، في فرنسا ، دكتاتورية آل ارمانياك ، وفوضى حكم جان سان بور ، وثورة سنة ١٤٤٠ التي انضم اليها ولي العهد لويس نفسه ، وقيام حزب « الملك العام » ، بعد ذلك ، و « الحرب الحقاء » ؛ وفي انكلترا ، تزامم اعمام هنري السادس وحرب الورود . وهكذا فقد انفق الامراء ، بلقاء منطقي لم يدر في خلد الملوك المقطعين ، وكبار الاسياد وادعوا بفرض وصايتهم على الملوك ، وهكذا آل انهيار النظام الاقطاعي الى قيام احزاب بقيادة النبلاء .

شكلت البورجوازية قوة اخرى وجب على مستلمي زمام السلطة
درر البورجوازية السياسي : ان يدخلوها في حسابهم ، لان دورها قد تعاظم باطراد في

مجتمع لم يتمكن من تقدير نموها واستدراكه . فهي وحدها من امتلك المال بوفرة ، ذلك المال النقدي الذي عز تداوله والذي كانت الحكومات بحاجة ماسة اليه لتحمل الاعباء المتزايدة الملقاة على عواقبها . ولكن البورجوازيين قد جمعوا ، اكثر فاكثر ، الى خبرتهم التجارية ، قيمة فكرية اكيدة ؛ فان المدن ، التي كانت مراكز حياة ادبية ومجهزة بمدارس مستقلة ، قد وزعت

المعارف القانونية بوفور . وضم اشراف المدن الذين سبق الكلام عن اتجاهاتهم الاوليفارشية ، احتكار الوظائف البلدية الى احتكار المال والمعرفة . وافت المقول تدريجياً مفهوم النظام التمثيلي في الجمعيات والمجالس التي تناقص عدد اعضائها تناقصاً متزايداً وفي مناصب القضاء التي تملأ بالانتخاب كل سنة من بين الاختصاصيين في أغلب الاحيان ، والتي اخذ تعيين الاعضاء فيها من قبل زملائهم انفسهم يحل تدريجياً محل نظام انتخاب معقد على عدة درجات ؛ وكان من شأن الاشتراك في الجمعيات ، كما كان من شأن ممارسة اعمال القضاء ، ان يعتمق نخبة اتقنت ادارة الشؤون العامة والاشراف على الأموال العمومية . وقد حدثت موارد البورجوازيين الخاصة واثمية مركزهم المادي الجماعي وخبرتهم الطويلة ، بالامراء ، منذ أمد بعد ، الى ضمان مساعدتهم والى الدفع بهم أحياناً الى اعلى مراتب مجتمع كانت الحواجز فيه بين الطبقات اشد هشاشة مما يعتقد الناس : فان ميشال دي لابلول ، حفيد احد بورجوازيي هل ، قد ارتقى الى اعلى درجات السلم الاجتماعي وامسى كونت سوفولك في السنة ١٣٨٦ ؛ كما ان كبريات العائلات البرلمانية في القرن الرابع عشر ، كمائلة « اورجون » وعائلة « دورمن » ، وقد انتسبت كلها الى البورجوازية ، كانت حلقة اتصال بين طبقة التجار والارستوقراطية التي جمعتها بها روابط الزواج والمصاهرة . لذلك لم يقف الملوك عند حد الاستدانة من البورجوازيين ، بل اسندوا اليهم وظائف مالية وقضائية ، وما كان احد ليدعش من ان يرى هؤلاء الموظفين الكبار في مجلس الملوك .

ألفت البورجوازية ، والحالة هذه ، بيئة ورأياً عاماً كان من الضروري اخذها بعين الاعتبار ابدأ واللجوء اليها او خشية معارضتها احياناً . اجل لم يتساو دور المجتمعات المدنية سياسياً في بلدان الغرب المختلفة . فاذا استطاعت مدن ايطاليا تحقيق نظام خليق بدولة حقيقية سياسياً واقليمياً ، واذا تحلت مدن هولندا بذهنية وحيوية اقتصادية استطاعت بواسطتها ، منفردة احياناً ، مقاومة اميرها ، ففي بلدان كثيرة وجدت المدن وسيلة دفاعها في التكتل : تكتل المدن الاسبانية ، وتكتل المدن « السوابية » ، وتكتل المدن التجارية ، مثلاً . اما في البلدان الاخرى فقد اسمعت صوتها بفضل اشتراكها في جمعيات الدول .

ان دخول البورجوازيات الحياة السياسية لم يرد ، والحق يقال ، طابعا جمعيات الدول انقلابياً دون طابع دخول الاشراف ، ومن الخطل في الرأي ان نرى في نمو جمعيات الدول ، الذي يتميز به القرن الرابع عشر ، تجديداً لا سوابق له . فالعرف الاقطاعي قد جعل من « المشورة » خدمة كان من حق السيد ان يطلبها ومن واجب التابع ان يؤديها . وكان من المؤلف ، من جهة ثانية ، ان يستطيع الامير دعوة من يتوسم فائدة في استشارته الى مجلسه . كانت جمعيات القرن الرابع عشر اجتماعات تضم البارونات والاحبار اولاً ، ولم تقر حضور البورجوازيين الا في عهد لاحق : ولما كان معظم هؤلاء خلانق الملك ، فان دورهم الطبيعي كان استشارياً او قضائياً محصوراً في قضية واحدة او عدة قضايا غالباً ما يكون موضوعها مالياً ؛ وكان الامير يجمعها حين يطيب له ذلك . وهو فقدان السلطة هنا وخطورة

الظروف هناك والاندفاع وراء شخصية فذة احياناً ما جعل بعض الجمعيات تخرج عن احترامها وبرزها الاولين . ويمكننا بصورة عامة ان نميز مرحلة تجديد ومرتد ، مسرحيين احياناً ، دامت حتى منتصف القرن الرابع عشر ؛ ثم فترة أقل نشاطاً تردّ في الأرجح الى استقرار السلطة العامة بعض الاستقرار ؛ وكانت الصعوبات المادية والسياسية اخيراً ، في النصف الاول من القرن الخامس عشر ، فرصة ثبتت فيه معظم الجمعيات اقدمها ؛ وفي الوقت الذي اخذت فيه النظرية الجمعية تتكون في الكنيسة ، كانت الروح السياسية قد تطورت تطوراً كافياً لان تدرك شكل الدولة التمثيلي .

يلاحظ في الواقع تطور تدريجي في نظام هذه الجمعيات الاجتماعي ونطاق نفوذها الجغرافي ، والدور المسند اليها . ففي مملكة واسعة الاطراف كفرنسا ، لم تعرف سوى جمعيات جزئية مختلفة حتى قيام « مجالس الطبقات » الاولى في السنة ١٤٨٤ ؛ ويمكن القول نفسه في هولندا البورغونية حيث تألفت مجالس الطبقات بإرادة الامير ، فارتست في محيطة فيليب له بون وحيزها شارل الجسور . ولم يجمع ملك اراغون يوماً مجالس تمثل مقاطعاته الاربع . اصف الى ذلك ان اشترك « العامة » لم يحدث الا تدريجياً في كافة البلدان ، وكان في البدء محدوداً ومتقطعاً تمليه الظروف ودور المدن . فان ايطاليا ، حيث بلغت الحياة المدنية نموها الاكمل ، لم تعرف عملياً جمعيات الدولة الا في الامارات ذات التقاليد الملكية : البيمون المتأثرة تأثراً بعيداً بالعادات الفرنسية ؛ ونابولي وسردينيا حيث افضى الوجود الاراغوني الى قيام جمعيات على مثال « الكورتيس » . ويرد هذا التنوع ايضاً الى الترددات التي ادت الى الجمعيات : فلم يخف مستشارو فيليب له بيل ارتباكهم في تنظيم الاستفتاءات القومية الاولى ، ويبدو ان تعيين الجمعيات الرسمية الاولى ، في عهد اولاده ، قد تميز بجو من الفوضى الشاملة ؛ وحتى اواسط القرن الرابع عشر ، ترك ملك انكلترا للمأموري الاحكام المدنية امر تعيين المدن الواجب استدعاؤها الى المجالس . فحدث في فرنسا ، اثناء الاضطرابات ، ان عبر النبلاء ، بعد وفاة « فيليب له بيل » ، ثم البورجوازيون ، عشية هزيمة بواتيه ، عن تصميمهم على اسماع صوتهم . وجرت الامور بصورة مماثلة في اسبانيا والامبراطورية وبولونيا والبلدان السكندنافية . وكان قد سبق لانكلترا ان عرفت هذه التخلجات في القرن السابق ؛ ولكن قدم خبرتها التمثيلية قد ساعدها على ان تحدد تدريجياً طبيعة برلمانها ودوره : فجاء مثلاً « لمجلس الملك » يتميز بالمعظمة ، ينضم فيه البارونات المعلمانيون والكنسيون الى المستشارين الاعتياديين ، ولكن يدعى اليه عادةً ممثلوا اشراف ، الكونتيات والبورجوازية المدنية ايضاً ؛ فتحدد بذلك قبل آخر القرن الرابع عشر واقمع وصلاحيه مجلسي اللوردات والعموم . الا ان الجمعيات لم تلتئم في اي بلد التماماً دورياً ، اذ كان للامير دون غيره حق الحكم في ملاءمة اجتماعها .

ان طبيعة المعاضل التي بررت هذه الاستفتاءات تتيح تبين طابع الامية التدريجية الذي ارتدته الجمعيات التمثيلية . فقد قضى تقليد خدمة « المشورة » بان لا ينحصر بحث المسائل

الخطيرة في اطار المجلس الملكي المحدود نسبياً ، والخلافة في الملك من امها خطورة . وان اقالة ادوارد الثاني ملك انكلترا في السنة ١٣٢٧ ، الذي اقره حزب البارونات الثائرين ، قد اعتبر وكأنه عمل « ارفع البارونات مقاماً ومستشاري المدن الطيبة » : فقد اعلن احد الاساقفة آنذاك ان « صوت الشعب انما هو صوت الله » . وهي جمعية بارونات ايضاً ما وافقت في فرنسا على اعتلاء فيليب الخامس العرش في السنة ١٣١٦ ، وجمعية اخرى ما اعلنت حق فيليب السادس في استلام التاج ؛ وهو برلمان ما وافق في السنة ١٣٩٩ على اقالة ريشار الثاني واغتصاب هنري الرابع ؛ وبرلمان آخر ما التف حول ادوارد الرابع في السنة ١٤٦١ . وانما طلب ولي العهد شارل الى جمعية تمثل الاقاليم ، في السنة ١٣٥٩ ، نقض معاهدة لندن التي اقرها والده الاسير ، كما طلب الى الهيئات الكبرى التي تعتبر ممثلة للرأي العام - البرلمان ، الجامعات ، المدن الطيبة - ابرام معاهدة طروا في السنة ١٤٢٠ . وكذلك فان كبار الاسياد الاسبانيين الذين نادوا بالملك خلال الحروب الاهلية ، لم يقدموا قط على ذلك بمفردهم ؛ فان الممثلين (الكورتيس) الذين درج الملك على دعوة ممثلي المدن الى اجتماعاتهم ، قد اقروا ، نزولاً عند رغبة ألفونس العاشر ، سقوط حق اشقائه ولي العهد في الملك في قشتالة . وهم الكورتيس ، في اراغون وكاتالونيا ، من ابروما ، في السنة ١٤١٢ ، تسوية « كاسب » واستعانوا بعد ذلك على جان الثاني ، في برشلونا ، حيث كانت الكلمة الفصل لكبار التجار ، بمنافسين متعاقبين عديدين . وكان لكل من امارات الامبراطورية ال ٣٥٠ جمعيتها التي تبدي رأياً اثناء ازمات خلافة الملك . والتأمت كذلك الجمعيات الهنغارية والبولونية حين قرّر زواج بنات لويس دالنجو مصير البلاد . ودون ان نشدد اخيراً على دور الجمعيات الاسوجية الذي كان على جانب كبير من الامة في القرن الثالث عشر ، هل من حاجة بنا الى التذكير بان وحدة الممالك السكنديناافية الثلاث قد تمت بقرار اتخذته في كلار ، في السنة ١٣٩٧ ، مندوبو المدن والاكايروس والاشراف مجتمعين ؟

وغالباً ايضاً ما سنحت الفرصة للبورجوازيين باسماع صوتهم في معرض المعاضل المالية ؛ فهذه كانت المبرر الاساسي لدعوة الجمعيات ولتدخل اعضاءها المطرد في الشؤون الادارية والسياسية . ومماثلة هي الطريقة التي حملت الدول تدريجياً الى اناطة اقرار الضرائب بحق مراقبة توزيعها وجبايتها ووجهة استمالتها ، ثم الى فرض الاصلاحات الادارية ، واحياناً الى مراقبة مجلس الامير ، واخيراً الى سن الشرائع في موضوع تنظيم الدولة نفسه . وقد أثار موقف البرلمان الانكليزية مشكلة دائمة للبلاط ، حتى في عهد اشد الملوك حزماً : فقد اضطر ادوارد الثالث في السنة ١٣٤٠ و١٣٧١ ، في سبيل الحصول على مساعدات نقدية ، الى التضحية بوزرائه والرضوخ في السنة ١٣٧٦ لمطالب « البرلمان الطيب » ، الا انه لم يبر بعد ذلك باي وعد من وعوده ، او انه حمل جمعية اسلس انقياداً الى ابطالها كلياً . وحين حصل ريشار الثاني المستبد ، في السنة ١٣٩٧ ، على مساعدات نقدية لمدة ثلاث سنوات ، لم يفت البعض ان يذكره بمسأله القبول بالضريبة وبتخصيصها للحصري للنفقات العسكرية . وصنادف هنري الخامس الصعوبات

نفسها في تمويل فتوحاته في فرنسا وآمر الاستغناء عن البرلمان منذ ان استطاع الى ذلك سبيلا ، ما بين السنة ١٤١٧ والسنة ١٤٢٠ ؛ وقد حاول هؤلاء الملوك جميعهم ، توصلا الى اطلاق حريتهم في العمل ، الاستحصال على المساعدات بموافقة « مجالس لوردات كبرى » كانت استمالتها اقرب منالا . وهو البرلمان الذي كان الحكم بين الامراء المتقسمين على انفسهم في فترة قصور هنري السادس الشرعي ، مستقويا في موقفه بمحاجاتهم الدائمة الى المال . وحدث الشيء نفسه ، باولى حجة ، في ايام ولاية هنري السادس الشخصية .

اما في فرنسا فهي خطورة الهزائم العسكرية ما نقلت المجالس من الصعيد المالي الى الصعيد السياسي : وان في فشلها الاخير ، من جهة ثانية ، برهاناً ساطعاً على رسوخ التقاليد الملكية . فبعد كريسبي خاطبت المجالس ملك فرنسا كما لم يسمح احد لنفسه بمخاطبته من قبل : « بشن المشورة التي افقدتك كل شيء دون ان تكسبك شيئاً ... ان هذه المشورات قد اذلتك » اجل لقد حال الاخلاص للملك دون رفض المساعدة ، ولكن المساعدة خضعت لشروط . ففي السنة ١٣٥٥ ، نظمت المجالس الجباية بنفسها ، فحدثت جهاز « المختارين » وفرضت عقد جلسات منتظمة لتصفية الحسابات . وحدث ما هو اسوأ من ذلك بعد بواتييه ، اذ ان رأس المملكة آنذاك لم يكن سوى ولي عهد شاب في سن الثامنة عشرة لم تتمحن قوته بعد ولم يكن حوله سوى مستشارين عيب عليهم « استهتارهم واضاعتهم للوقت » . وعرفت فرنسا آنذاك ، في الوقت نفسه تقريباً الذي عرفت فيه روما « كولا دي رينزو » ، خطباء سياسيين قادرين على تهيب الجماهير : من امثال « روبير له كوك » اسقف لان ، وشارل « له موفيه » ملك نافار . وان « النظام الكبير » ، الذي اقر في اذار من السنة ١٣٥٧ ، والذي املته مجالس اللنغدوك ، لم يستهدف تقويم التجاوزات الادارية فحسب ، بل فرض مجلس وصاية على ولي العهد وعقد جلسات دورية على المجالس . اجل ان الحركة التي استندت الى حماس فئة من البورجوازية الباريسية فقط ، فشلت امام ارادة ولي العهد الحازمة ، واسدل الستار عليها بمقتل اتيان مارسيل . ولكن التجربة ستتكرر عند اول بادرة ضعف تصدر عن السلطة . فاضطر « اسيد زهور الزنبق » الى اراقة الدماء في قمع اضطرابات السنة ١٣٨٢ ، وكانت الحرب الاهلية ، بعد مرور ثلاثين سنة ، حافزاً للحركة « الكابوشية » . انضمت هذه المرة ، الى نقابة الجزائريين الباريسيين القوية ، الجامعة التي لم يقتصر نشاطها الاصلاحى على الكنيسة ، والتي ترقبت الخلاص من تقرب « جان سان بور » الى الشعب . ولكن البرنامج الذي تضمنه التنظيم الكابوشي قد اقتصر على اصلاح الادارة دونما تدخل المجالس في الشؤون السياسية : ويستلزم هذا الاصلاح احداث هرم من مجالس تنتخب اعضاءها ، وتبسيط وسائل العمل ، وتقويم الوضع المالي ، فتمتحقق بذلك ادارة سليمة للمصالح العامة ؛ واعتقد المصلحون بجمهورية من كبار الموظفين تنظم تنظيمياً منطقياً برئاسة الملك . وهذا ما سيبقى للملكية ، في نهاية المطاف ، اصلاح نفسها بنفسها دون التسليم باية رقابة .

اشد كذلك ، على نطاق اضيق ، في البلدان الاخرى ، دور الجمعيات السياسي . فان المثليين القشتاليين قد طلبوا من الملك ، في السنة ١٣١٥ ، بياناً بموارده ، دون ان يظهروا له عداهم ؛ ثم ادعوا ، في السنة ١٣١٧ والسنة ١٣٢٢ ، امام تكرر طلب المساعدات ، بمراقبة جباية الخدمات . كما ان الجمعيات ، في اراغون وكاتالونيا وفالنسيا ، وهي اعظم تطوراً منها في قشتالة ، قد درجت على تبيان وتدوين مطالبها الادارية والسياسية الخاصة قبل اي بحث في طلبات المساعدة النقدية ؛ وكان على الامير ، في كاتالونيا ، ان يقسم باحترام التدابير المقررة ؛ ولولا التباين بين نزعات مقاطعات اراغون المختلفة ، لما تبقى للملك اراغون سوى امكانات ضئيلة للنواورة .

لم تكن مطالب جمعيات المقاطعات بينة الاختلاف عن مطالب الصناعيين الذين سبق ورأينا ان هيجانهم قد عكس بين آن وآخر مدن ايطاليا وهولندا . اجعل ان الهيجان العمالي ، وهو اجتماعي اكثر منه سياسي ، قد استهدف في الدرجة الاولى القضاء على استئثار الاشراف بإدارة الشؤون البلدية . الا ان اتجاهه العميق كان مشتركاً مع اتجاه المجالس : فهو قد استهدف توسيع النظام التمثيلي وخدمة مصلحة الناهضين به . وان في مثل لياج ومثل برابان ، من هذا القبيل ، لدلالة كبرى على ما نقدم ، اذا اننا نرى فيها ، في آن واحد ، الحرف ترغم الاشراف على اشراكها في الشؤون البلدية ، و « البلاد » او الجمعيات تفرض على الامير الحد من سلطته ؛ ويتراعى في الحالين حرص ، يتميز به هذا العهد ، على اعطاء الدولة شكلاً محدداً .

عرفت مدن الامبراطورية وسياداتها تطوراً مماثلاً ، في القرن الخامس عشر . فقد توصلت المجالس هنا ، وهي شبيهة من حيث تكوينها بمجالس فرنسا ، ليس الى ادارة الضرائب التي تقرها فحسب ، بل الى اقامة رقابة على مستشاري المدن والامير والموظفين المحليين . واتضح في الممالك الشرقية كذلك مفهوم تمثيل البلاد كلها . ومن الغريب ان يقال في بولونيا مبدأ ، ولى زمانه في الظاهر ، ولكنه ينطبق اجمالاً على نزعات العهد ، اعني به مبدأ الشخصية القومية بالاضافة الى فكرة التمثيل وفكرة رقابة السلطة : ففي مجمع كونستانس دافع رئيس جامعة كراكوفيا ، « ضد التوتون » ، عن حق الشعوب ، حق الوثنية منها ، في استقلالها الاقليمي . وهكذا تم اللقاء بين الاراء الجديدة حول نظام الدولة وبين القوميات الناشئة .

تزعزت اركان الدولة بتفكك الاطارات الاجتماعية التقليدية فاخذت الدولة تبحث عن نظام

تبحث عن قواعد جديدة ؛ وتوجب عليها ان تنتظم بغير توسيع رقعتها والقيام بالاعباء المعقدة التي لم تكن هي مهياً لها . وكانت العقبات كثيرة في طريقها : عقبات تقنية - هزال الوسائل الادارية والعسكرية ونقصان الموارد - ؛ واجتماعية - المنافسة بين مصالح الاكليروس والمدن والتبلاء والامراء - واقتصادية وعسكرية . ففي سبيل تذليلها ، انبرى رجال القرن الرابع عشر ، في هذا النطاق كما في نطاقات اخرى كثيرة ، يمزنون كي يتمكنوا من التحديد ، ويحللون الناحية الخاصة كي يتمكنوا من اعداد العدة للمستقبل .

سار الاتجاه العام نحو جمع الاراضي ومركزية السلطة بخطوات تدريجية متعاقبة ، فعدت
اولا من عدد الاقطاعات التي استبدلت بدول صغيرة اقل عدداً : الامارات الاقطاعية المنشأ في
هولندا والمانيا ، واقطاعات امراء العائلة المالكة في فرنسا وانكلترا ، وديمومة قيام الممالك
الايبيرية والشرقية ، وسيادات الامراء او المدن في ايطاليا ، والمقاطعات السويسرية . ويسدو
انهم لم يتصوروا سوى دولة وضيفة الابعاد تتلامم ووسائل المواصلات والعمل التي كان من شأنها
آنذاك تأمين وحدة قيادة قوية . فكانت الدولة القشتالية او البرتغالية ، والامارات النيرلندية
على تنوعها ، والدوائر الانتخابية الالمانية تمثل خير وحدة سياسية يسهل حكمها . والى هذا يرد في
الارجح ان مملكة اراغون حافظت على هيكلها الرباعي وان ميلانو والبندقية ودول الكنيسة
ونابولي قد اعتدلت ، وان قيام اقطاعات امراء العائلة المالكة في فرنسا ربما كان اكثر مطابقة
لاقتصاد لا يزال اقليمياً . ولكن الاتجاه الى المركزية ، في فرنسا وانكلترا على السواء ، مالمث
ان تغلب على هذه الاتجاهات المختلفة ، فيما بحثت الدول الاخرى عن تلاحها بوسائل قريبة جداً
من النظام الاتحادي : كحالات الوحدة الشخصية بين ممالك اوروبا الوسطى التي سبقت الاشارة
اليها ؛ ووحدة السكندينايفيين التي عرفت البقاء ، وتبسيط الامارات الايطالية ، وتكتلات
المدن والمقاطعات .

ورافق الميل الى التبسيط ميل الى التحديد : فبينما كان رجال القانون يجمعون العادات
والاعراف ، كان رجال السياسة يشترعون القوانين والانظمة ويضعون الدساتير ، ويجيز لنا
استمرار عملهم ان نرى فيه واقعاً شاملاً . لم ير القرنان الرابع عشر والخامس عشر اقتضاح
الاطارات والاعراف الادارية في الملكية البابوية والملكيات الفرنسية والانكليزية والاسبانية
وبعض الامارات العظمى كبورغونيا ، فحسب . ولم يحققوا فقط عملاً تشريعياً ينطوي على كثير
من الاعادات على كل حال : قوانين ملوك فرنسا ونظم ملك انكلترا التي اقرها البرلمان . فان
مباداهات جزئية او شاملة منبثقة من مطالب الجمعيات التمثيلية او من حسن استعداد الامراء قد
اخذت تجهز الدولة بنصوص نظامية . لقد سبق وتكلمنا عن قشل « النظام الكبير » (١٣٥٧)
او النظام الكابوشي (١٤١٣) في فرنسا ، ولكن مؤلف « حلم البستان » قد حاول ان يحدد ،
خدمة لشارل الخامس ، دور الملكية في الدفاع عن « الخير العام » ، بيتما تغنت « طريقة انعقاد
المجلس » (التي تعود الى اواخر القرن الرابع عشر) ثم « محاسن شرائع انكلترا » و « حكم
انكلترا » للسر « جون فورتسكيو » بملكية انكلترا القوية التي تلتها المؤسسة البرلمانية والحق
العام . اما كتاب « الاحزاب السبعة » حيث قدم الفكر السياسي القشتالي برنامجاً استبدادياً
ابوياً ، فقد اكمله « البحث في مجالس الكورتيس » حيث وصف « جيم كاليس » ملكية مطلقة
تعتمد على جمعية ايضاً . اجل لقد منحت مجالس كورتيس القرن الخامس عشر الكاتالونية فكر
مؤلف القرن الرابع عشر ، وقد بحث المثل « الاتفاقي » ، الذي طلع به الاشراف البرشلونيون ،
في اختبار القوة ، عن التوازن بين سلطة الامير وتدخّل البورجوازية . ولكن انظمة كازيمير

الكبير (١٣٣٣ - ١٣٧٠) قد حددت القواعد الادارية والسياسية لمملكة بولونيا ، في الطرف الثاني من اوروبا .

لمثل هذا الانشغال باستقرار السلطة استجاب اعلان « البراءة الذهبية » في السنة ١٣٥٦ . لا ريب في انها كرّست عجز الامبراطور ، ولكن فضلها يقوم في انها حددت مجال القوانين المرعية الاجراء . فقد عرف ، انطلاقاً منها ، من ينتخب ملك الرومان الذي يمارس وكالة الامبراطور في حال شغور مركزه ، واين ومتى وكيف يجري هذا الانتخاب . وعلى الرغم من ان ذلك لم يصبح تقليداً ، فقد عينت البراءة ايضاً للنتخبين واجب تقديم المشورة للامبراطور في جمعية سنوية . اجل لقد كان الجهود محدوداً ولكنه نم عن رغبة واضحة في تحديد الادوار . اما نص البراءة ، الذي وضعه امير مستنير هو شارل الرابع ، وقد وضع بالاتفاق مع الجمعية . ان الدساتير الاولى ، الخليفة بهذا الاسم ، قد تحققت في الواقع ، منذ القرن الرابع عشر ، في هولندا ، وطن كل مبتدع جديد . وتخفي اسمائها المختلفة ، مع بعض الفوارق ، وقائع متشابهة . ويبدو ان هذه البلاد قد نهضت ، بمدنها التي تميزت بروح بورجوازية متطورة جداً ، وباماراتها الاقطاعية التقليدية ، برسالة ايجاد حل لمعضلة توزيع السلطة . كان هذا الحل ، في جوهره ، اعترافاً ، يتعهد به الامير عند توليته ، بامتيازات جميع المقاطعات في الحقلين السياسي والمالي ؛ وكان في الدرجة الثانية قبولاً برقابة الجمعية على المجلس والادارة . فان « دستور كورتنبرغ » (١٣١٢) و « المدخل البهيج » (١٣٥٦) في برابان ، و « اتفاق فكس » (١٣١٦) و « اتفاق انجلور » (١٣٤٣) في لياج ، هي اقدم النصوص وافرها طابماً ميمزاً واطولها بقاء ايضاً ، حققها مجتمع متطور ، وبرهنت ، لاسيما في منطقة لياج ، عن وعي قومي بارز جداً . وان هذه النتائج التي احرزت في رقعة جغرافية ضيقة جداً ، تقع في مفترق اتجاهات متنوعة جداً ، تشرف الفكر السياسي في ذلك العصر . اجل لقد تمكنت السلطة ، في البلدان الكبرى ، من التملص من القيود التي حاولوا تقييدها بها . ولكنها قد ارغمت في النتيجة على ان تثبت فيها دورها ووسائلها . انها لمرحلة هامة في تاريخ اوروبا تلك التي بحثت فيها الدولة ، في آخر القرون الوسطى ، على الرغم من العقبات ، وربما بسببها ، عن تحديد واقعها مرة اخرى .

الفصل الرابع

نشأة الدولة العثمانية

كان الغزو المغولي ، والفتح الداوي الساحق الذي ادى اليه ، فجوة في كل من تاريخ الشرق الاسلامي وتاريخ شعوب روسيا ، بدونه لا نستطيع ان نفهم فهماً صحيحاً التطور الذي اخذت به هذه البلدان ، بعد ان ارتفع عنها كابوس الفتح وانحسرت الغمة التي نزلت بها ، إن لم نتبين جلياً الرصيد الكامل لهذه العملية الضخمة . وقد جاء هذا الانقطاع منطقياً اتفق مع الحركة التجديدية والنهضة الاصلاحية التي قامت بها اليونان ، اذ ذلك ، تجاه اللاتين ، وازدهار الدول البلقانية ، في هذه العطفة بالذات من تاريخ اوروبا الجنوبية الشرقية . انها لفجوة تضطربنا للعودة ، قليلاً ، الى الوراء ، لان مدنات الاجيال الوسطى المتعاطلة والمتراكبة بعضاً فوق البعض ، لم تعرف هذا التوافق الذي طبع الاحداث « العالمية » .

١ - الاسلام في عهد المغول

رأينا باية سهولة استجاب العالم الاسلامي واليسر الذي استقبل به الغزو المغولي الفتح المغولي فاستسلم له بكلية . ويمكن ان نجد سر هذا ، في الهلع الذي استحوذ على السكان ، والخور الذي وقع فيه واستسلم له اسياد العالم الاسلامي عندما اطلت عليهم جحافل الغزاة . فما من شيء مشترك بين هذا الفتح والفتح الذي قام به الترك من قبل ، وهم اقوام اعتنقوا الاسلام ، وسبق للعالم الاسلامي ان عرفهم عن كذب ، واستعملهم مرتزقة في جيوشه . وراح بعض المؤرخين المحدثين ينزلون باللائمة على الشعوب اللاتينية ، لانها لم تحسن الاستفادة من تحالفها مع المغول ان لم يكن لمحق الاسلام ، فاقله لتقليم اظافره . وقد جهلوا او تجاهلوا ان المغول انما عنوا ، في نظر معاصريهم ، فناء وإفناء كل حضارة او مدينة وقعت في طريقهم ، وانهم في الوقت الذي راحوا فيه يستعملون نصارى الغرب للقضاء على الدول الاسلامية كانوا هم يقومون بمذابح اجماعية

هائلة بين شعوب أوروبا الوسطى . فلندع جانباً هذه الاماني الخرقاء ، ولنحاول جهدها ان نفهم جيداً ما الذي عناه في الشرق الادنى إقامة النظام الجديد .

كوّنت البلاد الايرانية والعراق وآسيا الصغرى وما التحق بها من ولايات مسيحية توابع : امثال كيليكيا وجيورجيا ، منذ اواسط القرن الثالث عشر ، تحت إشراف الخان الكبير ، في الصين ، الدولة الايلخانية المغولية التي سيطرت على الربوع الخصبه الواقعة الى الغرب الشبالي من ايران . فالكلل الذي استحوذ على الغزاة بعد الفتح ، والانشقاقات التي شجرت بينهم ، والمد الشاسع الذي بلغته موجة الغزو ، كل هذا وما اليه ، اتاح للجيش الذي انكفأ الى مصر ان يتنفس الصعداء وان يعيد تنظيمه ليسترد الشام . والحدود التي قامت بين العالم الاسلامي والعالم المغولي ، انطلقاً من كيليكيا الارمنية ، كانت تتقاطع عند منتصفها مع الطرقات المؤدية الى الهلال الخصيب ، عند اعالي دجلة ونهر الفرات الاوسط . وكان من شدة الصدمة وعنفيها ان اصيبت جميع بلدان الشرق الادنى الواقعة من كلا طرفي هذه التخوم ، بهزة زعزعت منها الاركان وصدعتها . وهكذا طلعت فجوة قامت سداً منيعاً بين العالم الايراني او العالم الواقع تحت النفوذ الايراني (آسيا الصغرى) والعالم العربي . فالعراق العربي الصميم الذي دخل ضمن الامبراطورية المغولية ، اصبح ، منذ ذلك الحين ، فلاة باعدت بين قطبي العالم الاسلامي اذ ذاك : تبريز والقاهرة . وقد حمل الغزاة الفاتحون معهم الخراب ونشروا الدمار واسالوا انهرأ من الدماء ايناً مرّوا ، بحيث كان « السلام المغولي » اعجز من ان يزيل معالم هذا الدمار الشامل . كم من الرعاة الرّحل حلوا محل الفلاحين المزارعين . وقد قضى الفتح تماماً على فرقة الحشاشين التي كان نفوذها اخذ يميل الى الزوال ، كما أدّى الى القضاء على الخلافة الاسلامية التي كانت بالرغم مما حملته في اردادها الفضاضة من ابهة وجلال ، ترمز الى الوحدة الاسلامية . فلم ير احد اية اهمية لتعولها ، ولو صورياً ، الى اسباد مصر ، ولم يول احد هذا الامر اي اهتمام او اكرام . كذلك ادى الى تحطيم قسم كبير من الارستوقراطية العسكرية واضطر القسم الآخر للهرب والنجاة بنفسه . كل هذا جاء حافظاً على تشجيع الاخذ بالنظام الاقطاعي في البلدان الواقعة تحت السيطرة المغولية ، هذا النظام الاجتماعي الذي اخذت بوادره تبرز للعيان في القرون السابقة .

من مفارقات التاريخ المعجبية في هذا العصر ، هو ان مصر التي صار حكم المماليك في مصر الامر فيها لحكام وسلطين من انصاف البرابرة جيء بهم من اسواق النخاسة والرق القائمة في الاقطار المجاورة للبحر الاسود ، اصبحت الآن مناسط الأمل ، والملاذ المرجى ، والقبلة التي شخصت اليها العيون والابصار ، وقطب الدائرة في العالم العربي . فقد اقام فيها المماليك حكماً عسكرياً دكتاتورياً ، كثيراً ما تعرض للتمزق والإحن من جراء المشاحنات الداخلية بين الاحزاب المتطاحنة على السلطة ، تستثمر الى اقصى حدود الاستتار سكان البلاد وترهقهم بالابتزاز والاعتصار . وهي دكتاتورية صانت وحدة مصر ووحدة الشام ، وامدت الحكم بادارة حازمة ، وبالقوة والنظام مما افتقر الى مثله او الى بعضه ، الكثير من

البلدان المجاورة . ونقرأ خبر هذا كله بالتفصيل في هذه الموسوعات التي وضعها بعض علماء العصر وكتابه ، معظمهم من موظفي ديوان الانشاء كالقلقشندي الذي اعطانا في كتابه : « صبح الاعشى » وصفاً دقيقاً وصورة صادقة لهذا الوضع . فالجيش يعيش على الإقطاع يجبي رسومه وتجمع لصالح الجيش ، دون ان يقابلها ارض او املاك يستغلها لحسابه الخاص ، ودون ان يتسرب اي ضعف او وهن في اشراف الدولة عليه ، فقد كان الجيش صارماً على نفسه كما كان لا يعرف الشفقة او الرحمة مع الغير ، يسير على نظام دقيق آسر . ففي هذا العراك الذي اخذت مصر بتلابيبه مع الخطر المغولي ، لم تحتل على ابوابها احداً من هؤلاء المسيحيين الذين تركهم الايوبيون وشأنهم . فقد استأصلت شأفة الفرنجة من البلاد ، منذ القرن الثالث عشر ، وشأن الارمن من كيليكيا ، في القرن الرابع عشر ، ولم يبق صامداً في وجهها غير قبرص ، هذا الحصن البحري المنيح الذي هزى بهجمات المسلمين عليه والذي كتب له ان يبقى شوكة في جنبهم حتى القرن السادس عشر .

فإذا ما استطاعت دولة المماليك والنظام الذي اقامته في مصر ان تعمر وتعيش اكثر من ثلاثة قرون ، فبهضل الموارد الوفيرة التي امنتها التجارة الدولية للبلاد . ففي الوقت الذي ازدهرت فيه التجارة الايطالية في الشرق الادنى ، عادت مصر تلعب ، بالرغم من الاخطار التي تعرضت لها من جراء الحروب الصليبية ، ومزاحمة الطرق التجارية الواقعة تحت رحمة المغول او اشرافهم عليها ، دوراً هاماً . صحيح انه كان من الصعب عليها جداً المحافظة على المقايضات التجارية مع الغرب . غير ان تحكما المطلق بالحركة التجارية في البحر الاحمر والمحيط الهندي ، جعل من التجار المصريين ، سماسة ارياء ، أمنوا لدائرة المكوس ارباحاً طائلة ملأت خزينة الدولة بالمال وساعدت على ازدهار اسواق القاهرة ازدهاراً كبيراً وبعثت فيها نشاطاً بقي خبره حيناً في خواطر الناس يتذكرونه ابد الدهر . وليس المماليك بمسؤولين وحدهم عن استنفاد موارد الذهب لديهم ، وانتقال ذهب السودان الى الايطاليين ، عن طريق المغرب ، فيبقى في اسواق مصر ، نقد من النحاس الاحمر راح يفقد قيمته ويخسر من قوته الشرائية ، يوماً بعد يوم . وليس من غلطتهم وحدهم ولا هم وحدهم بمسؤولين عن هذا الخراب والدمار الذي نشره تيمورلنك ، في سوريا ، في منطف القرن الرابع عشر والخامس عشر ، وهذه الحروب المهنية التي شنوها ضده فارزحت مالية الدولة واهدتها بحيث راح السلطان برسباي يفرض احتكار الدولة لتجارة البلاد الخارجية ، ثم اضطر في نهاية الامر الى ان يتراجع عن تدابير التمسفية هذه امام احتجاجات التجار الصارخة . وليس من غلطتهم وحدهم اخيراً ، قيام جسر ، في اواخر القرن الخامس عشر ، للاتصالات المباشرة ، بين البرتغال من جهة ، والهند من جهة اخرى ، كان في اقامته ضربة قاصمة للاقتصاد المصري ، فجعل مصر هدفاً لاطماع الاتراك العثمانيين . ومع ان الفوضى فعلت فيهم فعلتها ، واتسمت ادارتهم بالخلل في نواح كثيرة ، فنظام المماليك لم يكن اسوأ من غيره من هذه الانظمة او الحكومات التي قامت اذ ذلك . فقد اضمحل وانهار

امام قوى فاقت اضعافاً ماتم له منها . واذ وجد نفسه وجهاً لوجه مع الدول الاوروبية التي كانت يومئذٍ في ابان تطورها وتكاملها ، وامام القوة العثمانية القاصمة النامية ، فأسقط في ايدي سلاطينه ولم يعرفوا كما لم يستطيعوا ان يجددوا من احوالهم واوضاعهم .

ومع ذلك ، فقد جملوا من مصر مباءة للفنون والعلوم ، ومشعلاً عالياً للدب . فالاسلام السني في مظهره الفلسفي والفقهى يسيطر بلا منازع على البلاد ، والنظام الذي اعلنه الفقيه الحنبلي ابن تيمية والذي واهم فيه بين الجندي وبين « الكاتب » والذي تمثل على اتمه في هذا التطور الذي خضع له الوقف ، زاد من تعصب المسلمين ضد الاقباط وغيرهم من الاقليات المسيحية واثار الكراهية والبغض ضد التجار الاجانب ، مع اشتداد حاجتهم اليهم ، الذين كانوا يتصرفون احياناً كالقرصان . وقد عمّ النشاط الفكرى في مجالات عديدة اخرى ، وهو نشاط تبلور عن ظهور مؤلفات موسوعية ، تعليمية ، اكثر منها خلقاً او تجديداً ، اتجهت ، على الاكثر ، من جمهور القراء العطاش للمعرفة . وانصرف اذ ذاك ، علماء اللغة واصحاب المعاجم الى وضع عدد من القواميس العربية الواسعة المستفيضة ، لا تزال المعول عليها حتى يومنا هذا ، بينما نشط العمل في تصنيف المؤلفات التاريخية ، حول التاريخ القديم والمعاصر ، من الذهبي (القرن الرابع عشر) ، الى ابن اياس (مطلع القرن السادس عشر) ، الذي يوجد شبه كبير بين عمله هذا واليوميات التي وضعها معاصرون له من اهل البندقية . وبلغ هذا النشاط الذروة مع المقرئى ١٣٦٤ - ١٤٤٢ في كتابه « الخطط » الذي ذكر فيه ما يتعلق من الاخبار بمصر واحوالها المدنية والاجتماعية ، وقد برهن عن علم واسع ونشاط جم ، وحب اطلاع شامل تناول معه الكشف عن آثار البلاد وخطط القاهرة ، ومبانيها ، ووصف النقود المستعملة ، والابوثة والاقليات الدينية ، هذا اذا ما ضربنا صفحاً عن اصحاب الموسوعات ، كالنويرى (القرن الرابع عشر) وجلال الدين السيوطى (القرن الخامس عشر) واميرجاه المؤرخ والجغرافى ابو الفداء (القرن الرابع عشر) . وفي مصر وضعت نهائياً في شكلها الحاضر القصص الشعبية المستمدة مادتها من جميع البلدان الاسلامية ولا سيما كتاب الف ليلة وليلة منها ، الذي ترجع منابعه الاولى ، الى بلاد فارس قبل الاسلام ، ثم زيدت عليه اضافات جديدة في بغداد .

برهن الاسلام ، في البلدان التي وقعت تحت الفتح المغولى بوجوه شتى ، عن
ايران المغولية
نشاطات وحيويات متنوعة ، لم تقل قط عما تم له منها في دولة المالك في مصر . فهؤلاء المغول الغزاة الذين سايروا جميع الاديان ، في بدء امرهم ، اخذوا منذ اواخر القرن الثالث عشر ، يمتنقون الاسلام ، بتأثير مزدوج من النسبة العالية للسكان المسلمين الذين خضعوا لهم ، وبدافع من التركمان الذين تمازجت معهم وانصهرت بينهم ، اولى القبائل المغولية التي دخلت ايران . فقد برهنوا عن تساهل عظيم امام جميع الاديان والمعتقدات ، دون ان يفرقوا عند اعتناقهم الاسلام ، بين الشيعة والسنة . ولم يخل هذا الوضع بالذات ، من بعض الاثر

على الاسلام ، اذ فقد شيئاً كان يجعله في اعين الآخرين ، الدين المميز او المفضل . وهكذا عظم شأن الشيعة وكبر وتطور ، بحيث اصبحت الشيعة ، بعبء ذلك بقرنين ، المذهب الرسمي في ايران .

وعلى عكس الغزو التركي ، لم يتسبب غزو المغول عن اي تمييز يذكر في البلاد التي اخضعها لسيطرته ، من الوجهة الاثنوغرافية . فاذا ما حصل شيء من هذا ، فقد جاء من قبيل هذه المفارقات الغريبة لصالح الاتراك انفسهم . فقد دفع المغول امامهم ، عدداً من الاقوام والشعوب التركمانية لم يلبث ان أُلّف معظمها وحدات تمازجت بالجماعات المغولية الغازية ، التي غطت بمدها العرم ، آسيا الصغرى وارحاء روسيا الجنوبية ، فأمدتها بموجة جديدة من العنصر التركي وصبت فيها دمًا جديداً . وبالنظر لنظام العيش الواحد ، استطاع التركان ، اكثر من اية قومية من هذه القوميات التي وقعت تحت الفتح المغولي ، ان يؤثروا على المغول تأثيراً اكبر من اية تأثير تم لاي عنصر اثنوغرافي آخر ، وراحوا يمتصونهم ، ولم يبق على نقاء وصفاء عنصرهم ، بمعزل عن عملية التتريك هذه ، سوى بعض الجوالي المنعزلة . انه وايم الحق ، لمصير غريب تنتهي اليه هذه العملية الجبارة . وقد عُرف هؤلاء الاقوام ، في جنوبي روسيا ، باسم التتر او التتار ، وهو اسم عنى اذ ذاك وأريد به المغول ، بينما هم بالفعل قوم من الترك لغة وعرقاً ، ولهجة .

وليس من شك قط ان تنصل ، في مجالات الحكم والادارة ، بعض الخصائص والمميزات التي حملها المغول معهم من مواطنهم الاولى ، بينما تركت غيرها أثرها البارز حتى في مصر احياناً خلال عهد المماليك . علينا ان نتورع قبل أن ننسب او نرد لنظام المغول ، اي فضل في انشاء هذه الاتصالات البريدية ، ومصلحة المباحث والجاوسية التي انشأها . لم يكن في وسع هؤلاء الغزاة الضالعين الى ما فوق انوفهم في الهمجية والبربرية ، ان يقيموا مثل هذه المصالح . وهكذا لا نستطيع الى يومنا هذا ، ان نميز جيداً ، في النظام الذي وضعته الدولة الايلخانية ، ما هو من اصل ايراني ، وما هو من اصل مغولي او صيني ، وما هو من ابداع أصيل . وجل ما نستطيعه بهذا الشأن هو ان نتبين ، بعض ما استحدثوه ، في النظم القضائية والمالية .

فالادارة العامة بقيت في ايدي الوزراء وكلهم من سكان البلاد الاصليين ، ومن كل المذاهب كرشيد الدين الخطيب ، وهو يهودي اعتنق الاسلام ، وفيلسوف تعاطى الحكمة وتولى الصدارة العظمى للالخان غازان ، عام ١٣٠٠ . اما السلطان فقد احتفظ لنفسه بقيادة الجيش ، وبالقرارات السياسية الملزمة ، مستعيناً في عمله ، بارشادات المجلس الاعلى للمغل ، وسار على قانون جنكيز خان . وقد لفت انظار الناس الى بعض الاشياء الخارجية التي استحدثها كالفرمان (يارلخ) والانواط المعدنية التي انعم بها على بعض القادة ، والخاتم الذي تمهر به اوراق الديوان (الطرة) والذي يشبه شيئاً كبيراً الطغراء عند السلجوقيين . وبعد ان رُسخ النظام واستقرت أسسه ، كان على الدولة ان تسير وفقاً لمقتضيات الوضع الراهن . فالغرض الذي رمت اليه في الدرجة الاولى ، كان استغلالها للبلاد بالسيف والبطش والارهاب ، حتى اذا ما حلّ الرعب في

قلوب السكان بعد ان افقرت البلاد وجف منها الضرع وصوّح الزرع ، اخذت الحكومة المغولية بعد الانتهاء من عملية الفتح ، تتبع نهجاً ادارياً اكثر انتظاماً من قبل . وقد وفرت الفتوحات للدولة الايلخانية على قدر ما سمحت به التقاليد المرعية ، املاكاً واسعة وعوائد عينية وافرة . فاذا لم تجر الدولة تغييرات جذرية تقلب الاسس التي سارت عليها جباية الضرائب منذ عهد سحيق ، فالاصلاحات التي قامت بها ، وكلها مستوحاة من مغول الصين ، اي من المناهج الصينية ساعدت على وضع نظام مالي مبسط وفرت لها محصولاً اطيب من الواردات ، كل هذا لم يمنع قط الدولة الايلخانية من ان تجرد نفسها ، في اواخر القرن الثالث عشر ، عرضة للمصاعب ذاتها التي تعرضت لها الحكومات السابقة ، بعد ان زادت فداحة الدمار الذي اصاب جانباً كبيراً من البلاد ، وتكالب الحكام والقواد العسكريون ، على ابتزاز السكان واغتصابهم باسوأ الاساليب . فامام تدهور النقد ، والعجز الذي منيت به الدولة ، فمنعها عن تأمين مرتبات الجند ، راحوا يروجون في العالم الاسلامي ، العملة الورقية التي نجح استعمالها في الصين ، وهي محاولة كتب لها الفشل ومنيت بالخيبة لقلّة دربة القوم وعدم خبرتهم وعدم تهيئة الناس لها بصورة مرضية . وعمد السلطان محمود الغزنوي اذ ذاك الى ضرب عملة سليمة . ولكي يشجع الجند على استثمار الاراضي ، قرر ان يُقطع الواحد منهم اراضي واسعة . وهكذا عاد العمل بالاقطاع من جديد . ومع ذلك لم يستطيعوا ان يحولوا دون تدهور النظام . وقد قام الى جانب الاراضي التي وقعت مباشرة تحت ادارة الدولة ، امارات عدة اعترفت لها بالولاء والتبعية ، ومع ذلك لم تطبق هذه الاصلاحات تطبيقاً كاملاً .

من الفوائد التي ادّت اليها الوحدة المغولية ، إقامة علاقات اقتصادية مباشرة مع جميع ارجاء آسيا . والتسامح الديني والسياسي الذي عُرفت به هذه الدولة ، مكن لعدد من المرسلين من رهبانيات الدومنيكيين والفرنسيسكان ان يتوغلوا في اواسط آسيا وان يقيموا لهم مراكز للتبشير وابراشيات ، تناثرت جباتها من شطآن البحر الاسود حتى مشارف بحر الصين ، حتى ان قوافل من التجار الايطاليين ، انضموا ، لأول مرة في التاريخ الى القوافل الآسيوية التي كانت تجوب اقطار الهند والصين ، وتم تبادل الممثلين السياسيين ، بين بلاط المغول والدول المسيحية في الغرب . وقد نتج عن هذا ، بنوع خاص اتساع الافق امام الاتصالات البشرية ، كما وضع كثيرون من الرّحالة الغربيين ، اوصافاً مثيرة لهذه البلدان الجديدة التي وطأتها ارجلهم لأول مرة ، والتي كانوا يجهلون عنها كل شيء ، فظهرت لأول مرة في التاريخ كتب وصفية منها كتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين ، وهو كتاب أرخ فيه للفعل وملوكهم ، من جنكينز خان الى غازان ، وللفرس والخلفاء والملوك الصين وملوك الفرنجة .

لا بد من التنويه هنا الى ان هذه التجربة لم تعمر طويلاً . فلم يمر ثلاثة ارباع القرن حتى عادت آسيا الى الانقسام ، وأوصدت ابوابها في وجه الغربيين . ففي عهد الوحدة لم تكن طرقها مأمونة المسالك ، اذ ان الحروب التي قامت بين الممالك المغولية جعلت سالكها في خطر .

كذلك من الصعب ان يكون المرء له فكرة ، ولو تقريبية ، عن الحركة التجارية التي ساهم بها بعض التجار الايطاليين . وبما لا شك فيه ان الدولة الايلخانية شهدت هي نفسها حركة تجارية اقوى على الطرق التجارية القديمة الا انها عجزت عن ان تعيد الى نشاطها السابق ، الحركة التجارية في المحيط الهندي بعد ان اخذت مصر تسيطر عليها اكثر فاكثراً . وقد استقر رأياً يوماً على ان تهاجم الاسطول المصري العامل من قواعده ، في المحيط الهندي ، وهي خطة لم تر النور ، وان كانت استخدمت لها بحارة إيطاليين من مدينة جنوى . وعادوا الى استعمال الطرق التجارية التقليدية : فالجانب مرفأ طرابزون ، نشأ الآن على شاطئ البحر المتوسط ، مرفأ أياس *suia* الواقع في ارمينيا الصغرى الخاضعة اذ ذاك للنفول . ومن بين الطرق التي فتحت ابوابها للتجارة جديداً ، مع انها سبق لها واستعملت بين حدود الصين ونهر الفولغا ، هذا الطريق الذي يصل بعد ان يحتاز شمالي بحر قزوين والتركستان ، بين البحر الاسود والصين ، ماراً بالاقطار الخاضعة للقبيلة الذهبية . وكانت المنافسة بين هذه الطرق على اشدها ، كما كانت على مثل هذا الوضع ، بين الممالك المغولية نفسها التي تسيطر عليها . وهذه المنافسة حالت دون حصول الممالك على ما يرغبون فيه من الرق ، من اسواق القوقاز . ولذا راحوا يحاولون الاتصال مباشرةً بالبحر الاسود وما يقع حواله من الاقطار ، عن طريق المضائق ، بالاتفاق مع بيزنطية ، وعلى اساس من التعاون والتفاهم مع الجوالي الايطالية المقيمة في جزيرة القرم .

فالفزو المغولي لم يُلشع مع ذلك ، اي خطر يذكر بالحركة الادبية . فالشاعر سعدي انهى حياته المديدة في ظل ملوك شيراز الدين كانوا خاضعين للنفول . فاللغة العربية لم تبق اللغة الدارجة او المستعملة للتفاهم ، والمؤلفون ، كما في مصر ، كتبوا في كل شيء ، كتنصير الدين الطوسي احد علماء الشيعة الاعلام ، في القرن الثالث عشر (١٢٠١ - ١٢٧٤) الذي اسس مرصداً فلجياً في مراغا بامر هولاء ، وحمد الله المستوفي ، من رجال القرن الرابع عشر . وقد اثر اتساع افق العلوم الجغرافية تأثيراً بالفاً على المؤرخين . فقبل رشيد الدين ، رأينا علماء الدين عطاء الجويني ، وهو مؤرخ ووال من ولاة الفرس من اصحاب الثقافات العالية ، يضع تاريخاً موضوعياً لطائفة الحشاشين ، والمطران السرياني ابن العبري ، الذي عرف ان يوفق في مؤلفاته ، بين التقاليد المسيحية والاسلامية ، وبين العربية والفارسية . وامام نواب هذا الزمن والهن التي نزلت في الناس ، نرى الحياة الدينية ، تميل لدى السنة والشيعة ، على السواء ، نحو التصوف ليس على طريقة كبار المفكرين ، بل بالاحرى ، عن طريق تكاثر رجال الله والاولياء الذين راحت التقاليد والاساطير الشعبية ، تنسب اليهم المعجزات والحوارق ، او عن طريق حلقات الدراويش الذين حاولوا ، باعمالهم وحركاتهم ، ان يتصلوا بالالهية مباشرة . وقد كان هؤلاء الدراويش على جانب كبير من الجهل فيحاولون ، عن طريق الاستجداء او بوصفهم اعضاء في جمعيات الاولياء ان يستغلوا شعائر الطبقات الشعبية البسيطة ، فجمعوا كثيراً من الوقوفات والاعطيات . يجب الا نغفل هنا عن ذكر الجهود التي قام بها الفرس لنشر الاسلام في قلب آسيا ، بعد ان اعتنقه عدد كبير من المغول والصينيين ، ولا تزال ذرايرهم على هذه العقيدة ، حتى يومنا هذا .

والتقاليد الفنية التي عُرفت في عهد السلجوقيين ؛ زادت غنى ؛ إثر الاقتباسات التي اخذتها عن طريق الاتصال بالماليك والمغول . الا ان هذه الاقتباسات قلما تراها تبرز ، في هذه المباني الهندسية الجميلة التي تم انشاؤها اذ ذاك كمدفن اليلخان اولجيتو في عاصمة سلطنته ، في اذربيجان ، وفي مسجد فيرامين الى الجنوب من طهران ، او مسجد يزد الذي شيده احدى الامارات المحلية ، ورسوم الزينة والزركشة والتحلية التي اُكثرت من استعمال الفن المقرنص على شكل نخاريب النحل ، او القاشاني الازرق ، الذي استعمل بلاطاً لغرض الجدران بما عليه من رسوم نباتية ، بعد ان جودّ صنعه عمال مدينة قاشان في إيران الوسطى . اما التجديد ، فقد تناول على الأخص ، فن تزويق المخطوطات ، وذلك بفضل ما تم من اتصال بالفن الصيني . وقد عرف الفنانون الايرانيون ان يتفننوا كثيراً في هذه الصنعة فاكثروا من استعمال المناظر الطبيعية والصور البشرية على تنوع بديع في الألوان وتناسق جميل ، بحيث يز الايرانيون بهذا الفن ما عُرف من مذاهب التزويق ليس في العالم الاسلامي فحسب ، بل ايضاً جميع ما بلغ اليه هذا الفن في الغرب خلال هذه الحقبة بالذات .

وكغيرها من الدول المغولية الاخرى - باستثناء القبيلة الذهبية التي سُمّرت وقتاً اطول ، فلم تتجاوز الدولة اليلخانية ، القرن الرابع عشر . فالى جانب الانقسامات الداخلية التي وقعت في قلب هذه الدولة فعملت كل نشاط فيها وثلت كل حركة ، عجزت عن صهر القبائل المغولية في بوتقة واحدة ، بعد ان قلّ عددها ، فعادت الى حياة البداوة القديمة . ولم يعد داع الفتح يدعوم للاتحاد مع عناصر السكان الاخرى . وقد حال الرجوع الى حياة البداوة ، في بعض الولايات ، دون الابقاء على ادارة مالية صحيحة تؤمن جباية الضرائب والرسوم المفروضة على مرافق الزراعة ، واكسبت القبائل التركمانية والمغولية والكردية نفوذاً فاق بكثير النفوذ الذي تمتع به « الجيش النظامي » . فابنما جاء المغول اقل نسبة عديدة ، برزت المطالب القومية في الولايات ، وقام يغذيها فريق من ذوي الأطماع . وهكذا لم تلبث الدولة اليلخانية ان توزعت الى دويلات وامارات ، صاوقسم منها الى ابناء البلاد ، كما صار القسم الآخر الى امراء التركان او المغول . فقد سيطر التركان في الولايات الغربية ، واصبح شمالي العراق واذربيجان وارمينيا طوال قرن واكثر ، مسرحاً لمنافسات دامية بين الاتحادين المتخاصمين هما : « الخروف الاسود والخروف الابيض » ، فكان احدهما على المذهب الشيعي ، كما كان الآخر على المذهب السني - وهي منافسة احتدمت واستطالت ، فأثرت من بعض النواحي ، على تكوين الدولة العثمانية ، وعلى إنشاء إيران الحديثة . اما ما تبقى من ايران ، فقد بقي سائراً وفقاً للتقاليد التي عمل بها من قبل ، ولم يخرج عن الصدد الذي رسمته له الدولة اليلخانية الا في التقسيم السياسي الذي اصاب البلاد اذ ذاك .

كان الاسلام قد سيطر على دول اسلامية اخرى ، تقع الى ما وراء تخوم الدولة اليلخانية ، امثال دولة جاغاناي في

الدول المغولية الاسلامية الاخرى

التركستان ، ودولة كانشاك او القبيلة الذهبية في روسيا ، ولكن ليس كما هي الحال في ايران تحت تأثير سكان البلاد الاصليين الاكثر عدداً نسبياً ، ولا تحت تأثير الاتصال بالترك الرُحَّل ، اذ ان قبائل التركان التي استوطنت هذه المناطق ، كان اعتناقها للاسلام لم يزل جزئياً ، وطري العود . ان انتشار الاسلام بين البدو الرحل في هذه الفلوات ، الذي كان ابتداءً منذ عهد بعبيد استمر بعد الغزو المغولي ، واشتد على الاخص بين المغول ، اذ رأوا في هذا التضامن الديني الملاط الذي يؤلف الوحدة العضوية التي اتاحت لهم ان يتحكموا في روسيا ، وباقوام الروس الوطنيين ، الذين كان اعتناقهم للمسيحية سطحيًا . ومما يكن ، فان اعتناق سكان هذه القبائل للاسلام ، سجل في عهد المغول ، خطوات حاسمة لا تزال آثارها باقية لليوم ، في هذه المقاطعات الواقعة ضمن الاتحاد السوفياتي اليوم . فلم يتسبب عن هذا الارتداد ظهور مراكز قومية للثقافة الاسلامية ، ووحدة العقيدة ، لم تعد شيئاً في حفظ الوحدة السياسية . ان مغول القبيلة الذهبية ، الذين اتخذوا عاصمة لهم مدينة سرائي الواقعة على نهر الفولغا السفلى ، دانوا ببقائهم الى القرن السادس عشر ، لعدم قيام خصم قوي في وجههم . اما مملكة جاغاتاي ، فقد دُكت معالمها واستحالت رماداً منذ اواسط القرن الرابع عشر .

الهند الاسلامية
ترك الفتح المغولي أبرز آثاره وأعماقها على الاطلاق، ولو بصورة غير مباشرة، في بعض البلدان الواقعة وراء حدوده ، ولا سيما في الهند وآسيا الصغرى . استطاع خلفاء الدولة الغزنوية الذين دوّخوا المقاطعات الواقعة الى الشمال الغربي من الهند ، ان يضيفوا الى هذه الولايات، تبعاً ، منذ أواخر القرن الثاني عشر حتى مطلع القرن الرابع عشر، حوض نهر الغانج والبنغال والقسم الاكبر من الدكن ، فكادوا يحققون بذلك وحدة الهند التي مزقتها المشاحنات الداخلية وعرضتها للانقسام . وهكذا ففي الوقت الذي توقف فيه الاسلام عن التوغل عمودياً ، راح يتسع افقياً بفتوحات جديدة . رأينا رد الفعل الذي قام به سكان البلاد الوطنيين ، امام هذا التوغل الديني البطيء ، وكيف انهم انكفأوا على أنفسهم ، واستمسكوا بضراوة ، بحضاراتهم القديمة المتحجرة . وقد فرض الاسلام على هذه الجماعات التي كانت أقل تطوراً سياسياً في أوضاعها ، ما كان له من تنظيم أسمى ، ونظامه العسكري القوي ، ومذاهبه الضرائبية التي كان اقتبسها من العالم الاسلامي ، في الغرب . وقد تمكن أتباعه في الهند ، بعد ان استقرت أوضاعهم ، ان ينشئوا مركزاً للاشعاع الحضاري ، لم يبق بدون تأثير على الهنود الذين ما لبثوا مستمسكين ، بمجل دينهم ، كما هو شأن من كان منهم في وادي الغانج او السواد الاعظم من سكان الدكن . فغزو المغول شجع هذه الحركة وبذلك نجحت الهند نهائياً من كلوس الفتح وان لم تنج من غزواتهم ، وأصبحت ملاذاً للايرانيين وملجأ لهم . ولذا جاءت الثقافة الاسلامية في الهند ثقافة فارسية الطابع ، ايرانية السمة ، على مذهب السنة ، اذ ان المغول في ايران كانوا حماة الشيعة . وقد طلعت علينا في هذا العهد مؤلفات مهمة ، منها تاريخ الدول الايرانية والاسلامية في الهند ، الذي وضعه الجوزجاني ، في القرن الثالث عشر ، والقصائد التي وصلت اليها من نظم

أمير خسرو . وعلى عكس ذلك فالفنانون الوطنيون الذين كانوا في خدمة سلاطين دهلي ، لم يقتبسوا من إيران سوى رسوم تزيينية ثانوية ، والمدافن والمساجد التي أنشأها جاءت كلها على طراز هندي .

قد كان للفتح المغولي ، تأثير بالغ على آسيا الصغرى ، اذ هيا لها - ولو من آسيا الصغرى بعيد - الظروف المساعدة لبروز الدولة العثمانية وتطورها . فبعد ان نال المغول من سلجوقي بلاد الروم ، لم يعمدوا قط للقضاء على حكومتهم وتشكيلاتهم الادارية ، بل فرضوا عليهم الولاء والتابعة ، وألزمهم بتحمل القسم الادنى من أود جيشهم . وقد ساعد هذا النوع من الحماية التي أقاموها ، على شد أواصر العلاقات ، بين السلجوقيين وبين إيران ، كما ساعد ، من جهة ثانية ، على نشر الاشعاع الثقافي الايراني في ديارهم بعد ان اخذت بوادر هذا الاشعاع تبدو للعيان في أواخر عهد الدولة السلجوقية . وهكذا استبطاع جلال الدين الرومي ، في القصائد الصوفية التي وضعها ، وهي من أروع ما عرف الادب الفارسي من نظم ، ان ينشر عن طريق فرق المولوية ، النزعات الصوفية التي حملها معه من خراسان ، قبل ان يحقق المغول فتوحاتهم الداوية . وهكذا افترشت ارض آسيا الصغرى بالكثير من المساجد والمدارس التي شجع على بنائها وتشيدها الوزير فخر الدين علي ، فازدانت بها معالم كل من قونية وسيواس واماسيا ، ضاربين صفحاً هنا ، عن ذكر الأضرحة والخانات العديدة . وقد أفادت بلاد الأناضول ، ولا سيما مدينة سيواس التي قامت على مفترق الطرق التجارية ، من هذه الحركة التجارية التي نشطت في المرافىء التي أفضت الى الدولة الايلخانية .

ومع ذلك ، فالمغول مسؤولون ، الى حد بعيد ، عن زوال تركيا الاولى ، من مسرح التاريخ . فالاندحار الذي لحق بهم ، والمشاحنات الداخلية التي قامت فيما بينهم ، والذهاب كعادتهم ، الى تبريز ، للظهور في بلاط سلاطينها ، كل ذلك بالغ في انهاك السلطنة واهانها ، ففضى عليها وأزالها من الوجود ، في مستهل القرن الرابع عشر ، دونما ضجة او ضجيج . صحيح ان المغول حكموا البلاد حتى عام ١٢٧٧ ، بواسطة سلجوقي ارستوقراطي هو البرفانة الذي حاول ، بجميع الوسائل ، ان يحافظ على التقاليد التي سار عليها الحكم السابق . الا ان مقتضيات الدولة الايلخانية ومتطلباتها الضرائبية ، حرمت هذه السلطة من وسائل العمل ، ولا سيما من جيشها الذي لم تقدم بديلاً عنه الا عندما كان الامر يتعلق بمصلحتها مباشرة . ولم يلبث البرفانة فخر الدين علي وغيره ان راحوا يقتسمون الولايات التي تألفت منها المملكة قديماً ، فيما بينهم . ومما أنكى من هذا كله وأهم هو ان التنسخ الذي صارت اليه السلطة ، أفادت منه المدن ومنظمات الفتوة التي بلغ من نفوذها في بعض مدن اناضوليا ، في القرن الرابع عشر ، ظهور منظمات ، شابهت من بعض الوجوه ، المنظمات التي قامت في الغرب تحت اسم Communes او بلديات ، والذي استفاد بالاكث من هذا الوضع هم التريكان الذين كان أصبح من الصعب ردعهم وكبح جماحهم في أواخر عهد الدولة السلجوقية . ففي الوقت الذي أمكن فيه السيطرة عليهم والحد من

شكيتهم في الولايات القلبية او الوسطى ، تمكنوا من التحرر في الولايات الدائرية ، حيث كانوا بمنزل عن كل رقابة في جبالهم الوعرة المسالك والصعبة المنال ، او كانوا يلوذون باللجوء الى داخل الاراضي البيزنطية . من بين هذه الامارات الاولى التي طلعت علينا هي امارة كرمان التي استمرت قائمة قرنين كاملين في جبال الطوروس . وقد قام التركان بثورة عامة استطاعوا معها الاستيلاء على قونية ، اتسهم البرتامة بتدبيرها فحكم عليه بالموت حالاً فحدثت ردة فعل لدى المغول الذين تسلموا الادارة وأدخلوا على البلاد بعض نظمهم الخاصة . الا انهم لم يأخذوا اجراءات جذرية ضد التركان القاطنين في الولايات الدائرية . وقبل غروب شمس القرن الرابع عشر ، قام عدد من الامارات الاخرى ، بعضها على الحدود البيزنطية ، أسس احداها الامير عثمان ، المؤسس الحقيقي لدولة الاتراك العثمانيين .

ان تحرر التركان واستقلالهم أدى الى نتائج مهمة جداً ، سواء في داخل آسيا الصغرى او في خارجها . فالنزعات الاجتماعية والصوفية التي برزت في الأوساط التركانية ، ساعدت كثيراً على ظهور طرائق دينية لاقت رواجاً اكثر مما لاقت المولوية ، منها مثلاً البكتاشية ، وهي طريقة لعبت دوراً بارزاً في التاريخ العثماني . لم يكثرث أسياذ اناضوليا الجدد كثيراً للثقافة الإيرانية التي لم تكن في نظرهم لتعني شيئاً كبيراً ، مع العلم ان هذه الثقافة الفارسية بقيت ذات تأثير عميق في البلاد مدة عدة اجيال . وهكذا لم تلبث ان اصبحت اللهجة التركية هي اللغة التي استعملت في هذه القصائد الصوفية او في روايات البطولة التي راحت تعجد انتصارات التركان . وهكذا كانت فترة الاحتضار الطويل التي مرت بها تركيا الاولى ، الفرصة المؤاتية للشعب التركي ليعي فيها نفسه ويستيقظ فيه الشعور القومي ، ويتعرف الى ذاته ، ويفقه حقيقته ، وهي يقظة شعورية كانت لها أهمية كبرى .

وفي الوقت ذاته ، بعث تحرر الامارات التركانية ، النشاط في قلب « الغزاة » وحملهم على الوقوف موقفاً خشناً من المسيحية البيزنطية . فأمام التخوم والحدود الخالية من كل دفاع يحميها ويقبها شر الغزوات ، راحت هذه الامارات الدائرية تقضم شيئاً فشيئاً من جنبات الامبراطورية البيزنطية ، يشد من ازرها عناصر تخلت عن مراكزها في قلب الاناضول الواقعة تحت سلطان المغول ، وأخذت تتجمع وتتراص ، ضامة بين صفوفها أنشط الوحدات التركية وأكثرها حيوية . وعندما انهارت الدولة الايلخانية ، لم يكن يوجد في المنطقة الواقعة بين الحروف الاسود وبين شواطئ بحر ايجه ، سوى جماعات تركانية ، خشنة ، كانت في سبيل انشاء كيان مختلف كلياً عما كانت عليه الدولة السلجوقية .

الدولة التيمورية
قبل ان تميل شمس القرن الرابع عشر الى المغيب ، تعرض الشرق الاوسط لهزات جديدة عنيفة زعزعت أقطاره وتركها خراباً يباباً . فن مملكة جاجاتاي التي فقدت كل سماتها المغولية وأصبحت تعبيراً عن هذه اللهجات التركية المحلية في أواسط آسيا ، لم يبق سوى معالم دمار مترام بعضاً فوق بعض . وهذه المدن الإيرانية التي كانت ،

فما مضى ، فخر البلاد ومنارها . عانت اذ ذلك ، من الاحن والحن ما لم تتعرض لبعضه من قبل . ومقاطعة خراسان التي بلغت شأواً عالياً من الازدهار ، فيما مضى ، اصبحت اليوم قفراً بقلماً بعد ان خربت فيها شبكات الاقنية الزراعية . والسكان بعد ان حصدم الفناء بالعشرات لشدة ما تعرضوا له من ضربات وويلات رزحوا تحت نير ثقيل من الاستثمار البشع والاستعمار الجشع ، على يد ارستوقراطية عسكرية تركية انشطرت شطرين متعارضين ، استمسك الاول بأعراف البداوة وتقاليدها ، كما حَبَدَ الآخر الأخذ بأسباب حياة الحضرة . ومن هذه التربة ، طلع المغولي التركي تيمورلنك او تيمور الاعرج ، هذا الغول الختول الاكول ، المتعطش دوماً للدماء والحالم بالحرية والاستقلال ، الحشن الملس والوحشي الطباع ، الا انسه من أنبغ من أطلهم التاريخ من رجال الحرب ، والذي عرف ان يجمع بين تقاليد جنكيزخان وفضائل الاسلام ، فجمع حوله جيشاً لجباً ، عرف ان يثير حماسه ويلهب خياله ، وراح على رأس هذا الجيش الجرار يزرع ، في اواخر القرن الرابع عشر ، هذه الرقعة من الارض الممتدة من أواسط روسيا الى شمال الهند ، ومن أقاصي حدود الصين حتى آسيا الصغرى والشام ، بالخراب والدمار ويسقيها بالدماء الحارة . وقد شعر هذا الفاتح المتبدي انه لن يتم له انشاء امبراطورية راسخة الاركان وطيدة الاسس والبنيان ، ما لم يقيمها على قواعد مدنية متينة ، وما لم يرتفع فيها للعلم والفكر والفرن حرمة وقباب عاليات وسلطان ، فعاثت عاصمته سمرقند عهداً من الازدهار والاشعاع الفكري ، لم تعرف مثله من قبل ولا من بعد . وراح يدافع عن الدين الحنيف ويرسخ اركانه واتخذ منه 'تكاة' ليتابع فتوحاته ، واعتمد في اعماله الحربية على نظام النقشبندية ، فادهش العالم وخبله بصواعق انتصاراته الساحقة وفتوحاته المدوية ، فالذين ترجموا له من الايرانيين ، اشادوا بذكوره كما اشادوا بالمآسي العظام والفتوحات العراض ، التي دوح فيها العالم كما ذكره بالتفصيل ، ابن خلدون الذي قابله بدمشق ، والكاتب الاسباني المسيحي كلافيخو وهذا الرجل الذي هزم امام انقرة ، من لم 'يهزم' ، وأرغم في التراب انف السلطان العثماني بيابيد ، كان اعجز من ان يأتي عملاً يصح مقارنته بالعمل الذي قام به جنكيز خان . فقد انك دولة الاتراك العثمانيين كما انك دولة المماليك ودولة دهلي في الهند . حتى في ايران نفسها حيث استطاع خلفاؤه ان يقيموا لهم دولة ومثلها في التركستان ، لم يستطع هو ان يقيم سلطة سياسية جديدة . وقد استعجم التيموريون بعد موته بقليل (١٤٠٥) وعجزوا عن ان يجددوا اياً من المؤسسات التي عمل بها في الشرق الاوسط ، من قبل . وقد شاءت الصدفة في الوقت الذي كادوا فيه يفقدون كل ممتلكاتهم ، ان تساعد احد خلفائهم على ان يؤسس في الهند ، خلال القرن السادس عشر ، الامبراطورية الموحدة التي عرفت بالمغول الكبير .

وقد اظهر تيمورلنك وخلفاؤه من بعده ، بذخاً كبيراً ، كما راعوا الآداب ، والفنون ، واتاحوا للفن الايراني ان يتطور ويتكامل ، وان يكمل الانجازات التي كان اخذها من قبل ، كهذه الابنية التي شيدت في سمرقند تخليداً لذكرى تيمور ، ولا سيما ضريحه : « غوري مير »

الذي تظلم قبة ضخمة زرقاء . وهذه البلاطات الزاهرة ، التي غصت بالفنانين والعملاء يقبها شاه رح ، وحسين بيكره في هراة ، وأولغ بك في التركستان . وازدانت مدن ايران الكبرى : كتهريز وشيراز ، بالمساجد والضرائح الضخمة ، ومسجد مشهد ، وهذه القصور والصروح الفخمة - اذا ما اردنا ان نأخذ باقوال الرحالة - التي سُيّدت في هذه العواصم التي اصبحت مشوى لحركة تجارية ناشطة . قامت هذه المباني وفقاً للطراز التقليدي وفرشت باحسن زينة تعلوها القباب ، وهي من مستحذات العهد . وجدير بالذكر هنا ما بلغه من زخرفة الكتب وتجليتها بالنقوش والرسوم . وقد اشتهرت مدرسة هراة العنية في القرن الخامس عشر التي اطلعت الفنان بهزاد (١٤٥٠ - ١٥٣٦) الذي عُرف بالرسوم والصور التوضيحية الدقيقة التفاصيل . ومن المخطوطات التي زينها بريشته : « تيمورنامه » و « البستان » لسعدي . وقد عاصر عصر البعث الايطالي . وارتفع رسم المناظر والمشهد والصور الشخصية ، الى الارجح . وقصد ازدهر الادب الفارسي بالروائع التي ظهرت في هذا العهد ، في التاريخ مير خاوند (١٤٤٣ - ١٤٩٨) الذي وضع : « روضة الصفاء » وهو تاريخ عام ، ونور الدين جامي (١٤١٤ - ١٤٩٢) وهو شاعر وفقه اسلامي . وهذه الجداول والزيغ الفلكية التي وضعها اولغ بك (او ألخ بك) تشهد عالياً على استمرار روح المعرفة . والجدير بالذكر هنا لدلالته هو ان الادب التركي اخذ في انطلاقة وثابة في مقاطعة جاغاتاي ، ولا يزال علي شيرنقاي ، يعتبر لليوم شاعراً وطنياً كبيراً ، في نظر تركان التركستان . وهي حيوية مدهشة برهنت دوماً عنها هذه الدولة الاسلامية التي عرفت ، على مدار التاريخ ، ان تجدد من شبابها ، بعد كل داهية دهاء تلمّتها ، او تقوم بفتح جديد مظفر . غير ان هذه الظاهرة كانت في التركستان كأنما هي بيضة الديك . فزوال الدولة التيمورية ، في اواخر القرن السادس عشر ، كان نذيراً بتغلب روح البداوة من جديد ، على تلك البلاد ، في الوقت الذي اقفر فيه طرق التجارة ومسالكها في هذه المنطقة ، واصبحت لا شأن لها بعد تلك الاكتشافات الجغرافية الكبرى التي جاءت في اخريات القرن الخامس عشر ، الامر الذي حمل معه نهاية المدن والحضارة التي كانت ازدهرت في هذه البقعة النائية على القارة الآسيوية .

وهذا الغرب الاسلامي الذي كادت تنقطع علاقاته مع مصر وبلدان

الغرب الاسلامي الشرق الادنى ، كان يعيش منكفئاً على نفسه ، مستمسكاً بعمرى حضارة بقيت مزدهرة ، مشرقة ، في كثير من جنباتها ، بالرغم مما تناوب عليها من المحن والاحن وتراكم عليها من الخراب والدمار فأقل نجمها وخبا ضوءها ، ولو جزئياً . فمعد هذا العهد حتى الفتح العثماني في القرن السادس عشر ، نرى المغرب الاقصى منقسماً على نفسه ، الى ثلاث دول او ممالك : هي مملكة تلسان ، في المغرب الاوسط ، التي صار الامر فيها الى قبائل بدوية رحل ، ضاربة في منطقة جبلية ؛ والدولة الحفصية (تونس وقسطنطينية) ، المستعربة ؛ والدولة المرينية (المغرب) قوامها البربر ، التي عرفت استقراراً أثبت وارسخ ، وبنيت لها حضارة جمعت بين طباع الريف والمدنية . اما مملكة غرناطة التي عرفت ان تحافظ على كيانها وقوامها حتى اواخر

القرن الخامس عشر (١٤٩٢) ، فقد اقامت لها علائق وطيدة مع دول افريقية اضفت عليها جميعاً ، كثيراً من التشابه والتجانس ، وكلها على المذهب المالكي الذي كان يدرّس في المدارس القائمة في تلك البلدان . وقد ازدهرت في هذه الممالك جمعيات دينية ، صوفية حظيت بنفوذ عظيم بين السكان ، بعضها من اصل شرقي ، كانت تلتف حول زاويتها .. وقد ازدهرت التجارة في جميع ربوعها ، عمادها القوافل السودانية التي كانت تحمل معها الذهب . كما كانت تعتمد على التجارة البحرية التي كان معظمها بيد الاوروبيين ، فتعرض من وقت لآخر لقراصنة الجزائريين والكتلونيين لها . وفي مثل هذا الوضع ظهرت بعض هذه الآثار الفنية تشهد عالياً على ما كانت عليه الحضارة الاسلامية في الاندلس .

في الطليعة من هذه الآثار ، يأتي قصر الحمراء ، في غرناطة ، عاصمة الدولة النصرية (القرن الرابع عشر) ، وقد فاق هذا القصر يجال هندسته وزخرفه ، ما شابه من المباني الهندسية الاخرى . وهو من هذه الآثار المعمارية النادرة التي وصلت الينا كاملة ، محفوظة ، تتمثل فيه ، الى جانب بعض العناصر الفنية المسيحية ، التقاليد الهندسية الاسلامية ، في ازوج ما بلغته من التناغم والتناسق والدقة ، ممثلة على اتمها في هو الأسود . ويذكرنا هذا الاثر المجيد بهذه الانشاءات الهندسية المستوحاة من الفن الاسباني ، التي تمت على يد سلاطين الدولة المرينية ، في المغرب ، منها مثلاً المسجد الكبير ومدرسة المطارين ، في فاس . فبالقاشاني ذات اللعان والبريق المعدني وبهذه المهارة الصناعية المستمدة من الفن اليراني ، وبهذه الاسلحة المشهورة ، ولا سيما سيوف بوعبدل ، وبهذه الجلود ، استطاع الفن الاسباني المغربي ، ان يبرز في هذه الحقبة مع انه اقل تنوعاً من الفن الشرقي ، انما من ذوق ارفع وارسخ ، وان يبقى ويخلد بعد استعادة الاسبان لبلادهم . وقد راح فنانون مسلمون يعملون لحساب ملوك اسبانيا ، بينهم هذا الفريق الذي شارك في بناء « القصر » في اشبيلية وهذه الاساليب الفنية الاندلسية التي بقيت مرعية الاستعمال لدى المهندسين المسلمين ، بعد الفتح الاسباني ، عمل بها حتى نهاية القرن السادس عشر ، واستعملوها جنباً الى جنب مع الفن الغوطي او عصر الانبعاث ، وازداد شأنها . فالفن الاندلسي هو من هذه الآثار الخالدة التي طلعت بها العبقرية الانسانية والتي لا تزال اسبانيا تباهي بها لليوم .

بالرغم من ان النشاط الفكري جاء ، نوعاً ما ، اضعف بقليل من النشاط الفني ، فقد عرف الادب ، في القرن الرابع عشر ازدهاراً عظيماً ، تمثل في مملكة غرناطة بشخص لسان الدين الخطيب ، احد مشاهير ادباء الاندلس قبل خروج المسلمين منها ، وبابن بطوطة وابن خلدون ، في المغرب . رأى ابن بطوطة النور في مدينة طنجة ، وهو احدث عهداً من ماركو بولو . فقد قام برحلة امتدت اقصاها من تمبكتو ، في السودان ، الى مدينة كمتون في الصين ، وترك لناوصفاً في تنقلاته هذه لا يقل شأنها ولذة عما نجده عند زميله ورفيقه البندقي . اما ابن خلدون ، فهو من عائلة عربية هاجر اهلها من اسبانيا واستقروا في تونس ، وتوفي في القاهرة بعد حياة مديدة . مثل دوراً بارزاً في شتى الممالك الاسلامية ، في المغرب ؛ وكتابه : تاريخ البربر ، الذي جاء ضمن

موسوعته التاريخية الكبرى، ينم عن دقة متناهية، وقوة ملاحظة شديدة، وحصافة في الرأي. الا ان المعلومات الثمينة التي تضمنها هي ادنى منزلة عن « المقدمة » التي وطأ فيها لتاريخه المشهور. ولأول مرة في التاريخ، يطلع علينا مفكر بدراسة عميقة، محللة، فاحلة، للمجتمع البشري، وهي دراسة يستأنس بها، ويعول عليها علماء الاجتماع المحدثون، اليوم. فجماءت دراسته هذه بحثاً علمياً موضوعياً لاسس المجتمع ولنواميس تطوره. وقد امده هذا المجتمع المغربي الذي يعرفه معرفة اليقين، بنظريات دقيقة حول طبيعة حياة الحضرة والمدرو البدو، كما جاءنا بنظريات صائبة حول العصبية القبلية او القومية التي بدونها لا يمكن ان تقوم قائمة لدولة تتطلع الى الاستقرار وتنشده. وهذا الاثر الادبي الذي تناسى الناس شأنه بعيد وفاة صاحبه يُعد اليوم احدى القيم التي بلغها الفكر الانساني في الاجيال الوسطى، فثاق كثيراً بسموه، من وجوه عدة؛ قوة التفكير التي برهن عنها توما الاكويني.

ازداد المغرب الاسلامي تفتحاً، خلال القرن الخامس عشر فراحت اسبانيا المسيحية تهاجم بنمف، مملكة غرناطة محاولة الاستيلاء عليها فتم لها ذلك عام ١٤٩٢ كما راحت من بعد تهاجم شمالي افريقية الذي طالما امدت بالنجدة واردف بالمعونة، مسلمي الجزيرة الاندلسية، واتخذ منه القرصنة المسلمون في المغرب قاعدة لهم وملاذاً ينكفئون اليه لدى الاقتضاء فاحتلت عدداً من مرافئه التي طالما اتحدتها هؤلاء القرصنة فواعد لهم، بينا راح البرتغاليون يحتلون بعض المواقع على ساحل المغرب، استخدموها مراكز لهم في محاولاتهم الالتفاف حول القارة الافريقية. وامام هذا الخطر الاجنبي الذي لم يكن في مقدور امراء المغرب وسادته دفعه ومنهم من مالأوه وساندوه وتعاونوا معه، انكفأ الشعب على نفسه وراح يلتف حول بعض الولاة في زواياهم بانتظار ان تسعف الظروف التي تهبأت في القرن السادس عشر في بروز الامبراطورية الشريفة في المغرب وظهور امارات وطنية في ما تبقى من اجزائه الاخرى، كانت ملاذاً للقرصنة لم تلبث ان اعترفت بولائها للامبراطورية العثمانية. وهؤلاء المسلمون واليهود الذين اخرجوا من اسبانيا أفادوا المغرب افادة كبيرة بما تم لهم من تجربة وخبرة واسعة كسبوها من خلال مدينة كانت اسمى بكثير من مدينة البلاد التي لجأوا اليها. ففي الوقت الذي كان فيه الاسلام ينكفيء في البلدان الواقعة على سواحل البحر الابيض المتوسط كانت يعطي برهاناً جديداً على ما فيه من قوة حيوية دافقة، في هذا الانتشار والتوسع السريع الذي حققه بين سكان افريقيا السوداء الاقل تطوراً.

وهذه الامبراطورية السوداء- امبراطورية غانا- التي قامت وانتشرت عند اعالي نهر النيجر والتي كان زعمائها الأول من البيض، قضى عليها سلاطين دولة المرابطين في القرن الحادي عشر. ولم يلبث السودان النيجيري ان حقق، هو الآخر استقلاله السياسي وساعد دخول الاسلام اليه، على يد المرابطين وتوغل في ارجائه بواسطة المبادلات التجارية عبر الصحراء التي دارت على اساس مقايضة الذهب بالملح. كذلك هيأت الظروف لتشكيل منظمات سياسية، ساعدت الاسلام على تكوينها بقيادة زعمائهم المحليين. وقام بين السكان الملونين حيث بقي جانب منهم على الشرك وعبادة

الاولان ، امبراطوريات اساسها المقاومة الوطنية ،تولى الامر فيها زعماء من الزوج المسلمين ،منها في القرن الرابع عشر ، امبراطورية مالي التي امتدت رقعتها من غابات افريقيا البكر الى هذه الواحات الواقعة الى الجنوب من الجزائر جاعلة من تمبكتو ، المركز التجاري الكبير فيها قاعدة للاشعاع ، حيث راح مهندسون اندلسيو الاصل ، ينشئون فناً هندسياً سودانياً بعد ان عرفوا ان يواغوا بين تقاليدهم وبين الاعراف الوطنية . من هذه الامبراطوريات التي قامت في القرن لحامس عشر امبراطورية غوا التي أخذت بعد انجاز محورها نحو الشرق ،تحسيس على حسابها امبراطورية مالي ، من الوجهتين الادارية والاقتصادية بمساهمة جهود اسبانيا والدعوة الدينية التي نهض بها مرشدون مغاربة . والاسلام الذي وصل الى هذه المنطقة عن طريق مصر وغوا ، بلغ منطقة بحيرة تشاد ، والتقى في نيجيريا بحضارة زنجية قديمة ، جديرة بكل تقدير واحترام بما حققتة من انجازات في حقل الفن ،هذا الفن الذي يمكن رد اصوله الاولي ،الى مؤثرات جاءت من بلدن البحر المتوسط ، لم تعدم ان تغلغلت بين القوم هناك ، فاقبلوا عليها يستلمونها . وبعد زمن قصير توقفت حركة التطور في البلدان على اثر العبث الذريع الذي احدثه في تلك الارحاء تجار النخاسة والرق من الاوروبيين ، هذه الحركة التطورية التي بعثها الاسلام في تلك البلاد ، قبل ان تطأها اقدام البرتغاليين ، بزمن طويل .

٢ — أفول نجم الدول المسيحية في البلقان

اليونان واللاتين وجها على الحدود الغربية للعالم الاسلامي ، في هذا المركب الغريب من الدول لوجه في البلقان المسيحية المتناثرة على شواطئ البحر الابيض المتوسط الشرقية وعلى بحر ايجه والتي يتألف من مجموعها ما يعرف بالبلقان ، توارت عن الانظار بسرعة ، وزالت من الوجود ، هذه الامبراطورية اللاتينية ، التي قامت في القسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٦١) . فالضعف الذي كانت عليه في الداخل ، وهذه اللامبالاة التي بدا عليها كبار الاقطاعيين من امراء اللاتين واستهانتهم بكل شيء ، واستمرار الوجود اليوناني ممثلاً في دولة اليونان في آسيا الصغرى ، وكره السكان المكبوت لهذه الكنيسة الغربية التي حاولت بسط سيطرتها على الكنيسة الشرقية الوطنية ، وامتداد المد التركي العثماني واستفحال شأنه ، كل هذا ألفت عوامل قوية كان باستطاعتها ان تقضي عليها باسرع مما قضت ، لو عرفت ان توقت مما هجمها على هذه الدولة التي عمرت نحواً من ستين سنة . وهذه المنافسة الشديدة التي مزقت صفوف اللاتين ، اتاحت اخيراً للامبرطور ميخائيل الثامن ، في نيقيه ، والمؤسس الحقيقي للأسرة الامبراطورية بيلووغ ، ان يسترجع القسطنطينية ويعيد اليها كرسي الامبراطورية ، عام ١٣٦١ ولكي يقضي تماماً على سيطرة البندقية واللاتين وليسذ اشراقهم على المضائق ، راح يستميل الى جانبه جمهورية جنوى ، منافسة البندقية ومزاحمتها الخطرة على الاسواق التجارية في هذا الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، فشدت من ازره ، وساندهت في المجاح عملته هذه ، وتحقيق اهدافه منها .

وهذه « الامبراطورية البيزنطية » الجديدة، لم يكن بينها وبين سابقتها بالفعل، شيء مشترك وهي الامبراطورية التي تولى الامر فيها سلالة آل كومنان، فاعطتها ستة اباطرة من افرادها. ولم يكن بين سكانها عناصر غريبة كثيرة باستثناء بعض الجوالى اللاتينية، ونوازل التجار المقيمين في القسطنطينية. وكانت ابعدهم من ان تضم تحت جناحها، كل المقاطعات اليونانية: فقد خرج من تحت سيطرتها وولايتها، المقاطعات التي كان اقتطعها العرب والبلغار، بينما تقاسمت امارات الفرنج، شبه جزيرة اليونان وجزر الارخبيل. وقد تم فتح بيزنطية واستعادتها، بعد القضاء على المقاومة، على ايدي القوى المحلية، بينما بعض المقاطعات الاخرى كأبيروس وتسالونيكى وبعد ذلك الموره التي تم استخلاصها من يد الفرنج، وطرابزون الواقعة في الزاوية الشرقية من البحر الاسود، كل هذه الامارات كانت تنعم باستقلالها الاداري، وتتصرف لمناهضة بعضها البعض. وهذه الفسيفساء من الدويلات اليونانية، لم يكن لها اي حظ قوي بالعيش الكريم، وكلها تواجه اعداء وخصوصاً ينظرون اليها شزراً ويتمنون الايقاع بها، ويتمثلون على الاخص بهؤلاء اللاتين والسلافيين، ولا سيما الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى. غير ان اللاتين والسلافيين لم يكونوا، هم ايضاً ليقبلوا انقساماً، عنهم في الداخل بحيث اصبح من المسير، لابل من المستحيل على المؤرخ، ان يتتبع هذه الاحلاف والمعاهدات التي تعقد من فوق الحدود والتخوم لتتحل باسرع مما تُعقد، فاتحة المجال امام تعديلات وتغييرات في الحدود الفاصلة لا تنقطع. وهذه الكيانات السياسية ما كادت تقوم لتتوارى بسرعة، وفي هذا ما فيه من تعبير صريح ودلالة واضحة على هذه الخصومة العنيفة والعداء الازرق الذي باعد بين الشرق اللاتيني والشرق البيزنطي.

والطابع المميز لهذه الدول البحرية، سواء كانت لاتينية او يونانية، ولا سيما لامبراطورية آل بليولوغ، هو اشتداد قبضة الاجنبي، سيات جمهورية البندقية ام جمهورية جنوى، على مرافق التجارة في هذه البلدان، والتحكم باسواقها. وكان من بعض نتائج الفتح المغولي والعاصفة الهوجاء التي سببها، ان اتاح للايطاليين ان يستخلصوا، من ايدي اليونان البقية الباقية من نشاطهم التجاري في المضائق وبحر ايجه، وان يسيطروا كلياً، على الحركة التجارية والملاحة في البحر الاسود. وبدلاً من ان تتخذ الامبراطورية البيزنطية الجديدة، يداً من هذه المنافسة الشديدة التي اشتد أوارها، اذ ذلك، بين جنوى والبندقية، فقد رأت نفسها تنورط في اشتباكات خرجت دوماً منها خاسرة: فقد حاولت عبثاً، ان تسيطر على حي (او حارة) البنادقة القائم على مقربة من القسطنطينية القديمة، وعلى الشاطيء الآخر للقرن الذهبي، في المدينة الحديثة، حيث يقوم مرفأ بيراغلاطة، وهو المعقل الحصين الذي يسيطر عليه تجار جنوى. وكانت كل المكاسب والمغانم التجارية، تروّج لهذه او لتلك من الدولتين المتنافستين، دون ان تفيد دار المكسب القسطنطينية منها شيئاً على الاطلاق، في وقت وظرف كان فيه فقسان الامبراطورية لبعض مقاطعاتها، وتطور النظام الاقطاعي فيها، يجعل للرسوم والعائدات التجارية، اهمية متزايدة، بالنسبة لدخل الدولة من الاراضي. صحيح ان مدينة القسطنطينية بالذات حققت بعض الفوائد

والمنافع من وجود هذه الوكالات التجارية على ارضها . ولكن كبار رجال المال والاعمال ، كانوا في هذه الحقبة بالذات ، كلهم من الاجانب ، كما كان هذا الوضع بالفعل وضع كل الاسكلة البحرية في الشرق الادنى ، بحيث نزلت الارستوقراطية الوطنية الى اسفل الدرك من البؤس والشقاء ، بينما كان على الانتاج الصناعى نفسه ان يراعى ، في الاكثر ، مطالب الزُبُن الاجانب . وهو وضع لم ينفض بعد للآن ، كل نتائجه الكامنة .

وقد رافق هذا التطور ، حركة شديدة من الاخذ بالنظم الاقطاعية والتطبع بطابعها ، لغت المجتمع والكليات السياسي نفسه بتلابيبها . وقد ساعد على هذا ، الوضع الاجتماعى الذي كان عليه اللاتين اذ ذاك ، اما بنشرهم لهذا النظام والترسيخ لاعرافه في بلاد اليونان اى في مثل هذا المجتمع المعقد التركيب ؛ او باستبدالهم الارستوقراطية اليونانية بارستوقراطية اقطاعية ، واما لوجود الدويلات اليونانية نفسها مرغمة على التنازل لعظماء الدولة ولعلية القوم فيها ، عن قسم كبير من املاكها وما تبقى لها من حقوق باقيات ، لتتمكن من الاستمرار في محاربة اللاتين ، مع العلم ان توزيع الاراضي وتجزئتها على هذا النحو ، زاد من صعوبة الاحتفاظ بادارة مركزية . وهكذا وجدت البلاد نفسها في حلقة مفرغة ، لم يكن منها مخرج ، اذ ان تناقص الخراج وتدني رسوم الضرائب ، اجبر الدولة على مكافأة الخدمات التي تحصل عليها ، بتوزيع جديد للاراضي التي تملكها فتخسر بذلك ريعها ، وقد تولى الامر في الدولة ، اباطرة لم يكن ليستطيعوا تصور الامور على وجه آخر ليتمكنوا من المحافظة على وحدة سريعة العطب والزوال ، لهذه الاراضي التي لا تزال تسيطر عليها ، عن طريق توزيعها اقطاعات على شاكلة ما كان يجري في ممالك الغرب .

فليس من عجب ان ينجم عن مثل هذا الوضع الذي كانت عليه الدول اليونانية والامارات اللاتينية المجاورة لها ، قوة عسكرية ضعيفة الجانب ، قليلة العدد والعدد تمثلت في هذا الجيش الذي أمكن انشاؤه في مثل هذا النظام الاقطاعي ، وهو جيش لم يكن ليوحى جانبه بآية ثقة ولا يبعث اية طمأنينة فاضطرت هذه الدويلات للاستعانة بوحدات من المرتزقة . وقد سبق ونهنا من قبل ، بالحوادث التي سببتها الفرقة الكتلانية التي أرسلت لمحاربة الاتراك . ولما لم تدفع لافرادها مرتباتهم ، واذا رأت نفسها غير قادرة ان تعيش في مقاطعة جرى نهبها وسلبها من كل شيء ، راحت تميت فساداً في الولايات البلقانية وتنهبها ، وانتهى بها المطاف نهائياً ، الى اغتصاب دوقية اثينا من امراء الفرنج الذين كانوا يسيطرون عليها . وكثيراً ما رأى اباطرة آل بيلولوغ انفسهم محرومين من كل قوة ، فراحوا يخطبون ود بعض الامراء ممن لا تزال انفسهم تنبض لذكرى الاجداد القديمة ، او تتحمس لمصير ررما الجديدة ، ويطلبون مؤازرتهم ، امثال الامبراطور حنا الخامس مانويل ، كما راح غيره يستنجد بامراء الغرب ويستمطفهم مؤازرتهم . كذلك كان من نتائج هذا الوضع ان ادتى التطور الاقطاعي والمولوي في البلدان اليونانية واللاتينية الى القضاء قضاءً تاماً ، على طبقة الفلاحين الاحرار ، ففي الحين الذي حققت فيه

الطبقات الريفية في الغرب تحررها ، وقمت هذه الطبقات نفسها ، في الشرق ، ولفترة امتدت بضعة قرون ، فريسة وضع لم يختلف كثيراً عن وضع الرق والاستعباد . وقد أصبح في شبه المستحيل ان يؤخذ من هذه الطبقات اية قوة عسكرية للدفاع عن البلاد ؛ كما لم يبق بينها اي اهتمام بالحفاظ على نظام سياسي و وضع اجتماعي لا يعود عليهم باي نفع قط .

وقد عاد انهيار السلطة المركزية بالتالي والمحلها ، بالفائدة على الارستوقراطية العقارية وعلى كبار الملاكين ، ومن ثم على المدن . ففي الوقت الذي قضت فيه البيروقراطية البيزنطية على كل استقلال داخلي للبلديات ، اخذنا اليوم نشاهد ظهور ادارات بلدية تنشئ لها حكومة كما فعلت مدينة تسالونيكى ، مثلاً التي يمكن اعتبارها غير نموذج ، على ذلك ، فشابهت الى حد بعيد ، المدن الايطالية في هذه الحقبة التاريخية . فعندما قامت السلطة البلدية ، في المدن الايطالية الآخذ شأنها بالازدياد كانت هذه المدن مرتبطة بسلطة الطبقة البورجوازية التي كان لها نفوذ تجاري بعيد المدى . لم يتم شيء من هذا تقريباً لمدينة تسالونيكى ، اذ كانت الحركة التجارية فيها بيد الاجانب ، بينما اصحاب المال والاعمال من ابناء البلاد ، كانوا قلة لا يُعتد بها . فالمدينة الحكومة يتولى الامر فيها الارستوقراطية العقارية ، وهي تقيم في المدينة نفسها ، وهو الوضع الذي كانت عليه ايطاليا عند طلوع نظام الـ *Communes* . فهي التي تستفيد ، قبل غيرها ، من النشاط التجاري الذي يقوم على محاصيل الارض ، وغلاتها ، والانتاج الصناعي المحلي الذي كان في مقدورها وحدها ، ان تنظمه على الوجه المفيد ، وان توجهه الوجهة المطلوبة . وفي وجه هذه الارستوقراطية العقارية تقوم معارضة البروليتاريا ، البائسة ، وهي معارضة تتجلى في هذه الفتن والاضطرابات التي تعمل على تنظيمها ، والتي يتفق حدوثها مع هذه القلاقل يقوم بها العمال الفلنك او العمال العاملون في مرافق الصناعة في فلورنسا . والنجاح الموقوت ، العابر ، الذي حققه هؤلاء العمال ، هم مدينون فيه لمؤازرة بعض العناصر الارستوقراطية لهم ، اذ ان البلديولوج وقفوا الى جانب « الروافض » في تسالونيكى ، ضد الفريق الارستوقراطي الآخر الذي ناصر مزاحمهم على العرش : جان كنتكوزين ، حوالي عام ١٣٤٠ ، ومثلهم أبيدوا واندرسوا فزوا ، عندما اتخذوا ضدهم اجراءات جذرية كمصادرة املاكهم ، الامر الذي افضى الى الغناء هذا التحالف العارض .

وهكذا قامت في البلدان البلقانية ، بصورة تتفاوت وضوحاً وشعوراً ، اضطرابات اجتماعية وقومية . صحيح ان الحماسة الشعبية في القسطنطينية قد تكون اتجهت شطر العائلة المالكة التي عرفت ان تسيطر على القلوب بماحققت من ايجاد ، او قد تكون آزرت ، في مقاطعتي ابيروس والمورة ، هذا او ذاك من القادة والزعماء المحليين . ولكن كان من الصعب جداً ، على الجماهير الشعبية ، ان ترى شيئاً « قومياً » في مسلك وتصرف هذه الاسر المالكة التي كانت تحاول عن طريق ااعيائها السياسية والمصاهرات ، ان تنعم : تارة بمؤازرة اللاتين وطوراً بمناصرة السلافيين ، وآونة بعطف الاثراك انفسهم ، مع ان هذه المواقف السياسية التي طالما وقفوها ، في ذنبه موصولة ، وتأرجح لم يرقم على وزن وقسطاس لم تؤد يوماً ، الى اي تحسين في اوضاع رعاياهم . والذي كان اكثر

ما يهتم له هذا الشعب، في الوقت الذي فتحت فيه على مصراعها قضية الخلافة في الامبراطورية البيزنطية ، هو استمرار هذا النمط من العيش الذي ألفوه واستكانوا اليه ، وبقاء هذه القيم الحضارية والثقافية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذا النمط ، اكثر من اهتمامهم لاستمرار وضع سياسي او كيان سياسي بعينه . ففي الوقت الذي اخذت تطل فيه علينا - في اليونان - بوادر روح قومية لا يشدها شيء الى بيزنطية البعيدة الشعبية ، واجه الشعب احتمال سقوط الامبراطورية وزوالها باهتمام كلي ، بعد ان عرف خصومها كيف يستثمرون الى الحد الاقصى ، الوهن الذي كانت تتسكع فيه ، والضعف الذي تهاوت اليه .

ولا يقل الدور المخلخل ، المهلل للعالم الابيحي ، الذي لعبه اللاتين هنا ، عن الدور الذي مثلته الامارات اليونانية في هذا المجال . فالمدن التجارية لم تكن تؤازر سوى الامارات التي كانت تشغل في نظرها ، مركزاً هاماً ، في المجال الاقتصادي ، او انها تتمتع بمركز استراتيجي لا تخفى اهميته ، بينما راحت تترك الاخرى وشأنها ، تمالج مشاكلها كما ترغب وتشاء او بالتالي هي احسن ، وهذا الموقف بالذات ساعد اليونان على انشاء امارة مستقلة لهم في شبه جزيرة المورة . فحيث لم ينعم التجار الايطاليون بالنفوذ السياسي ، فقد كان عندهم سواء ان يكون صاحب الشأن او الامر لاتينياً او يونانياً ، سلافياً او تركياً ، اذا كان يضمن لهم ويحافظ على ما ينعمون به من امتيازات واعفاءات ، او يساعدهم على منافسهم ومزاحمهم . فالجنديون والبنادقة كانوا يتزاحمون على كسب رضى صاحب السلطان في هذه الدولة التركية الناشئة ، على امل ان لا يقيم العراقيين ، والا يثير الصعاب في وجه تجارتهم ، وهم لا يجهلون قط ان حرباً حامية يعلنونها ضدها تكلفهم غالباً .

والذين افادوا من هذه الاضطرابات هم السلافيون ، في الدرجة الاولى ، ثم الاتراك العثمانيون في الدرجة الثانية . فسقوط بيزنطية ارتبط الى حد بعيد ، بصعود هذه الشعوب وبروزها الى المعترك الدولي .

اتاحت أزمة الامبراطورية البيزنطية للبلفار ، منذ اواخر القرن
الممالك السلافية في البلقان
الثاني عشر، ان يستعيدوا بمناصرة الفلاح *l'alaques* او الرومانيين - وهم
شعب جديد اُطل على التاريخ - استقلالهم برئاسة ملوكهم من الاسرة الارسانية ، كما اتاحت ،
لجيرانهم من الصرب ، بعد ان بقوا طويلاً تحت تابعيتهم ، ان يوسعوا من الرقعة التي يحتلونها تحت
الشمس بحيث امتد سلطانهم من الدانوب شمالاً حتى سواحل البحر الادرياتيكي جنوباً ، فحققت
بذلك استقلالهم التام . وقد ساعد الضعف الذي عانت منه الامبراطورية اللاتينية ، هاتين
الدولتين على ترسيخ السلطة فيها واقامتها على اصول وطيدة ، كما ان البابوية رعت منها الجانب ،
املاً منها بتحقيق الوحدة الكنسية معها . والدولة البلفارية التي كانت ، في الداخل ، مشاراً
للفتن ، وتمرضت ، منذ عام ١٢٦١ ، لنقمة البيزنطيين اكثر من تعرضها لهجمات مغول روسيا ،

تحالف على سياستها ، حتى القرن الرابع عشر ، هزات كثيرة بين رفع ودفع وخفض وطلوع ونزول . اما مملكة الصرب التي سارت في تطورها على خطى ابطاً واكثر انتظاماً ، فقد بلغت الأوج ، في منتصف القرن الرابع عشر ، في عهد مليكها اسطفانس دوزان . والعنصر السلافي في كلا الدولتين يؤلف غالبية الشعب ، مع العلم ان دخول اقوام الكومان الى بلغاريا - وهم من العرق التركي جاؤوا من جنوبي روسيا هرباً من الغزو المغولي - ووجود اقوام الفلاخ من كلا جانبي الدانوب الاسفل ، عقّد التركيب الاثنوغرافي لهذه البلاد وجعله كثير التخالط والامتزاج . وعلى اثر ضم كلتا الدولتين عندما اشتد منها الساعد ، اراضي جديدة ومقاطعات معظم سكانها من الاغريق ، اتسم تنظيمها ، من جهة اخرى ، ببسم خاص وارتندي طابعاً مختلطاً نصفه سلافي والنصف الثاني بيزنطي .

والمملكة ، هذا النظام المتوارث في الحكم الذي عرفه البلغار وساروا عليه طويلاً من قبل ، بينما برز لأول مرة لدى الصرب ، فقد قامت ، في كلا البلدين على اسس متشابهة . فالملك حمل عندهما لقب « قيصر » ، وحذا في ستمه وبلاطه ومراسم حياته الخاصة ، حذو الامبراطور في بيزنطية واخذ ، في اوقات سعوده عندما كان يبسم له القدر ، يتشوّف الى خلافته والحلول محله . وقد نقل عن بيزنطية الاساليب الادارية التي سارت عليها ، والتنظيم المالي والضرائبي الذي ارتضته سيلا ، وقانون الحق العام الذي تمتت عليه ، وسلطة الدولة على رئاسة الكنيسة الوطنية المستقلة ، مع بقائها مرتبطة اشد الارتباط بالبطريركية ، المسكونية في القسطنطينية . وهذا الارتباط ساعد النفوذ البيزنطي والثقافة البيزنطية على التغلغل عميقاً الى مكان الحياة العامة لدى البلغار .

اما الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، فقد تلبس ، على عكس ذلك تماماً ، طابعاً ريفياً ، زراعياً ورعويًا . فالمدن التي قامت على سواحل البحر الادرياتيكي كان معظمها بنمأى من سيطرة الصرب ، بينما المدن الوحيدة من بين مدن دوزان والبلغار التي كانت فعلاً خليفة بهذه التسمية ، فكانت تلك المدن اليونانية التي تم ضمها الى جسم البلاد دون ان تندمج فيها دمجاً . صحيح ان فتح مناجم للتعدين ، في صربيا على الاخص وفي ترانسلفانيا ، استعين له بمهندسين فنيين من السكسون لادارتها ، ساعد على بعث حركة تجارية ضعيفة ، غير ان تجارة الرق ، ساعدت كثيراً هي الاخرى ، على انشاء سوق تجارية راجت كل الرواج في مقاطعة بوسنه ، حيث جرت العادة على اتخاذ الارقاء من بين افراد القبائل البوغوميل والباتارين والبابون بعد ان تعذر العيش والوصول الى صلح معها . ومع ذلك فقد لبثت الثروة العقارية هي الثروة الحقيقية ، في البلاد . فالملكية التي كانت من قبل بيد الاسر القروية الكبيرة ، اصبحت الآن تابعة للعرش او لطبقة النبلاء ، ذات النفوذ الواسع ، التي حاول الملك ان يخفف من غلوائها بخلق طبقة ماثلة منافسة لها معظمها من كبار رجال الدولة والموظفين ، والاتباع ، تكون من حيث طبيعة تركيبها ، اكثر استسلاماً له ، وامثالاً لأوامره ونواهي . وبدون ان يستقر الملك في مقر معين

يتخذ منه داراً له ، كالكارولنجيين ، اعتاد الملك عندهم ان يجمع ، من وقت الى آخر ، وجوه البلاد وعظماة الدولة ، في هيئة عامة تقدم له النصيح في كل ما يتصل بادارة البلاد توجيه الحكم فيها . واذ كان الملك يحرص دوماً على تقليم اظافر النبلاء والحفض من شكيمتهم ، والغض من شأنهم فكثيراً ما عمد ، لتلطيفاً منه لشرهم وخطرهم ، الى توزيع الامارات والايالات التي تعود اليه بالفتح اقطاعات على المتنفذين بينهم . ويأتي بعد هذه النخبة الصاخبة التي كثيراً ما بعثت السجس وزرعت القلاقل ، في البلاد سواد الشعب القروي الذي لم يكن وضعه ليختلف كثيراً عن وضع الارقاء ، او الفلاحين المشدودين الى الارض ، في بيزنطية .

والكنيسة التي تمتعت بسلطة ونفوذ واسعين من جراء ما كانت عليه من ثروة عقارية ضخمة وغنى ، لمبت أديارها الوافرة العدد ، دوراً أساسياً في حياة الريف وتطويره . وبالرغم من الطابع اليوناني الاصيل لثقافتها والتي تمثلت أحسن تمثيل في هذه المؤلفات التي وُضِعَ معظمها في اديار جبل آثوس ، فقد نقلت الى اللغة القومية ، مؤلفات دينية او تاريخية . وراحت الكنيسة الوطنية تحافظ على طابعها القومي ، وعلى استقلالها الذاتي ، عن طريق تطوير لهجتها السلافونية في طفوسها الليتورجية ، وهي اللهجة ذاتها التي استعملت في وضع التواريخ البلغارية وترجمة حياة القديس سافا الصربي ، كما تشددت في معارضتها المنيفة للنفوذ اللاتيني الذي وجد موطناً له على شواطئ دالماتيا والبانيا ، والذي بقيت له السيطرة في مقاطعة كرواتيا ، منذ ان ضمت هذه المقاطعة للمجر . كذلك نجد مجموعات من الاناشيد والاقاصيص الشعبية ، تعود في الصيغة التي وصلتنا بها ، الى العهد التركي ، وهي أناشيد تتغنى وأقاصيص تروي لنا اجماد الابطال الذين ساعدوا ، بالبطولات التي أوتها ، على تكوين صربيا ، كما تتغنى بأجماد وبطولات مستمدة من هذه الملاحم الموضوعة حتى ذلك العهد ، في الشرق والغرب ، على السواء .

أوسمى من هذا الادب الذي لا يزال ، مع ذلك ، في القمط ، الفن الذي يتنزى بالعناصر والمؤثرات الاجنبية التي تفاعل بها . ففي هذه الميثر الدينية التي ارتفعت في صربيا ، نرى جنباً الى جنب ، الموحيات البيزنطية ، وهذه المؤثرات الارمنية الكرجية ، وقد انضمت اليها عناصر غربية جاءت من ايطاليا والمجر . وهذه الرسوم الجدارية التي تُرى في مدينة بوايانا من اعمال بلغاريا ، وفي فيزوكي دتشان من اعمال صربيا ، عرفت جيداً ان توائم بين الموضوعات التقليدية التي عاجلتها الايقونوغرافيا اليونانية ، في تصويرها رسوم الاشخاص التاريخية ، وبين هذه المشاهد الحية ، الواقعية ، تحت تأثير نماذج غربية ، واخرى وطنية اصيلة .

وهكذا نرى بصورة قاطعة ، في القرن الرابع عشر ، ظهور امة بلغارية واخرى صربية ، بكل ما في كلمة امة من فعوى ومدلول . ولكن بما ان الوحدة التي حققتها هذه الامة لم تمتد بعد ، الطور الاقطاعي ، فالوحدة التي حققتها هاتان الدولتان ، تبقى سريعة المطب . فامبراطورية ، دوزان الكبيرة هذه التي لم تعمّر طويلاً بعد مؤسسها ، كانت حلاً حلاً في

الخاطر يدغدغ الخيال أكثر منها حقيقة واقعية متحيزة ، طالما ألهبت خيال القومية الصربية وألهمتها ، كما كانت فيما بعد ، بثابة الملائ الذي شد بنيان الدولة السياسي . ومثل هذا الوضع يصبح مقارنته ، ولو بصورة تحكومية ، بالدور الذي مثلته التقاليد والاساطير الكارولنجية في أوروبا الاقطاعية . ومهما يكن من الامر ، فالامة الصربية بقيت واقعاً قائماً ، متحيزاً ، حتى بعد انهيارها السياسي ، اثر الضربات التي انهالت عليها من الاتراك في ساحة الوغى ، ولا سيما في تلك الكارثة القاسمة التي حلت بها في معركة كوسوفو ، عام ١٣٨٩ .

فهذا التاريخ هو بدء يقظة وتفتح على الحياة ، عند الدول التي قامت على مقربة منها . الالبانيون (الارناؤوط) ، احد . وع الشعب الايليري التي طمس التاريخ ذكرها واسمها الى لك الحين ، استطاعوا ان يحافظوا على استقلالهم ، وان يصونوا شخصيتهم المميزة بالرغم من الاصطدامات التي قامت بين الايطاليين والسلافيين ، او اليونان ، انتصروا فيها للفريق الاول ، بطلبهم المساعدة من الكنيسة اللاتينية . وهؤلاء السكاك الجبليون الذين تدرّبوا على اعمال الحرب ، في خدمة البنادقة او الانجليز (سكان مقاطعة الانجو) والصرّب او في خدمة طغاة الابرّوس او تسالونيكى ، سيصبحون ، في القرن الخامس عشر ، أعدى اعداء العثمانيين ، وأبشّهم . اما الرومانيون الذين جهلهم التاريخ لأكثر من عشرة قرون ، وتضاربت الآراء حول اصلهم وفصلهم ونشأتهم ، فراح من ردهم الى ذراري الداسيين الرومانيين الذين وقعوا في ليج أمواج الغزوات التي تألبت عليهم دون ان تقتلهم او ان تجثهم ، كما رأى غيرهم فيهم ، اقواماً من قبائل الفلاخ استطاع بعض من تربطهم بهم وشائج الدم والقربى ، ان يحافظوا على كيانهم في وسط الغمر الصقلي والمحيط السلافي ، فراحوا يشغلون من جديد ويستثمرون السهول المترامية على جانبي مجرى الدانوب الاسفل ، فأطوا ، من جديد ، في القرن الثالث عشر ، على التاريخ ، باحتلالهم سهول مولداڤيا وفلاخيا القليلة السكان ، عندما لبوا نداء بعض الأمراء الذين استنجدوا بهم وطلبوا مساعدتهم ، في وقت لاحق لاحتلالهم مقاطعتي ترانسلفانيا والكرباث . وعندما اخذ الناس يشعرون بوجودهم ، نراهم موزعين بين هنغاريا على سفوح ومنحدرات جبال الكرباث الغربية ، وأحياناً ، وفقاً للصرّوف والظروف المتحكمة بمصائر الناس ، بين بلغاريا وبولونيا وغيرهم من الأمراء الذين سيطروا على السهل الروسي ، حتى بين المستعمرات التي أنشأتها لها جنوى ، على سواحل البحر الاسود الغربية . ولذا ، نرى هذه المنطقة تتجاوزها عوامل نفوذ عديدة : هنا اللغة والايجدية السلافية ، بينما استخدمت الكنيسة الوطنية التي كانت على الارثوذكسية ، اللغة السلافونية في طقوسها الليتورجية . والمؤثرات الغربية التي تفاعلت بها وانفعلت ، كانت ترشح اليها عبر الرواق البلغاري السلافي ، فتتازج بالفاعلات البيزنطية ، كما يبدو ذلك واضحاً من الكنائس الاولى التي ارتفعت هنالك ، حيث ارتدت الافارين الخارجية سحجماً خرج على المألوف . فهذه الاقطار الرومانية لم تنعم الى هذا التاريخ ، يوماً بالوحدة ، ولا عرفت مجانساً عرقياً ، الى الوقت الذي لاحت لهم ناهزة مؤاتية ، تمثلت في حالة الضمف والوهن

التي آلت إليها ، الدول السلافية ، من جراء الزحف العثماني المتتابع ، فقامت فيها ، ابان القرن الخامس عشر ، امارات واسعة تمتعت ، على اقدار متفاوتة ، باستقلالها الذاتي . واهم هذه الامارات طراً واحدها جميعاً ، هي الامارة التي قامت في مولدافيا والتي غمرتها ولو بصورة سطحية ، أقله في الشمال ، الموجة العثمانية .

امام هذه الخطوط الكبرى والصوَى البارزة لهذا الشتات الذي
مصير الثقافة البيزنطية
ابتليت به دول البلقان : ففرق ديارها ببدأ وسكانها شيعاً ، هل
بامكاننا التحدث هنا ، بعد الذي رأينا ، عن كنيسة واحدة وثقافة بلقانية واحدة ؟ فقد بلغ من
شدة حيوية هذه الكنيسة والثقافة المشتركة تجاه هذا الانحلال السياسي الذي صارت اليه هذه
البلدان ، ان كدنا نتبين عندهما ، معالم انبعاث ، فعلي ، ادبي وفني على السواء ، وهو انبعاث
جاء وفقاً لما هيأت له ظروف الحياة الجديدة ، التي جددت من مصادر الوحي والاهام ، وحملت
الناس على البحث عن وسائل جديدة للتعبير عن خملجات النفس البشرية . الا ان كتاب العصر
ومؤلفيه وفنانيه من اليونان لم يعودوا يعملون او ينتجون ، لأسياد وأرباب بيزنطيين لا غير .
فالقسطنطينية لم تكن اذ ذلك ، قطب كل شيء ، ومحور كل شيء . فالمؤثرات اللاتينية كان لها
اغراؤها هي الاخرى ، حتى على البلدان اليونانية ، ووضاعة الوسائل المادية التي كانت تحت
التصرف خفضت كثيراً من قيمة الانجازات الادبية والفنية .

فالترجمة للباطرة من اسرة بليولوج ، في القرن الرابع عشر هي اهم المواضيع التي يحوم
حولها مؤرخو العصر ، امثال : باخيمروس ، ونيقوفورس غريغوراس ، بيتا راح حنا
كنتاكوزين ، هذا المغتصب للعرش الامبراطوري ، يضع اثر ازواجه في الدير وانقطاعه للعزلة ،
غيب تنازله عن العرش ، مذكراته المشهورة . وهذه النظريات الصوفية التي جاء بها هزيكازمس
التي حاكت من قريب ، تعاليم متصوفة الاسلام في ايران واناضوليا ، كانت لها قيمة رفيعة عند
مؤرخي الاخلاق ؛ وكذلك هذه المؤلفات في العلوم الفقهية التي كان لها تأثير عميق على علم الحقوق
الذي أطل على الدول الصقلية ، وهذا الشمر الحكمي والعلمي الذي وصل اليها من هذه الحقبة ،
كل هذا الانتاج الفكري جاء وفقاً للتقاليد المتوارثة . والروح الجديد الذي طلعت به علوم
البلاغة ، وهذه الرغبة الزاخرة المقرونة بالنظرة المحللة ، الناقدة ، تبدو على أتمها في دراسة
الآثار الكلاسيكية ، نشطت حركة احياء الآداب البيزنطية القديمة ، فراح يتولاها بتدبير :
تيودورس متوكيتيس ، وهي حركة تشبه من بعيد ، حركة احياء الآداب التي كانت اذ ذلك ،
في ابان ازدهارها في ايطاليا . فالحركتان تتضافران وتتكافآن وتلاقحان ، اذ يقدم الى ايطاليا
بعض اساتذة اليونان ، بدعوة من هذا الفريق الذي تخرج على ايديهم ، ليلقنوا الايطاليين ،
بعض العلوم الهلينية التي يتعطشون جداً الى تلقفها . وهكذا نشاهد الفيلسوف الافلاطوني
الكبير : جيمس بلايئون ، يصل ، بعد ان درس الفلسفة في مسترا ، الى ايطاليا ، ولم يلبث ان

اصبح فيها ، ابان القرن الخامس عشر، من اشهر الداعين الى تجديد الفلسفة الافلاطونية ، ومن ابرز رواد هذا البعث الفلسفي . والجديد ، حقاً ، في هذه الحركة الاحيائية ، وفي هذا التعاون الثقافي العلمي بين اليونان واللاتين ، هو هذه المساهمة الجديدة يقدمها الغرب في الدراسات البيزنطية فتجلت على وجه صحيح ، في هذا الجدل الديني ، وفي مشروع اتحاد الكنائس ، فأتاحت لكتاب ومؤلفين امثال ديمتريوس سيدونيس ، وبلانود ، الفرصة للتعرف الى الترجمات اليونانية التي وضعت لمؤلفات القديس اوغستينس وللقديس توما الاكوييني . فقد ترجم الى اليونانية ، في شبه جزيرة الموره ، تاريخ لاتيني روعي في سرد حوادثه التتابع الزمني . والقصائد الشعبية اليونانية ، تستوحى بدورها ، ابطال القصص والمسرحيات الدينية الفرنسية في الاجيال الوسطى ، بينما راح المؤرخ اليوناني مكاربوس ، يضع تاريخاً لقبرص ، يطري فيه اللاتين ، والكتاب اللاتيني جورج بسترس يؤلف ، هو الآخر باليونانية ، بينما راح الكتاب اليوناني سترامبا لدي ، يؤلف بدوره بالايطالية . وليس بغريب قط ولا مستبعد ان يكون الانتاج العلمي اليوناني ، في الطب والفلك ، قد تداخله شيء من علوم العرب ، عن طريق الغرب ، الا ان يكون جاء هذا الاتصال عن طريق طرابزون ، حيث قامت «اكاديمية» أمنت للاغريق الشرقيين ، تجلياً علمياً بزم ما تم من امثاله لزملائهم ورسفائهم في البلقان الذين كانوا يحفلون ، بالاكثُر ، بالآداب .

اما الفن البيزنطي ، فقد صمد في وجه المؤثرات الغربية . فباستثناء قبرص حيث قامت كنائس على الطراز الغوطي ، لم يترك الصليبيون لنا ، في هذه المباني الهامة التي اقاموها غير القلاع والحصون التي شيدها . وقد حلا للبعض ان يرى في بعض الافاريز التي قامت في الاقطار اليونانية والسلافية خيوطاً دقيقة من الوشائج تشدها الى هؤلاء «البيزنطيين» الايطاليين ، ولكن من يقدر ان يؤكد بان هذا الالتقاء هو من باب الصدفة الطارئة ومهما يكن ، وباستثناء كاريا جامي في القسطنطينية وهو من انشاءات ثيودوروس ميتوكتيس ، لم تلبث الفسيفساء الباهظة التكاليف ، ان استبدلت واستعوض عنها بالرسوم والتصاوير الجدارية ، حيث نرى صور رجال الدنيا بادية الى جانب المشاهد الدينية وفي مظاهر الحياة الواقعية ، حيث يمكن ان نتميز اشياء تذكرنا بمشاهد ومركبات اسكندرانية . فتحلية المخطوطات وتزيينها وزخرفتها وصناعة الحلي من الجواهرات وانسجة الديباج الجميلة تمدنا بالكثير من غرر الفن ودرره ، وبالكثير من الاعلاق الغوالي التي اسعدنا الحظ في الاحتفاظ بالكثير منها ، بينما بخل علينا بالزهر اللزير من مقدماتها . ومن المحتمل كثيراً ان يكون فن التلوين اعطى اذ ذاك ، اجمل معطياته ، واحسن انجازاته على الاطلاق ، بعد ان عملت مدارس اقليمية عديدة ، على نشر هذا الفن في البلدان الصقلية ، وجبيل آثوس ، ومسترا ، وجزيرة كريت و طرابزون . وهذا الانتشار الواسع ، مكن الفن البيزنطي من ان ينقل ، دونما انقطاع ، نظرياته ومبادئه وتعاليمه الفنية لمن توارثوها ، سواء اكلونا تحت سيطرة الاتراك العثمانيين ام خارجها .

والكنيسة البيزنطية ، ظهرت عليها ، هي الاخرى ، بعض اعراض التطور ، فازدادت مكانة ،

وسميت مرتبة ، في قلب الدولة . ففي هذا الاستقرار الذي نعمت به بيننا التيجان من حولها تتدحرج تدحرج الأكر وفي هذا الغنى الذي ترفل فيه وتنعّم ، بيننا الملوك من حولها يهون من عليائهم لينزلوا الى احط دركات الفقر الغم والعوز يستعطفون ويستعطون لم تبلغ هذه الكنيسة يوماً ما بلغته ، اذ ذاك ، من قوة وشأن ، ولم تُظهِر يوماً من اللامبالاة ما اظهرت من إغراض عن هذه الأسر الملكية التي تناوبت الحكم وتعاورته تبعاً . فهي متماسكة ، متضامنة ، بالرغم من وجود هذه الكنائس المستقلة داخلياً ، تبسط نفوذها على العديد من هذه الممالك اليونانية والدول الصقلية ، دون ان تدافع عن هذه ضد تلك ، دوماً على اتم استعداد لتقبل النصح من اي جهة جاء : من موسكو او من القسطنطينية . ففي مواجهتها للعطاء من رجال الدنيا وللأمراء الدائرين في دوامة المحالفات السياسية ، حشدت حولها كل الشعوب ، وجل رجال الاكليروس ، للوقوف بعنف وكرامة ، بوجه النفوذ الروماني ، مدفوعة الى ذلك بمسلك هؤلاء الاباطرة الذين كانوا ، لاغراض دنيوية ، يشيرون باستمرار قضية اتحاد الكنائس ويلوحون بها ، لقاء حصولهم ، من الغرب المسيحي ، على نجدة تنصرم على الأتراك العثمانيين . وقد ادّت هذه المفاوضات التي اداروها ، الى الفشل التام ، امام إغراض الغرب وعدم مبالاته ، هذا الغرب الذي لم يقطع ، الا ما ندر ، عهداً بالمبادرة للمساعدة المرجوة ، لم يتعهد معه قاطعه ، بسوى قوة حربية ضئيلة العدد والعُدَد ، بينما كانت جماهير الشعوب اليونانية والسلافية ، تشجب ، بشدة ، الاتفاقات التي يتوصل اليها اباطرة ، احياناً الى عقدها . فائر العامل اللاتيني على الآداب اليونانية ، كالتشابك السياسي لهذه الكيانات الدولية ، يجب الا يندج احدأ . فقد قامت ، اذ ذاك ، هوة الانفصال الديني التي لم يشعروا كثيرأ بوجوبها ، في بدء الأمر ، الا انها اصبحت عقبة مستعصية الحل . وقلاع الفرنجة وحصونهم ، مها قالوا فيها ، لم تكن لتوحي الثقة ولا لتبعث التفاهم بين الشعوب وهكذا انكفأ الشعور القومي وراء الكنيسة اكثر منه وراء مبادئها . وهذه اللامبالاة تفسر لنا جيداً السهولة واليسر الذي تم فيه الفتح الاجنبي . اجنبية بالطبع ، في نظر اليونان ، دولة الأتراك وسيادتهم . يجب الا يغرب عن البال قط ، ان اول بطريرك يوناني للاستانة التركية : سكولاريوس جتاديوس هو من اشهر رجال القرن وحملة الثقافة البيزنطية في هذا العصر ، وانه كان في البلاد السلافية عدد كبير من اليونان ، ومثل هذا العدد واكثر ، كانوا تحت الحكم العثماني ، في تركيا قبل ١٤٥٣ سنة سقوط القسطنطينية بيد الأتراك العثمانيين ، وكلهم تابعون لرئاسة الكنيسة الارثوذكسية ويخضعون لها ، ويحفظون لها الولاء ويعيشون ايمانهم بسلام وطمانينة ، بالرغم من بعض التضييقات المفروضة عليهم . فبين الخطر التركي الذي يهدد الجسم دون الروح ، وبين الاستسلام للاتين والخضوع لكنيستهم وما يمثله هذا الخضوع من خطر على النفوس دون الاجسام ، رأوا من الافيد لهم ومن المصلحة عندهم ، ان كان لا بد لهم من الاختيار ، ان يقبلوا بالسيطرة التركية بالرغم مما فيها من خطر وما لها من كره . ففي هذا الوضع ما فيه من تحليل لتهم المصير الفاشم الذي آلت اليه الامبراطورية بسقوط عاصمتها القسطنطينية .

٣ - الامبراطورية العثمانية

ظهور العثمانيين
حان الوقت لتنتقل شطر الاتراك العثمانيين ولتتفرس فيهم ملياً ، بعد ان كتب لهم ان يصبحوا ورثة بيزنطية الشرعيين .

مرّ معنا كيف تكونت ، في اواخر القرن الثالث عشر ، على تخوم بيزنطية الشرقية ، في آسيا الصغرى ، أشكال من امارات تركانية لم يستطع السلجوقيون كبح جماحها والحد من نزواتها . ففي الوقت الذي راح فيه روح المدوان يستفحل في صدر الاتراك ويتشوفون للتوسع ، اضطرت موجبات الدفاع عن اوربا ، اصحاب الامر والشأن في بيزنطية ، لالغاء الاعفاءات المالية التي تمتعت بها وحدات الجنود المعمرين التي بواسطتها استطاعت امبراطورية نيقية ان تحافظ على بقائها وكيانها ، وبذلك دخل الحلل وتسربت اسباب التشويش الى نظام الدفاع عن بيزنطية من الشرق . ولذا فلم تتم كل المقاطعات الآسيوية تقريباً التي كانت يونانية بالاسم ، ان تصبح ، حوالي عام ١٣٠٠ ، تحت سيطرة زعماء التركان ، باستثناء طرابزون منها ، بالرغم من استمرار مقاومة بعض القلاع والمواقع الحصينة ، بالرغم من رضوخ القرويين والفلاحين وتسليمهم بالامر الواقع . وقد تمكنت بعض الجماعات التركية من نشر سيطرتها على بعض الولايات اليونانية البحرية الواقعة على شواطئ بحر ايجه ، وعرفت ان تستخدم مهارات بعض سكان البلاد الاصليين ، او نهجت نهجهم في الحياة ، فراحت تهاجم جزر الارخبيل وتحتل القريبة منها الى الشاطئ وتبسط سيطرتها عليها وعلى سواحل المقاطعات اليونانية ، بمثلة بامارة عابدين الواقعة على مقربة من امير ، او بامارة منتشيد مقابل جزيرة رودوس . فاضطربت حواطر الغربيين جداً ، في مطلع القرن الرابع عشر ، فتحركت بعض فرقهم وتمكنت الفرقة الكتلونية من ان ترد هؤلاء الغزاة مؤقتاً ، على اعقابهم .

اما الفئة التركية التي كان يرئسها المدعو عثمان ، فقد كانت من رضة الشأن ما لم يكن احد يتوقع لها مثل هذا المصير الباهر الذي قَبِضَ لها ان تصير اليه . ولم يكن فيها ما يميزها عن تلك الفئات سوى ان الاقدار موزعة الحظوظ هيأت للأمير عثمان ولخلفائه مباشرة ان يكونوا من الطراز الاول من قادة هذه الفئة او القبيلة الذين تولوا الامر باسمها . لا سيما وقد اسعفه الحظ فاقتطع مقاطعة تحتل جانباً من ساحل بحر مرمره . وبفضل هذا الموقع الجغرافي الممتاز ، كثيراً ما سعت له المناسبات للتدخل بين الاحزاب البيزنطية وتلبية نداء الاستغاثة الصادر عن اللاتين للتدخل في هذه الحروب التي نشبت بين آل بلكيولوغ ويوحنا كينتكوزين . واذ كان البحر عقبة تحد من رغبة الامارات الواقعة على سواحل بحر ايجه في التوسع ، فهذه الامتار القليلة من مياه البحر التي كانت تفصل العثمانيين عن سواحل اوربا ، كانت تكمن وراءها مجالات واسعة للفتح والتبسط والامتداد .

ليس في هذه المقدمات البسيطة ما يدل او يشير الى ان هذه الفئة ستطلع على العالم
بامبراطورية ، ستضم ، عند اكتمال بدرها ، كل العالم العربي تقريباً ، والبلدان السلافية والبيزنطية ،
من مشارف مدينة فيينا غرباً ، الى اقاصي حدود البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر والخليج
الفارسي شرقاً ، والتي ، بالرغم مما تضررت به ، خلال تاريخها المديد ، من صروف الدهر وصريفه ،
لم تنهزم ولم تسقط الا في القرن العشرين . فلم يكن لها عند الانطلاق ، وهذا شيء يجب التشديد
عليه ، سوى قوة بسيطة من بضعة آلاف من الجند كان في مقدور عدو مساو لهم من المحاربين
ان يسمرّوهم مكانهم ويكبحوا من جماهم .

وقد سارت هذه الامبراطورية في تطورها وتكاملها المطرد على نهج سوي واصول من النظام
والتنظيم ، ما عدا فترة وجيزة اقل فيها نجم سعوها امام غزرة تيمورلنك الصاعقة الماحقة .
ومن المؤسف حقاً ان الذين عاصروا نشأة هذه الدولة لم يكن في مقدورهم ان يتوقعوا لها مثل
هذا المستقبل المجيد البسام ، فلم يذكروا لنا شيئاً ، ولو طفيفاً ، عن عهد هذه الجماعة الاول ،
المتواضع ، بحيث لم يبق امامنا سوى التعويل على تحليل بعض القصص والمقولات التي طلعت او
حيكت حول نشأتهم فيما بعد ، وامعان النظر ملياً في هذه المرويات لعل فيها ما يكشف لنا سر هذا
الدور العظيم الذي 'قدّر لهم ان يلعبوه في حلبة البحر الابيض المتوسط والشرق الادنى . ويحلو
لنا ان نرى في هذه المرويات وتبين العزم الصادق والحزم العديدي على تنظيم ما يقع اليهم بالفتح ، فلا
يقومون بفتح جديد ما لم يحسنوا تنظيم السابق ، وما لم يوحدوا من الفريق التركياني ورفضه كالبنيان
المرصوص يجعله عصبه متلاحمة متماسكة ، قوية ، فيضيفوا الى وحداتهم العسكرية ما امكن
اضافته من وحدات اسلامية ، وغير اسلامية ، من أبناء البلاد الاصليين ، فيخضعون هذه
العناصر كلها لتدريب عسكري آسر رصين ، تصبح معه قوة متراسة ، متماسكة الحلقات ،
متآزرّة . فرسالة على هذا الشكل ، هي لعمري رسالة سامية ، حربية بكل تقدير ، لقي تحقيقها
من الاحكام وعناية التصميم والتنفيذ ما يتفق وسمو المطلب .

فالى أى حد كانت هذه الوحدات التركانية البدائية ومعظمها من الرعاة وقطاع السبل ،
تتألف من قبائل متراسة يتولى الامر فيها فرسان غزاة ! . لا يزال الامر يشير الجدل والنقاش بين
المحققين من رجال التاريخ ، وليس من المستبعد ان يكون 'عمل فيها بالنظامين معاً في وقت
واحد . ولما كان النجاح يدعو للنجاح ويهيء الاسباب للزيد منه ، فقد راحت الامارات القريبة
من الاتراك العثمانيين ، والاقول تحصيناً تقع تباعاً فريسة باردة في ايدي السلطان عثمان . وقد
سبق هذه الحقبة ، عهد انضمت فيه الى هؤلاء الغزاة الفرسان ، الاحرار الذين اتخذوا من الحرب مهنة
لهم في الحياة وحرفة يعتاشون منها ، عناصر اخرى من مشاة ونبالين ورماة القسي ، اضيف
اليها ، فيما بعد حرس عسكري (العسكر الجديد) انكشارية ، اتخذت مادته الاولى ، واولى وحداته
من اسرى الحرب الذين وقعوا بين ايدي السلطان فيها وقع من موارد تم الاستيلاء عليها . وهو
حرس ، شبيه من جميع الوجوه بالحرس الذي كان يسهر على سلامة السلاطين في الدول الاسلامية .

والى جانب هذه الوحدات المعدة للحرب ، والمدربة عليها احسن تدريب ، كان لا بد من تشويق عناصر اخرى من السكان وحملها على مناصرة الدولة التي هي في سبيل التنظيم . فقد قام بهذه المهمة ، خير قيام ، علماء الدين ولا سيما فرقة الدراويش ، فراحوا يختلطون بافراد الجيش ويدعون لرصف صفوفه وتمتين منشآته ، بحيث لم نر قط ، في ابي بلد من البلدان الاسلامية ، مثل هذا التعاون بين الجمعيات والهيئات الدينية وبين السلطات السياسية لشد الاوصار بين مختلف طبقات الشعب والحكومة . ولعل ما هو ابعد من ذلك اثرأ واقتوى هو المدن الاسلامية ، حتى المسيحية منها ، التي دخلتها جاليات اسلامية بعد ان تم فتحها ، جاءت من اواسط اناضوليا ، قد خضعت لهذه الدعاية تقوم بها المنظمات الدينية ، فادى ذلك الى تشكيل هيئات اجتماعية حمل اعضاؤها اسم « اخ » . ولما كان الفاتحون العثمانيون هم ملوك مسلمون ، قبل كل شيء ، فقد راحوا يكثرثون من بناء المساجد ، وانشاء المدارس والاسواق والحانات . ومما هو جدير بالذكر والتنبه ، مع انه قد لا يكون مستغرباً ان يكون ظهر شيء منه في عهد السلجوقيين ، هو هذا النقص في الثقافة الدينية بين الطبقات الشعبية التركية ، وهذه المذاهب المتباينة التي ذهبت كل مذهب في تفسير المعتقدات الدينية ؛ كل ذلك حمل المنظمات والهيئات النصف الدينية ، على ان تقبل على السواء التعاليم والطقوس السنية والشيعية والمسيحية والوثنية ، دون ان يقوم بينها من اختلاف مما يميز شملها ويفرقها شيعاً . ففي القرن الرابع عشر ، في غمرة هذه الروح الحماسية التي قابل بها الناس الغزو المدوي ، نرى النظام والوفاق والسلام يسود الشعب التركي ، بيناراحت الدول الاسلامية الاخرى تعاني الامرئين من هذه الانقسامات والانشقاقات التي شجرت فيما بينها ، فلم تتسلح السلطة العثمانية بدكتاتورية متمصبة تأخذ الناس بالشدة ، كما هي الحال في عهد المهاليك مثلاً ، اذ ذاك .

وليس من شك قط في ان السلاطين العثمانيين الأوّل عرفوا ان يضمّنوا تعارون بعض العناصر الوطنية من ابناء البلاد الاصليين فيؤمنوا حياة الجميع . وليس بمستبعد قط ان تكون انظمة الحكم والقوانين التي عمل بها بعد الانتهاء من عملية الفتح ، اقل اعتباراً وكيفاً من التدابير غير المسؤولة التي عمل بها في بيزنطية والامارات اللاتينية التي كانت الفوضى ضاربة اطنابها فيها . فالنظام الرتيب الذي ساد في الداخل مكن الناس من الانصراف للاعمال الزراعية ، كما اتاح لرجال الصناعة متابعة الانتاج وتقويته اشباعاً لمتطلبات ، وتلبية لرغائب زُبنٍ جدد حلوا محل الزين القدامى . كذلك ساعد الامن المسيطر على البلاد في تنشيط التجارة ، وحسن معاملة التجار الذين كانوا يعملون على تصريف وتنفيق الفائض من انتاج البلاد ومحاصيلها من حجرالشب والانسجة وغير ذلك من الأقمشة . ولم تقتصر الافادة على المسلمين وحدهم من هذا النظام ومن الامن الذي ساد البلاد . وككل مكان آخر في العالم الاسلامي ، ولربما اكثر من ابي بلد آخر استقرت فيه الارضات وانتظمت الامور ، اصبح المسيحيون الخاضعون لسلطة الدولة الجديدة ، « محيين » . والكنييسة الارثوذكسية نفسها كانت ابعدهم من ان تتضررس بهذه التغييرات وبهذا

الوضع الجديد الذي أطل عليها ، فاستطاعت ان تفيد كثيراً فيما بعد ، من انبساط رقعة الفتح العثماني وامتداده فرحب بالتالي نفوذها ، واتسع سلطانها بحيث دخل تحت سلطتها الدينية ، عدد كبير من السلافيين واللاتين . واذا كان من الغلو الظن بان كل الذين اشتركوا بإدارة الدولة الجديدة وتنظيماتها ، كانوا من ابناء البلاد الاصليين - بعض كبار الموظفين في الإدارة العامة اعتنقوا الاسلام ، بينما بقي البعض الآخر منهم على دينهم المسيحي - فمن الثابت الذي لا يناله الشك قط ان السكان في المناطق الواقعة على الحدود ، آثروا الاستسلام للعثمانيين والخضوع لهم ، بعد ان انقطع عندهم كل امل بوصول اي مدد او مساعدة مجدية عللوا النفس بها ، من الدولة البيزنطية . وبالفعل ، فالميزة التي طبعت الفتح العثماني ، تبدو لنا ، على الاخص ، في هذا العدد الصغير من الناس الذين راحوا ضحية الفتح ، كما تبدو جليلة واضحة بهذه النسبة الصغيرة من اعمال السلب والنهب التي تعرضت لها المدن المفتوحة ومن فيها من السكان . كل هذا يفسر لنا جيداً كيف ان الفتح العثماني سار سيرته الرتيبة الرضية .

فتح وتنظيم
لنستعرض بإيجاز ، المراحل التي تمت في هذا المجال . فقد تألفت الامارة

العثمانية في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، من هذه المقاطعات والولايات الواقعة على سواحل بحر مرمر الجنوبية ، بما فيها : نيقية ، ونيقوميديا ، وبروسة التي كانت عاصمة الامارة ، والتي اصبحت ، منذ ذلك الحين ، مدينة مقدسة في نظر الامبراطورية العثمانية . وقد تم عبور مضيق الدردنيل ، عند منتصف القرن المذكور ، بالتواطؤ مع اليونانيين انفسهم ومعاونتهم ، وهكذا تمكن الاتراك العثمانيون من اتخاذ موطئ قدم لهم في غاليبولي ، ومنها انطلقت غزواتهم في اتجاه تراقية التي لم تتم ان تم فتحها ودخلت في حوزة السلطنة . وفي سنة ١٣٦٦ ، نقل السلطان مراد ، عاصمة ملكه الى مدينة أدرنة ، معبراً بذلك عن رغبته الشديدة في ان يكون ملكاً من ملوك اوروبا . صحيح ان الوضع الذي كان عليه التسليح اذ ذاك من حيث الكم والنوع ، كان لا يسمح للاساطيل المسيحية بعبور مضائق الدردنيل وبفك الحصار الذي ضربه العثمانيون على القسطنطينية اذ لم يكن من الوسائل البحرية ما توفر منها لسادة الامارات الواقعة على سواحل بحر مرمر . وهكذا اخذت الحلقة تضيق تدريجياً حول القسطنطينية . فاصبحت أرباضها وضواحيها القريبة عرضة للغزو والسلب من قبل الكتائب العثمانية كما ان الطرق الموصلة اليها اصبحت غير مأمونة للنجدات التي كانت تحاول الوصول اليها ، واصبحت بالتالي وحدة الامبراطورية في خطر ماحق ، ومواردها عرضة للانقطاع والتوقف . فاذا لم تسقط القسطنطينية في قبضة العثمانيين ، فلان سقوطها واستيلاء الاتراك عليها لم يكن دخل بعد في خطتهم العامة . ومثل هذا الامر لم يكن فيه اذ ذاك كبير فائدة لدولة جيشها دوماً في ساحة الحرب ، فلا مصلحة آنية لهم في احتلالها ولا في السيطرة عليها . وعلمية فرض الحصار عليها انما كانت عملية شاقة ، طويلة النفس والأمد لمناعة حصون القسطنطينية ، من جهة ، ولكثرة سكانها ، ولسهولة تموينها بحراً ، وقد يؤدي ، من جهة ثانية ، الى تحالف بين اليونان واللاتين ، والى احداث رد فعل قوي في الغرب ، وكلها امور تؤدي في الصميم خطة دولة ناشئة ، طرية

المود بعد . وعلى عكس ذلك ، فكل شيء كان يساعد الاتراك على توسيع دائرة فتوحاتهم في البلقان ، حيث كان من الصعب على حواضر البلاد وقواعدها الكبرى ان تحتزن حاجتها من الميرة والعتاد فتضطر للاستسلام بسرعة وتفزع فريسة بيد الغزاة الذين كانوا سينمون بما ييسر لهم الفتح من ارزاق ومغانم وافرة ، بدلا من ان يضربوا حولها حصاراً قد يمتد طويلا لمناعة حصونها ومثانة قلاعها . فتجاه هؤلاء الزعماء السلافيين المنقسمين على انفسهم ، الذين حاولوا ، متأخرين ، ان يولفوا فيما بينهم احلافاً هزيلة الجانب تتصدى للزحف التركي ، تابع الاتراك الميثانيون زحفهم عبر تراقية ومقدونية البيزنطيتين ، فاستباحوا بلغاريا وصربيا ، وبذلك قضوا على ما تمثله هاتان الامارتان من رأس جسر متقدم يتمتع ، اسماً ، بشيء من المهابة والسؤدد . ففي هذه المرحلة الفاصلة التي وقعت في سهول كوسوفو ، عام ١٣٨٩ ، لقي السلطان مراد حتفه ، الا ان ابنه وخليفته السلطان بيلازيد ، عرف ان يجمع شمل جيشه وتمكن من اسر الملك لعازر وقتله . وعلى اثر انهيار استقلال بلغاريا ، انهارت مملكة الصرب ، ففقدت حريتها لاكثر من اربعة قرون كاملة . ومع ذلك ، فقد ترك الاتراك الظافرون ، الامراء والعظماء ، في هذه الدول المغلوبة على امرها ، في وظائفهم ومناصبهم ، بمسئد ان اخذوا عليهم الموائيق بالولاء والتابعة لهم ، فراحوا يديرون شؤون ولاياتهم واقضيتهم ، وفاقاً للتقاليد المرعية . ونال بعضهم عطف اسيادهم الاتراك ومناصرتهم ، عندما راحوا يصفون ، مع بعضهم البعض ، حساباتهم الدامية ، ويثأروا لانفسهم ، دونما رحمة من منافسيهم . صحيح انه حدث ، دونما شك في ذلك ، نقل بعض الاقوام من ديارهم ، واستبدالهم في المقاطعات الاستراتيجية ، بوحدات من الاتراك ، تركت لافرادها حرية التصرف بالاملاك التي جرت مصادبتها ار اغتصابها من ايدي سكان البلاد الاصليين ، كما جرى نقل بعض الجماعات اليونانية والسلاقية الى آسيا الصغرى وهذه المناقلات بالجملة ، وسرعة تبادل السكان ، كانت اموراً عادية اذ ذاك عرف التساير من امثالها الشيء الكثير ، فلم تكن لتلحق كبير اذى بالمنقولين ، اذ كانوا يحصلون من الاراضي الجديدة مسا يرازي بقيمتهم ويساوي ما تركوه وراءهم من الاراضي ، فيعملون تحت ادارة زعيم سلافي جديد في منطقة اناضولية . وهذه المناقلات السكانية جاءت بالطبع على نطاق ضيق ، باستثناء مقاطعة تراقية ، ولم تؤد قط الى تريك البلاد وطبعا بالطابع التركي الصرف .

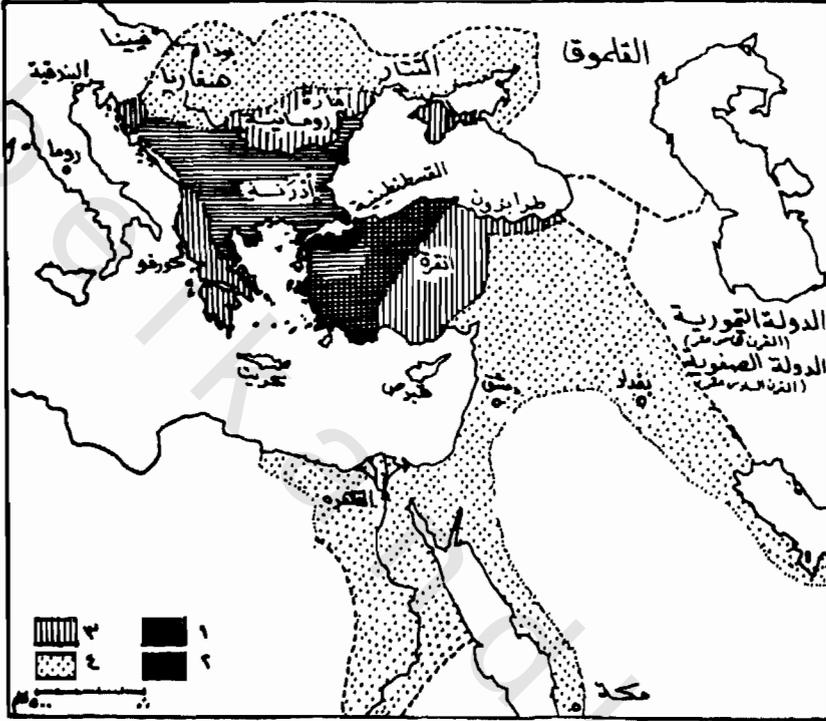
ومها بدت عملية استباحة البلقان عملية ناعمة هينة ، فقد اقتضى لها ، مع ذلك ، نقل عدد كالف من جنود الترك والسكان المسلمين ليسانعوا على سد حاجة الدولة ، من الأطر والاملاك العسكرية والادارية . وبالرغم من تولد عدد كبير من المتطوعة ، فلم يبق ما يفي من الرجال بحاجة المقاطعة الاناضولية ، التي كانت التربة التي اطلمت الاتراك الميثانيين . ولذا كان لابد من تأمين شيء من التوازن بين ممتلكات الميثانيين في اوربا وممتلكاتهم في آسيا الصغرى . وبعبارة اخرى ، فكلما اسفخت هذه ، ووسعت تلك بالنسبة ذاتها . ولم تكن المهمة لتبدو يسيرة سهلة في آسيا ، بل على عكس ذلك ، فقد كانت عويصة واشق بما كانت عليه في اوربا . فقد كانت الجبهات التركمانية مستسكة باستقلالها لا ترضى عنه بديلاً ، ولم

تكون لترغب او لتقبيل بالدوبان ضمن دولة نشأت على غير ايديهم ، رأوا في توسعها وانتشار رقعتها واستبطار شأنها خطراً على تقاليدهم . ان تحالفاً يتكون من اماراتهم المختلفة ، يستطيع ، لدى الاقتضاء، الاعتماد على مؤازرة المالك في مصر ، ومدّم له بالرجال والمال ، من شأنه ان يكون خطراً على العثمانيين اذ يصبح في مكنته ان ينزل الى ساحة الحرب جيشاً يفوق بعدده وعدته ما للاتراك من جيوش . فاذا ما استطاع الاتراك العثمانيون ان يخضعوا النصف الغربي من اناضوليا لسلطانهم قبل غروب شمس القرن الرابع عشر ، فالفضل كل الفضل في ذلك انما يعود للسلطان بيازيد ، وذلك للفتوحات العظيمة المدوية التي حققها في اوروبا : فراحت الدول البلقانية الموالية لهم تدمّم ، حتى الامبراطورية البيزنطية نفسها ، بوحدات من الجيش ، وهي تحسب ان بعملها هذا انما تبعد الخطر عن القسطنطينية ، ويفك الحصار المضروب حولها . وقد تألفت هذه الوحدات من اسرى الحرب ، ومن العبيد الارقاء الذين اتى بهم من اسواق النخاسة في البلقان ، فتضاعفت بهم فرقة الانكشارية المدربة افرادها على القتال المضمونة الولاء لهم والتي كانت تتقن فن الحصار على القلاع المستحصية . وهكذا ففي الحين الذي فتح فيه الاتراك البلقان لحساب العثمانيين ، راح البلقانيون ، بدورهم ، يساعدون العثمانيين على فتح تركيا آسيا واستخلاصها من التركان . فكل حركة اهتزاز ، يسرة او يمنة ، بين اوروبا وآسيا ، كانت تعود على العثمانيين بفتح جديد .

عنة الدولة العثمانية وفي هذا الوقت بالذات ، وقع المقدور وحّم القضاء وهوى السيف واعدة تنظيمها المصلت مثلاً بغزوة تيمورلنك الماحقة ، حاملة معها القضاء الغاشم والموت الزوام لكل دولة وقعت امام سيلها الجارف . اما العثمانيون فلم تحمل اليهم هذه النازلة في مطاوعها ، سوى عاصفة ألوتهم دون ان تعصف بهم أو تة تلهم . فقد غلب بيازيد شر غلبة ، في معركة انقره (١٤٠٢) وُسحقت جيشه ، واقتيد هو اسيراً ومات في الاسر . وللحال ، أخذ التركان في آسيا الصغرى ، بعد ان آزر عدد كبير منهم الغازي الفاتح ، يمدون تنظيم اماراتهم بعد زوالها وتواربها . وهذه الوحدة التي ميزت الامبراطورية العثمانية ضاقت حلقها بعد التفسخ الذي اصيبت به السلطنة الناشئة وباتت في مهب الريح عندما راح اولاد السلطان بيازيد ، يتعاضون بعنف وبقوة السلاح ، اطراف خلافة والدم ، كل لنفسه ، واعلنت ولاياتها في اوروبا القطيعة والانفصال عن شقيقتها في آسيا . فلو كان هذا الوهن تصاب به الدولة ، أدى الى ردة فعل من قبل المسيحيين ، لسكان اصبح مصير السلطنة العثمانية ، بعد معركة انقره على كف عفريت .

شيء من هذا لم يحدث قط ، اذ ان موت تيمورلنك المفاجيء والغباوة التي اتسم بها خلفاؤه من بعده ، تركا الامارات التركانية ، في آسيا الصغرى وشأنها ، تتخبط في مصيرها المجهول . وتمكن العثمانيون من التعويض عما ألمّ بهم من خسائر باجتباهم شطر مقاطعة قبادوقية ويتهبأون ، بتؤدة ، لاسترجاع فتوحات حققها بيازيد من قبل على عجل . ومما هو حري بالذكر والتنويه هنا ، هو ان مقاطعات البلقان لم تحرك ساكناً ، واوروبا المسيحية نفسها اخذت تهلل عالياً

وتصفق بحرارة لახبار انقره ، متومة ان السكابوس ارتفع الى الابد عن صدرها وانها تستطيع ان تتنفس الصعداء . ولم يخطر في بال أحد ان يقف في وجه استعادة الاتراك العثمانيين لوحدهم ، عن طريق تغذية الانشقاقات والاضطرابات وزرع التفرة التي ذرّ قرنها ، بين خلفاء بيازيد من ابنائه المتخاصمين . وموجز الكلام . ان جمود الصرب والبلغار واليونانيين ، والرضوخ



(الشكل ١٧) تكوين الامبراطورية العثمانية

١ - في الربع الثاني من القرن الرابع عشر . ٢ - في النصف الثاني من القرن الرابع عشر . ٣ - في القرن الخامس عشر . ٤ - في اوائل القرن السادس عشر .

لما قُسم لهم واستسلامهم لحالة الضعف التي ألمت بهم فمجزوا عن زحزحة النير الثقيل الذي رزحوا تحته ، كل ذلك افاد كثيراً في انقاذ الاتراك من الوضع الخطر الذي احاط بهم . فالأزمة لم يتضرّس بها ولم يكتوّر بناها سوى اقوام التركان ، في آسيا الصغرى الذين سارعوا الى التهور ولا سيما من كان منهم في هذه الحاميات القائمة على الحدود التركية .

فسياسة السلام التي اضطر خلفاء السلطان بيازيد الى انتهاجها مع جيرانهم من الدول المسيحية ، وضعت فجأة افراد جيش الغزاة الذين حرموا من اسلاب الحرب ومكاسبها ، وجهاً لوجه مع موجبات التزاماتهم المالية والضرائبية التي كانت تتعارض وعاداتهم المألوفة ، فاناروا وتمردوا واخذت حركة العصيان التي قاموا بها طابعاً خطراً ، اذ راح الشيخ بسدر الدين ابن قاضي سيمونا يضي عليها من تعاليمه التي دعا فيها الى شيوعية انسانية عرفت الاجيال الوسطى

دعوات كثيرة شبيهة بها ، جذب فيها قيام اخوة بين كل من عضهم البؤس والشقاء بناه ، من مسلمين ومسيحيين . وقد امكن قمع هذه الحركة بالدم والنار بفضل التعاون الذي قام بين النبلاء والموالين . وقد اقتنعت هذه الحركة السلطان محمد الاول ، اكثر اولاد السلطان بيازيد تفهماً للامور ، وانشطهم على الاطلاق ، انه لاعادة الوحدة الى السلطنة العثمانية وللحفاظ على هذه الوحدة التي كانت تقوم أصلاً ، على سيطرة العنصر التركي ، لا بد من الرجوع ، باي ثمن ، ومهما كانت الاخطار ، الى سياسة الشدة والفتح التي كانت منظمة الغزاة تقول بها وقدعو اليها . ولذا راح يتخذ سياسة جديدة حيال اترك آسيا الصغرى حاول معها ان يحلمهم على السير في مساقه ، بدلاً من محاولته القضاء على الامارات التي بعثت من جديد . ومن جهة اخرى عرف ان يؤمن التفاف سكان البلقان حول النظام الجديد . ومن هذه الناحية يجب النظر ، لفهم على الوجه الصحيح ، طلوع هذه المنظمة الجديدة التي طلعت علينا باسم « داشرمة » او تجنيد الاولاد . فاعتمدت الانكشارية اساساً في نظامها على الاسرى والايتم الذين يؤخذون في الحروب ، او على المسيحيين من سكان البلاد الاصليين ، فينشأون على مبادئ الدين الاسلامي ، ويُدرَّبون تدريباً عسكرياً شديداً ، فينقطعون للجندي في معسكرات خاصة ، فيُرسَلون للخدمة عبيداً ارقاء في حاشية السلطان وبلاطه او يُلحقون بوظائف الجيش فيصبحون مادته الاولى وذخيرته المثلى .

يا لها من فظاظة بربرية ووحشية، وأحطّ معاملة واشقاها على الاطلاق تنزل بأقوام المسيحيين المستعبدين !. هذا هو الحكم يصدره على هذا الوضع، هؤلاء المؤرخون الاوروبيون، الذين ارتخوا اول من ارتخ ، للسلطنة العثمانية ، وهو حك صدر، ولا شك ، عن ردة الفعل التي طلعت عقب أجيال طويلة ، عندما راحت الشعوب البلقانية يستيقظ فيها الشعور القومي، في ظل هذا النظام الهرم ، المهلهل الذي آلت اليه الدولة العثمانية فيما بعد ، فراحوا يشمرون بألم ممض ، لتجنيد اولادهم ، باعداد متزايدة . وقد راح بعض رجال الدين من الاجانب يشجبون بشدة منذ القرن الخامس عشر ، فرض اعتناق الدين الاسلامي بالقوة ، لاعتباره امراً لا يمكن تحمله ولا الصبر عليه . اما سواد السكان فقد اختلفت نظرتهنم اليها كل الاختلاف . فقد راح عدد كبير من سكان البلاد الاصليين ، بدافع من شعورهم الاجتماعي ضد الاكليروس المسيحي ، يمتنقون الاسلام زرافات ووحدانا ، كقبائل البوغوميل ، في البوسنة ، وبعض الالبانيين من سكان البانيا ، كما راحت جماعات بكاملها من المسيحيين الخاضعين للكنيسة اللاتينية ، التي لم تكن في نظرهم كنيسة وطنية ، يمتنقون الاسلام بالجملة هم ايضاً . ومع هذا فالبلدان السلافية كانت كلها تتعاطى تجارة الرق والنخاسة . والحال فالفتيان والاحداث الذين كان يقع عليهم اختيار العثمانيين ، كان يؤتى بهم من جميع الاوساط والمجتمعات ، شريطة ان تتوفر فيهم المؤهلات الصحية والبنية القوية ، فيعملون عبيداً في خدمة السلطان ، فيتخذون لهم ، من حياة الجندي ، مهنة اسمى بكثير وارفع مكان مما كان عليه وضع هؤلاء الفلاحين الاحرار ، المشدودين دوماً الى الارض . فالالمحطاط

الذي كانت تسكع فيه الطبقات الريفية ، قبل الفتح العثماني ، ساعد كثيراً على ترويح هذه العادة والترسيخ لاصولها بين مشاعر القوم . ومع ذلك ، فهؤلاء الأرقاء الذين كانوا يربون في حجر الاسلام ، ويمولون في خدمة الامبراطورية العثمانية ، لم يكونوا يفقدون ، لهذه الاسباب ، كل اتصال او علاقة لهم بديوبهم ، اذ كثيراً ما عرفت الأسر التي ينتمون اليها ، ان تقيده كثيراً من بروز ابنائها وتجليهم في ساحة الوعى او في خدمة الادارة .

وقد ادى هذا الامر الى احداث تغييرات جذرية في تشكيل الحكومة العثمانية اذ كانت تعمل في ادارتها ، حتى آنذاك ، على ابناء الارستوقراطية الاسلامية في آسيا الصغرى ، ولاسيما على اسرة جندرلي التركية التي طالما احتفظت بمنصب الوزارة والصدور العظام ، طوال القرن الرابع عشر حتى مطلع القرن الخامس عشر ، رأسها جندرلي قره خليل المعروف بخير الدين باشا . وكان اعتماد الدولة على خدمات رجالات هذه الاسرة من اصحاب الاعمال الكثيرة ، فرموا لاجلها بالشعبية - وهي تهمة طالما رجوم بها - لم يكن ليرضى السلطان ولا جماهير الشعب التركي عنها ، فجري استبدالهم بموظفين اداريين من طبقات اجتماعية متواضعة ، اكثر انقياداً للسلطان ، واكثر تهيؤاً للوظائف والمهام الموكولة اليهم ، فيتمتعون برضى اكبر ، لدى الشعب ، اقله في الدور الاول الذي تولوا فيه مهام الادارة . ومثل هذا الاستبدال تم في كثير من الميادين ، خلال الاجيال الغابرة ولدى كل الشعوب ، وقد جاء عند الاتراك العثمانيين في اثر التطور النموذجي الذي عرفه الرق : فقد اصبحت الحكومة ، في مجموعها ، اذ ذلك ، ورشة ضخمة من الحشم والخدم في خدمة السلطان . انه لشرف عظيم ولمركز سام ان يكون المرء عبداً عند السلطان . ولعل اكبر واثمن صفة لهم ، انهم صورة مصغرة لسلطة السلطان ، في نظر اشد الاحرار بطشاً وارفهم شأناً . ولا يسع المرء الا ان يتساءل كيف نهج الاتراك العثمانيون مثل هذا النهج ، وهم المسلمون الذين كانوا يتباهون بالاستمسك باهداب الدين الحنيف ، طالما ان الدين الاسلامي لم يكن ليسمح قط باستعباد المسيحيين ، وباخضاعهم بصورة منهجية للرق . فالجدل لا يزال قائماً حول الموضوع . وبقيت منظمة الداشرمة امراً واقعياً ، معمولاً به الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فلم يثر هذا النظام ، لدى المسيحيين ولا عند المسلمين ، اي احتجاج او اعتراض .

وبعد ان أعيد تشكيل الامبراطورية وتم تدعيمها على مثل هذا النحو الذي وصفنا انصرفنا الى تحقيق المزيد من الفتوحات الجديدة في اوروبا زادت رقعتها اتساعاً . فاحتلت مقاطعة البوسنة وفلاخيا ، وسحقت تحالفاً جاء متأخراً جداً ، تألف من بولونيا والمجر وفلاخيا ، واوقفت عند مدينة فارنا ، على ساحل البحر الاسود الغربي ، هجوماً قام به الحلف المذكور ، عام ١٤٤٤ ، وتوجت هذه المآتي باستيلائها عام ١٤٥٣ ، على القسطنطينية . وهكذا ، بعد مضي ثمانمائة سنة على اول هجمات العرب المسلمين ضد هذه المدينة ، قَبِضَ للعاهل العثماني ، وريث الدعوة للجهاد ، والناهض بالحرب المقدسة ، ان تتم على يده هذه المعجزة المثلثة باحتلال

بيزنطية. فكان هذا الاحتلال رمزاً لهذه الوحدة التي جمعت أوروبا وآسيا معاً ، فطبعت بطابعها المميز انبعاث امبراطورية « الروم » الجديدة ، الذي جاء لصالح الاسلام ، هذه الامبراطورية التي سبق وحلم بانشائها وبمئتها من جديد ، السلطان بيازيد ، عندما تقدم من الخليفة العباسي في القاهرة ، بطلب الاعتراف له بمجل لقب : « سلطان الروم » . فقد تم له من قوة جيشه ما اتاح له تحقيق هذا العمل العظيم ، بعد ان انشأ له فنيون مسيحيون ، مهرة ، اقوى مدفعية تم صنعها حتى ذلك . وبعد دفاع مستميت قام به السكان ذوداً عن حياضهم ، واستماتة الامبراطور قسطنطين الحادي عشر في رفع الحصار ودفع المقدور ، سقطت المدينة في يدي محمد « الفاتح » عام ١٤٥٣ ، فاسلمها للنهب والسلب واستباحها مدة ثلاثة ايام بلباليها . ولم يحتاج لاكثر من بضع سنين حتى تهاوت بلاد اليونان كلها بقبضته ، باستثناء جزيرة رودس ، حيث استطاع الرهبان « فرسان الهيكل » ان يستقلوا بالامرفيها حتى مطلع القرن السادس عشر ، وباستثناء جزيرتي كريت وقبرص اللتين كانت اولاهما واستمرت تحت سيطرة البندقية ، حتى القرن السابع عشر ، بينما لم تسقط قبرص الا في النصف الثاني من القرن السادس عشر . وبسقوط طرابزون بدورها زالت من الوجود آخر اماراة يونانية ، كما زالت وتوارت عن الوجود ايضاً ، الامارات السلافية الواقعة الى الجنوب من نهر الدانوب . والبانيا نفسها التي خلد اسمها بمآتي بطلها الوطني جورج كستريوتا المعروف باسكندر بك ، لم تستطع الاستمرار بالمقاومة لاكثر من بضع سنوات ، وبذلك اصبحت الامبراطورية العثمانية في أوروبا ، وحدة متجانسة ، لا ثغرة فيها ولا مغز .

وهذه الدويلات اللاتينية التي حاول اسيادها عبثاً تفادي الخطر المداوم المحيط بها ، بما حاكوا في هذا السبيل من دسائس ، ونصبوا من عراقيل ، وأتوا من صنوف الزلفى والوان الدلس ، لم تلبث ان حملها السيل الجارف وابتلعها الموجة المزجرمة وغطاها اليم . فزالت من الوجود السياسي شبه الجزيرة اليونانية ، وجزر الارخبيل ، وهذه الوكالات التجارية التي اقامها الجنويون في غلاطة ، ومستعمرة « كفا » القائمة بميداً ، على سواحل البحر الاسود ، بعد ان كانت وقعت ضمن نطاق التجارة الروسية ، منذ زوال الامبراطورية المغولية ، والتي جرى تدميرها بمؤازرة « التتار » المحليين ، بعد ان ساروا في المدار العثماني . وفي تلك الاثناء كان الحرس من الجنود العثمانيين يقومون بالسهرة على حراسة شواطئ البحر الادرياتيكي ، وعند اقاصي حدود هذه المنطقة من دلماتيا التابعة للبندقية ، ويقفون تجاه الجزر الايونية . كذلك حاولت الاحزاب السياسية القائمة في ايطاليا الاستفادة من خدمات الجند العثماني في سبيل تنفيذ سياستها الصغيرة . وفي سنة ١٤٨٠ ، رأينا العثمانيين ينزلون الى البر ، امام اوترانت . ولقيت فتوحاتهم ، في اتجاه أوروبا الوسطى ، السهولة ذاتها . فالاستقلال الداخلي الذي تمتعت به الامارات السلافية التي كانت ملعباً لدسائس المهر والأعيهم ، قد الفته الدولة الجديدة ، عندما تهأت لها اسباب تأمين الادارة بنفسها مباشرة ، محترمة ما امكن التقاليد والاعراف الوطنية الخاصة التي سار عليها سكان البلاد ، الامر الذي جعل الشعب يأنس لحكمهم ويركن لادارتهم . وعلى هذا النحو ، استطاع

العثمانيون ، خلال القرن السادس عشر ، ان يصفوا نهائياً وضع هنغاريا ، وان يدفعوا بجيوشهم وجحافلهم الى الامام، حتى بلغوا بها اسوار فيينا ، بصفتهم حلفاء الملك المسيحي البار فرنسوا الاول ، خصم شارل الخامس . وفي الوقت ذاته ، اصبح البحر الاسود بحيرة عثمانية ، بمد ان خضع التتار ، في جنوبي روسيا ، والرومانيون من سكان رومانيا ، لسيادة امتازت بالمرونة ، وكانت اكثر السلطات التي قامت ، لأن ، احتراماً للاستقلالات الداخلية التي تمتع بها الاهلون .

اما جبهة آسيا ، فقد كانت تثير ، اذ ذلك ، من المتاعب والمشاكل الشائكة ما اثارته في وجه الاتراك العثمانيين من امثالها ، في القرن الماضي . صحيح انه لم يكن ثمة أية امسارة بين الامارات التركمانية تستطيع ، مها اشد منها الساعد ، ان تقف في وجه العثمانيين ، حتى سلطنة الخروف الابيض منها في ارمينا ، التي حاولت البندقية ان توازر سلطانها حسن الطويل وتقف الى جانبه ضد محمد الثاني . فقد سبق لتركان آسيا ان اظهروا ولاءهم ، ووقفوا الى جانب دولة نشأت بعيداً عنهم ، حيث لم يكن لهم مايطعمون او يحملون بامتلاكه . فقد كان بإمكانهم ان يحدوا عوناً ، ويلقوا سنداً في هذه الحركة الواسعة التي كان يتمخض بها هذا القسم الغربي من ايران ، حيث كان تركان هذه المقاطعة ، ومعظمهم من جماعة الشيعة ، على سوء تقام وتنابد مع ملوك الدولة التيمورية ، ومع سلاطين دولة الخروف الابيض السنيين . وقد نعم بنفوذ كبير بين سكان هذه المنطقة ، عدد كبير من الجمعيات والهيات الدينية ولا سيما الصوفية منها . وقام في مدينة أردبيل من اعمال اذربيجان ، دولة من المولوية ، وهي دولة شيعية ، ورائية عرفت ان تجمع حولها ، خلال القرن الخامس عشر ، وحدات عسكرية معظم تشكيلاتها وكراديسها من التركان المتحمسين ، وجهتهم وجهة الجهاد المقدس ، ضد الكرج من غير المسلمين ، ثم ضد الخوارج في الداخل . والخوارج هنا كلمة عنت كل من ليسوا على المذهب الشيعي ، بمد ان عرفت الدولة الصفوية ان تنفخ في رعاياها، المتوزعين مللاً ونحلاً ومذاهب مختلفة ، ميلاً شديداً ونزعة ملؤها الحماسة نحو الشيعة . وعرف اولو الامر فيها عن طريق دعاية ناشطة ، واعية ان يكسبوا لهم عدداً كبيراً من الانصار بين تركان آسيا الصغرى الذين راحوا ، تمييزاً لهم عن الآخرين ، يعتمرون قبعات حمراء ، فعرفوا لهذا باسم كزلباخ (اي الرأس الاحمر) ، وهي فرقة لا تزال قائمة لليوم بين الاكراد وذلك تمييزاً لهم عن انصار العثمانيين الذين اعتمدوا اللون الابيض في قبعتهم . وقد توصل هؤلاء التركان الى ان يؤسسوا لهم ، في ايران ، دولة موحدة ، هي الدولة الصفوية التي اضطلعت بالامر لمدة قرنين ، يمكن اعتبارها ، بالرغم من اصل مؤسسها ، اول دولة وطنية تقوم في ايران ، دخل تحت حكمها كل الولايات الفارسية الاصل . اما الدولة التي قامت لهم في آسيا الصغرى ، فكان لا بد لها من الاصطدام بالعثمانيين لانها كانت تهدد رعاياهم بالذات . ففي الحين الذي راحت فيه الدولة العثمانية تتخذ تدابير جزرية دينية ، شديدة ، جعلت الحكم ، اكثر من اي وقت مضى ، يتسم بصلابة العقيدة والتمسك باهداب السنة ، قاموا بتجريدات عسكرية ضد الدولة الصفوية انتهت بضم العثمانيين ، لارمينيا الصغرى ، الى املاكهم

ثم راحوا يدفعون خصومهم شرقاً ، الى الورا ، فتمكنوا في مستهل القرن السادس عشر ، ان يحتلوا العراق ، مع انه لم يخطر لهم على البال يوماً ، ان يتوسعوا على حساب العرب لما يعرفون من صعوبة تمثلهم وأستمرارهم لهم .

ومع ذلك ، فقد توصلوا ، في بضع سنوات ، لاحتلال الجانب الاكبر من الاقطار العربية ، مبتدئين بمصر المالك حيث كان التركان يتمتعون بمطف ظاهر بعد ان اعلنوا ولاءهم للمالك . فالضعف الذي كان عليه المالك ، اذ ذلك ، واقتتار جيشهم للمدفعية ، اتاح للعثمانيين ، احتلال سوريا ومصر ، ببضعة اسابيع ، باعثن في قلوب التجار ورجال الدين معاً ، الامل بان يتمكن اسياد البلاد الجدد ، من وضع حد لسيطرة البرتغاليين ، على مرافق التجارة ، في البحر الهندي . وفي الوقت ذاته وقمت المدن المقدسة ، لدى الاسلام ، تحت سيطرة العثمانيين وحمايتهم . وعندما حمل العثمانيون معهم اسيراً من مصر آخر خليفة عباسي ونقاوه الى الاستانة ، راح الشب يلقب السلطان سليم الأول بلقب امير المؤمنين ، وهو لقب حمله خلفاؤه من بعد ، حتى سنة ١٩٢٤ . وبعد ذلك بقليل تولى فريق من العراضة يعملون في خدمة الدولة العثمانية مباشرة ، فتح اقطار شمالي افريقيا ، واضعين هذه البلدان البعيدة تحت سيادة الترق ، وسيطرته ، هذه السيطرة التي سبق لهم وتحرروا منها منذ سبعمائة سنة او ثمانمائة سنة . حملنا السير بسر د قصة الفتوح العثمانية على ان نتجاوز قليلاً ، نطاق الحدود المتعارف عليها للاجيال الوسطى ، فننتبع تاريخ الفتوحات العثمانية ، التي لا تلبث ولا ترضخ للتقاسم الكيفية المتفق عليها للازمنة التاريخية ، حتى سنة ١٥٣٠ - ١٥٤٠ . وهذه الامبراطورية الجديدة ، التي لم يبق لها سوى ان تمكن في الارض وترسل جذورها عميقاً فيها ، قد حققت وحدة الشرق الادنى ، هذه الوحدة التي اذبتها وعبثت بها ، منذ اكثر من الف سنة ، هذه الدول التي دالت مع الماجريات السياسية التي عرفتها هذه البقعة من الارض . وفي هذا يصح ان تعتبر ذاتها الخليفة الشرعي والوريث القانوني لروما .

فرغت السلطنة الجديدة من وضع تنظيماتها الجديدة خلال القرن
التنظيم العثمانية
السادس عشر . وللقارىء الكريم اهم ما تميزت به الادارة التركية
منذ القرن الخامس عشر .

زعم الزاعمون انه لم يتم للعثمانيين اية فكرة صحيحة عن الدولة والتنظيمات التي يجب ان تقوم عليها ، اذ ان الاشخاص الذين اعتمدت عليهم في تحقيق هذا الامر انما كانوا من سكان البلاد الاصليين ، ورثة التقاليد البيزنطية . وفي مثل هذا الزعم ، لأكثر من دليل وشاهد على فقدان الذكاء عند من يرددونه ، اذ ينسون او يتناسون ويغم عن ابصارهم وبصائرهم ، الانحطاط الذي آلت اليه النظم التي عمل بها في الدولة البيزنطية ، كما جهلوا وتجاهلوا واقعاً تاريخياً هو ان الامبراطورية العثمانية تم انشاؤها على يد اترك مسلمين ، وفدوا من غربي آسيا الصغرى . فاذا ما دخل الادارة موظفون من اصل بلقاني اعتنقوا الاسلام ودانوا به منذ عهد قريب ، وساهموا فيها على نطاق واسع ، وبلغوا معها مراتب عالية تتناسب وعددهم المتفوق ، فقد قاموا بذلك ،

بعد ان عملوا في نطاق ملاكات وقدرتوا على ايسد ماهرة ، وفقاً للتقاليد الادارية التركية البحتة . فلو لم يجر الامر على هذا النحو ، لما امكن لهذه النظم والمؤسسات والاطر الادارية البالية التي اتهموم باقتباسها ، ان تبقى صالحة للعمل وتستمر فعالة ، والا لكانت زالت من الوجود وبطل العمل بها . والذي نعرفه معرفة اليقين ان النظم التركية ، بقيت مرعية الاجراء ما بقيت الامبراطورية العثمانية نفسها .

والعثمانيون كثيرهم من الغزاة الفاتحين الذين ظلموا علينا في الاجيال الوسطى ، لم يفكروا يوماً ان يهدموا او ينسخوا العادات والاعراف التي سار عليها سكان البلاد الاصليون مما لا يتعارض العمل به مع سلطتهم وسلطانهم ، فكيف بالتي تؤيد هذه السلطة وتمكن لها في الارض ، وترسخ لهيتها في القلوب . كذلك من الهال مما ان تفرض دولة ما على رعاياها ، حقاً عاماً لا تشده اية آصرة او رابطة ، الى مختلف الطوائف والمثلل القائمة فيها . فالامور الادارية المحلية او الاقليمية الجاري الاخذ بها ، ولاسيما ما تعلق منها بالاعراف المالية ، لم يكن ليصح ادخال اي تشويش او اضطراب عليها الا بنسبة التطور الذي قطعتة الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، في البلاد ، وهو شيء لا يجري ، اذا ما حدث ، الا بتؤدة وتمهل . ولماذا لا يستعمل او لا يقتبس العثمانيون السجلات العقارية التي وضعها البيزنطيون والسلافيون ، من قبل . ولماذا نريدهم اعجز من ان يقيموا او يضعوا نظماً مماثلة ، حيث تبدو الحاجة الى ذلك ؟

والحقيقة التي لا يمارى فيها هي انه ، هنا كما في كل الدول الاخرى ، يجب التمييز او التفريق ، بين المؤسسات المركزية ، او القلبية ، التي وضعها الفاتحون من انفسهم ، وبين المؤسسات والنظم الاساسية الاخرى التي جاءت استمراراً واستدامة للتقاليد الوطنية في البلاد . فالامبراطورية العثمانية ، هي قبل كل شيء دولة اسلامية . ولما قبضت لها ان تشيل الاسلام وتنهض بمنائره على المشركين ، فقد سارت في ذلك ، وفقاً للشريعة الاسلامية . وكغيرها من الدول الاسلامية ابقت سدنة المساجد ومعلمي المدارس حتى والمضاهة الذين تجري لهم الاوقاف والأعطيات والمراتب لقاء تطبيقهم احكام الشريعة الاسلامية وفرائضها ، بنأى عن كل مراقبة حكومية ، ومن هنا تبرز في دولة كل من فيها جيش محارب مجاهد ، اهمية قاضي الجيش . ومن ثم راحوا يعملون على الفقهاء ويستفتونهم بعد ان جرى تنظيمهم بشكل جسم او هيئة يرأسها مفتي كبير ، تألف من مجموعهم اشبه بمجلس اعلى ، يتولى الاشراف على تطبيق القانون .

كذلك ، اسوة بالدول الاسلامية الاخرى ، كان على الحكومة العثمانية ان تتخذ اجراءات سياسية وادارية تمت بصلة للشريعة الاسلامية ان لم تخالفها في بعض الاحيان . واعتمدت في تطبيق هذه القوانين ، هيئة من الموظفين ، من مدنيين وعسكريين كانوا عملاءها المباشرين ، لا يتمتعون حيالها بالاستقلال الذي تم لرجال الدين والشريعة . فبينما نرى السواد الاكبر من الموظفين السياسيين والعسكريين ، في الدول الاخرى ، يأتون من طبقة العبيد والارقاء ، طلع موظفو

الادارة المدنية ، بعكس ذلك ، من الطبقة الثرية بين سكان البلاد الاصليين . اما في الامبراطورية العثمانية ، فقد انصهرت هذه الفئات مما بسرعة كلية ، بنسبة ما امدت منظمة الداشرمة ، الجيش ببعض وحداته ، والادارة بمعظم الموظفين الذين محتساج اليهم ، وبهذا العدد الكبير من الموظفين الذين كانوا يعملون في بطانة السلطان وحاشيته . فقد كانت هذه المنظمة عبارة عن ورشة ضخمة لتخريج ما يلزم من خدم وحشم للقطاع الرسمي ، خضعوا في مجموعهم ، قبل مباشرتهم العمل ، لتدريب مسلحي خاص ، ولقنوا احسن تلقين للقيام بواجباتهم ومسؤولياتهم نحو السلطان والدين الاسلامي ، بعد ان يتلقوا دروساً وتربية صالحة ، وفقاً لمنهاج خاص كان يوضع لهم باشراف البلاط نفسه . وهكذا ، فقد كان الانكشارية ، منذ عهد السلطان محمد الثاني ، فرقة عسكرية ، كما كانوا ، من جهة اخرى ، نوعاً من رهيبة دينية محاربة على شاكلة فرسان الهيكل عند الصليبيين ، يعملون تحت امره ضباط من منظمة البكتاشية كانوا يشرفون عليهم من الوجهة الخلقية والادبية .

ان ضخامة المسؤوليات الادارية واتساعها في هذه البلدان التي جرى فتحها وضما الى السلطنة جعلت للقانون المدني ، في نظام الحكم العثماني ، اهمية فاقت كثيراً ما كان من امثالها في الدول التي تشكلت من قبل . فلأول مرة اصبح للقانون الذي ينظم الحياة الاقتصادية والمالية في البلاد هذا الشأن العظيم الذي تم له ، وهو قانون ساهمت في وضعه وصياغته وتكوينه ، عناصر اقتبست من القوانين البيزنطية ، واخرى استنبطها العثمانيون وجاؤوا بها من عندياتهم . وهذا القانون الخاص بالنظام العثماني يقوم على مبدأ اعتبار الدولة كلها ، ملكاً خاصاً للسلطان وخلافاً لكثير من الانظمة التي عرفتها الاجيال الوسطى التي وقعت في الوهم ذاته ، فانزلت المصلحة العامة منزلة المصلحة الخاصة ، نرى على عكس ذلك تماماً ، المصلحة الخاصة ، في الدولة العثمانية ، تتضخم وتتسع بحيث تصبح دولة واسعة . وبالفعل ان سعود الحروب التي قام بها العثمانيون وما رافقها من توفيق في النتائج التي ادت اليها ، وهذه السياسة الصارمة التي ساروا عليها والتي رمت الى مصادرة كل الاملاك الخاصة ، جعلت املاك الدولة (الميري) تشمل كل الاملاك الخاصة ، فتتولى الدولة ادارتها رأساً او تؤجرها وفقاً لانظمة خاصة سنذكرها بالتفصيل بعد حين . وهذه التغييرات التي بدت سيان لدى الفلاح لانها لم تُدخل ابي تعديل في الرسوم والضرائب المترتبة عليه ، وفُترت للدولة موارد طائلة ومرنة في آن واحد ، اذ اولتها على الناس ولا سيما على اصحاب الطبقة الارستوقراطية ، سلطة لم نرَ حكومة من الحكومات السالفة ، تتمتع بشيء منها .

ومع ذلك ، قام من ينعت النظام العقاري او التملكي الذي عمل به في الامبراطورية العثمانية ، بنظام « اقطاعي » . فاذا كانت فرقة الانكشارية التي ازدادت اهمية حربية بازدياد الاسلحة النارية الجديدة ، بقيت تكاليفها على حساب السلطان الخاص ، فلم يكن الامر ، على مثل هذا النحو ، مع فرقة الخيالة او فرقة السباهيين التي حلت محل فرقة والغزاة ، اذ كان الفارس الخيال

يتناول لقاء خدمته « تياراً » . ويتميز التيمار او الاقطاع الحربي بأن تمنح الدولة او السلطان ، احداً من رعاياها إقطاعاً من الارض يوازي بقيمته خراج قرية لا يدفع عنه ضرائب ، في نظير التزام صاحب التيمار « الاقطاع » بتجنيد نفسه او ابنائه او اتباعه للخدمة في الجيش او البحرية ، اذا ما دخلت الدولة في الحرب . ويكون عدد المهنددين مناسباً لدخل التيمار . والكلمة فارسية الاشتقاق والاصل ، وهي ترادف كلمة *Pronoia* البيزنطية ، وتشبه من حيث مدلولها مدلول الاقطاع ، كما عرفه الاسلام ، وكما عمل به في مصر المماليك . وللدولة ان ترجع عن هذه المنحة اذا ما عجز صاحب التيمار عن القيام بالالتزامات المفروضة عليه . ولذا قلما انتقل التيمار الى الابناء والورثة . فصاحب التيمار يخضع لمراقبة الحكومة التي يمثلها في المقاطعة والى او حاكم عام قابل للعزل والرفق . وكان يتمين على اصحاب التيمارات من كبار ضباط الجيش ، ان يدربوا ، بالاكثَر ، ٢٠ فارساً ويدربوهم على استعمال السلاح . وهكذا بدت السلطنة العثمانية اكثر دول الاجيال الوسطى أخذاً بالسلطة المركزية. وهذا الوضع هو بالفعل الوضع الذي سارت عليه الامبراطورية البيزنطية في عهد يوستينيانوس ، والدول العباسية نفسها في ابان مجدها .

وكغيرها من الدول صاحبة الشأن التي سبقتها ، اعتمدت السلطنة العثمانية في ادارتها على طبقة الموظفين . والسلطان ، كغيره من الملوك الذين سيطروا وسادوا ، بدا وكأنه سورمان ، من عجينة فوق البشر ، يعيش منزوياً عن الناس ، الا في ايام الحرب ، في قلب سراياه التي تؤلف لرحدها ، مدينة في قلب المدينة العاصمة ، يبلغ اليها بعد الكثير من المراسم والتشريفات . وقد عرفت الاسرة المالكة في الدولة العثمانية ان تصون العرش وتحافظ على التاج من كل عبث الطامعين اليه ، بطريقة مختصرة مبسطة للغاية ، وذلك بالقضاء على اخوة الورث الشرعي ، بطرق ملتوية ، مشبوهة . وكان السلطان يتزوج ، في الاساس ، من اميرات تركيات او مسيحيات . ومنذ القرن الخامس عشر لم يعد عنده زوجة شرعية ، وما اولاده وبنوه الا ابناء بعض السراوى والمحظيات اللواتي لا يحصى لهن عدد ، ممن يهدن الى دار الحرم . ولم تكن البلاد بلغت بمصلحهم الذي كان فيه السلطان لا يبارح دار الحرم قط ، ليصبح دمية بيد سراريه . فالفاتح والقائد المظفر الذي كانه محمد الثاني ، لم يعرف عنه مغامرات عاطفية .

وهذه الفظاظلة ، وهذا الخداع الماكر ، وغيره مما قذفوا به هؤلاء السلاطين ، في عداد مسا وجها اليهم من تهم وتشنيع ، هل اختلف ذلك كله عما عرف به معاصروهم من امراء ايطاليا في عهد مكيا في مثلأ ؟ فهذا العدد العديده من المسيحيين الذين أتيح لهم الاقتراب من هؤلاء السلاطين ومخاطبتهم دونما حسيب او رقيب ، لم يستطيعوا ان يتفادوا قط الوقوع تحت ما لهم من مهابة ووقار . فهم ابنا عصر واحد وزمن واحد . وبما لا بد من التنويه به عالياً ان هؤلاء السلاطين لم يظهروا اي تحرج او تعصب تجاه المسيحيين ، في وقت وزمان كان فيه ديوان التفتيش يبطش بالناس بطشاً وينزل بهم الهلع باعتباره محكمة رسمية ، وقضاء عالياً من افضية الدولة ، وفي عهد كان اليهود والمسلمون يطردون دونما رحمة او شفقة ، من اسبانيا . فاذا ما رسفت الكنيسة الارثوذكسية ، في آسيا ، والارمن ، وهم اكثر عدداً ، منذ عهد بعيد ، في الذل والمهانة ،

فالبطريك المسكوني كان اظهر ولائه دونها موارد ، للعثمانيين الذين لقي عندهم كل رعاية وحماية ، فصانوه من تعديات اللاتين ومدخلاتهم ، كما ان تقربه من اولي الامر ، زاده نفوذاً اكبر لدى الكنائس السلافية التي كانت فقدت ، اذ ذلك ، الشيء الكثير من الاستقلال الداخلي الذي تمتعت به من قبل . وبالرغم من نظام الداشرما ، واسكان عدد كبير من الجاليات الاسلامية في البلقان ، واعتناق بعض الجماعات البلقانية الاسلام ، فلم يأت العثمانيون شيئاً مهماً ليمنعوا السواد الاكبر من سكان البلاد البلقانية من الاحتفاظ بنصرانيتهم . وعلى نقيض ما حدث عند استفحال الفتح وبلوغ مده الزبي فالفتح السياسي العثماني لم يزدوج بفتح ديني .

فبعد ان أغلظ الاتراك العثمانيون معاملة الامارات اللاتينية وقلعوا اظافرهما معالم المدنية العثمانية بالحد من الامتيازات التي تمتعت بها ، تساهلوا كثيراً مع هؤلاء التجار غير المسلمين الذين انصرفوا لاعمالهم التجارية فيها بينهم ، بعد ان اخضعوا نشاطهم لمراقبة شديدة ، وفرضوا عليهم رسوماً وضرائب مقيته . ولم يلبث رعايا فلورنسا ان استغلوا ما يتمتعون به من امتيازات واعفاءات ، بخلاف البندقية وجنوى اللتين سبق لهما ونهجتا سياسة عدائية ، نحو العثمانيين . وقد استطاع رعايا البندقية فيها بعد ، ان يسترجعوا جانباً مما خسروه في هذا المجال من نفوذ ومكانة وشأن . وهكذا يتضح لنا ان النشاط التجاري لم تحب جذوته في الامبراطورية العثمانية . وبفضل توافد المديد من الجوالي السلافية والاسلامية ، بانتظار وصول اليهود المطرودين من اسبانيا ، والأرمن القادمين من الشرق ، اصبحت العاصمة الاستانة وسراي الدولة ، اكبر زبائن لتجارة الكاليات ، فبزّت ، في هذا المضمار ، ما كانه البلاط البيزنطي في أوج عزه وازدهاره . وتبين لنا من وصف الرحالة الغربيين والمسافرين ان الاستانة كانت تمرور بالحركة وتموج بالنشاط ، بعد ان اخذت النقابات البيزنطية تستحيل ، دونما ضغط او اكراه ، نقابات اسلامية .

وبعد ان تناسى العثمانيون أصلهم البعيد ونشأتهم الحشنة الأولى ، راحوا يطلقون العنان ، لهذه الحضارات التي عرفوها في البلدان التي فتحوها ، فزهت تحت كنفهم وازدهرت . فقد أنس بليشن للعيش في القسطنطينية . واذا ما راح فرونتزيس ، ودوقاس ، وشاكوكونديلس يمارسون ويكتبون في المقاطعات التي هاجروا اليها مما يقع تحت سيطرة اللاتين : كجزيرة لسبوس وكورفو وكريت قصة صبرورة الامبراطورية الرومانية ، امبراطورية الروم ، فلم يتردد المؤرخ كريستوبولس ان يرفع الى السلطان محمد الثاني ، السيرة التي وضعها عن حياته . وقد رأينا فنانيين ايطاليين يعملون في خدمة السلطان ، امثال جنتلي بلسيني ، يرسمون لنا صور الكثير من الناس والاشياء في القسطنطينية الجديدة .

فها نحن امام مدينة عثمانية تحاول جهدها ان تفرغ في حضارة واحدة ، شق المدنات التي ازدهرت في امارة الكرمانيين ، اسيا العاصمة القديمة قونية ، في عهد السلجوقيين ، وامارة

قسطنطيني الى الشمال من انقرة ، وامارة الخروف الابيض . فهذه الحضارات لا تزال تحمل الكثير من معالم الثقافة العربية والارمانية . ففي الوقت الذي راح فيه الفقهاء ورجال الدين يتابعون الكتابة بلغة القرآن ، ورجال التصوف والشعراء والكتاب من كل صنف ولون ، يستعملون كثيراً اللغة الفارسية ، اذ بالترك يقتصر معظم ادبائهم ، اذ ذلك ، على الترجمة والنقل . ويتناول هذا اللون من الادب مواضيع صوفية او بعض قصص البطولة الموضوعة بالارمانية ، وأحياناً بالعربية ، بحيث اخذ الادباء الذين ينقطعون لهذا الادب يفكرون بالارمانية ، ما يكتبونه بالعربية ، وان جهل السواد الاعظم من مواطنيهم اللغة التي يكتبون . فالادب التركي في هذه الحقبة ، حيران ، متردد ، يحاول شق طريقه ، مقتفياً اثر الآداب القريبة منه التي ازدهرت في آسيا الوسطى . وباستثناء هذه الترجمات والنقول العلمية العالية ، نرى معظم المؤلفات الشعرية ، بالعربية والتركية ، تلاقى ، منذ القرن الخامس عشر ، انتشاراً واسعاً ، وتحت تناول الشعب ، ان شئنا ان نضرب صفحاً عن ذكر الامراء الذين يحسنون التركية اكثر من احسانهم للفارسية . والى جانب الشعراء الكبارين: نظمي واحمدى ، اللذين لما في القرن الرابع عشر ، يجب ان ننوه هنا بما بلغه الاهتمام بالتاريخ التركي ، في القرن الخامس عشر ، وذلك عن طريق هذه الترجمات لتاريخ إيران القديم ، ووضع تاريخ مفصل للعثمانيين بالتركية ، وهذه القصص الشعبية الوطنية وهذه الروايات الشعبية التي تشيد باجداد الأوغوز والتي كان ينشدها الشعراء ويتغنون بها ، منذ عهد بعيد . ولم يلبث مسرح خيال الظل الذي تضافت على تكوينه عناصر جاءت من بلدان مختلفة بين بلدان الشرق ، مسيحية و اسلامية على السواء ، ان ظهر بين الاتراك وبرز بشخصية كراكوز المثيرة للضحك .

كان الاتراك العثمانيون من كبار بناء المساجد والمدارس ، ومثلوا دوراً بارزاً في مضمارة الهندسة ، اذ عملوا على تطوير المذهب الفني الذي ساد عهد السلجوقيين والقبول . فمذ القرن الخامس عشر ، رفعوا الفن منارة كبرى تمثلت بهذا المسجد المسمى بالمسجد الاخضر في بروسة ، للون القاشاني الاخضر الذي يزينه من الداخل . فالخزف هو من هذه العناصر التي ميزت فنهم الناشئ ، بينما راح كثيرون من رعاياهم ، بين يونانيين وارمن ، واتراك وعجم ، يضعون لهم الطنافس ويمحكون السجاد على انواعه واشكاله ، لا يتعدى اقدم المحفوظ لدينا منها ، القرن الخامس عشر .

وبعد سقوط القسطنطينية ، اخذت الارادات الحسنة ووسائل التنفيذ تلتقي وتقوى ، والمؤثرات الاسيوية راحت تتمازج وتختلط بالتقاليد والاساليب الفنية التي اشتهر بها الفنانون من ابناء البلاد . فاليوناني كريستوبولس وضع نفسه بخدمة السلاطين واصبح الرائد الأول الذي اقتفى سنان ، اشهر مهندسي الاتراك في القرن التالي على الاطلاق ، أثره وسار على منواله . بل ايضاً راح السلطان محمد الثاني وخلفاؤه من بعده وكبار الموظفين التابعين لهم ، يتنافسون بحماسة ونشاط ، ليجعلوا من الاستانة ، عاصمة تكسف ، بما بلغته من زهو وزينة وجمال ، اجماد

القسطنطينية في أوج عزها البيزنطي . فلم يكفهم ان حولوا كنيسة آجيا صوفيا الى مسجد كبير وغطوا سيفسائها الجدارية بالملاط، فقد بنوا مساجد اخرى كبيرة، تحاكيها من حيث الاتساع والضخامة ، معطين بذلك الدليل على ان عهد القباب لم يغيب بعد عن دنيا الفن ، فتذهب المآذن رافعة رؤوسها نحو السماء ، متحدين برشاقتها وبزخرفها هذه الكنائس المتواضعة المظهر ، القائمة بعد ، في اقطار الشرق . وهكذا فجامع الفاتح يهد الطريق لهذه الابنية الهندسية الضخمة التي تبدو من هذه الغلالة الندية التي تلف المدينة في الصباح الباكر ، فتشير بمجمها هؤلاء المسافرين الذين ترسو سفنهم على مقربة من رصيف القرن الذهبي . ان عدم استجابة النفس التركية للفن ، وأخذها بالنظرية الاسلامية التي تتشدد بتحريم التصوير والرسم ، وهي تعاليم راجت في بعض الاقطار الاسلامية - مع انها لم تلق رواجسا في ايران - جعل التصوير في حكم العدم ، في الفن العثماني ، كما لم تر العلم يغزو بعد الروح التركية . ومع ذلك ، فالاوروبيون الاوائل الذين تمكنوا في مستهل عصر الانبعاث من الدخول الى السلطنة العثمانية ، لم يشعروا قط انهم وطئوا عالما يختلف عن العالم الذي قدموا منه .

فالمؤرخون الغربيون الذين ألغت انظارهم رؤية هذا الانحطاط الذي تسكمت فيه الامبراطورية العثمانية ، طويلا في عهدها الاخير ، قلما قالوا كلمة حق في هذه الانجازات المهيمة التي حققتها الامبراطورية العثمانية ، في عهدها الاولى . فهذا الانحطاط الذي اخذت معاملة تظهر للميان في جميع الدول الاسلامية منذ القرن السادس عشر ، واي نظام ليس بمسؤول عن عوامل الانحطاط التي تدب اليه - لا يطلب منا هنا ان نبين منها الاسباب . ومع هذا ، فالامر يتعلق بالاحرى ، بالمعجز عن اللحاق بركب التقدم والتطور المدهش الذي قطعه الغرب ، اكثر منه بالسير القهقري الى الوراء . وهذا الركود والجمود ، يمكن رده ، من جهة ، لتحول طرق المواصلات التجارية ، اثر الاكتشافات الجغرافية العظيمة والمثور على طريق جديد في المحيط الاطلسي ، ومن جهة اخرى ، لهذا الحزب يتراكم في هذه القارة الاوروبية التي اخذت المبادرة للهجوم ، ولهذا اليأس والقنوط يسببهما هذا الهجوم بالذات ؛ وبعبارة اخرى ، لا شيء مما يحق لنا اعتبار العثمانيين مسؤولين عنه في الدرجة الاولى .

٤ - نشأة روسيا المسكوبية

في هذا الشرق الارثوذكسي كله لم تبق ، في اواخر القرن الخامس عشر ، دولة واحدة لم يفمرها المد العثماني ، باستثناء روسيا المسكوبية التي رافق ظهور نشأتها صعود من اليمن تبشر بمستقبل زاه مشرق .

وهذه الطامة المغولية الكبرى التي نزلت بروسيا فهزمتها بعنف ارتج له كل من على الارض وما فيها ، اعافت التطور الذي كانت هذه البلاد اخذت باسبابه من قبل ، ووجهته وجهة اخرى . فقد جلبت معها نهاية روسيا الاوكرانية وعاصمتها كييف . ففي الوقت الذي راحت فيه المقاطعات الغربية من البلاد ، مثلا بولونيا وليتوانيا ، تدور في فلك الدول الكاثوليكية ،

او تدخل المجال التجاري الاقتصادي الذي سيطر عليه الحلف الاقتصادي المعروف بالهائز الذي شمل معظم مدن اوربا الشمالية والوسطى ، اتجهت انظار معظم سكان البلاد الى المقاطعات التي تغشاها الغابات في قلب روسيا ، بعد ان كانت اخذت باحيائها واستعمارها ، وتطلعت بإبصارها الى مناطق الفولغا السفلى وآسيا اكثر مما رنت به الى بيزنطية ، التي انقطع معها كل اتصال مباشر .

ومع ان المغول فرضوا الجزية على البلاد ، فلم يكونوا ليتدخلوا بامورها الداخلية الا في حال نشوب ثورات وقيام حركات تمرد وفتن ، بعد ان يتخذ العصاة والثائرون ، ملاذاً لهم ولاعمالهم الغابات الشاسعة ومستنقعاتها الوخيمة التي كانت تختلف اختلافاً بينا عن مواطنهم . وهكذا نعمت الامارات الروسية بشيء من الاستقلال الداخلي دون ان يتنكر حكامها لماضيهم او يقطعوا تقاليدهم الغابرة ، بخلاف ما وقع للمقاطعات الواقعة الى الجنوب والجنوب الغربي . وقد شبت بين هذه الامارات المختلفة منافسات حادة ، وشقاق اقامها بعضاً على بعض ، حمل بعضها على التماس النجدة : تارة من المغول ، وطوراً من البولونيين ، والليتوانيين . غير ان المغول ، خروجا ، ولو لمرة واحدة على خطتهم السياسية ، لم يشجعوا قط حركة الانقسام هذه ، فراًوا ، تبسيطاً للامور ، ان يقيموا من بين هذه الامارات واحدة تتولى فيها الصدارة وتبارس عليها السيطرة فتتمتع بعطفهم ومؤازرتهم ، ويمهدون اليها مجباية الضرائب والرسوم المفروضة وتحصيل الجزية ، شريطة ان تصدق لهم الولاء ، لقاء الحماية التي يضمنونها لها . وقد اوتى امراء موسكو من اللباقة وحسن التصرف والسياسة والمهارة في السلوك والادارة ، ما اكسبهم عطف المغول فكانوا يمثلهم ، مع ان امارتهم لم تكن اكبر هذه الامارات ، ولا اقواها على الاطلاق ، حتى اذا ما اختلفت ميزان القوى وأنسوا في نصراتهم بادرة ضعف او ممكن وهن . . سارعوا لمناجرتهم ومخاربتهم بوسائل وموارد هي من بعض عوارفهم وافضالهم ، وهكذا تمت تدريجياً حركة تجميع الاراضي الروسية ، وتكتلتها ، وهي حركة شابهت ، الى حد بعيد ، الحركة التي تمت في فرنسا ، خلال عهد الدولة الكابيتية ، وهذا مثل جديد يضاف الى العديد من امثاله نرى معه كيف ان السيطرة الاجنبية على الروس حملتهم على خلق وحدتهم السياسية القومية ، هذه الوحدة التي كانوا يفتقرون اليها جيداً فتمت لصالح حكومة روسية هي حكومة امراء موسكو .

وراحت روسيا ، كغيرها من بلدان اوربا الشرقية ، تتطور وتتكامل باتجاه نظام إقطاعي واقتصادي يقوم على رأسه ابناء الطبقة . الارستوقراطية وبدلاً من ان يسير هذا التطور في خط معاكس لتكامل السلطة المركزية ، نراه يأتي ملازماً لها ، عاطفاً عليها ، ولذا كان خليفاً بهذه الحركة ان نتوقف هنيهة حياها ، ونتبين طبيعتها .

كان المجتمع الريفي قد اخذ منذ عهد بيميد ، بالتفتت والتفسخ عن طريق استملاك الاراضي وطلوع طبقة من كبار الملاكين ، من رجال الدين والدنيا . وقد ساعد إحياء الاراضي الجديدة

وتعميرها للزراعة، وهي عملية لم تكن لتتم على ايدي افراد من الرواد، على تكوين النظام الضرائبي الذي عمل به المغول وتقويته . واخذ الفلاحون ، ببطء كلي انما باستمرار ، يقعون ، بدافع من توصياتهم او من انتقال الملكية ، تارة طوعاً واختياراً ، وطوراً غضباً وقسراً ، تحت سيطرة الاشراف او رؤساء الكنيسة . وراحت املاكهم تشغل وتستثمر، وفقاً لنظام حياتي لا يختلف كثيراً ، من حيث جوهره ، عن النظام الذي عمل به في عهد الاسرة الكارولنجية . فالحركة التجارية والحياة في المدن في روسيا القبلية ، كانت متأخرة جداً عما كان عليه مستوى الحياة في اقليم كييف ، اذ كانت الاراضي المملوكة تكاد لا تعطي منافع كافية بأود الميش . فتجارة الملح وحدها كانت تثير اهتمام سواد السكان الذين لم يكونوا يستفيدوا منها شيئاً كبيراً اذ ان الضريبة التي كان المترتب عليهم دفعها للمغول ، وهذه الفراء التي كانوا يبيعونها من التجار الاجانب ، كل هذا كانت فائدته تعود لكبار الملاكين . اما المدن فلم يكن يتألف معظمها الا من بعض اسواق ريفية او من بعض مواقع سياسية وسترراتيجية باستثناء مدينة نوفغورود التي كان لها بعض الشأن والتي لم يكن نفوذها التجاري ، في البحر البلطقي مع مدن حلف الهانز ، ليقبل بشيء عن النفوذ الذي كان لمدينة كفا على البحر الاسود . فاذا ما بعثت هذه الحركة التجارية بعض النشاط في الصناعات والحرف المهنية ، ولا سيما في مجال التمدين في منطقة نوفغورود ، واثارت بعض المشاكل الاجتماعية التي تار مثلاً في المدن الاخرى ، في الغرب ، فقد رأينا انفسنا وجهاً لوجه مع مدينة غربية شاذة ، صار الجانب الاكبر من نشاطها التجاري الى ايدي تجار المدن ، بينما لم نكن نرى لدى سكان البلاد الاصليين ، اي اثر لبورجوازية تجارية . فاذا ما قامت في مدينة نوفغورود حركات تمرد بين الصناع والعمال ، فقد اتجهت هذه الحركات بالاكثُر ضد كبار الملاكين اكثر منهم ضد النبلاء . فالروسيا ، كغيرها من البلدان الصقلبية عانت كثيراً من هذا التأخر في تطورها الذي جعل الحركة التجارية في البلاد تقع بين ايدي تجار من الغرب سيطروا عليها سيطرة تامة بينما هنالك بورجوازية من ابناء البلاد ، لا تزال بعد في المهدي .

وبالاعتماد على هذا النظام الاقتصادي الذي كان كل قوامه الملكية العقارية ، راحت الملكية الموسكوبية تنشيء حولها مجتمعا روسياً نعتوه بالاقطاعي . وبفضل الاستملاكات العقارية الضخمة التي حققها النظام ، فقد اخذ يخضع لسلطته امارات تمتعت بالامس باستقلالها الاداري . وتشبهاً ، من جهة اخرى ، بالتيار العثماني وهو اقرب الانظمة ، في الزمان والمكان الذي راح الروس يمتدون حذوه ، اخذ امير موسكو يوزع على اتباعه وعماله ، حصصاً من املاكه الواسعة ، عرفت عندهم باسم *Promiestie* أولت مالكةا اعفاءات خاصة وحقوقاً ملكية حكومية ، وهي اقطاعات يمكن الغاؤها ، ولا يصح نقلها بالوراثة لذويهم ، كما ان حكام المدن الذين يتولون الامر فيها ويتمتعون بصلاحيات واسعة وسلطات واسعة على السكان ، هم عملاء يبقون دوماً تحت سيطرته واشرافه . فالانتعاش الذي بلغته املاكهم ، ومساندة المغول لهم ، أقله في البدء ، وهذا التضامن والتكامل الذي ميز هذه الحروب التي اخذ امراء موسكو يشنونها ضدهم ، في القرن الخامس عشر ،

و ضد كبار الملاكين في نوفغورود الموالين للبولونيين ، ومساندة الشعب لهم ووقوفه الى جانبهم . كل هذا وما اليه ، يفسر لنا كيف ان النظام الملكي في موسكو ، اخذ بشكل ، من الموظفين والمملاء التابعين له ، طبقة ارسوقراطية ، تستطيع بما تم لها من نفوذ ، الحد من نفوذ كبار الملاكين ، بل لم تلبث ان نافستها وتغلبت عليها .

من هذه التغييرات والتعديلات والتطورات التي اخذت بها البلاد ، لم يفد الفلاح الروسي شيئاً يذكر ، اذ لم يكن الإقطاع الذي كان النظام الملكي في موسكو يُقطمه ، ليختلف شيئاً كبيراً عن الإقطاع يُقطمه كبار الملاكين . فامام افتقار البلاد للسكان وقلة عددهم ، كان هم السيد ، اياً كان ، ان يؤمن حاجته من اليد العاملة وتسهيل بقائها حيث هي . وبالرغم من هذه الرابطة ، التي كانت تشد المزارع اكثر فاكثر الى سيد الارض ، فقد احتفظ الفلاح ، مع ذلك ، بوجه قانوني او بصورة عملية ، بإمكان انتقاله للممل في ارض غير ارض سيده الاول . ومنذ ذلك الحين اخذ ارباب الارض يتضامنون فيما بينهم ليحرموا الفلاح من هذا الحق وينموه من الانتقال للمعمل في ارض اخرى . ثم ان اشتداد الروح المركزية وازدياد السلطة الملكية شاناً ورسوخاً ، ساعد كثيراً على شد الفلاح وربطه بالارض . وهذا المصير لم يبلغ تمامه الا في القرن السابع عشر ، مع ان الاجراءات الاولى التي اتخذت بهذا الشأن ، تعود لواخر القرن الخامس عشر . وهكذا اخذ النظام السیادي او المولوي في روسيا ، يزداد متانة ورسوخاً كما ازداد التساج سلطة ونفوذاً ، فراح يظهر سيطرة طبقة اجتماعية سهلة الاقياد تعترف له بالولاء . والشبه قوي هنا بما كان يعمل به في النظام العثماني ، مع ان الدولة الروسية لم تكن اذ ذاك ، بلغت من القوة ، ما يساعدها على فرض مثل هذه المراقبة الشديدة . وهكذا فالحقوق التي تمتع بها صاحب اقطاع اميري في روسيا كانت اوسع بكثير من تلك التي اعترف بها لصاحب التيهار في تركيا العثمانية . وقد فرضت بيزنطية ، هي الاخرى ، شيئاً شبيهاً بمثل هذا النظام الـ *Ironoia* ، الا ان الضعف الذي نزل بالدولة ، والوهن الذي حل بها ، اساء الى هذا النظام كثيراً وافسده .

وقد وجد الدوق ايفان الثالث ، النشيط والمهوب الجانب ، بعد الانتصارات التي حققها في اواسط القرن الخامس عشر ، على المغول والليتوانيين ، نفسه على رأس مملكة قويصة البأس والشكيمة . فالى جانب الامير الذي يحمل لقب : امير الروس قاطبة ، قام في موسكو ، منذ القرن الرابع عشر ، بطربريك ، لم يعد للقسطنطينية عملياً اي سبيل او مشاركة في تمييزه ، والذي حرص كلما سمحت له بارقة او نهزت ناهزة ، ان يبرز « ارثوذكسياً حسن العبادة » ، كلما راحت الكنيسة البيزنطية ، لاسباب سياسية ، تدخل في مفاوضات مع الكنيسة اللاتينية ، ترمي للوحدة . واخذت دوقية موسكو تحاول انشاء علاقات لها مع العالم الخارجي ، بعد ان اتاخذت عليها سيطرة المغول بكلكلها الثقيل فارزحتها طويلاً وهوت بها الى البؤس والشقاء ، وحدثت كل رغبة فيها للتجلي والبروز ، باستثناء بعض كتابات دينية وبعض قصص تاريخية او

حماسية ، اقتصر عليها النشاط الفكري في البلاد ، اوحشها الاجماد التي عرفت البلاد ان تحققها ، مما ساعد على توعية الشعور الوطني في الناس وتحسسهم بحب الوطن والتمسك باهدابه . ومنذ ذلك الحين اتخذ رحالة روس يقومون برحلات في اتجاهات مختلفة : نحو الهند (رحلة نيكيتين) ونحو القسطنطينية وايطاليا . فقد رغب ايفان الثالث في ان يحمل عاصمته مدينة خليقة بقوته الناشئة . فاستقدم من ايطاليا الشاهلية التي اخذت انجازاتها الفنية تنتشر ويعلمو ذكرها في كل من بولونيا والجر وشبه جزيرة القرم ، عدداً من مهرة المهندسين المماريين ، وعهد اليهم بالاشراف على بناء ثلاث كنائس ضخمة ، وتشديد بلاطه الملكي الذي حصنه بقلعة الكرملين . وقد اوجب على هؤلاء الفنانين ان يراعوا في اعمالهم ، التقاليد المتوارثة ، محلية كانت ام بيزنطية ، ما لم يزل معمولاً به الى ذلك العهد ومرعي الجانب ، في البلاد ، كما ان الاعراف والتقاليد الوطنية اخذت تزدهر وتبرز على وجهها الصحيح في فن التصوير ورسم الايقونات المقدسة ، كما برز فن تحلية المخطوطات الكنسية والعمالية وتزيينها بالنقوش الرائعة . كذلك برز في هذا الوقت بالذات الذي راح فيه فريق من علماء النهضة الفنية ، من يونان وايطاليين يمنون بنقد النصوص بين بعض رجال الاكليروس ، ميل شديد لاعادة النظر في الترجمات القديمة للكتب المسيحية الى اللغة السلافية ، وتصحيحها . وبالرغم من الضجة التي احدثتها هذه الحركة ، فقد لقيت ، مع ذلك ، تشجيع الدوق ايفان الثالث ، وكتب لها ان تم على الوجه الاكمل ، وان تؤتي اكملها الرطب ، في القرن السادس عشر .

وقد تبدى للكردينال بساريون ، اذ ذاك ، الدور الجيد العظيم الذي باستطاعة روسيا ان تلعبه ، بوصفها نصيرة المسيحية والمدافعة عنها ضد السلطنة العثمانية ، عندما راح يسمى لعقد قران « امير الروس قاطبة » وزواجه من وريثة اسرة بليولوغ ، اي من بيزنطية التي كان يطمح ايفان الثالث الى تركتها الادبية ويطمح في تراثها الأثيل . فبعد ان سقطت روما الثانية اخذت روما ثالثة تطلع مشرقة وتلتع بمثلة هموسكو . ولكي لا نستهم بمحاولة ابتسار سير التاريخ ، علينا ان نشير هنا انه لا بد من مرور قرنين بكاملهما ، قبل ان تصبح روسيا بالفعل ، دولة اوروبية كبرى . الا انها تمكنت منذ عهد ايفان الثالث ، ان تهيء الاسباب والعوامل التي تؤمن لها العظمة والسؤدد اللذين يجنبها لها المستقبل البسام الطالع .

ففي غرة ما اصطلاح المؤرخون على تسميته « بالتاريخ الحديث » نرى المسيحية الشرقية ، وقد سمت زماً طويلاً فوق المدنيات الغربية ، تنهار أطرها السياسية وتنحل ، كما نرى شقيقتها الغربية تسبقها وتتقدمها بمراحل في جميع المجالات . ان مولد روسيا ونشأتها التي لا يساعدها تنظيمها الاجتماعي البالي على المضي في هذه النجاحات التي حققتها ، لا يمكن اتخاذه بديلاً او اعتباره عوضاً عن هذا الانهيار تصاب به الكنائس الشرقية . فالعالم الاسلامي يبدو لنا ، اذ ذاك على وضوح كثير التعقيد . فبينما هو يسير القهقري في الغرب ، نراه يحقق في روسيا الشرقية ،

انتصارات مدوية . وفي 'الوقت الذي نرى فيه الثقافة تصاب باعراض الوهن والكلال نرى مع ذلك الاسلام يزداد انتشاراً في هذه البلدان التي هي في مستوى حضاري متدنٍ . فقد مضى وانقضى الوقت الذي تقتبس فيه اوربا العلم عن الاسلام ، ولم تدق الساعة بعد مشيرة الى العهد الذي سيعتمد فيه الاسلام على اوربا لتجديد شبابه ونشاطه . وهكذا قسام بين هذين العالمين شيء من التوازن والتعادل كان من المتوقع له ان يفضي الى علاقات مشرقة وتبادل فكري خيتر بين الطرفين . ولم يطل بنا الامر لندرك على ضوء انوار المستقبل ، ان انقطاع هذا التوازن ، قبل اوانه ، أآخر لمدة اجيال ، قيام هذه الاتصالات المرجوة .

الفصل الخامس

أوروبا وتشكيلاتها السياسية الجديدة

يبدو ان القوم في اوروبا ، في أواخر القرون الوسطى ، وجدوا أخيراً الاجوبة التي طالما بحثوا عنها خلال الأزمنة الصعبة التي تمرّسوا بها وتضرسوا بويلاتها . ففي العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر ، نرى المدنية على اقوى ما تكون من التضامّ والوحدة والتآسك ، فتمين لكل عنصر من عناصرها المقومّة ، المحل المجدد له ، وتنفذ بثاقب بصرها الى هذه الآفاق الرحبة من الثروة والازدهار اللذين ستبلغ اليهما . وهذه الدولة التي ترسخت اصولها ، وتوطدت أركانها ، اخذت تمي رسالتها ، والمجتمع البشري جدد أطره السياسية ، والحياة الاقتصادية نشطت وزخرت بعد ان انتظمت مرافقها واستقر الامن في جميع ارجاء البلاد ورحبت آفاق الاسواق التجارية . واخترع الطباعة زود البشر الذين كانوا يبحثون عن وسائل اتصال جديدة ، بامكانات وطاقت لا حد لها ولا حصر ، وبوسائل للاعلام لم يكن ليحلّموا بها او يمثّلها . فبعد حقبة مديدة من القلق والاضطراب ، عمرت النفوس كما عمرت المجتمعات في الغرب بالثقة ، وبهذا الايمان القوي الائق من فعالية الوسائل وأهلية الادوات التي استنبطها العقل البشري لتنتقل بمضاء العزيمة ، نحو آفاق جديدة من الجمال والخير والحق .

فمن الطبيعي والمعقول ممّا ألا تكون جميع بلدان اوروبا ، شعرت بنسبة واحدة ، وبدرجة سواء ، بهذه الأزمنة الصعبة والازمات التي ابتليت بها ، كما ان شمس الحرية لم تبرز على هذه البلدان ممّا في وقت واحد . فاذا لم يخامرنا أي شك بطولوع عهد الانبعاث الايطالي في وقت مبكر ، فليس من ينكر ، مع ذلك ، النهضة السريمة التي حققتها فرنسا بعد ان تخلصت من عقابيل حرب المائة سنة وتناجها الوبيلة ، يتبعها من قريب ، في هذا المضمار : انكلترا في عهد الملك ادوارد الرابع ، اول ملك من اسرة تيودور يتولى العرش في بريطانيا ، واسبانيا في عهد ملوكها الكاثوليك ، بينما بلدان اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية تصل بتمهل كلي وببطء الى الاستقرار والتوازن ، بعد ان وجدت نفسها مهددة بالتوسع العثماني . ففي كل مكان ، تطل المشكلات الواحدة ، والصعوبات ذاتها ، فتلبس الحضارة في الغرب السمات ذاتها والمظاهر ذاتها . وهذه المسيحية المتقدمة المهدي تنسرب الى اوروبا الحديثة كلها ، وتغوص في ثناياها . فسواء مطّ البعض

نهاية الاجيال الوسطى الى الثلث الاول من القرن السادس عشر ، او جعل البعض الآخر بسده العصر الحديث عند الربع الاخير من القرن الخامس عشر ، يبقى ، مع ذلك شيء واحد ثابتاً هو ان كيانات ومجتمعات عصر الانبعاث وما فيها من نظم ومؤسسات ، كانت قائمة قبل اكتشاف العالم الجديد .

١ - ظهور الدولة الحديثة

خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، تتميز الدوله الملكية من بين نظم العالم السيادي ، بالتغلب على الصعوبات الرئاسية الثلاث التي كانت تُقْعِدُها فتزجج بها الى الحضيض وتميق سيرها الى الامام وتطورها الصاعد نحو الرقي ، ألا وهي : انقطاع او الغاء رابطة التبعية التقليدية ، وانقسام المسيحية وتوزعها شيعاً ، ومواجهة المؤهليات الجديدة المتعددة بوسائل وأساليب معينة . ففي نطاق تنازع الدول البقاء وتنافسها على التجلي ، تنصرف الدولة لتوسيع وحدتها . فاذا كان عليها ان تجمع في قبضة يدها مقود الادارة واستعمال القوة ، فهي تنصرف بكليتها لتحشد بين يديها او لتستنبط الوسائل والذرائع التي تؤمن لها ملء السلطة وجماعها . فهي تجهد ، بعد هذا ، في الانحلال السياسي والاقتصادي ينزل بالأطر والملاكات الاجتماعية القديمة ، وفي مؤازرة البورجوازيات وطبقة النبلاء الجديدين ، الوسائل التي تساعدها على ترويض اجهزة البنيان الاجتماعي واخضاعها لطاعتها فتجمل منها عوامل تتمثل لأوامرها ولنواهيها .

فهذه النزعة القوية نحو الوحدة التي طالما استقرت وراء المنافسات المركزية الادارة السلافية ، أتت اكلها وأعطت أطيب نتائجها عندما هدأت هذه المنازعات العاصفة وركد ريجها . ومهما كانت الشوائب التي اعتورتها ولازمتها ، فقد أمكن الوصول بهذه الوحدة الى ما يشبه هذا الاستقرار الذي رست قواعده على مثل هذا التوازن الايطالي الذي تم بمقد صلح لودي ، عام ١٤٥٤ ، فأدى الى انشاء الحلف الايطالي *Ligue Italique* الذي قام في السنة التالية ، أي عام ١٤٥٥ ؛ وذلك التوازن الذي تم على حساب ، الامارات الايطالية الصغرى ، كان من نتائجه ان وطّد ، من جهة كيان دوقية ميلانو وجمهورية البندقية الكلية الاحترام ، كما وطّد ، من جهة اخرى ، مملكة نابولي ، وذلك باقامته نطاقاً حول جمهورية فلورنسا وجمهورية سينا وادولة الكرسي الرسولي . وقد تألف من هذا كله حلف غير متمسك وغير مستقر ، لا رأس له ولا رئيس ، قام واستمر بقوة الامر الواقع أكثر من قوة ارادة الناس ، أتاح في الداخل ، لكل دولة تركب منها ، ولا سيما للدولتين الاولين ، السير نحو الاستقلال الذاتي ، والوقوف حيناً وجهاً لوجه ضد الدولة الجواررة لها ، وحيناً في صفها ومساندتها . من ذلك مثلاً العون المالي الذي قدمته فلورنسا لكتلة آل سفورزا العسكرية . من الشواهد على هذا الوضع ، الكتاب الذي وضعه بين ١٤٤٨ - ١٤٥٣ ، فلافيو بيوندر بعنوان :

« ايطاليا المصورة » الذي يعطينا لأول مرة ، صورة عن الوضع الجغرافي في شبه الجزيرة الإيطالية بأكملها .

فهذه الوحدة الجغرافية المتاسكة التي افتقرت اليها ايطاليا كل افتقار والتي حاول شارل الجسور عبثاً إقامتها وتمييزها بين نهري السوم والرين ، بتوسيع دوقيته الى حدود نهر الجلدرد وذلك بضم كولونيا والقسم الاعلى من الازماس ، او محاولته ضم المقاطعات الواقعة « من هذا الجانب » الى المقاطعات الواقعة « من الجانب الآخر » من ولاية اللورين ، مثل هذه الوحدة توصلت الى تحقيقها كل من فرنسا واسبانيا وانكلترا ، وذلك بعد ان تمكنت كل منها من ترسيخ ، دعائم النظام الملكي فيها ، عن طريق اتفاقات شخصية او مصاهرات أمنت لها ضم اقطاعات قديمة الى ممتلكاتهم العائلية ، بحيث اصبحت الاملاك الاميرية والدولة شيئاً واحداً ، او كلمتين مترادفتين . ان زواج ايزابيل ده قشتالة من فرديناند داراغون ، اقام رباطاً شخصياً بين الملكتين الرئيسيتين في شبه الجزيرة اليبيرية ، كما ادى ، من جهة اخرى ، الى الاخلال بالتوازن القائم فيها لصالح قشتالة . فعندما صارت الاملاك الواسعة التي كانت ملكاً للمنظمات العسكرية في مدن شنتياغو وكالاترافا والقنطرة ، الى العرش الاسباني ، حقق بذلك السيطرة على املاك شامعة . وعندما عرف هذا العرش ان يستغل حالة الضعف التي آلت اليها مملكة كتلونيا ، تمكن من وضع الاسس الركنية لوحدة مملكة قشتالة التي تم تكوينها نهائياً بالاستيلاء على مملكة غرناطة عام ١٤٩٢ .

وفي هذا الوقت بالذات ، كانت بريطانيا وجدت القاعدة التي ركزت عليها السلطة الملكية . ان وصول هنري تيودور الى كرسي الملك وضع حداً لهذه الانقسامات السياسية ولهذه المشاحنات الداخلية الدامية التي كانت مزقت البلاد خلال حرب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥) ، وبذلك هياً حلاً للمشكلة العالقة ، كما هياً الاسباب لقرار الاتحاد الذي صدر عام ١٥٣٥ ، ومهد السبل لضم المقاطعات المعروفة بالمقاطعات البلاتينية كمقاطعة دور هام مثلاً ، فتمت بذلك القوة للمملكة .

وهذه المقارنة المتوازية تبدو على اتمها في هذا الاتحاد الشخصي الذي وقع بين دوقية بريتانىة وصاحب العرش في فرنسا ، وذلك عن طريق زواج الدوقة حنة من الملك شارل الثامن (١٤٩١) مهدياً بذلك السبيل امام قرار الاتحاد الذي اتخذ عام ١٥٣٤ فاذا ما تخلى الملك قبل مباشرته تجريدات المسكرية على ايطاليا ، عن مقاطعات الارنوي ، وفرانش كونتية والروسيون فلا يضير تنازله هذا بشيء ولم يمنع من ان تكون مملكته ، اذ ذلك ، الدولة الوحيدة الكبرى الخليفة بهذه التسمية ، فبين الاقطاعات التي تنعم بالاستقلال لم يبق سوى الاقطاع الخاص بآل بوربون ، وهو لعمرى إقطاع له شأن كبير ، وإقطاعي : اورليان وأنغوليم القريبين جداً من ممتلكات التاج ، بحيث لم تمر عشرون سنة حتى جرت تصفيتهما وضما الى املاك العرش .

فعلى درجات تباينت تباين البلدان واختلاف الممالك القائمة ، نرى السلطة المركزية السياسية : الملكية اكثر ثقة بالنفس واكثر وعياً لمسؤولياتها ، فهي تعتمد كل الاعتماد

على نظم اشد تماسكاً وانسجاماً ، وتمارس سلطتها من اعلى الى اسفل ، بواسطة اداة ادارية اكفاً ، تتشعب وتتضخم أكثر مع الوقت استجابة للظروف المعارضة . ففي وقوفها بوجه القوى والعوامل التي تحاول ايهانها وتفتيتها وتجريدها من وسائل العمل ، رأينا الدولة تنشىء لها الادوات التي تساعد على العمل المجدي واقعادها على اصول راسخة . وهنا ايضاً نرى فرنسا واسبانيا وانكلترا ترسم الطريق وتمهد السبل . فالاعتقاد الشائع ان سلطة الملك هي من حق الهي ، اضى على ملوك فرنسا ، منذ تكريس الملك شارل السابع وتويجه ، شيئاً من الوفاق والهيبة زادها ابهة وجلالاً حفلة التكريس التي اضفت بدورها مسحة من القدسية على الدولة ، بينما اسم روما كان يذكر دوماً باجداد الامراء من نصراء العلم والادب . ففي كل دولة لعب المجلس الاستشاري للملك دوراً كبيراً ازداد اهمية مع الزمن ، اذ ساعد على تأمين السداد والرشد في اعمال الحكومة وجعل مجال العمل واسعاً كلما اخذت الدولة بالامتداد وانشاء المصالح المتخصصة لتمتكن من القيام بالاعباء المترتبة عليها ، على الوجه الامثل . وهذا المجلس الاستشاري الذي كان يضم نحواً من ٥٠ شخصاً ، في فرنسا ، استحال في اواخر القرن الى المجلس الاعلى الوحيد المكلف النظر في هذا العدد العديد من القضايا التي تحال الى محكمة الملك الخاصة . والملك ادوارد السابع ، في انكلترا ، اضطر لأن يضاعف هو الآخر عدد اعضاء مجلسه الاستشاري ، اذ كان بعض اعضائه يرافقون الملك دوماً في حله وترحاله ، بينما يستمر الآخرون في الجلوس للقضاء ، في «القاعة ذات النجم» ، من قصر وستمنستر . وعلى هذا النحو كان الامر في اسبانيا ، ولا سيما في قشتالة ، فالمرسوم الملكي الذي صدر عام ١٤٨٠ بعنوان *Ordenamiento Del Consejo Real* يوضح تماماً اختصاص هذا المجلس وصلاحياته ، فحدد عقد جلساته في خمس قاعات خاصة ، وفقاً لطبيعة القضايا التي هي قيد النظر . وديوان الاختتام يستحيل محكمة عليا تحمل اسم مجلس الملك ، وهو مجلس قام مثله في مقاطعة فلاندر . والادارة في حكومة بورغونيا تنحو هي الاخرى ، هذا النحو الذي سارت عليه الدول الكبرى ، بارادة سنية من شارل الجسور . ففي كل مكان نرى تصريف شؤون الدولة يسير على الوتيرة ذاتها ويتلبس السبات ذاتها . فموظفو السر لدى ملك فرنسا ، وموظفو ديوان الاختتام الملكي في انكلترا ، هم موظفون يجري انتقاؤهم بكل دقة . وملوك اسبانيا الكاثوليك كانوا يعولون على مثل هؤلاء الموظفين تعويلهم على الوزراء انفسهم .

مر معنا كيف ان موجبات الحرب ومقتضياتها حملت كلاً من شارل السابع وشارل الجسور على انشاء جيش ملكي . ونهج لويس الحادي عشر النهج ذاته معززاً جيشه بفرقة من المدفعية . والجيش الاسباني الذي تم على يده فتح عرفناطة ، اقتبس تشكيلاته واستمد تنظيماته من نظام التهيئة في الجيش الفرنسي الى الشمال من جبال البرانيس . وفي الوقت ذاته اخذت الدولة تعتمد ، في الملقات الصعبة ، على الوسائل غير العادية ، فذهبت هذه عادة في القوم . وراحت الدولة تستثمر الى اقصى حد ، امكانات الاملاك الاميرية التابعة لها . فقد اعيد ، مثلاً تنظيم املاك التاج ، في انكلترا ، بعد الانتهاء من الحروب الاهلية (حرب الوردتين) . كذلك خضعت املاك

العرش في اسبانيا لاصلاح جذري ارتفع معه الفيء العام من ٨٨٥،٠٠٠ مرافيديس عام ١٤٧٤، الى ١٢،٧١١،٠٠٠ مرافيديس بعد ذلك بثماني سنوات، اي في عام ١٤٨٢. اما في فرنسا حيث كان التاج ينعم باملاك واسعة ، وحيث كان مدراء بيت المال في الولايات والاقضية ملزمين بان يقدموا ، في كل سنة ، كشفاً لبيت المال ، بالتقديرات المالية العامة ، وآخر بالواردات المحصلة ، مع العلم ان املاك التاج لم تكن لتعطي سنة ١٤٦١، مثلاً سوى ١/٣٦ تقريباً من مجموع واردات الدولة . فقد كانت فرنسا اول دولة ملكية أقدمت نظامها الضرائبي على قواعد ثابتة بعد ان اخذت ترعى مواردها المالية بيد قوية . فقد كان ديوان المحاسبة ومجلس ممثلي الشعب يحددان كل سنة ، ميزانية الدولة ، وبالاستناد الى هذا التحديد كان يجري توزيع الضرائب ، وفقاً لآبواب الواردات الاربعة فتوزع على الاقضية والنواحي والاحياء والمكلفين . اما ضريبة الملح فقد كانت في الوقت ذاته ضريبة غير مباشرة ، وضريبة نسبية يراعى في تحديدها وضع المكلف المالي ، اذ ان سعر البيع تحدده السلطة ، وعلى كل مكلف ان يشتري منه اقله الحد الادنى . كذلك هنالك رسوم اخرى تفرض على عمليات البيع وشراء البضائع ونقلها وهي رسوم عُرفت عندهم عادة باسم « ضرائب Aides » . ومن هذه كلها كانت تتألف اهم موارد الدولة ، مع العلم ان ضريبة الاعناق كانت تعطي ثلاثة ارباع الموازنة . وكانت هذه الرسوم والضرائب ، على اختلافها ، يجبى ، في كل من فرنسا واسبانيا ، بطريقة التلزم ، وتخضع لتفتيش دقيق من قبل مراقبين يعينهم الملك . وفي هذا الوقت برزت صلاحيات مجلس الضرائب الذي قام منه هيئة في كل من العاصمة باريس ، وروان ومونبلييه ، كما برزت صلاحيات مجلس الخزينة ، الذي كان يُعنى على الاخص ، باملاك الدولة . وكان مدققو الحسابات في ديوان المحاسبة يطلبون من كل الجباة ومديري بيت المال حساباً دقيقاً . وهكذا فان اختلاف طرق تحديد الضرائب والرسوم والجبائية ، واذا كان النظام المالي الذي سارت عليه ولاية اللانفدوق يختلف عنه في ولاية بروفانس مثلاً ، وهذه عن ولاية الدوفينييه ، فالكل كانوا يدفعون كما كانت الكل يخضع للتفتيش المالي . وكان الناس ، ائناً وجدوا ، يشعرون بقبضة الدولة الشديدة ، ولا سيما في المناطق القريبة من باريس حيث كانت المراقبة المالية في الاقضية والنواحي تخضع لتفتيش أشد من قبل مأموري العرش .

وبد الدولة هي ايضاً يد العدالة . فمداخلات ممثلي الملك تبرز في كل مكان ، واكثر فاكثراً ، وان لم تؤد الى تغييرات محسوسة . وفي سبيل ايصال العدالة الى المتقاضين ، نرى القضاة يعقدون باستمرار جلساتهم للمحاكمة ، ولكي تبسط الاعمال امامهم ، راحت الدولة توحد من التشريعات المعمول بها والاجراءات الرسمية . فهنري السابع لم يحدد شيئاً في انكلترا ، بل جرب ان ينفذ عن النظم المعمول بها ما تراكم عليها من غبار النسيان . اما في فرنسا ، فالقانون الذي صدر عام ١٤٥٤ ، اي بعد انتهاء حرب المائة سنة ، بعام واحد وهو القانون المعروف بـ *Montilz-lès-Tours* والذي يمتدح بحق ، اول اجراء او اول بناء في التنظيم المصري للقضاء ، كان في وقت واحد : قانوناً ادارياً وقانوناً للدوجبات . وبعد ذلك اخذوا بتحرير ما يعرف بـ : « عادات واعراف بورغونيا ١٤٥٩ » ، ثم راحوا يحررون الاعراف المعمول بها محلياً ، وتوسيع نطاق الاعراف

التقليدية المتبعة في باريس . وبذلك رسموا ، من بعيد صورة لتوحيد القضاء الذي طالما راود خيال الملك لويس الحادي عشر. وقد انبثق عن مجلس باريس التمثيلي الذي انبثق بدوره عن المجلس الخاص للملك هذه المجالس التمثيلية التي تشكلت من عهد قريب في كل من مدن : تولوز ، وغرينوبل وبوردو ، وديجون ، مع استمرار ديوان محاسبة روان وأكس . كل ذلك أكمل النظام المحكم الذي اقامته الدولة للتسيج حول رعاياها . وسلكت الطريقت ذاته اسبانيا ، في عهد ملوكها الكاثوليك ، وذلك بانشائها محكمة فالادوليد واولتها صلاحيات تملو على صلاحيات القضاة المحليين كما انشأت الدولة محكمة اخرى عليا في المناطق الجنوبية مركزها *Ciudad Real* . وبعد انشاء ديوان التفيتش في البلاد ، بين ١٤٧٨ - ١٤٨٧ اصبح في البلاد شيء من وحدة القضاء ، بحيث اخذت الدولة تعد منذ عام ١٤٨٠ قانوناً موحداً وبأشترت بإصداره تباعاً .

وهكذا استطاعت الدولة فرض سيطرتها وهيبتها على كل طبقات الدولة والبنين الاجتماعي المجتمع وارغامها على قبولها والرضوخ لها . وهذه السيطرة فرضتها ، قبل كل شيء ، على طبقة النبلاء الاقطاعيين القديمة ، فسمرت خوفاً في قلوب الاشراف بعد ان أخنى عليهم الدهر من جراء العوامل الاقتصادية الجديدة التي طلعت على البلاد . فعرب الوردتين ، في انكلترا ، أودت بالنبلاء الى الخراب والاضمحلال . اما في فرنسا ، فالعدالة نزلت دونما رحمة ودون اي اعتبار ما للرتبة الاجتماعية ، بدوق دالنسوت ، عام ١٤٥٥ ، وبكونت أورنياك ، سنة ١٤٦٠ ، وبكونت سان بول ، عام ١٤٧٥ . فبين التنازلات التي اضطر لويس الحادي عشر للتسليم بها ، عام ١٤٦٥ ، بعد اتفاقات وضعها وفقاً للاصول المرعية ، لصالح «عصبة المصلحة العامة» وانفراط ما يعرف بالحرب الجنوبية ، بعد ذلك بنحو عشرين سنة ، سجلت السلطة الملكية تقدماً ظاهراً . اما في اسبانيا ، فقد انصرفت جهود الملوك الكاثوليك فيها بسرعة كلية الى كبح جماح نبلاء اسبانيا المشاغبين ، وارغمتهم على خفض جانبهم واصواتهم ، وذلك عن طريق اسناد بعض الوظائف في القصر ، الى فريق منهم . وشعوراً منهم بالسلطة الملكية التي كانوا ينعمون برعايتها ، راح الموظفون الملكييون انفسهم يعملون جاهدين ، على اخضاع النبلاء وترويضهم . فقد عرف ممثلو الملك ان يقفوا بنجاح ، بوجه الامراء المشاغبين الذين كانوا احياناً يلوحون بانهم : «امراء بنعمة الله» مدللين بذلك ، على حسبهم ونسبهم ومحتداهم الجهد ، كما عرفوا كيف يدخلون الى قطاعات هؤلاء الامراء ويقيمون فيها حدود الملك والعرش . ونائب الملك الممام الذي امر بوضع الحجز على املاك كبير رجال المال والاعمال ، اذذاك ، جاك كور ومصادرتها فيما بعد ، عرف ان يقف عند الاقتضاء ، في وجه دوق ده بوربون ، وفي وجه الملك رينيه ، وهو السيد المطلق في مقاطعة بروفانس . وبعد عهد الملك الفونس الخامس الذي تميز بالاضطراب والقلق ، شعرت طبقة النبلاء في البرتغال ، بوطأة الملك يوحنا الثاني ، اذلقى القبض على دوق براجانس ونفذ فيه حكم الاعدام ، بعد ان احتل جنود الملك قصره وعيشوا به وبمن فيه . وفي اجتماع ممثلي الشعب في ايفورا (١٤٨١) شجع سكان المدن ، الملك على اعادة النظر في شرعية الالقاب التي يحملها النبلاء ، وانزال جنوده في املاك الامراء .

والاكليروس نفسه بعد ان تم إخضاعه وترويضه ، أصبح اداة بيد الملك في ترسيخ سلطته .. فالمملك يوحنا الثاني تدخل بين البابا واحباراه . والملوك الكاثوليك ، لم يقتصروا ، في اسبانيا على جعل ديوان التفتيش الجديد ، اداة سياسية بيدهم ، بل استطاعوا حمل البابا التسليم لهم بحق تعيين الاساقفة وترشيحهم للراتب الكنيسة . فقد كان سبقهم الى هذا ابن الكنيسة البكر (اي ملك فرنسا) . فمع استمرار اعضاء مجلس باريس التمثيلي (بارلمان) على القول بان المبادئ الغاليكانية التي نصت عليها معاهدة بوج ، هي احد الاسس التي يقوم عليها النظام الملكي في فرنسا ، واستمرار الكرسي الرسولي ، من جهة اخرى ، على شجب نصوص هذه المعاهدة والتنكر لها فقد سلم البابا سلتسوس الرابع ، للملك لويس الحادي عشر ، سنة ١٤٧٢ بحق ترشيح بعض رجال الكنيسة ، لبعض المراكز الكنسية العليا . ففي خلال وصاية الملكة حنة ده بوجو ، اثناء انعقاد مجمع سانس ، عام ١٤٨٥ ، اخذ الملك بيده ، قضية القيام باصلاح شامل في كنيسة فرنسا . وفي الوقت ذاته ، تابع مساعيه لتعيين سفير للبابا يكون بالقلم بمثابة ، نائب للبابا يخضع للسلطة الزمنية . ان رجلاً كالكردينال بالو سولت له النفس ، عام ١٤٨٣ ، ان يكون له من النفوذ في فرنسا ، ما كان للكردينال خيمنس سيسنروس ، في اسبانيا .

لم يكن بإمكان السلطة الملكية ان تحقق ما حققت من نجاحات سريعة ، لو لم تعرف كيف تفرض هيبتها على المدن ذات الامتيازات والاعفاءات ولو لم تقم عليها وصايتها بمؤازرة الطبقة البورجوازية فيها . فحركة اضمحلال هذه الاستقلالات الادارية التي نعمت به بعض المدن ، لم تبلغ يوماً من الظهور ما بلغته في البلاد الواطية التابعة لبورغونيا . فبعد الحوادث الدامية التي طبعت ، في مدينة لياج ، عهد فيليب الصالح وفيليب الجسور ، قام مكسيمليان عامل النمسا والوصي على ورثتهم وخليفتهم فيليب الجميل ، يحطم بعنف ، عن طريق صلح كادزنت (١٤٩٢) الحركات الثورية والفتن التي نشبت في مدينتي غانت وبروج ، والاشرف الدقيق على الامور الادارية منها . والملوك الكاثوليك في اسبانيا لم يكونوا أقل غلظة تجاه المدن الاسبانية حتى ما كان منها غيوراً على امتيازاتها ، متحمساً لحرقاتها ، حريصاً على حياتها ، والحفاظ عليها ، كمدينة برشلونة مثلاً ، اذ راح ممثلو الملك فيها *Corregidores* يشددون على مراقبة الامور المالية في البلديات ويمحرون عليها تفتيشاً صارماً ، كما كانوا يوجهون لها الارشاد والنصح في تعيين القضاة المحليين . والبورجوازية المحلية ، اذ قدرت راضية مرضية ، الانعامات التي نالتها مها غلامها الثمن ، والجهود التي بذلتها السلطة الملكية في الحفاظ على النظام ، والسهر على الامن في البلاد تركت الامور تجري على اعتناتها . فمن صفوف هذه البورجوازية ، استمد الملوك اكثر عملائهم ولاءً واوفرهم طاعة وامتثالاً . فقد وجد الملك ادوار الرابع خير نصرائه بين ما يعرف عندهم بـ *Merchant Adventurers* . والملك فرديناند الكاثوليكي لم يبغض قط مؤازرة البورجوازية الكتلانية حقها وفضلها عليه . وملك فرنسا ، كان بإمكانه ان يعتمد الاعتماد كله على خدمات رجال المال والاعمال له ، في المنطقة المفضلة لديه : وادي نهر اللوار ، انطلاقاً من جاك كور ،

وعليوم فاري ومروراً بآل تورانجو وانتهايم في اواخر القرن ، بآل توسن وبوهيه ، وآل بورت وآل بريسونيه الذين بلغوا الذروة . فمجلس شوري الملك شارل السابع ، عام ١٤٥٥ ، تألف ثلثا اعضائه من رجال الاكليروس ، ومن ممثلي البورجوازية . وبعد ذلك بنحو ثلاثين سنة ، اي في سنة ١٤٨٤ ، عند التثام اول اجتماع عام لممثلي البلاد في مدينة بلوى ، لعب ممثلو المدن ونوابها الى الاجتماع المذكور ، دوراً بارزاً .

وعلى اساس من هذا الاتفاق العام الذي شد النظم الملكية الى البورجوازية ، قام التوازن بين السلطة وبين المنظمات الاجتماعية التي ظهرت حديثاً . فقد امكن لانكلترا ، كما يزعم فورتسكيو ، احد رجال الفقه والقانون اذ ذاك ، في كتابه الموسوم : « حكومة انكلترا » ، ان الاتحاد بين السلطة والحرية ، تحقق تماماً عن طريق ضم السلطة السياسية الى السلطة الملكية ، هذه السلطة التي راحت ، كما لاح له ان تشيل وتستبد في فرنسا . ان سلطة ملك فرنسا اذ ذاك كانت ولا شك اكثر السلطات سيطرة وسيادة واكثرها فعالية ونفوذاً ، وتمتعت بحرية تصرف اكثر مما تم للسلطة الملكية في انكلترا . ومع هذا كله ، فقد كانت تحتاج للكثير ، لتصبح ، في فرنسا كما في اسبانيا ، مستبدة ، مطلقة . فقد كانت سلطة الملك ، في القارة ، تبرز للعيان بما له من هيبة ووقار ، وباعتراف الجميع لسلطانه وسيادته اكثر مما كانت تبرز عن طريق الاكراه والقسر والضغط . والاصوات التي كانت ترتفع اثناء اجتماع ممثلي الامة في تور منادية بباديء شبيهة بتلك التي نادى بها ميرابو عالياً ، فيما بعد ، حول السيادة ، سبقت بقليل الاماديح والتقاريط التي رُفعت الى الملك لويس الثاني عشر جاعلة منه : « ابا الشعب » و « ابا الملكية الفرنسية الكبرى » . ومن جهة اخرى ، فالملك فردينان داراغون الذي احترم التقليد المشروع الذي خلفه يوحنا الثاني ، لم يظهر : لا في مدينة سرغسطة ولا في مدينة فالنس او برشلونة ، الملك المطلق الذي يحلو لبعضهم احياناً ان يصفوه به . اما في ايطاليا ، « فالطاغية » هو الذي كان الشعب ، على طريقة القدامى ، يعيشه ويحييه وينادي به عالياً ، بعد ان يكون عرف كيف يحقق مطالب هذا الشعب ويولي امانيه . فالحكم المطلق الحديث لم تكن الاحداث نقشت بعد ، اسمه على الشفاه ، وكان على « الامير » ان يراوغ ويخاتل ويناور ، قبل ان يأتي مكيا فيلي ويرسم لنا الصورة التي رسمها عنه .

٢ — انعكاس الاوضاع وانقلاب الاحوال

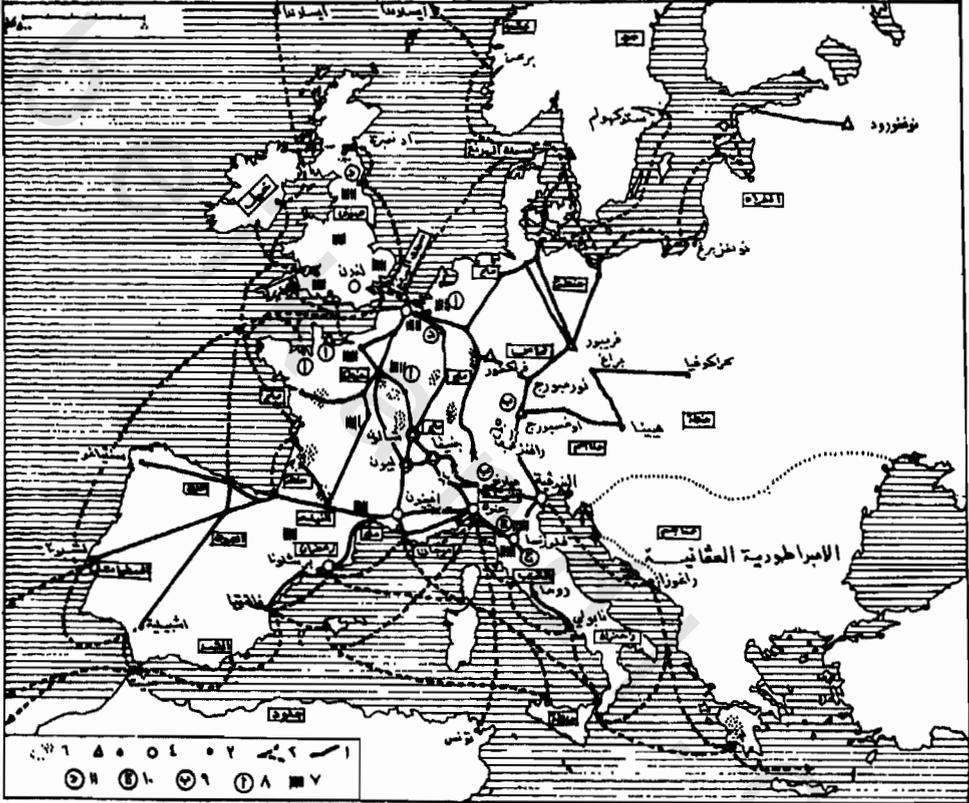
اذ كان من الخطل بمكان ان نطلق على عهد يفتقر الافتقار كله ، الى المصادر الاحصائية الخاصة ، الالفاظ التي يجري اليوم استعمالها على لسان علماء الاقتصاد المحدثين ، فلا بد من التسليم مع ذلك ، من ان اوربا دخلت بمجموعها ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، عهداً من التطور الديوغرافي والنمو الاقتصادي والتحول الاجتماعي ، يختلف كل الاختلاف ويتميز كلياً عن الركود او الجمود الذي طبع الاجيال الماضية .

وعلى نسبة ما نستطيع ان نتبين الاشياء ، ونبدي فيها رأياً مملأ ، نرى عدد السكان أخذاً بالازدياد والنمو باستمرار ، اذ ان نتائج هذا التكاثر لم تصبح ملموسة والتحقق منها يمكننا الا في اواخر القرن المذكور . ويؤكد كلود سايسل في عهد الملك لويس الثاني عشر ان : « منذ نحو ٣٠ سنة تقريباً ، هنالك مقاطعات فرنسية عديدة ، كانت من قبل بوراً وارضها مواتاً اصبحت الآن عامرة ، مزروعة تقوم عليها الدساكر والمنازل ، وان المدن تفتقر للمساكن التي تصلح للبناء ، وان عدد السكان قد ازداد على العموم بفضل السلام الطويل الذي ينعم الجميع بظله . هذا الكلام لعمرى فيه الكثير ولا شك من الزلفى والتدليس ، الا انه لا يخلو من بعض الحقيقة . ان الاتساع الذي بلغه توزيع التراكات عن طريق الارث ، يشير هو الآخر ، الى ازدياد عدد المواليد ، وهذه الموجات الجديدة من النازحين عن مقاطعات بريطانيا وبيكارديا ، ومن ايطاليا تحاول سد الفراغ في كل من مقاطعات نورمانديا والاكتيان وبروقانس ، هذا الفراغ الذي سببته الازمنة الصعبة . فقد كانت فرنسا ، في اواخر ذلك القرن ، تعتبر اكثر دول اوروبا الغربية سكاناً .

وهل من المعقول بشيء ان تستطيع كل من اسبانيا والبرتغال الاستمرار في حركة التوسع والتعدد والانتشار التي استمرت فيها اكثر من قرن ، والتي لم نرها مثيلاً ولا شبيهاً من قبل ، لو لم ينموا اصلاً بمثل هذا النمو والازدياد الديموغرافي؟ ومهما يكن ، فما هي ايطاليا الشمالية والوسطى تشهد في القرن الخامس عشر ، مثل هذا النمو ، بين سكان الريف الذين نراهم ينتقلون الى القرى الجديدة التي تطلع في ارجائها . والذي نعرفه من اطراد النمو الديموغرافي ، في كل من سويسرا والمقاطعات الالمانية يجعلنا نشعر جيداً بهذا التوسع الديموغرافي فيها ، والتي تميز باقبال ظاهر من المراهقين على الزواج وبتطور محسوس في المدن .

اما الاراضي الواطية ، فالوضع اختلف فيها بعض الشيء : فسكان الريف يزداد عددهم ببطء ان لم يتناقص لصالح مدن الشمال ، كمدينة امستردام مثلاً . اما في الجنوب فالمدن الصناعية القديمة الواقعة في الداخل كانت تعاني اعراض الشيخوخة ، اذا ما قارناها بهذه المراكز الجديدة امثال هندشوت ، والمراكز المتوسطة امثال كورترية التي اخذت تنهقر امام الموانئ الجديدة التي تطلع كمدينة بروج مثلاً وهي ستبرز بعد عام ١٤٨٠ . اما في انكلترا ، فالتطور الديموغرافي بدأ ببطء كلي خلال الاضطرابات التي عمت البلاد ثم اخذت الحركة تنشط وتشدت بعد ان وضعت الحرب (حرب الوردتين) أوزارها ، وانقطع بالتالي دابر الاضطرابات ، ليزداد بسرعة عندما خيم السلام على البلاد . وهكذا نرى ازدياداً مطرداً بين العمال والمستهلكين على السواء . ومع ازدياد عدد السكان ، وازدادت ، كما يؤكد كلود سايس ، مقتنياتهم وامتعتهم كما ازدادوا دخلاً وغنى وثروة . وبين الخصائص التي ميزت الوضع الاقتصادي ، في القرن السادس عشر ، ازدياد الانتاج ، واتساع حركة المقايضات ، وهذه النزعة الجديدة نحو الاقتصاد القومي ، التي يشوبها - وهو شيء من غريب المفارقات - ميل للتوسع في الاسواق الخارجية . فاذا ما عاق عدم كفاء

النقد والقدرة على التسليف ، سير التطور ، فالاقتصاد الذي التزم حتى ذلك التاريخ الحدود الإقليمية والمكانية الخاصة ، اخذ نطاقه بالاتساع والانفراج تدريجياً، والضغط المرنج الذي تمثل في هذه الاحداث السياسية العارضة ، اخذ يطبع انشاء الوحدة الأوروبية بعد ان سيطرت عليه وتحكمت به العوامل الاقتصادية .



(الشكل ١٨) الاقتصاد الأوروبي ، في اواخر القرن الخامس عشر

- ١ - الطرق البرية ٢ - الطرق البحرية ٣ - مراكز التجارة ٤ - المراكز المالية ٥ - مراكز الاسواق الموسمية
- ٦ - زراعة الصنوبر ٧ - صناعة الاجواخ ٨ - صناعة الاقمشة ٩ - صناعة النسيج
- ١٠ - صناعة الحرائر ١١ - مناجم الفحم

فان لم نستطع الاخذ بتأكيدات سايس حرفياً ، عندما يقول ان ثلث مساحة الارض في فرنسا تم احيائها واخذوا بتشغيلها واستثمارها ، في الربع الاخير من القرن الخامس عشر ، فلا بد من ان نلاحظ مع ذلك الشوط الذي قطعته عملية احياء الارض وعزقها، وتجديد عقود فرق بينها اكتراء الاراضي الزراعية، مع زيادة رسوم الايجارات وارتفاع اسعار الارض الزراعية ورجعان

الطلب على العررض والتحسين الذي طرأ على مردود الارض ، وازدياد محصول الضرائب والزيادة في الانتاج يرافها عادة زيادة في جودة الصنع والصف ، فاستبدلت زراعة الجادور بزراعة القمح في الاراضي الكلسية التربة التي تألفت منها سهول مقاطعة البري ومرد ذلك الى ان كثيراً ما كان اصحاب الاراضي ومالكوها من اغنياء التجار ، فقد همهم جداً ان يحسنوا من وضع اراضيهم ويزيدوا من غلالها ومدخولها ، فراحوا يشرفون على استثمارها بكل دراية وعناية . فهؤلاء البورجوازيون في كل من باريس وروان ، وتور وليون وتولوز ، لبسوا بالوحيدين الذي يحسنون الافادة من املاكهم الى الحد الاقصى . ويجري الامر على هذا الشكل ايضاً في سهول لومبارديا واميليا وتوسكانا ، بينما تجار الاصواف يشجعون تربية الاغنام ويفضاونها على زراعة الحبوب . كل هذا يتم دون تسجيل اي تطور محسوس في الاساليب التقنية ، باستثناء وسائل وادوات استثمار الارض لدى اكثرهم تطوراً من السكان في ضاحية باريس ، بفضل ازدهار صناعة الحديد ، وبفضل استعمال المهاريت « المتخذة كلها من الحديد » .

والرغبة في البيع والتنفيق في الاسواق ، نشط التقدم التقني مما ادى بالتالي الى تطوير الانتاج الصناعي بشكل ابرع ، كما ان اقبال الناس على الانسجة الناعمة ، السهلة الصنع والقليلة الكلفة ، ضمن النجاح لمعامل انشئت في الاوساط الريفية ، تقع في السهل الفلانكي ، وكانت عاملاً ادى الى ازدهار مصانع الانسجة والحياكة في المانيا ، وبذلك تهباً السبيل امام تكديس البضائع وتوفير رؤوس الاموال ، عماد الحركة التجارية الكبرى التي ستنشط عبر المحيط الاطلسي .

والطريف المدهش ، بعد هذا كله ، هو الازدهار غير المتوقع الذي عرفته صناعة التعدين ، منذ عام ١٤٦٠ ، ولا سيما في اوروبا الوسطى . فقد بلغ التقدم التقني ، درجة العلم بفن واصول ، كما ان اكتشاف احسن السبل وامثل الاساليب الصناعية لحفر الارض وتصريف المياه ، وتأمين وسائل التهوية ، كل ذلك ساعد على استثمار المناجم الغنية في كل من سكسونيا وبوهيميا وهنغاريا والنزول الى عمق ٦٠٠ قدم في بطن الارض . والتمويل اكثر فاكثراً ، على القوى المائية المحركة زاد في طاقة المنتج كما اعطى المطارق قدرات اكبر بحيث امكن نقل معامل صهر الحديد وتحويلها من المناطق الجبلية نحو المنخفضات . ان انشاء مصاهر للحديد بملو عشرة اقدام ضاعف ثلاث مرات القدرة على الطاقة الانتاجية في معامل صهرها . وليس من المستبعد قط ان يكون انتاج المعادن قد بلغ في اوروبا الوسطى ، بين الفترة الواقعة بين ١٤٦٠ - ١٥٣٠ ، خسة اضعاف ما كان عليه من قبل . واكثر ماسعوا الى توفيره وتأمين المزيد منه ، معدن الفضة الذي كانت الممول الاول عليه لدى الحكومات كما كان عماد الاقتصاد وقوامه اذ ذاك ، وهو معدن حاول جاك كور ، ان يكتشف بمض عروقه في مقاطعة ليون . وكان يخالط معدن الفضة ، الزئبق ، الا انهم كانوا توصلوا في مقاطعة السكس ، حوالي عام ١٤٥٠ الى اكتشاف طريقة لفصل الواحد عن الآخر . واخذت انلكترا تنشط استخراج الفحم الحجري ، من هذه المنطقة الواقعة على مقربة من نيوكاسل وتصدر منه مقادير مهمة الى القارة . واشتد في كل مكان الطلب على

الحديد بعد ان كثرت وجوه استعماله ولا سيما في اعداد اعددة الجيش ومهامه الحربية . فلا عجب من ان تصبح مقاطعة ستيريا في النمسا ومقاطعة كنتبريا ، في اسبانيا من المناطق التي اشدت فيها ونشطت صناعة التعدين .

والى القطاع الاقتصادي يجب ان يضيف استثمار معادن الشب الغنية في مدينة تولفا الواقعة في ممتلكات الكرسي الرسولي ، فجاء اكتشافها في الوقت المناسب ، عندما فقد الجنويون سيطرتهم على مناجم الشب التي كانوا يستثمرونها ، في آسيا الصغرى ، فووقت تحت سيطرة الاتراك العثمانيين . وقد حاول الكرسي الرسولي ان يقيم ، مناصفة مع آل مديشي ، نظام احتكار ، لتجارة الشب المستخرج من ممتلكاته ، في اوروبا كلها . وهذا الحادث بعينه يبرز لنا المحاولة المتزايدة ، يشترك بها كل من الدولة ورأس المال للسيطرة على استثمار هذا المرفق الجديد من مرفق الاقتصاد في اوروبا . ففي كل دولة يحاول الملك اثبات حقوقه الملكية على المناجم فيصدر بشأنها التشريعات التي تؤيد هذه الحقوق ، كما حدث ذلك بالفعل في الامارات الالمانية ، وفي مناجم القصدير ، في انكلترا ، وفي دولة الكرسي الرسولي ، وفي فرنسا حيث نشر لويس الحادي عشر اول مرسوم يتعلق باستثمار المعادن ، عام ١٤٧١ . فان لم ترتسم ، حتى ذاك العهد ، للدولة ، سياسة واضحة في المجال الاقتصادي ، فقد اخذت أقله تشمر بوضوح ، بما يمثل العامل الاقتصادي في البلاد من قوة وما يوفره لها من غني . وغير مثل على ذلك ، امارة فلورنسا الضيقة الرقعة ، في عهد آل مديشي ، وعلى نطاق اكبر ، مملكة انكلترا التي عولت في معاشها ، الى حد بعيد ، على الرسوم التي اخذت تستوفيها دوائر المكس عن هذه المادة . ولويس الحادي عشر الذي تتلذذ ، ولو من بعيد على نيقولا اورسم بين ١٣٣٠ - ١٣٨٢ (اسقف ليزيو ورئيس كلية نافار ، واحد كبار العلماء في الاجيال الوسطى المتأخرة) . والرائد الذي اخذ عنه بدوره كولبير ، اصدر عدداً من القوانين والتشريعات التي حاول فيها تنظيم صناعة نسيج الاصواف واستثمار المعادن ، فجعل من هذا كله اداة طبيعة لبط سيطرته . ويبدو انه حلل في اللورجه الاولى ، تحرير المملكة من الروابط الاقتصادية والتجارية التي شذتها الى الخارج ، ولا سيما عندما ادخل صناعة الحرير الى البلاد . وقد كان المبدأ الذي عمل به اذ ذاك ، هو ان غني دولة ما يقاس بنسبة ما لها من نقد . وبعبارة اخرى فاي مجتمع يفتقر للذهب ترى الحكومة نفسها عرضة معه للتأفسس المالي ونحمت وطأة المنظمات المالية .

وسياسة الاصلاح المالي التي دشنها في فرنسا الملك شارل السابع بلغ منها الذروة عندما اصدر الملك لويس الحادي عشر ، عملة ذهبية قوية ، تتمثل بالريال الذهب ذي الشمس المشرقة (١٤٧٥) الذي يمكن مقارنته بالعملة القوية الانكليزية . ففي الوقت الذي حافظت فيه العملات الذهبية في ايطاليا ، على سعرها العالي ، راح الملوك الكاثوليك ، في اسبانيا ، يوجهون دولهم عن طريق سلسلة من التدابير التمييزية ، لوحدة النقد ، فسكوا عام ١٤٩٧ ، النقد المعروف باسم *Excelente de Cranada* . وبعد حقبة طويلة من التضخم المالي مرت بها اوروبا خلال الازمة الاقتصادية التي عرفتها ، وقبيل

اكتشافها المعادن الثمينة في اميركا صحت الازدهار الاقتصادي بالتخفيف من مسؤولية النقد في التداول ، مما جعل الحاجة اشد الى اعمال التسليف .

وهكذا اخذ رأس المال يفتو الانتاج الزراعي ، عن طريق المضاربات بالمحاصيل الزراعية التي يمكن الاتجار بها على نطاق واسع ، كالحبوب على اختلافها والخبز ، ومواد الرسم والتلوين والصوف والزعفران . وقد برزت هذه الحركة على اشدّها في الصناعات النسيجية ، ولا سيما في صناعة الحرير والخامات الاولى الضرورية لها كالشب ، واخيراً في صناعة التعدين . ان كلفة العتاد الميكانيكي ، واهمية الاعداد والتوضيحات اللازمة ، وتخصيص اليد العاملة ، واكتساب المهارات ، كل ذلك كان يقتضي له رؤوس اموال جسيمة ، لا يستطيع مواجهتها والمجازفة بتوفيرها وتقديمها سوى كبار الاثرياء من اصحاب رؤوس الاموال الضخمة او الشركات الكبرى ذات المشاريع الجبارة الجريئة التي قام بها جاك كور ، في فرنسا ، وهذه الشركة الضخمة التي جرى انشاؤها وتنظيمها تحت رعاية فرنسيسكو درابيرو من سكان جنوى ، لتتولى استثمار مناجم الشب في فوجيا وتصريفه ، والمحافظة على مستوى اسعاره ، والمساعدة التي قام بها آل مديشي فأدت بالتالي الى تأسيس وكالة تولفا الاستشارية التي تحكمت بالاسعار وحددت كما تريد مخرجة وراها مستثمري مناجم ايشيا التي كانت دون الاولى اهمية بكثير .

ومؤسسة آل مديشي التجارية التي بلغت القدر المعلى ، حوالي عام ١٤٦٠ يمكن اعتبارها مثلاً لا نظير له ولا كفاء ، لهذه الرأسمالية المتحكمة الطاغية السابقة لاوانها . وقد نوهنا ، فيما مضى الى تنظيمها وتكوينها ، وكيف انها تألفت اصلاً ، من شركات مستقلة ادارياً ، يملك آل مديشي في كل منها ٥١ ٪ من اسهمها . فكانت بذلك سابقة احتذتها وسارت على منوالها الشركة المعروفة بـ *Holding Company* ، اذ كانت تعاطى اعمال الصرافة ، وصناعة الحرير والاجواخ والاصناف العامة التي لا بد فيها من استعمال الشب . وقامت لها فروع شبيهة بفروع شركاتنا الحديثة اليوم ، في كل من ميلانو ، وروما والبندقية وأفنيون وجنوى ، ثم ليون ، واخيراً بروج ولندن . وقد استمر البنادقة يسلكون الطرقات الألبية التي كانت تفضي بهم عبر مرتفعات المانيا ، الى اسواق فرانكفورت ، بينما راح الجنويون يستثمرون ويشغلون الكثير من اموالهم في اعمال ومتاجرهم في لشبونة واشبيلية .

وهذه المضاربات المالية والتجارية الدولية التي اضطلع الايطاليون القيام بها منذ عهد بعيد ، عرفت ان تجتذب اليها عدداً متزايداً من رجال المال والاعمال في البلدان الاخرى . فمن قطر الى قطر ، ومن محيط آخر ارتبطت المصالح الخاصة بالمصالح الوطنية او باواصر الدم والقربى واخذت تقنية الاعمال تفرض طرائقها الفنية وتلشر مناهجها ، وتلشى لها جماعة خاصة تشبه الى حد بعيد ، الجماعة التي تشكلت على صعيد الفكر والثقافة ، فشدت علماء النهضة بعضاً الى بعض ، اذ كثيراً ما كان هؤلاء واولئك من اسرة واحدة . وبفضل هذا التقدم التقني الذي عرفته السفانة اوهندسة السفن ، والتطور الذي طرأ على شكل السفن وحجومها ، وزيادة حجم الشحن والوسق ، والتغيير

الذي طرأ على صواري السفن وانتشار القلوع الكبيرة ، اخذت السفن تمخر عباب الم ، متقلبة من مرافىء البحر المتوسط الى مرافىء بروج ولندن في شمال الاطلسي ، في رحلات موسمية . وما كادت شمس القرن الخامس عشر تميل نحو المغرب ، حتى رأينا الانكليز والاسبانيين ، يصبحون سادة البحار . ومنذ ذلك الحين ، اخذت الخطوط البحرية تتسع وتمتد وترحب ، فراح رجال البحر العاملون في المحيط الاطلسي يحسرون على تجاوز ومضائق الدائمات ومعايير البحر البلطقي ، او يمرون مضيق جبل طارق نحو اسكلة الشرق الادنى ، هازئين بما كان ينتظرهم او يتوقعون من تعديات قرصان الأتراك . وهكذا دخل المحيط الاطلسي في سباق مع البحر الابيض المتوسط محاولاً انتزاع الاولوية في التجارة البحرية الدولية ، هذه الاولوية التي لم تعرف بجرأ استطاع حتى الآن ان ينازع البحر الابيض المتوسط عليها .

وعلى هذه الطرقات القارّية او البرية التي حرصت الدول أشد الحرص على صيانتها والحفاظة عليها ، اخذت تتسابق الآن قوافل لا تنتهي من عربات النقل ، تابعة لجنسيات وقوميات وبلدان مختلفة ، وهي تنافس بسرعتها بريد الملوك والتجار . فالخبر الطارىء الجديد اصبح له في المجال التجاري كما له في المجال السياسي ، من يتم له ويشعر اكثر فاكثر باهميته ونتائج وصداه . وعلى هذه الطرقات نفسها ، انتقلت بين مدينة واخرى ، ومن سوق مالية الى اخرى اوراق اعتماد ؛ وسفاجات واستحقاقات واسهم مالية تقيم دنيا الاعمال وتقدمها . فاذا بمعاملات التجبير تبرز للوجود قبل عام ١٥١٩ . فالعامل بالمقود الكتابية والصكوك المكتوبة اخذ يحل محل سيولة النقد بين الناس . كذلك اخذ التأمين البحري يعم المرافىء والموانئ الواقعة على شواطئ البحر المتوسط لينتقل سريعاً الى الغرب ويصل الى مدينة بروج حيث يعمل ممثلون ووكلاء للدول المتوسطة بعد ان تبين لهم اهمية مثل هذا التدبير . واخذت ادارة الاعمال التجارية ، تنتظم وتتنسق وتتوحد دون ان تصدم مع ذلك ، بعنف ، العادات الجارية العمل بها من قبل كما اخذت تنتظم الشعور بالتضامن والمسؤولية في هذه المقاطعات والمعاملات التجارية والمصالح المشتركة . وما عثم ان قام في الغرب اقتصاد اوروبي واحد تعالى فوق الروح الاقتصادية القومية وارتفع الى ما فوق الحدود السياسية الضيقة ، كما اخذ هذا الغرب يتحسّن عميقاً طلوع مدينة جديدة .

٣ — بين الرغائب والاماني

في شرحه لسفر التكوين والتعليق عليه ، يضع بيك دو لاميراندول ، في خاتمة بحثه المكثود حول قهر المرء نفسه ، هذه العبارة على لسان الله سبحانه وتعالى يخاطب بها آدم واقمته عند محور الارض لترى بعينيك ما يقع عليها . فانت لست باهلي ولا بأرضي ، كما لست بمات ولا بنجالد ، بحيث تستطيع ، على شاكلة الله الذي برأك وابدعك ، ان تكون نفسك كما تشاء . باستطاعتك ان

تهوي الى ادنى دركات البهيمية، وان تسمو الى مصاف الالهيين حسباً تفتي في الامر انت بنفسك. .
وهل ابلغ من هذا الكلام للتعبير عن هذه الحقيقة الخالدة ، وهي ان الانسان هو المعيار الصحيح
والمقياس الاساسي للحضارة البشرية ، لانه وجد في مطلبه المثلث الامثل : الجمال والخير والحق ،
ما فيه قناعته وسر عطائه .

بهجة العين وحلية العيش : الهندسة
وهذه التطورات السيكولوجية التي يُعبر عنها جزئياً هذا التجديد المادي
في مباهج الحياة : السمي الموصول وراء السكن الرفيه ، وتذوق ما فيه
قوام الحلية والزينة ، والبنيان الحضاري او التمدين تم كلها عن التمتع بلذة العيش . ففي ايطاليا
تظهر قبل غيرها من بلاد الناس ، لذة الاستمتاع بالفراغ . فعند القرن الخامس عشر ، عرف
اسلاف ليون باتستا البرتي (١٤٧٢) ان يستمتعوا بمباهج صروحهم المنبئة تحيط بها الرياض
التوسكانية ، بينما يروح حفيدهم فيصف لنا في كتابه : « الاسرة » المنزل الافضل والامثل في
المدينة . فالقصر الفلورنسي تخلص نهائياً ، من هذه الابراج الشاغرة الكثيفة الظل ، التي كانت
تعلو مشمخة ، قصر تريشتنو بعد ان عرف ان يحافظ على مظهره الارستوقراطي والرفي معاً ،
ويجعل منه طوداً لا اثر فيه لاي نشاط مهني ، يخفي عن أعين الناس ، وراء جدرانها العاتية
وشعريات الطابق السفلي ، هذا الهدوء المهيم على غرفه الرحبة في الداخل . اما هناك وراء الجبال
الشاهقة في فرنسا ، بعد ان هدأ منها الروح ، وفي هذه المدن الثرية من المانيا الجبلية والبلاد الروطية
فقد اخذ المنزل العائلي في المدينة ، ينعم بالمزيد من الرفاه ، كما راح الصرح في الريف يتخفف
تدريجياً من مناظره الحربية التي طالما سمرت الخوف في سويداء القلوب .

وارتفعت في فلورنسا صروح وقصور آل مديشي وألبرتي، ورتشلادي وبيتي وستروزي .
وفي البندقية قصر 'D'Oro' ، وفي روما ، الى جانب قصر البندقية قصور دوريا وكبرانيكا
تنطق عالياً بالجديد المستطرف والمستظرف من المساكن والمنازل البديعة التي اطلت علينا في
القرن الخامس عشر . وينطق قصر آل سفورزا ، في ميلانو عالياً باستلاء القوة العسكرية في
المدينة واستبطارها . وتزدان نورمبرج واوغسبورج بهذه المنازل الثرية يملكها جماعة من سراء
القوم وتجارهم الاغنياء . اما في مدن : فنت وبروج وبروكسيل ولوفان . وانفوس ، فالمنازل
والمساكن ازدادت ترفاً وطرافة بينما امتدت من مدينة ميهون سور يافر حتى مدينة فانن ، سلسلة
متصلة الحلقات من هذه القصور الملكية او الاميرية وقد افترت نوافذ جدرانها عن بسمة رضى
وارتياح انعكست على هذه الصالات والابهاء والقاعات الرحاب تضيء عليها غلالات من الظلال
الوارفة ، وقد استحالت بعضها شرفات ضاحكة يفيض بشراً وحبوراً ، وتطل على حدائق غناء .
وقد تحلق في زواياها زمر تطفو على شفاهم بسمة العيش الرضي ، بينما راح الناس في كل مدن
باريس وروان ، وتور وليون و طروي يستبدلون منازلهم الخشبية بأخرى من الحجر المقصوب
او الفرميد الاحمر ، وقد اكثروا ، في الداخل من قاعات الاستقبال ، حلوها بالكريم من النقوش
والزخارف . وهكذا ، اخذ يستبد بالناس طراز جديد من العيش الهادي الرخي ، الناعم .

وهذا الحلم من العيش الرفيه ، لم يراود بعد جبهة الشعب الذي لم يزل مستمسكاً بعباداته الشعبية قانماً بأزقة الضيقة وبساحاته المعزولة . والأخذ بتجميل المدن *Urbanisme* ، سياسة لاتزال بعد في القمط حتى في روما نفسها ، حيث اخذ البابا نيقولا الخامس وسيكتس الرابع يشرفان على مشاريع تجميل المدينة الخالدة ، وضعها رواد في التجديد الهندسي ، استهدفت تجديد الكنائس الكبرى فيها ، وإصلاح الفاتيكان وتوسيعه بإنشاء الكنيسة السكستينية ، وديوان الاختام وقصر الامناء . وقد استلموا في هذه الترميمات والاصلاحات المبادئ الهندسية الجديدة التي قال بها فيتروف ، وراح ألبرتي في كتابه : « فن البناء » الذي جاء في عشرة اجزاء ، يكشف لنا عن اسرار التاريخ القديم في هذا المجال . وكان لا بد من الانتظار والتريث زهاء نصف قرن ، وتعديل الخطط القديمة ، ليأخذوا ببناء كنيسة القديس بطرس على مثل هذه الضخامة والفضامة التي نراها عليها اليوم . فالنفوس في الاجيال الوسطى ، في تطلعها الى حياة افضل ، قبعت راضية مرضية بما استقر في خلدتها من صور خيالية لهذه المباني التي تأقت الى تخيلها كما قبعت بهذه المراثيات الصورية التي استبدت بأذهان القوم حتى ذلك العهد . صحيح ان التصميم الجريء الذي وضعه فيليب برونسلي (1377-1446) ، لبناء قبة كنيسة سنتا ماريا دالي فيوري ، التي تم عن تمخض هندسي جديد ، يبشر بطلوع التصاميم الهندسية الفخمة في المستقبل القريب . الا انه كان يترتب على المهندس ، قبل كل شيء آخر ان يحل مشكلة فنية عارضة ، ولم يكن هنالك ما يشير من قريب او بعيد الى ان الحل الذي وقفوا عنده كان من شأنه ان يجر تطورات لم تخطر قط على بال المهندس ، ولا على بال من يأتي بعده . فقد قيل بهذا الصدد ان المهندسين ساروا هنا على ما سار عليه الرسامون الذين عرفوا كيف يميزون خصائص المدينة المثلى .

فن التصوير الابطالي
 فبينما كان المهندس برونسلي يحاول صادقاً ان يضيف ، اكثر فأكثر ، على حياة الانسان اليومية إطاراً وفقاً لمقاييسه هو ، فقد الحز بعد اقامته قبة فلورنسا ، كنيسة بازلي . وفي الوقت ذاته راح مهندسو الفن الغوطي المطفطف ينزلون فن البناء الى مقاييس اكثر انسانية ، كما عرف المصورون والرسامون ان يمازجوا بنجاح بين الصورة الذهنية والواقع المحيظ ويعطوها مقاييس الانسان ذاته . ان مراعاة نسبة الابعاد والمسافات ، والتقييد بالمشهد الطبيعي في الفن ، واكتشاف وسائل تقنية جديدة في التلوين روعي فيها القدرة القصوى على التعبير والافصاح ، كل هذا وما اليه ، هو من هذه الخصائص التي تحدد ، على احسن وجه ، الانسانية الفنية في الحركة الاحيائية العالمية في ايطاليا .

والرسام فرا المجليكو الذي توفي عام 1455 ، بعد ان نقل الى منتصف القرن الخامس عشر التقاليد الرمزية التي تميز النهضة الايطالية ، نراه يهتم ، اكثر فأكثر ، بالواقع المتحيز ، كما يبدو لنا ذلك من صورته المشهورة « انزال جسد السيد المسيح عن الصليب » المحفوظة في متحف القديس مرقس ، في البندقية ، وفي الصورة الاخرى التي وضعها عن حياة القديس اسطفانس

وحياة القديس لورنتيوس الموجودتين ، في الفاتيكان ، اللتين تتميزان بما فيها من حيوية عارمة ، وبطبيعية الوقفة والمنظر . فقد كتب للمدرسة الفلورنسية ان تجدد ، بعد ان تنوسيت الاساليب الفنية التي كان عليها المتوغل في عهد الرسام جيوتو . وقد توصل مازاتشيو ، بعد حياة قصيرة انما خصبة ، وذلك في الصورة التي وضعها : « ضريبة مار بطرس » الى تمييز الهجوم ، وجعل المواقف اكثر طبيعية ، واتقان التعبير عن مظاهر الحياة ، فهد بذلك السبيل امام قوة الملاحظة وفن توزيع الاحجام والرغبة في جعل موضوع الصورة محور الفن ، بعد درس المبادئ التي يقوم عليها علم المناظر والاصح الرثابة ، والحركة ، كل ذلك جعل المعارك التي رسمها لنا باولو اوتشيلو (١٣٩٧ - ١٤٧٥) روائع فنية ، تومر بالعلم والفن والحياة . وعندما توفي غيرتي في السنة نفسها التي قضى فيها فرا الجليكو (١٤٥٥+) كان المنجز وانتهى من النقوش التي تزدان بها صورة « باب الفردوس » في جرن الهاماد ، في فلورنسا كاشفاً لنا عن عجيب الحياة في الرسم الومسي للفضاء . وبعد ذلك ، تمكن النقاش دوناتلو من الكشف عما اوتي من علم ومعرفة لطبيعة الجسم البشري الذي استطاع لأول مرة في تاريخ الفن ، ان يصوره عارياً في الصورة التي وضعها لداود الملك . وفن التصوير كفن النقش ، انجده هو الآخر ، نحو رسم الاشخاص . فالنقاش لوقا دلا روبا (١٤٠٠ - ١٤٨٢) قدّم من الرمر ، صورة الاسقف فيدريجي كما رسم صورة اولاده في رسمه المعروف كونتوريا ، والفنان فيروكيو الذي جمع بين الرسم والنقش ، جعل في التمثال الذي وضعه للقائد برتولوميو كولونيوني ، متمطياً صهوة جواده ، تبرز على اتمها ، شخصية هذا الزعيم ، كما انه برهن عن علم ومعرفة كاملين لنواميس الحركة ، كما يبدو ذلك في الصورة التي وضعها لجيرلانداخو والمواقف الصحيحة والتعبير الصادق عن القيم الادبية أضفت على الافاريز التي نقشها في كنيسة سنتا ماريا الجديدة كأنها ستائر من اللون الذي يبرز في صورة « الشيخ والولد » الموجودة في متحف اللوفر ، حيث استطاع ان يصور لنا الدمامة مع بساطة القلب . وهكذا نرى كيف ان الفنان اخذ يهتم بالانسان بصفته انساناً .

فاذا كانت مقدرة القصاص التي تمت لبنزو و غزو لي سارت باتجاه التكنيك الذي ترسمه فن التزييق ، في الاجيال الوسطى ، فقد استطاعت المدرسة الأومبرية ان تجدد شبابها بعد ان جرى تلقيحها بالعلم والنشاط ودقة التعبير وغير ذلك من الصفات التي ميزت بيرو دلا فرنسيسكا ، استاذ علم المناظر كما كان استاذ الاضواء والظلال بعد ان عرف كيف يتلاعب بها فيكيفها كيفما شاء في صورته : « حلم قسطنطين » وذلك بمقدرة تكاد تداني فن ليونارد دي فنشي في ال *Sfumato* فبعد ان تم تبسيط فلسفة علم المناظر والابعاد على ضوء الواقع ، اكتسب فن التصوير الابطالي بالفعل في النصف الثاني من عصر الانبعاث القدرة على التلاعب بالالوان . واخذ الفن من ذلك الحين يتلبس صفات الفردية بعد ان رسخت اصول رسم الصور الشخصية ، فقد راحوا يمولون على القماش في التصوير ، وسعوا وراء الاطار المستدير ، والاساليب التقنية لفن الرسم الزيتي مما ساعد على تأثير فعل اللون .

هذا الفن الذي ازدهر فوق شبه الجزيرة الإيطالية والذي اخذوا في الخارج ينشدونه ويحتذون حذوة استوحى ما في الانسانية من مثل ، نعم برعاية نصراء الادب من الاغنياء . فاذا استطاعت الوثنية القديمة ان تجدد منه الرموز ، فقد هدف هو ، الى تمجيد نصيره وراعي حماه او الشخص المسك بيده . فالواهب الجواد ، بعد ان تخلى عن الموقف المحترم الخاشع الذي وقفه ، كما يبدو من خلال الرسوم التي خلفتها لنا الاجيال الوسطى ، نراه اليوم يبرز بجملة الفاخرة ، ويحتل في هذه الرسوم محل اولياء الله وقديسيه . فقد صرف بنوزو و غزولي هم وفنه في تمجيد آل مديشي ، وراح بنتور تشيو يشيد بآثر شخصية اينيا سلفيو اكثر من شخصية البابا بيوس الثاني الذي حل هذا الاسم قبل ان ارتقى الى السدة الرسولية ، وذلك في رسومه الجدرانىة الموجودة في مدينة سينا ، وصورة « المسيح المائت » وهي بريشة مونتانيا تبعت في النفس هزة وشعوراً يتمطى الضلوع امام ما نتبينه فيها من تناسب وتناغم بين اعضاء الجسم البشري . ومع أنطونلو المسيني ، وصورة جنتيلي بليني وهذه الروائع الغوالي التي هي من ريشته في البندقية ، يحتمل الانسان فيها محور الفكرة ، والنقطة من الدائرة ، في زهو الالوان وما لها من مدلول تعبيري . والى فلورنسا يجب ان نعود بالفكر لنجد اشهر الفنانين لمعت اسمائهم وبعدت شهرتهم في اواخر الاجيال الوسطى . فقد عرف بوتيشلي بما حقق من تناغم الالوان وانسجام الخطوط ان يعبر في رسومه عن العزم وتناسق قسبات الشكل في ادق معانيه . أوليست صورة بريما فيرا التي رسمها ، رمزاً لهذا الانبعاث الفني الايطالي ؟ ونابعة الفن ليوناردو ده فنشي ذو النبوغ الخلاق والواهب الموسوعية ، تتم للفنان والعالم والمهندس الكبير الذي كانه في وقت واحد ، فجمع في شخصيته الفذة : الثقافة الحضارية لعصره ، فكان في تجواله وتنقلاته واقامته في فرنسا صورة صحيحة لهذا الاشعاع الايطالي . لقد كانت الصورة عنده ، تعبيراً صادقاً عن دواخل النفس البشرية ، ولذا كانت ظلاله وانواره غلالات تور بالرمزية .

الفن الفرنسي الفلنكي فاذا ما استطاعت ايطاليا ، بفضل ما لها من مزاج خاص ، ومن تراث قديم مهيب ، ورعاية نصراء العلم فيها للفن والفنانين ، ان تعبر عن هذا الجمال الصوري بمثل هذه اللباقة والمقدرة والكفاءة ، وتحمل الى الشعوب المجاورة لها اسرار هذا الفن ، فقد عرف هؤلاء بدورهم ان يقابلوا النعمة باختها ، ويميدوا الفضل الى ذويه ، وان يُغنوا المؤثرات التي تفاعلوا بها ، بما في تقاليد القومية الخاصة من تراء فني ، عندما دب في جنباتهم رسيس الرغشة الفنية الإيطالية . فقد كانت العلاقات ابدأ على اوثق ما يمكن ان تكون بين ايطاليا وفرنسا والبلاد الواطية ، بفضل عطف نصراء العلم وحدهم على الفن ورعايتهم لرجاله والعمل على ترسيخ اسبابه ونشرها بين الملأ . صحيح ان الهندسة المعمارية لم تتأثر كثيراً قبل القرن السادس عشر في شعائرها الزخرفية ، بنفوذ شبه الجزيرة الإيطالية ، بينما كانت ، قبلة رجال الرسم والنقش ومثوام الافضل ومحط رحالهم . فقد عرف جان فوكيه ايطاليا

عن كسب . والفنانون الذين اشتهروا بفن الحفر والنقش ، في وادي اللوار ، والذين ورثوا المدرسة الواقعية عن الاجيال الوسطى ، عرفوا ان يضيفوا ، في اواخر القرن ، مع ميشال كولب ، عنصر الحركة التي كانت استبدت ، منذ عهد بعيد ، بالمدرسة المعروفة بالمدرسة البورغونية ، هذه المدرسة التي خلفها وراءه كلوس سلوتر (١٤٠٥) . اما الفنلنديون الذين كانوا على علاقة متصلة مع الايطاليين بعد ان اُلف اغنياؤهم وسراهم زيارتهم والاقامة بين ظهرانيهم ، فقد رأيناهم ينتقلون ويحبون أرجاء شبه الجزيرة الايطالية بكل سهولة ، دون ان يفقدوا شيئاً من شخصيتهم . على يسد من ياترى ، وكيف تم استعمال الزيت في التصوير ؟ نسب بعضهم هذا الفن للاخوة فان أليك . والذي يبدو لنا ان هؤلاء الاخوة توصلوا للكشف عن اسرار مزج الازرق السمنجوي بزيت النفط المستورد من الشرق . ومهما يكن ، فقد اتجهت كل المدارس الفنية الاتجاه ذاته دون ان تتجاوز او تتخالط . وما مثل نجوست ده غنت الذي تلبتن وقطيع بطباع الايطاليين في خدمة دوق اوربين تحت تأثير بييرو دلا فرنسيسكو وملوزو ده فورلي . وكان لا بد من انتظار الجيل التالي وامثال : مملنغ وجيرارد دافيد ، وكورنتن متزي ، لنرى كيف تغلغل الاثر الايطالي في تلك البلاد . ومع ذلك ، فلم المناظر والابعاد ، والواقعية في تصوير الطبيعة ، وفن مزج الألوان وخلطها والمكانة التي احتلها الفرد في التصوير والرسم كل هذه العناصر المتميزة تتوفر على اتمها في رسوم فان أليك ، بينما التعبير الديني يبدو على واقعيته ، تحت ريشة روجيه ده لا بستور .

طلع هذا الرسام من مقاطعة الهينو ، وهو مواطن لهذا الفريق من الموسيقين الذي سبق لنا ونوهنا بفضلهم ، والذين استمروا في عملهم الفني في الوقت الذي كانت فيه الموسيقى المتعددة الانغام الايطالية آخذة بالهبوط بحيث لم نعد نرى سوى موسيقيين هولنديين في كل كنائس اوروبا . كذلك خليق بنا ان نلاحظ هنا ، بالمقابل ، اي حد بلغته عملية وتنقية الموسيقى المتعددة الانغام من الزيادة التي لحقتها على يد الهولنديين ، بعد ان تأثرت بالموسيقى الايطالية . وما نحن نرى تبرز عند جوسكين دو بريه نزعة قوية ، لتأمين التناغم والانسجام بين النوبة والكلمات ، والعواطف والمشاعر ، بحيث تطل علينا الحقيقة ، كما هي ، وكثيرها من الفنون الاخرى ، نرى الموسيقى تستوحى رؤى أكثر حساسية واوفر انسانية ، من ذي قبل .

في نظر رجال عصر الاحياء في ايطاليا ، كان الجمال الامثل يتجلى في الاحياء الثقافي الايطالي هذا الانسجام في التعبير عن الحساسية والحقيقة ، فقياس سطو الجمال ليس فقط ما يستطيع الانسان تحسسه ، بل ايضاً ما يستطيع تفهمه . فشعور الانسان وفهمه هما الحدان اللذان يقف عندهما مسلك الانسان . وبهذا المفهوم وجدت تصرفات الانسان السوابق والمبررات التي اعتمدها في التاريخ القديم ، والتي اليها اتجهت الانظار والابصار . فقد راحت منذ الآن فصاعداً تفسح مجالاً اكبر فاكبر ، للعقل والنقد .

فبعد ان تجاوز القرن الخامس عشر بمراحل ، المفهوم الادبي للحركة الاحيائية هذه وتعدي

هواية الفرر الفنية التي ميزت الأجيال السابقة ، اتجه للنقد الذاتي والحارجي للنصوص ، مظهراً الاهتمام ذاته بتحول نظريات القدامى وتعاليمهم ومحاولة التعبير عنها تمبيراً جليلاً . فعسى ان يتمكن من اجراء التأليف والتوفيق بين الفكر القديم والفكر المسيحي . ولذا راح نيقولا ده كوس (١٤٠١ - ١٤٦٤) ، اشهر رجال الحركة الاحيائية والنهضة الفكرية في المانيا يلاحظ قائلاً : « اينما تطلعنا وجدنا اذهان الناس وخواطرهم تنصرف اكثر فاكثر ، لدراسة الفنون الجميلة ، وتجنه بشيء من التوق لابل من النهم ، نحو التاريخ الكلاسيكي القديم الذي فيه الشبع كل الشبع ، فكأننا على ابواب انقلاب عارم قريب ، .

وقد عرفت ايطاليا ان تحافظ ، في هذا المجال ايضاً على سبق الآخرين والسير منهم في الطليعة ، دون ان تأخذ ، مع ذلك ، جامعاتها المبادرة بهذا الحقل . فاذا ما خرجت جامعة بادوا ده كوس ، واذا ما خضعت جامعة الحكمة (*Sapiens*) في روما ، وهي التي كانت تدرّس اليونانية وآدابها منذ عام ١٤٠٦ ، لاصلاح شامل في عهد البابا يوجين الرابع ، عام ١٤٣١ ، عرفت جامعة بولونيا بدورها ، عهداً من الانحطاط لازمها الى ان قام بساريون باصلاح جذري فيها ، عام ١٤٥٠ . وعلى مثل هذا الوضع كانت جامعتا بيزا وفلورنسا . فموطن هذه النهضة الاحيائية ومشاعلها الكبرى ، كانت بالاحرى في جوار حماة العلم ونضراء الفن ، وفي الندوات الادبية . حرري بنا ان نلاحظ هنا ظهور الاكاديمية الرومانية في وقت واحد تقريباً ، اي بين ١٤٦٣ - ١٤٦٤ ، وفيها قام بمبونيوليتو الذي لقب بكبير الاحبار يجيبي ، بشيء من الفرور والادعاء الفارغ ، المناهج والاساليب الوثنية والاكاديمية الافلاطونية ، التي قامت في دارة كاريجي التي كان يملكها لورنتيوس العظيم ، والذي لم يستخف قط بالاسهام بنشاطاتها ، وتأسيس المكتبة الفاتيكانية على يد البابا نيقولا الخامس وجعلها في متناول العامة ، في عهد البابا سيكستوس الرابع ؛ واخيراً هذه الاتصالات التي تمت بين بعض كبار حملة الثقافة من رجال الكنيسة اليونانية ، بفضل الاتحاد الذي تم في فلورنسا ، والهجرة البيزنطية بعد سقوط القسطنطينية بين ايدي الاتراك العثمانيين ، وكان من جراء ذلك ان اصبح بساريون كردينال الكنيسة الرومانية فأسس في مدينة البندقية المكتبة المرقسية .

ان بعث الادب القديم من سباته ، والمخطاط التربوية السكولستنيكية ساعداً كثيراً على رواج اساليب النقد . فقد كان لورنتوس فاللا رانداً في هذا المجال بزّ فيه جميع معاصريه امثال فيلافو وبوجيو . فلم يرضه قط ان يقضى قضاءً مبرماً على الدعوة القائلة بـ « هبة قسطنطين » او وقفيتها التي تقول بان املاك الكرسي الرسولي قامت أصلاً على هبة أقطمها البابا املاكاً اصبحت فيما بعد نواة للمملكة البابوية وهو ادعاء باطل . فقد كان المؤسس الأول لعلم الفيلولوجيا الحديث كما كان الواضع الاول لعلم التفسير الاحيائي او الانساني ، ولعلم النقد التاريخي . فكتابه : الأجرومية ، وكتابه الآخر في الإنشاء العالي بمنوان : « منتقيات اللغة اللاتينية » اصبح المرشد لفن الإنشاء ودليل الكتابة العالية في عهد ايراسموس . فدرس دراسة شارح مدقق النصوص الاولى المتعلقة

بنشأة المسيحية ، وراح بعد ان هام بعملية التأليف ينتقد مجرماً كل المذاهب محاولاً استبدالها بمذهبه الخاص . وهكذا حل ابناء عصره على اعادة النظر بما كانوا عليه من مواقف معينة . ومذهبه التشكك هذا يتصل اتصالاً وثيقاً بالروح النقدية ، الذي امتاز به اوكهام الا انه فوق اوكهام دقة علمية ، واكثر منه سخرية لاذعة وتهكماً . ومع انه عمل سكرتيراً للإدارة الرومانية فقد عُرف بروحه الماجنة وبدعوته للتحلل الخلقي في كثير من كتبه ومؤلفاته الجريئة ، ودعى للاستمتاع بمباهج الحياة ولذائذها واطايبها ، وراح يستعرض في بعضها : « الحياة الرهبانية » ، وفي كتابه الآخر « حول اللذة » امكانية التوصل الى التوفيق بين المسيحية والرواقية .

وعملت الاكاديمية الرومانية في الاتجاه الذي اختطه لها فالان ، حتى ان احدهم هو بيبونازي اشتط كثيراً وذهب بعيداً عن التقاليد المعمول بها في كتابه الموسوم : « حول خلود النفس » حيث وقع في مقالة العقليين ومذهبه . وراح بعض المفكرين في فلورنسا المدينية يحاول الوصول الى شيء من التأليف . فما هو مارسل فقتين ، يحاول ، بالرغم من الاحترام العميق الذي كنهه للعقيدة المسيحية ، ان يضع مذهباً خاصاً قوامه الفلسفة اليونانية وتعاليم الحكمة ، ويوحى بديانة طبيعية متحررة من كابوس الخطيئة ، تولى النفس الطمأنينة وتجعل مخلصاً لعملية الفداء . ثم نرى نابغة العصر وصناجته : بيك ده لا ميراندول ، يندفع بكل ما اوتي من عزم الشباب وزخم المزيمة وثقافة موسوعية باحثاً عن امكانية التوفيق بين المسيحية والمذاهب الدينية الاخرى ، بين يهودية ووثنية ، مما ظهر قبل النصرانية . انها لمغامرات جريئة ، متناقضة ، حملت البابا اينوشنتيوس الثاني على القول : « هذا شاب يتوق لنهاية شريرة . فهو يرغب بان يصير امره يوماً الى الحريق » . فبعد ان بلغ الذروة في حياة داخلية شخصية ، سؤل له الفرور ان باستطاعته ان يشيد عليها ديانة فردية . ولم يلبث ان توارى مبكراً عن المسرح واستسلم لحياة نسكية تقشفية . انها لمحاولة حرة بكل اعجاب ، هذه التي رمت الى تجسيد الشخصية الانسانية والارتفاع بها الى السمات ، فجاءت تعبيراً صحيحاً عن هذه النزعات الروحية التي اضطرت بها نفوس ذلك العصر ، ادت بتجربته التأليفية هذه الى الفشل الذريع .

علاء عصر الانبعاث من
فرنسيين والمان
وفكرة التأليف الديني هذه التي طلح بها رجال القرن الخامس عشر لم يقتصر رواجها على ايطاليا وحدها ، فالحاولات الهادفة لتحقيق الطمأنينة للنفوس ، التي قام بها ليوناردو ده فنشي والتي كانت تبترس النتائج التي ستفضي اليها معظم العلوم في المستقبل ، جاءت خاتمة حسنة لعصر جاش ايناؤه بروح موسوعية ونفوس طُلستة ظمأى للمعرفة . لا بد هنا من التنويه عالياً باسم ليون باتيستأ البرتي ، (١٤٧٢) وبهذا النابغة الجبار الذي كان من اكبر رجال هذا العصر عقلاً وثقافة وعلماً ، نقولاده كوس (١٤٠١ - ١٤٦٤) ، والذي بفضل امكن ، الى حد ما ، تحقيق هذه المحاولات الايطالية للتأليف . فقد عاصر البابا بيوس الثاني ، وشدته اليه وشائج من الود الخالص (عاشاً معاً الى عام ١٤٦٤) ، فلم يفته شيء من علوم العصر . لا من العلوم الكتابية ، ولا من تاريخ الاقدمين ، او من تاريخ آباء

الكنيسة الاولين ، ولا من متصوفة الاجيال الوسطى ومذاهبهم ، حتى ولا من محاولة الاتصال بالارواح والدخول في مخاطبتها . وقد زين له علمه المستبحر ان باستطاعته إفراغ جميع العقائد وصبها معاً في بوتقة واحدة في انسجام وتناغم كلي ، وتوحيد الجهود التي بذلت في هذا الامر ، خلال القرن الرابع عشر . فقد رذل القول بان الارض محور الكون ، ونقطة الثقل فيه ، وبنى نظره على التجربة والاختبار ، وعلى معطيات علم الهيئة الحديث ، هذا العلم الذي ينهض به الى الأوج : تلميذه وخطيبه ريجيومونتانوس .

ومع ان مواقفه العدائية من توما الاكويني معروفة فقد وقف في وجه او كهام وعارض بشدة مذهبه وتعاليمه . ومع ذلك فلم يستطع ان يتفادى الدور الذي يصيب رأس من ينظر في هذه المهاري السحيقه ، ولا سيما من يتعرض لمذهبي الألدريه والحلولية . الا انه بنى على العلوم الرياضية نظاماً للكون توفرت له الوحدة وتوصل الى معرفة الله معرفة صوفية ، راسماً بالقياس العلمي الطريق الذي يفضي من اللامتناهي الرياضي الى اللامتناهي الميتافيزيقي ، قال اشراق النعمة وتجليها .

وعلى هذه الخطى والصوى سارت حركة الاحياء الالمانية التي تميزت اكثر من غيرها من حركات الانبعاث هذه ، بالطابع العلمي . فقد عرفت المدن الجنوبية في المانيا كمدينة اوغسبورغ ونورمبرغ ان تجتذب اليها رهطاً جليلاً من العلماء ، وذلك بفضل هذا الفريق من رجال الاعمال والتجارة من اخذوا بنصرة العلم والادب ، كما كانت الثانية من هذه المدن ، قد اصبحت ، مع ريجيومونتانوس ومارتين بهام ، مركزاً علمياً ازدهر فيه علم الهيئة الذي مثله احسن تمثيل بوتنجر ، كما ازدهر فيه علم الجغرافيا . ولا بد من التنويه هنا بفضل اللغويين : جان ده ترينتهايم وجان روتشلن ، ورودولف هوسمان احد تلاميذه كوس الذي تأثر ، الى حد بعيد بتعاليم فالو ونظرياته ، والمدرسة الهولندية ، وبتعاليم اخوة الحياة المشتركة ، الذين تخرج عليهم ايراسموس بين سنة ١٤٧٥ - ١٤٨٥ .

وحركة الاحياء العلمية في فرنسا ، كان لها جذور اعتمق واقدم ، طالما رأينا بترارك (١٣٠٧ - ١٣٧٤) يقف في وجه المطالب الفرنسية التي رغبت في نقل مركز العلم الى افنيون بعد ان انتقل اليها ، في عهده ، مركز البابوية . وفي اواسط القرن الخامس عشر تركزت هذه الحركة في كلية الآداب اكثر منها في كلية اللاهوت او في جامعة السوربون القديمة . وقد وجدت هذه الحركة خير من يمثلها ، بين اوساط الجامعيين المتخرجين من كلية نافار وكلية الكوردينال لوموان ، بينهم غليوم فيشه ، وروبرت غاكن . وكلما اقتربنا من نهاية القرن ، اشتدت الحركة وتفاقم امرها . والبلاط الملكي الذي وجهه لويس الحادي عشر وجهة امور الفكر والمعرفة ، انشأ له مكاتب على السواء في كل من بلوى وفي فوننتبلو . ورحلات الفرنسيين الى ايطاليا كانت تجري باستمرار ، فقد سافر اليها فيشه ، عام ١٤٧٠ ، والتقى فيها بالكردينال بساربون .

كذلك تواترت رحلات الايطاليين الى فرنسا ، منهم بيروالدو ، عام ١٤٧٥ ، وبالي عام ١٤٩١ ، كما قام بين الفترتين ، اي في عام ١٤٨٥ - ١٤٨٦ ، بيك ده لاميراندول ، برحلة الى باريس ، وراح بعض من قصد منهم الى انكلترا يزرع حب الدراسات الكلاسيكية في جامعات انكلترا القديمة ؛ وعن طريق هذه الرحلات حقق الفرنسيون بعض الكشوف ، وان لم تكن بالفعل جديدة . فقد كان لبتراارك ، منذ اواخر القرن الرابع عشر ، نفوذ عظيم في فرنسا ، وخبيل للبعض انهم سيجدون عنده جواباً لبعض المشكلات التي لم يكن من الممكن ان يحدها هو لها حلاً . وبسبب ما وضع له بتراارك في مقدمات الترجمات الفرنسية ، لكتابه الموسوم : « حول الحياة النسكية » التي تمت اولها عام ١٤٧٨ ، والثانية عام ١٥٠٣ ، فنعمتوه : « بالكتاب التحرير العسّم ، في الترجمة الاولى ، و « بالشاعر المفلق اللبق » في الترجمة الثانية ، يمكن ان نستخلص ان النظرة اليه اختلفت جداً في الفترة الواقعة بين تاريخ الترجمتين ، كما انتقل تقدير الناس له من المؤلف الاخلاقي الذي كانه الى الاديب الذي استقر عليه رأيهم . ومهما يكن بالفعل تقدير القوم للمسيحي الحقيقي الذي كانه بتراارك ، وللاثر والنفوذ البعدين اللذين امتدا حتى منتصف القرن الخامس عشر ، فالاذهان والحواطر كانت تبحث عن مطالب اخرى . فالوقوف على الآداب اليونانية والفلسفة الافلاطونية كان آخذاً بالانتشار في الوقت الذي كان فيه لوفيفرديتابل يتلقى تحصيله في كلية لوموان . ولما كانت كتب النصوص المستعملة اذذاك ، والبرامج المعتمدة لا تسمح كثيراً بتقدير المؤلفين الكلاسيكيين التقدير الكافي ، ولا تمكن لهذا الامر أيضاً المؤلفات التي وضعها المؤلفون الايطاليون المحدثون ، فلم تتوفر للدارسين الاصول اللازمة والادوات المطلوبة لدراسة النصوص القديمة ، وفقاً لمطالبات النقد الصحيح . ولذا فقد كان هم فيشه ان يوفّر للجامعيين في باريس وان تؤمن لهم المطابع المعدد الكافي من النسخ للكتاب الذي كان سبق لغالافو فوضمه بعنوان : « منتقيات اللغة اللاتينية » . وهكذا بعد ان كانت الحركة الاحيائية في ايطاليا مشجعاً لمثل هذه الحركة في فرنسا ، اذ بها تمّت الحركة الادبية الفرنسية بمنهجية جديدة في الفيلولوجيا وفن الانشاء العالي . ومنذ ذلك الحين تابع الفرنسيون سيرهم دون اي مساعدة من الجانب الايطالي ، عملاً بتقاليدهم في القرون الوسطى ، دون ان يسلوا الى متعتهم الادبية ، وذلك في مجالات التفسير الكتابي والدراسات اللاهوتية .

لا يمكن ان تستقيم فينا صورة صحيحة ، دقيقة لهذه الحركة الاحيائية التي الدين والتصوف قامت في كل من ايطاليا وفرنسا ومانيا ما لم نعطف هنا بكلمة عابرة حول ما كان الناس يشعرون به من هواجس ووساوس ، وهموم وقلق في امور الدين . فبعد ان طووا اجيالاً من القلق والاضطراب النفسي يتأكل جوارح النفس راحوا يبحثون عن الدوافع التي سببت بمثل هذه التغييرات الجذرية في جسم العالم ، كما تأق الجميع ورغبوا بشوق شديد لو ان يتم اخيراً هذا الاصلاح الذي طالما لوّحوا به والذي كان يتأجل وقوعه ويسوّفون به باستمرار . وسواء اجاء هذا الشوق للاصلاح استجابة فيهم لمطلب الحقيقة التي يبحثون عنها او للخير الذي يطمعون فيه ،

فجبل ما مهم من هذا كله رجوع النظام الى الكنيسة وسيطرته على الافكار والمجتمع .

وهذا البطء المميت الذي استوجبه القضاء على الانفصال الذي طال امده وذلك بفضل مجمع كونستانس عام ١٤١٧ ، وزوال الانفصال الآخر الذي نجم عن مجمع بال ، وذلك باستقالة البابا الدخيل فليكس الخامس ، عام ١٤٤٩ ، لا يختلف كثيراً عن هذه الرغبة الشديدة في اصلاح الكنيسة ، في رأسها وأعضائها وهي رغبة جاشت في صدور الناس في كل مكان . اما البطء فرده كما هو معروف ؛ الى هذا الوهن الذي دب الى سلطة الكنيسة التعليمية ، هذه السلطة التي نازعها اياها وانكرها عليها القائلون بسلطة المجمع المسكوني الذي له وحده في نظرم الحق بالتشريع وبادارة الكنيسة ، كما يعود الى مداخلات الدولة ومطالبها الملحة بعد ان مكنت اصولها ورسخت اركانها بحيث اضطرت السلطة الدينية للصانعة والدخول معها في مفارقات ، والوصول الى اتفاقات عن طريق عهود ومواثيق توصلت الى عقدها بين الطرفين ، للبت بامور الامتيازات والاعفاءات والرسوم التي كانت الكنيسة تتمتع بها وتجببها ، كذلك هذه الظروف السيكولوجية العامة التي ادت اليها الحركة الاحيائية ، وهي ظروف عملت على الحد من كل الجهود المبذولة في هذا السبيل ، حتى ومن المساعي التي قام بها البابوات الذين جندوا انفسهم لهذه الحركة امثال نيقولا الخامس وبيوس الثاني وسيكتس الرابع . صحيح ان وجود بابا على شاكلة اسكندر السادس بورجيا على رأس الكنيسة في اواخر القرن الخامس عشر لم يكن من شأنه ان يشجع الاخذ بهذا الاصلاح . وهكذا ، فالرغبة التي جاشت بها النفوس والالحاف الذي رافق المطالبة بالاخذ بهذا الاصلاح ، هي احدى النزعات العميقة التي استبدت بالنفوس في هذا القرن ، وهي رغبة ليس انها لم تتعارض مع روح الحركة الاحيائية العامة فحسب بل توافقت معها وانسجمت بها الى أقصى حد ، فتمددت وجوه المطالبة بها بتعدد الاتجاهات الدينية في العصور الفاهرة .

فمن قبيل مثل واحد نضربه هنا هو ان الحاجة الى التأليف والتوفيق التي شعر بها نيقولا ده كوس ، انفقت مع الرغبة في اعادة الوحدة التي ذهب بها النقد المخلخل الذي قام به اوكهام . فقد اضاف الى اهتماماته كفاصد رسولي عهد اليه الكرسي الرسولي القيام في كل من المانيا والبلاد الرواطية بما قام به من عمل اصلاحي ، في فرنسا ، الكردينال دستونفيل وفي اوروبا الوسطى ، جان دي كابستران (١٣٨٥ - ١٤٦٥) ، وفي ايطاليا علم من اعلام هذه الحركة الشاملة ، هو الكردينال بساريون . والى هذا عندما راح ده كوس والبابا بيوس الثاني ، الذي لا يزال يذكر عنه انه كان عمل بوصفه ابنيا سلفيو ، سكرتيراً للامبراطور ، يعملان معاً على اتحاد الملوك المسيحيين ، وبذلك جمعا بين الحلم الممسول الذي تبدى لدانتي ، والوحدة التقليدية التي عرفتھا الكنيسة المسيحية ، في الاجيال الوسطى ، الى المثل العليا التي وضعتها الحركة الاحيائية نصب اعينها . واخيراً لما افضى ده كوس وبعده بـسكثير ، بيك ده لاميراندول ، بشكل آخر بابحاثهم النظرية وتجريداتهم اللاهوتية ، الى ما افضوا اليه من المطالب الصوفية ، فقد عبرا عن الرغائب التي جاش

بها كثيرون من ابناء عصرهم . والقلق الذي استحوذ على بيلك، بعد ان أخذ بمواعظ سافوتا رولا اللاهبة ، شمر به بوتيشلي نفسه .

ففي هذه النزعة الصوفية القوية التي تملكتم النفوس ، يجب ان نبحت عن المحرك الاول والمؤثر الاكبر والدافع الاقوى للاصلاح الديني في القرن الخامس عشر ، كما انه يجب الانهمل ، من جهة اخرى ، الجهود التي بذلها الاكليروس العلماني ولا المحاولات التي قامت بها السلطات المدنية ، في كل من فرنسا ، في عهد شارلمان الثاني ، وفي اسبانيا في عهد ملوكها الكاثوليك ، والمشروع الاصلاحى الذي وضع خطوطه الكبرى المجلس العام لممثلي الشعب ، سنة ١٤٨٤ ، وجمع سانس عام ١٤٨٥ ، واللجنة الكنسية التي التأمت ، في تور ، عام ١٤٩٨ ، وكلها خطوات ومساعدت السبيل امام العمل الذي تولى ادارته رسمياً ممثل البابا الكريدينال جورج دامبواز . وقد قامت الرهبانيات باكبر جهد ونصيب في هذا المضمار ، ولا سيما تلك التي تنقطع منها للتأمل والتجريد ، والرهبانيات المستعطية، والرهبانيات والاديار البندكتية كدير برسفيد الواقع ضمن الامبراطورية ، ودير القديسة جوستين ، في ايطاليا ، ودير كلوني برئاسة الاب ده بوروبن ، ودير شيزال - بنوا برئاسة الاب دوماس ، والرهبانيات الجبيس او المنعزلة : كدير فونتفرولت . كل هذه الرهبانيات والاديار كانت مراكز مثالية للانضباط الرهباني والتقييد بالفرائض الرهبانية . ونرى مثل هذه الحركة تقوم ايضاً في اديار الكرمل التي راح رئسها العام الاب جان سوريت النورمندي الاصل ، يؤسس فرعاً نسائياً لهذه الرهنة هو دير الكرمليات ، وهي اديار اجتذبت اليها النفوس الكبيرة العطشى الى طمأنينة النفس والتأمل . فاذا ما تحلى الكرسي الرسولي عن مشروعه الرامى لتوحيد مختلف فروع الرهبانيات التي تنتسب للقديس فرنسيس الاسيزي ، فقد عرف هؤلاء ، مع ذلك ان يؤمنوا بنجاح اكبر وحظ اوفر، الانسجام في عملهم الاجتماعى وان يلائموا ، اكثر فاكثراً ، بين المبادئ التي اوصى بها كتاب التقوى العصرية ، الذي لاقت تعاليمه نجاحاً كبيراً كما كانت مميّناً لا ينضب من الحشوع . وفي تلك الحقبة اسس فرنسيس دي بول رهنة « المينيم » او المنسحقين (١٤٦٠) وقد عادت الرهنة الدومنيكية بعد طول جهد وجهاد الى ما عرفت به من التمسك بالقانون والتقييد بالفرائض الرهبانية ، لا سيما في البلاد الواطية الجنوبية ، حيث اسس جان فان ويتنهوف ، عام ١٤٦٤ ، الرهنة الهولندية ، التي انشأت لها فروعاً في بريطانيا ومقاطعة سافوى .

هذه الارض « المختارة » ، وهو النعمت الذي اطلق على البلاد الواطية ، عرفت دوماً ان تشع وترسل بانوارها بعيداً . فمن تربتها الخيرة طلع ستاندوك ، هذا الرئيس المتشدد في زهده ، الذي تولى رئاسة كلية مونتياغو ، في باريس ، فكان له فضل عميم في نشر هذه الصوفية التي عمل على ترويحها والدعوة لها واسماً بين الناس : « اخوة الحياة المشتركة » ، وسعوا لنشرها على الاخص بين الاوساط العلمية والادبية التي اخذت بحركة الاحياء ، والتي بلغ من شدة مغالمتها

ما فضح هذا التراخي الذي عم الجميع ، فاثارت تهكم وسخرية مواطنه : إراسموس . ان التقاء هذين الاسمين بازاء المفارقات التي ميزت فلورنسا في عهد سافونارولا يثير هذا التنوع وهذا التباين في عصر 'عُرف بالروحانيات كما فاض باعمال الفكر . هل نحن امام نوعين من الناس قام الواحد تجاه الآخر ؟ هل يمثل ستاندوك الماضي وايراسموس المستقبل الطالع ؟ وهذا الانسان الحديث هل يختلف الى مثل هذا الحد عن الانسان القديم ؟ ففي هذا القلق الداخلي الذي اعترى الناس في الازمنة الصعبة ، لم يُعِمْ الاول منها على تواضع النفس وحده . وعلى تطلعه نحو المسيح المتألم والمدراء مريم ام الاوجاع والآلام . وباستثناء هؤلاء المتصوفة المخلصين ، فقد بنى لذته على الاسترسال في إنعام النظر في ما انتابه من قلق . وهذه الذاتية المركزية كانت بالفعل صورة من صور هذه الحركة الاحيائية . وهكذا اخذ يتجه نحو الانسانية الاخرى الحقة ، انسانية الانسان الفرد ، هذا البطل الذي خرج منتصراً على الازمة بمجرد ارادته . فسواء اكان مستبهماً في العلم او عالماً عادياً او زعيم حزب او اميراً او تاجراً ، او متمولاً او لاهوتياً ، فالرجل الحديث يعتقد من الصميم انه عن طريق ابراز شخصيته وتجليها يستطيع الوصول الى ما يرغب فيه . « فالجهادة تغلب الحظ » هذه العبارة التي جاءت على لسان البرتى فذهبت مثلاً واصبحت منهجاً سارت عليه الاجيال الطالعة التي اخذت تشعر انها تستطيع بعزم صادق ان تحقق كل رغائبها وتفوز بالنسبة . فقد تفتحت امكانات جديدة وتفتحت طاقات جديدة لنشر الفكر والعمل الاجتماعي امام الرسل والعلماء ورجال السياسة والمغامرين ، ورجال المال والاعمال ؛ فآفاق جديدة اطلت عليهم لا حد لها ولا حصر ، وانفجرت امامهم مجالات رحاب للمغامرات والفتح والكسب .

٤ - انتشار الفكر والمعرفة في العالم

جاء اختراع الطباعة كغيره من هذه الكشوف التقنية التي حلقتها الانسان تنفيساً عن حاجة ملحة للمدنية ، وتحقيقاً لرغائب وآمال طالما تقطعت بين ضلوع الانسان ، ونهاية مطاف مكدود جهيد .

فازدياد عدد الجامعات ، ونزعة الانسان للكتاب وجمعه وتخزينه وحرصه
 اختراع الطباعة
 الشديد على الاحتفاظ به ، ومطلب النقد العلمي عند الانسانيين كل هذا وما اليه زاد كثيراً ، في منتصف القرن الخامس من شدة إقبال الانسان على الكتاب وطلبه له ايما وجد او توفر . والثابت ان الكتاب المخطوط يكلف غالباً بالنظر لمادته الاولى ، والبطء الذي تتم معه كتابة الكتب او استنساخها على شيء من الزينة والتعليق ، وامتلاكه ترف ولو بعدد ضئيل . ان ثمن بضعة عشرين كتاباً تألفت من مجموعها مكتبة احد اطباء مدينة بافي ، في اواخر القرن الرابع عشر ، كان يسكفي لأرد عيش رجل من عامة الشعب . باستطاعة الطلاب

الحصول على ما يحتاجون اليه منها او يرغبون فيه وهم على ما هم عليه من ظروف معاشية وضيقة .
اما الاغنياء ولا سيما رجال الاعمال منهم ، فجمعهم للكتاب المخطوط كان ، اذ ذلك ضرباً من
ضروب الاستثمار والاستغلال ، بينه وبين الحرص على جميع الجوهرات والحلى والصحاف الكريمة
اكثر من شبه . فلا عجب لو رأينا كثيراً من المخطوطات تذكر في قوائم البيع والجرد .

وبدا للمعنيين بهذا الامر ، حوالي ١٤٤٠ ، ان يستعملوا في تضعيف الكتب وتكثيرها ،
طريقة نقش امهات الحروف على الحجر ، بعد ان كانت ظهرت ، من عهد قريب ، الطباعة
الحشبية *Xilographie* . فقد تبدى لبعضهم ، منذ اواخر القرن الخامس عشر ، ان ينقشوا حروفاً
بارزة في مكعبات من الخشب والحصول منها بعد تحبيرها والكبس عليها ، على عدد من النسخ .
وقد جاء هذا الاختراع تقريباً في الوقت الذي اكتشف فيه ورق اللعب ، بعد انقضاء نحو قرن
على استعمال ورق النقد الصيني في الغرب .

وهذا الكشف الذي تم في الغرب ، لم تبد قيمته للعين الا في اليوم الذي استطاع معه الانسان
ان يزيل بطء العمل وان يتلافى العطل السريع الذي يلحق بادوات الطباعة لسرعة عطبها .
وقد جاء التوفيق يوطد النجاح ويقضي على الامرين معاً : اذ توصل الانسان الى اختراع احرف
معدنية متداخلة وصحائف نقالة هي الاخرى تتيح طبع الصفحة على الوجهين معاً . فبعد ان
استعملوا في بادىء الامر ، حروفاً بارزة ، توصلوا الى حفرها في امهات يصبون عليها مركباً من
الرصاص والاند . وهكذا جاء اختراع الطباعة حلقة في سلسلة تطوير الاختراعات المعدنية .

لا يهنا كثيراً هنا ، ان نعرف من هو صاحب الفضل الاول في هذا الاختراع العجيب ، بعد
ان تضاربت الآراء حول الموضوع وذهب المؤرخون فيه مذاهب شتى . ويكفي ان نعرف هنا
ان اسم لورانت كوستر من مدينة هارلم يأتي في طليعة من يعزى اليهم هذا الفضل في اختراع
الحروف النقالة ، كما يعزونه ايضاً الى يوحنا غوتنبيرغ الذي مع مساعده ومعاونه بيير شيفر ،
تلقى علومه في مدينة ستراسبورغ ؛ واستطاع ان يطبع في مدينة ماينس ، اول كتاب كامل
اخرجه المطابع ، سنة ١٤٥٥ ، كان من اليمن وحسن الطالع ان يكون التوراة ، الصفحة منه
بمجم قطع ورقة كاملة *In - folio* وهي التوراة المعروفة بذاة الـ ٤٢ سطراً للصفحة الواحدة ،
او التوراة المازرينية وذلك لامتلاك الكردينال مازرين نسخة منها .

وقد جاء انتشار الاختراع التقني الجديد يشعب الى حد بعيد ، حاجات المجتمع ، بحيث انه ما كاد
يمضي ١٥ سنة على ظهور اول كتاب مطبوع حتى راح احد سكان روما يصرح عالياً : « ان
الكتاب الذي كان ثمنه من قبل ١٠٠ دوكة او ١٠٠ ريال ، تستطیع شراءه اليوم بعشرين وبذلك اصبح
في مقدور ادنى الناس وضعاً اجتماعياً ومالياً ان يكون له مكتبة . فثمن الكتاب اليوم هو اقل
من كلفة تجليده من قبل ٢٠ سنة ، وبالفعل ، فبأقل من ٣٠ سنة ، انتشر فن الطباعة الناشء
حديثاً الى كل ارجاء اوروبا . فامتد من ماينس الى ستراسبورغ ، ومنها انتقل فن الطباعة الى
مدينة بال في سويسرا ، والى نورمبرغ في المانيا ليلبغ ايطاليا ويدخل مدينة سوبياكو عام ١٤٦٤

وروما عام ١٤٧٠ ، ثم فلورنسا والبندقية، وتمت لباريس مطابعها عام ١٤٧٠ ، ثم راحت مدينة ليون في فرنسا تبرز في الطليعة بنشاطها الطباعي، ثم جاءت روان وتولوز، ومعظم المدن الجامعية في فرنسا . وكانت مدينة فالنس وسرغطة اولى المدن الاسبانية التي دخلها فن الطباعة . وتم للندن مطابعها قبل نهاية القرن .

استعمل غوتنبرغ ، اول من استعمل في الطباعة ، الحرف الغوطي الجاري استعماله في المخطوطات الليتورجية . وفي عام ١٤٦٩ ، حاول بفيستران يقلد المخطوطات المنمنمة ، باستبدال التراويق ، في عملية طباعية قام بها في بامبرج ، برسوم منقوشة على الخشب . وبهذا التقليد تحرر الكتاب اذ اتخذ في الطباعة حرفاً خاصاً هو الحرف « الروماني » المطبوع الذي عرف بالحرف القديم *Littera Antiqua* الذي ظهر في سوبياكو ، عام ١٤٦٤ ، ثم أضيف الى هذه الطريقة ، عام ١٥٠١ ، في البندقية نوع من الحرف الايطالي *Italique* . وكان العاملون في الطباعة قد توصلوا ، اذ ذلك ، الى افراغ قوالب للايحيذية اليونانية ، استعملت في مدينة ماينس عام ١٤٦٥ ، واستعملت عام ١٤٧٦ في طبع كتاب يوناني بكامله . واذا كانت فلورنسا مركز الحركة الاحيائية الهلينية ، فقد احتلت ، قبل البندقية وليون ، الاولوية في الطباعة اليونانية . وهكذا صاغت الطباعة ادواتها وعدتها الخاصة وتفننت باستنباطها الاشكال التعبيرية ، في الوقت الذي كانت فيه وسائل التعبير بالذات تتحرر من القيود الميقة لها . واقبل الانسانيون *Humanistes* يستعملون الحرف الطباعي المعروف بالحرف الكارلوني *Caroline* للآداب القديمة وهو الحرف الذي تطور فيما بعد الى الحرف « الروماني » المعروف اليوم ، بينما راحت اشكال الحروف الاخرى تتطور الى ما عرف بالحرف الدارج *Gourantes* ، مؤيدة فردية المرء وحرته .

وقد رحبت الكنيسة ترحيباً حاراً باختراع الطباعة واعتبرته عربوناً للتحرر الفكري . فاسمع ما كتبه بهذا الصدد ، اسقف اوغسبورغ ، اذ يقول ، عام ١٤٨٧ ، « كانت الطباعة نوراً لهذا العصر . فالكنيسة مدينة لها الى اقصى حد ، اذ امدتها بعدد من الكتب تفيض بالعلم الالهي » . وينطق عالياً بهذه المنة السابقة ما نرى من انتشار الكتاب المقدس بعدد كبير من اللغات اما بنصه الكامل المعروف او بالشكل المسمى : توراة الفقراء *La Bible des Pauvres* وانتشار كتب العبادة او الكتب التقوية العديدة التي عنوا بطبعها ونشرها اكثر مما عنوا بنشر النصوص القديمة ، وذيوع قصص الابطال الفرسان التي بقي اهتمام الناس بها والاقبال عليها على اشده ، ولا سيما نشر كتاب « الاقتداء بالمسيح » وكتاب « *Ars Moriendi* » . الا ان مساوئ هذا الفن العديدة لم تلبث ان ظهرت للناس . ومنذ سنة ١٤٨٧ ، اهتم البابا اينوشثيوس الثاني بمراقبة ثمار الطباعة . وفي ١٥٠١ ، قرر البابا اسكندر السادس وجوب اخضاع كل كتاب يتعرض لامور الدين بمراقبته فيعطى اذنًا بطبعه *Imprimatur* ان لم يأت فيه ما يعارض التعامل الدينية . وقد رأى احد الالمان من رجال هذا العصر في الطباعة « سلاحاً ذا حدين

يسير على قدر واحد في ركاب الحقيقة والكذب . وهكذا أطلّ على الناس سلاح حاد طالما استعمله رجال الاصلاح الديني وخصومهم على السواء .

الكتشافات الجغرافية
ساعدت الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية التي توفرت اسبابها ، اذ ذلك ، على ترحيب وتوسيع آفاق المعلومات الجغرافية لدى الانسان . فقد شعر العالم الغربي بحاجة ملحة للتوسع والامتداد ، وعرف ان يهيء لهذا الامر ، في الوقت المناسب ، الاسباب ويمد له العدة الكفيلة بتحقيقه بعد ان صقلت منه الاذواق واستهواه الوقوف على مكونات الكون وعجائب الخلوقات ، وشفق بالدقة العلمية والكشف التجريبي بالمشاهدة العينية وتحرك فيه الفضول العلمي وجاش فيه حب المغامرة . وهذه الروح الجديدة التي استأثرت بمشكلات العصر واخذت تحاول الوصول الى حلها ، ليس ما يمثلها خير تمثيل غير الأمير هنري ده بورتغال الذي لقب جزافاً واعتباطاً : بالملاح او البحري ، اذ لم يُعرف عنه انه ركب البحر في سبيل الكشف الجغرافي .

وهذه الاسفار البحرية في المحيط الاطلسي التي غامروا بها ، في مطلع القرن الرابع عشر ، باءت كلها بالفشل التام لأنها لم تقترن بالوسائل التي تؤمن لها النجاح . فبعد السفينتين التابعتين للاخوة فيفالدي ، والتي استأجرهما جاكوبو دوربا ، احد رجال الاعمال من سكان جنوى راح بحارون يقومون بمغامرات بحرية محاولين الايفال ، اكثر فأكثر ، باتجاه الغرب ، عبر مضيق جبل طارق ، وذلك بين ١٣١٠ - ١٣٣٠ ، واستطاع احد البحارة الجنويين هو : لانزرتو مالوشالو من الوصول الى الجزر الخالدات . وفي سنة ١٣٣١ عادت بعثة جديدة الى لشبونة بعد ان بلغت بعمارتها جزيرة ماديرا والجزر الخالدات . وبعد ذلك بخمس سنوات ، راح جيمي فراير ، يتوغل بحراً بعد ان غادر مرفأ برشلونة ، بحثاً عن « نهر الذهب » ويحاول الوصول اليه . ثم انقطعت اخبار هذه المغامرات البحرية وخيم السميت على كل نشاط من هذا القبيل ، اذ لا يستطيع المرء ان يأخذ بهذه الاقاويل التي حملت البحارة الدورمنديين الى مشارق الفينييه حوالي عام ١٣٧٠ ؛ كذلك لا يمكن الاخذ ، لضعفها ، بالرواية التي تقول بوصول المغامر التولوزي ايسليغيه ، الى السودان ، في اواخر القرن المذكور . ومع ذلك نعرف معرفة اليقين ان قبل هذا التاريخ ، وصل احد الرواد المغامرين مسن جنوى الى مدينة سجلماسة الواقعة الى الجنوب من الغرب الاقصى ، عند اطراف الصحراء ، وان الرحالة ابن بطوطة المغربي الاصل قام بين ١٣٥٣ - ١٣٥٤ برحلة استكشاف بلغ فيها بعض مجاهل نهر النيجر ان بقي خبر ذلك مجهولاً تماماً في الغرب . وكان في نية هؤلاء الرواد ومعظمهم مسن الجنويين ، الوصول الى ذهب السودان . وهكذا برزت الحاجة القوية للمعادن الثمينة التي شمعت بها اوروبا المسيحية ، ورغبة المدن الايطالية الكشف عن اسواق جديدة لها في افريقيا ، بعد ان اُدت في وجهها طرق آسييا الوسطى التجارية منذ منتصف القرن الرابع عشر . ومع ان هذه المغامرات لم تستمر ، فقد

ساعدت مع ذلك على تطوير فن رسم الخرائط الجغرافية لا سيما في مركزين عرقا بهذا الفن هما مدينة جنوى ويوركا في جزر البليار. فالخريطة البحرية *Portulan* التي وضعت عام ١٣٥١، احتفظت بها المكتبة اللورنتية. وقد جاء الاطلس «الكتلاني» المعروف باطلس شارل الخامس (١٣٧٥) دليلاً ساطعاً على التقدم والتطور الذي طرأ على العلوم الجغرافية، والعلوم الكونية بحيث فاقت كثيراً وتجاوزت بعيداً ما عرف منها في الاجيال السابقة.

واول رحلة بحرية طلعت علينا اعتباراً في مطلع القرن الخامس عشر جاءت في اعقاب هذه الاسفار التي لا يزال شيء من خبرها يتردد في الخاطر. ففي سنة ١٤٠٢ قام النورمندي جان ده بتيكور الذي قام بصحبة غاديفر ده لاسال من مقاطعة سانتونج، يحاول استثمار الجزر الخالدات وهي محاولة غريبة جاءت نذيراً بما سيقوم به، بعد ذلك بقرنين، معمرون نورمنديون في اصقاع كندا حيث حملوا اليها النظم والعادات والادوات الزراعية التي كانت قيد الاستعمال في الوطن الام، وقد انتهت محاولاتهم هذه بالفشل التام: فتخلى بتيكور عن حقوق استثماره للملك قشتالة. وهكذا اصبح من حق ملوك شبه الجزيرة الايبيرية ان ياخذوا تحت رعايتهم الاشراف على هذه الرحلات البحرية الكبيرة عندما امكن توفير اسباب التطور التقني وقمهم أصح لهذه المشكلات المعقدة التي تواجهها الملاحة في المحيط الاطلسي.

فلازدهار الذي نعمت به الموانئ البحرية الواقعة على ساحل المحيط الاطلسي لم يكن قط وليد الصدفة والارتجال. فقد عرفت هذه الموانئ الواناً من النشاطات البحرية طيلة بضعة اجيال كانت بمثابة اعداد نفساني اسكان المرافئ الواقعة على خليج بسكاي وغيبوزكو الواقع بين البرتغال والاندلس هيأهم للقيام والاسهام بهذه الرحلات البحرية البعيدة المدى. وكانت سواحل كنتبريا مجالاً لنشاط عارم تجلى باعمال الصيد والمبادلات التجارية، التي اخذت تزداد، اكثر فاكثراً، مع سكان اوربا الشمالية الغربية. اما اسبانيا التي كانت قليلة السكان نسبياً بينهم عدد من المسلمين، فلم تتمخض، قبل القرن السادس عشر، باية حاجة لاختران الحبوب بقصد التموين. اما في البرتغال، فالوضع كان على عكس ذلك تماماً اذ لم يكن يتوفر للسكان هنالك اي اختيار بين امكانيات عارضة متنوعة، فوجدوا انفسهم خاضعين لاجتذاب البحر وسحره. و امام حاجة الالهين للقمح، راحوا يتلمسون الحصول عليه في المغرب وجزر مديرا، كما ان حاجة سكان لشبونة للسكر اضطررتهم للعناية بزراعة قصب السكر في مقاطعة الغارف احدي المقاطعات الجنوبية في البرتغال، كما حاولوا ادخال زراعته، خلال هذا القرن في بعض ارجيبيات الاطلسي. ثم ان حراجة الوضع النقدي ارغمت البعض، ولا سيما الاشراف، على اقتناء عقارات واملاك لهم في اجواء اخرى، كما ارغمت فريقاً اخر معظمهم من التجار على تأمين موارد اوفر واوسع من مادة الذهب. ويجب الا ننفل هنا عن ذكر اسباب اخرى اعتادوا الاتيان على ذكرها، اثرت كثيراً على عقلية سكان لشبونة. ان انتشار البرتغاليين عبر البحار وضرهم في آفاقها البعيدة كان يعوض عليهم ما كانت عليه بلادهم من ضعف المساحة

وارضهم من خسة الرزق وضنائة المطء ، اذا ما قيست بملكة قشتالة ؛ والفتح عندهم كان مقروناً بفكرة صليبية ، ولذا راودت اذهان هؤلاء القوم دوماً احلام بالفتوحات . فلكي يقوموا بحركة التفاف حول الدولة المغربية ، وتأميناً لاتصالهم بملكة الراهب يوحنا الاسطورية اخذوا بتحقيق الرحلة حول افريقيا . وبالإضافة الى هذا كله ، شجع ، ان لم نقل نظم امراء اسرة افيز المالكة ، امثال الامير هنري الملاح واخيه بيير ، الوصي على العرش ، البرتغاليين على القيام بهذه الاسفار . والبرتغال الذي اخذ منذ عام ١٤١٨ بحركة الاكتشافات الجغرافية هو ابدأ مدین لهذين الأخین ، بهذا النشاط المارم الذي تجلی على اتمه منذ عام ١٤٣٢ .

وبدون خطة واضحة سابقة راحوا يهيمون ، على شيء من التنظيم ، الاجهزة اللازمة ويتبينون الخطى والصوى التي كان عليهم ان يسيروا عليها . ان احتلال البرتغاليين لمدينة سبتا المقابلة لجبل طارق على الشاطئ الافريقي ، عام ١٤١٥ حملهم على السكنى في مجمل المدن الساحلية الواقعة على ساحل الاوقيانوس الاطلسي . وفي الوقت ذاته اخذوا يترددون على الجزر الخالدات في الحين الذي كان يختلف اليها القشتاليون ، ثم استقرّوا في بورتوسانتو وفي جزيرة مديرا ، حوالي عام ١٤٣٠ ، واستكشفوا جزر الازور ، عام ١٤٢٧ ، وتقدموا من بحر سرتغاس ، وتابعوا استكشافهم للساحل الاطلسي فوصلوا الى بوغادور عام ١٤٣٤ ، والى الرأس الاخضر ، عام ١٢٤٤ ، واستقر البرتغاليون في نهاية الامر في جون أرغين ، عام ١٤٤٣ حيث كانت تنتهي مرحلة القوافل التي تصل الى تمبكتو في اربعة او ستة اسابيع .

وقد كان لهذا الحادث وقع كبير كما ظهر بعد ذلك بقليل . فقد كانت مدينة تمبكتو آنذاك مركزاً هاماً للحركة التجارية في افريقية ، اذ كانت سوقاً لمقايضة ملح الصحراء مع العبيد وذهب السودان ، الذي كان يصل منذ عدة اجيال عن طريق القوافل التجارية الى مرافئ الغرب ، ومنها ينتشر في كل مرافئ البحر المتوسط . وقد راح البرتغاليون يحاولون تحويل هذا التيار التجاري نحو بلادهم . والجنويون الذين كانوا يمولون مشاريع البرتغاليين واسفارهم البحرية ، لم يهتموا قط بالاهتمام بالطرق التقليدية للتجارة في افريقية . وهكذا سافر احدهم هو انطونيو مالفانتة ، من سجلماسة ، عام ١٤٤٧ واتجه نحو مقاطعة التوات ، متتبعاً مسالك الصحراء ، ولمكن من جمع معلومات وفوائد دقيقة عنها شبيهة بتلك التي جمعها عنها ابن بطوطة ، قبل ذلك بنحو قرن من الزمن ، وهي معلومات تتعلق بالدول الاسلامية القائمة بين بحيرة تشاد وبين المحيط الاطلسي . وبعد ذلك بنحو ٢٠ سنة ، اي في عام ١٤٧٠ ، ادعى احدهم هو بنديتو ذابي الفلورنتي يعمل في خدمة اسرة بورتيناري انه بلغ مدينة تمبكتو بواسطة الطرقات البرية . ومهما يكن ، فقد عرف البرتغاليون ان يفيدوا كثيراً من هذا السبق الذي حققوه . فبعد ان بلغوا مشارف نهر غيبيا وجزر الرأس الاخضر ، حوالي عام ١٤٥٥ ، كما يشهد على ذلك قصة رحالة من البندقية ، اسمه سادا موستو ، عرفوا ان ينالوا بواسطة مرسوم بابوي ، ليس الاراضي الواقعة في عرض البحر من سواحل افريقية التي سبق واعترف بحقهم عليها البابا يوجين الرابع

فحسب ، بل أيضاً الأرائسي التي سيكتشفونها في طريقهم الى الهند . وبعد ذلك بخمس سنوات ، نراه على شواطئ خليج الفينيه ، في هذا الموضع بالذات الذي انشأوا لهم فيه ، عام ١٤٨٢ ، وكالة تجارية وحصنهم المعروف بحصن سان جورج ده مينا .

وهذا التوسع الجغرافي لم يستطيعوا تحقيقه الا بفضل التطورات العلمية والتقدم التقني الذي ساعد على النهوض به وتحقيقه على مثل هذا الوجه ، عوامل فكرية وظروف اقتصادية مؤاتية للغاية . فالأثر الحاسم الذي تركه ، في هذا المجال الأمير هنري لم يكن قط اثر بجائحة عالم بالمعنى الحديث لهذه الكلمة . فالنشاط العلمي البرتغالي الذي كان بالأحرى نشاطاً ذا طابع عملي ، تجريبي ، بقي بعض الشيء معزولاً او غريباً لا يتصل بسبب متين ، بنشاط مدرسة نورمبرج التي اتسمت بالكثير من صفات العلم وامتازت بالنظريات العلمية الدقيقة . فقبل وفاة الأمير هنري بكثير ، كان تم وضع خرائط جغرافية دقيقة على الطريقة المتبعة في ماينوركا ، كما كانوا حسناً كثيراً من فعالية دائرة الارياح *Rose des Vents* . وكل شيء يدل على انهم استفادوا كثيراً من الاسطرلاب ومن ربع محيط الدائرة ، لتحقيق هذه الاسفار الجغرافية البحرية التي ادت الى اكتشاف جزر مديرا ، كما ان الارصاد الفلكية تمت بدقة اكبر ، اذ ان البرتغاليين ، تينوا ، بشهادة ساداموستو ، برج صليب الجنوب ، في حزيران ١٤٥٥ ، عند مضب نهر الغمبي ، وعند الدرجة ١٣ من خط العرض الشمالي . ولا تقل اهمية عن هذا الحادث ، التطورات التي طرأت على الوسائل العلمية في هذه الرحلات التي تجاوزت رأس بوغادور بحيث استطاعوا بناء سفينة جديدة باسم الكرافيل كانت اكثر مرونة واسرع سيراً ولها قلع اكبر واكثر فعالية .

وهذه الاختبارات والتجارب الفعلية الجديدة لعبت الدور الاكبر في هذه التطورات المستمرة التي ساعدت ، من رحلة الى اخرى ، على معرفة مهاب الارياح والتعرف الى مسالك المحيط الاطلسي . وهكذا لم يلبثوا ان تبينوا ان السفر البحري باتجاه الجنوب كان ايسر بكثير من السير بجزراً على مقربة من السواحل الافريقية او بازائها ، اذ كان المسافر يتعرض وهو في طريق عودته ، للارياح المضادة وللتيارات العاكسة . ولذا توجب عليهم الابتعاد عن القارة السوداء حتى جزر الازور لمصادفة ارياح مؤاتية .

واذ ذلك فقط امكن الجمع بين الخبرة القائمة على التجربة والعلم التجريدي او النظري . ففي عام ١٤٥٩ جرت ، على ما يقال ، بين السفير البرتغالي وتوسكانلي مقابلة اثناء مؤتمر منتوا ، تخلله حديث طويل . وكانت على هذا الاخير ان يرسل ، عام ١٤٧٥ ، الى كاهن برتغالي رسالة مهمة يحدده فيها عن طريق يؤدي نحو الغرب ، قد يمكن للمؤرخ ان يحسب لهذا الحديث حساباً في ظهور هذه الفكرة عند كولوموس وتجليها له بوضوح . فاذا كان الملك الفونس الخامس لزم جانب المتحفظ تجاه هذه الفكرة لعدم توفر المال لديه ، فقد عرف خلفه الملك يوحنا الثاني المشهور ،

كما يؤكد الرحالة جيروم مونزر ، بطلبه للعلم وحرصه على جمعه له ، كما عُرف بمقدرته على البحث وامعان النظر في امور الرصد الجوي ساعات بطوالها فجمع حوله مجلساً من العلماء ودعا اليه مارتين بيهام الذي حمل معه من مدينة نورمبرغ المعلومات العلمية المتوفرة لديها ، ولا سيما الازياج التي وضعها ريجيومونتانوس لسير السفن . وبواسطة عمليات حسابية سهلة الاخذ نسبياً تساعد على تحديد ارتفاع الشمس في السميت عند الظهيرة ، جعلت من الامور المسورة ، التجول في البحار الجنوبية . واذ ذلك فقط ، امكن اجتياز المراحل الحاسمة . وبعد ان تجاوزوا نقطة الخطر عام ١٤٧١ كما يرجحون ، قام هذا الفريق من البحارة : جان ده سنتاريم وبيير اسكوبار وديباغوكام يذرعون معاً سواحل القارة الافريقية ، تاركين اينما مروا معالم ظاهرة تشير الى تقدم البرتغاليين التدريجي في هذه الارجاء القصية . وفي سنة ١٤٨٥ حمل كام معه من خط العرض ٢٢ الى الجنوب ، بعض ابناء البلاد الاصليين الذين بعد ان يتم تنصيرهم وتعليمهم امور الديانة المسيحية كانوا سيرسلون مبشرين في بلادهم الاصلية . ولم يمض على ذلك ثلاث سنوات حتى استطاع برثلمي دياز ، بعد ان عرف كيف يستفيد من المعلومات والفوائد العلمية السابقة ، ان يجتاز رأس « العواصف » مهدداً السيل امامه نحو الهند . فنذ نحو ٣٠ سنة والغربيون يبحثون عن طريق لهم تفضي بهم الى بلاد الافاويه وبالتالي تمكن من الاستدارة حول القارة الافريقية . وحوالي ١٤٩٠ راح بيير ده كوفلهام يتجه على بركة الرحمن نحو الدروب المؤدية الى الحبشة التي بقيت صورتها دوماً تراود خيال البرتغاليين ، فبرهن لخير ملكهم ومنفعته ان الطريق التي اتبعها دياز انما كانت بالفعل خير هذه الطرق واسلمها وآمنها . فليس من عجب بعد هذا ، ان يصموا في لشبونة الآذان لمروض وخطط يتمهد بتحقيقها بحار جنوبي ، لا خبرة شخصية له ، ولا تجربة بحرية او مغامرة له في المحيط الاطلسي ، بالبحث عن طريق غربي لم يعد احد يشعر الآن ، بحاجة اليه بعد ان تم اكتشاف الطريق الشرقي الى الهند . وبعد صدمة الخيبة التي لقيها في البرتغال وجد هذا المغامر ترحيباً حاراً لدى بلاط اشبيلية التي لم تكن مشاريعها وخططها للكشف البحري بلغت بعد التوسع الذي تم للبرتغال . فقد حمل معه المعلومات التي جمعها من البحارة البرتغاليين . والذهب الجنوبي الذي كان يلعب دوراً بارزاً في المرافء الاسبانية والذي كان متيقظاً يبحث دوماً عن ظروف مؤاتية للمغامرات البحرية ، تدخل فجأة في الامر وساعد على انجاح الخطة المعروضة . والسفن الثلاث التي اقلعت كاملة العدة والتجهيز ، من مرفأ بالوس في ٣٠ آب ١٤٩٢ بقيادة خريستوف كولبوس ، كانت خاتمة المطاف في سلسلة هذه المغامرات التي ادت اليها مجموعة من التجارب العملية كانت بالفعل نتيجة هذه اليقظة وهذا التفتح على الكون تخطى جيلاً كاملاً من هذه البشرية المتطلعة الى الانتشار والتوسع كما كان الاطار الذي راح فيه النشاط الاوروبي يندفع بزخم . فمع كولبوس شمרת المدينة الغربية عن ساعديها لفتح العالم وبسط سيادتها وسيطرتها عليه .